فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثاني

محمد عابد الجابري



فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثاني

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني : 2008M01764

ردمك : 9-3085-0-9954-978

مطبعة دار النشر المغربية

عين السبع ـ الدار البيضاء

2008

مقدمة الجزء الثاني

بين الجهر بالدعوة والصدع بها

1- الدعوة المحمدية بين السرية والجهر

ذكر جل كتاب السيرة النبوية والمفسرون رواية تقول إنه : "ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" (من سورة الحجر رقم 54 في لائحة ترتيب النزول، 53 في ترتيبنا)؛ ويحددون لذلك السنة الثالثة أو الرابعة للنبوة، كما يحددون عدد المسلمين آنذاك في نحو الأربعين شخصا. وهذا القول لا يتسق مع مسار التنزيل. فالمراحل التي اجتازتها الدعوة المحمدية منذ "اقرأ باسم ربك" (والتي عرضناها بتتابع في القسم الأول من هذا الكتاب تحت العناوين التالية : النبوة والربوبية والألوهية، البعث ومشاهد القيامة، إبطال الشرك وبيان لا معقولية عبادة الأصنام)... أقول: هذه المراحل، قد استغرقت أكثر من أربع سنوات. لقد تم الجهر بالقرآن لأول مرة عندما قام عبد الله بن مسعود بقراءة سورة الرحمان في المسجد الحرام، وكبار قريش في نواديهم يسمعون ويتساءلون. كما قرأ النبي (ص) سورة النجم في المكان ذاته. وقبل ذلك وبعده كان هناك جدال مع زعماء قريش، فقد اتهموا النبي (ص) بالسحر والكهانة والجنون الخ، ورد القرآن عليهم أكثر من مرة... كل ذلك لا يترك معنى للقول: "ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" في سورة رتبتها 54 في ترتيب النزول. بينما سورة النجم، ورتبتها 22، يؤرخون لها بالهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة والنصف، سنة إسلام كل من حمزة عم النبي (ص) وعمر بن الخطاب، اللذين شكل إسلامهما علانية، وبنوع من التحدي لخصوم الدعوة المحمدية، علامة بارزة في تاريخ هذه الدعوة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالآية التي تخاطب النبي عليه السلام بقوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" (الحجر94-96) والتي يفهمون منها "الأمر بالخروج بالدعوة من المرحلة السرية إلى الجهر بها"، هذه الآية تقتضي أن الجهر بالدعوة كان قائما بالفعل، وإلا فما معنى الجمع بين الأمر بالصدع بالدعوة من جهة، والإعراض عن المشركين من جهة أحرى، والحال أن الدعوة موجهة أصلا لهؤلاء المشركين؟

نحن نعتقد أن الأقرب إلى الصواب هو ما ذكره ابن إسحاق حينما قال: "لما تَمادوا (قريش) في الشر وأكثروا برسول الله (ص) الاستهزاء"، أنزل الله تعالى تلك الآية. وهذا يقتضي أن يكون معنى "اصدع بما تؤمر" أكثر وأوسع من مجرد الانتقال من المرحلة السرية إلى مرحلة الجهر بالقرآن، بل لا بد أن يكون المقصود بـ "الصدع بالدعوة" هو تدشين مرحلة جديدة في مسار الدعوة. وبالتالي نرى أن معنى "الصدع" هو أكثر من خروج النبي من دار الأرقم بن الأرقم التي كان يختفي فيها، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين وكتاب السيرة الذين يؤرخون لهذا الحدث بالسنة الثالثة/الرابعة للنبوة.

وقصة دخول الرسول عليه السلام دار الأرقم بن الأرقم تتلخص - حسب هؤلاء- في كون النبي عليه السلام بدأ يدعو الناس خفية لما نزل قوله تعالى: "يأيها المدثر قم فأنذر"..."وكان من أسلم من النّاس إذا أراد الصّلاة يذهب إلى بعض الشّعاب يستخفي بصلاته من المشركين، فيلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعيبون صلاتهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد بن أبي وقاص، أدمَى فيه سعد رجلاً من المشركين. فبعد تلك الوقعة دخل رسول الله (ص) وأصحابه دار الأرقم عند الصّفا فكانوا يقيمون الصّلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد وقد وصل عددهم ما بين الأربعين والخمسين[1]...

1- "وفي كلام ابن الأثير: مكث النبي مستخفياً في دار الأرقم ومن معه من المسلمين إلى أن أكملوا أربعين بعمر بن الخطاب، وعند ذلك خرجوا. وعن ابن عباس أيضا: لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه قال المشركون: لقد انتصف القوم منا". وعمر بن الخطاب أسلم في السنة الخامسة والنصف. وهذا التضارب في تحديد تاريخ مغادرة دار الأرقم (هل في الثالثة؟ أم في الرابعة؟ أم بعد إسلام عمر بن الخطاب في الخامسة والنصف؟) ربما مرجعه كون بعضهم يؤرخ للدعوة المحمدية بنزول "اقرأ باسم ربك"، والنبي عليه السلام في الثامنة والثلاثين من عمره، وبعضهم يقول في الأربعين، بينما يؤرخ آخرون لبداية البعثة= المحمدية بـ"يا أيها المدثر" التي نزلت بعد انتهاء فترة انقطاع الوحي أي بعد نحو سنتين،

إلى هنا لا اعتراض ولا استدراك. ولكن إضافة بعضهم إلى ذلك قولهم: "فنزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" الآية[2]، وأنه "بنزولها ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدّعوة للإسلام جهراً"، هو ما لا نراه ينسجم مع مراحل الدعوة. ذلك أن مجرد الجهر بالدعوة كان قد تم قبل ذلك، أي مباشرة بعد استئناف الوحي ونزول "يا أيها المدثر، قم فأنذر" الخ. فمنذ ذلك الوقت والرسول عليه السلام يقوم بالدعوة والإنذار، يساعده في ذلك السابقون الأولون إلى الإسلام، وبكيفية خاصة أبو بكر الصديق كما تؤكد ذلك عدة روايات.

2- الصدع بالدعوة مرحلة جديدة في تاريخ الجهر بها

إذن "فاصدع بما تؤمر" هو أمر بالانتقال بالدعوة إلى مرحلة جديدة، وهذا الأمر مقرون بقوله تعالى "إنا كفيناك المستهزئين"، وبينهما "أعرض عن المشركين". فكيف يمكن فهم هذه العبارات الثلاثة التي تحمل تعارضا ظاهريا؟

القرآن يشرح بعضه بعضا، وما يمسك بعضه إلى بعض على صعيد الفهم هو السياق. والسياق في القرآن خاص وعام: الأول نصي، ينتظم بالعلاقات بين الآيات المتتابعة؛ والثاني تاريخي، تستعاد فيه آيات متفرقة داخل السورة الواحدة أو بين عدة سور. والسياقان في العبارات التي نحن بصددها هما كما يلي:

– فعلى مستوى السياق الخاص، سياق النص، نلاحظ أن جميع المفسرين اقتصروا على الكلام في كل عبارة على حدة، فكان منهم من أطال وكان منهم من اختصر، ولكن لم نجد من بينهم من حاول قراءةً هذه العبارات

والنبي حينذاك في الثانية والأربعين من العمر. إذن هناك فرق نحو سنتين علىّ الأقل، راجع إلى البداية المعتبرة، فلا بد من أخذ هذا الفرق بالاعتبار عند تحديد التواريخ. (انظر تفاصيل في الموضوع في : التعريف بالقرآن الكريم الفصل الرابع. فقرة 3-أ).

2- يورد بعضهم هذه الآية مضيفين إليها قوله تعالى :"وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، الآية 214 من سورة الشعراء التي هي أسبق على مستوى ترتيب النزول من سورة الحجر (الأولى رتبتها 47 وهذه رتبتها 54، فهي متأخرة عنها على مستوى ترتيب المصحف)، الشيء الذي يدل على هيمنة ترتيب المصحف على المفسرين مع أنه ترتيب مبني على حجم السور وليس على تاريخ نزولها. وبالتالي فهو، أعني ترتيب المصحف، لا علاقة له، إجمالا، لا بزمن مسار التنزيل ولا بوقائع السيرة.

الثلاثة (هما آيتان) بما يرفع التعارض القائم بين : مطالبة النبي بالمضي في نشر الدعوة (اصدع بما تؤمر) ومطالبته في الوقت نفسه بالإعراض عن المشركين وعدم الاهتمام بهم (أعرض عن المشركين)، وبالتالي فَهْمَ تلك المطالبة وهذا الإعراض على ضوء: "إنا كفيناك المستهزئين"! فإذا كان الله قد كفى نبيه الكريم شأن المستهزئين به وبالتوحيد والبعث والمعاد وبالقرآن جملة الخ، فلماذا الصدع بما يؤمر؟ ولماذا مطالبته بالإعراض عن المشركين؟ يحس القارئ أحيانا أن بعض المفسرين يستشعر مثل هذه الأسئلة ولكنهم يتخلون عنها سريعا بفعل اعتيادهم تجزئة الكلام، وإغفال السياق، والاهتمام بالمرويات وحدها، وهي متعارضة متناقضة!

أما على مستوى السياق العام، أو التاريخي، فيجب إبراز المعطيات التالية:

1- منذ "يا أيها المدثر قم فأنذر" والنبي عليه السلام يمارس الدعوة على مستوى فردي وفي جو من الكتمان، وكان الدور الرئيسي في البداية للعلاقات الفردية، وفي هذا الصدد يعطينا رواة السيرة أسماء الذين قاموا بالدعوة على هذا المستوى وأسماء الذين استجابوا لهم. وهذه هي المرحلة "السرية" في الدعوة.

2- بعد ذلك جهر النبي (ص) بسورة النجم كما جهر عبد الله بن مسعود بسورة الرحمان، في المسجد وزعماء قريش يسمعون، فبدأت بذلك عملية الجهر بالقرآن وتواصلت من جانب النبي عليه السلام الذي كان يتلو القرآن في المسجد حين الصلاة وخارج وقتها، ورجال قريش يسمعون ويعلقون ويستهزئون.

3- وعندما انتقل التنزيل إلى التركيز على البعث والحساب والجزاء زادت ردود فعل قريش حدة، خصوصا وقد لاحظوا تزايد استجابة الناس للدعوة، من المستضعفين خاصة، من العبيد والموالي ومن القبائل الضعيفة.

4- حتى إذا انتقل التنـزيل إلى التركيز على إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام ثارت ثائرتهم وأخذوا يوسعون من دائرة ردود فعلهم : وهكذا أكثروا من الاتصال مع أبي طالب يطلبون منه التوسط لدى ابن أخيه، النبي عليه السلام، لحل "المشكل" بصورة "سلمية"، مبدين استعدادهم للدخول في حلول وسطى الخ؛ كما أكثروا الاتصال مع النبي نفسه في نفس الاتجاه ... ثم

انتهوا إلى تهديده بالقتل مرات... وكانت النتيجة ثبات النبي (ص) على الموقف ورفض المساومة. وازداد الجو توترا بين النبي عليه السلام وزعماء قريش فعمدوا إلى ممارسة التعذيب الفظيع على المستضعفين من المسلمين، من الموالي والعبيد. أما أبناء القبائل فقد تكفل أهلهم بهم: كل قبيلة التزمت بالعمل على "ردع" أبنائها المسلمين أو المتعاطفين مع الإسلام. وامتد القمع النفسي والمادي إلى رجال معروفين من القبائل المتوسطة ... ولما بلغ الإرهاب الفكري والمادي ما لا يحتمل اقترح النبي عليه السلام على المسلمين الهجرة إلى الحبشة، وقد كانت بين النجاشي (ملكها) وبين الرسول عليه السلام علاقة تعارف، فهاجر إليها صحابة النبي فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة(3) وكان عدد من هاجر أحد عشر رجلا، ومع بعضهم نساؤهم، ولم يبق في مكة مع النبي من المسلمين إلا أفراد قلائل.

كان ظرفا صعبا جدا على النبي عليه السلام ... فاتجه التنزيل في هذه المرحلة إلى تسليته وتثبيت فؤاده، واستعمل في ذلك قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، كما بينا ذلك في حينه. ثم نزلت سورة طه مفتتحة بقوله تعالى : "طه[1]، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى"[2] (لتحزن لكون قومك لم يستجيبوا، انظر سورة طه في القسم الأول من الكتاب).

3- قبل "الصدع" ..." أنذر عشيرتك الأقربين" ..!

قبل سورة "الحجر" التي حملت الأمر بـ"الصدع" بالدعوة، كانت سورة "الشعراء" قد نزلت لتدشن مجموعة السور التي نعتقد أنها هي المقصودة بـ "السبع المثاني" – وهي خاصة تقريبا بتسلية النبي عليه السلام وتثبيت فؤاده- ولتوجه- أعني سورة الشعراء- في خاتمتها إلى النبي عليه السلام هذا الأمر: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" (انظر السورة في القسم الأول من الكتاب). كانت قريش قد لجأت، كما قلنا، إلى استعمال "القبيلة" لمحاربة الدعوة المحمدية: كل قبيلة تراقب أبناءها وتحاصرهم حتى تتم مقاطعة محمد بن عبد الله! وإذن فليتجه هو إلى قبيلته أولا يدعوهم إلى اتباعه ونصرته(4).

3 - راجع التعريف بالقرآن الكريم الفصل الثاني. والتقديم الذي صدرنا به كلا من سورة مريم وسورة طه، في القسم الأول من هذا الكتاب.

4- قال ابن إسحاق : "ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين=

كان في بني هاشم، عشيرة النبي (ص)، من كان يعطف عليه ويستمع له ويثق في أمانته وصدقه دون أن يسلموا. وباستثناء أبي لهب -أحد أعمامه- يمكن القول إجمالا إن رجال عشيرته كانت تأخذهم الغيرة عليه حتى وهم على دين آبائهم، مشركين. وفي قصة إسلام عمه حمزة مثال واضح على ذلك[5]. دع عنك أبا طالب الذي كفل النبي ورعاه وحماه وهدد قريشا بحرب أهلية قبَلية إن هم مسوه بسوء.

والآن، بعد قوله تعالى "أنذر عشيرتك الأقربين"، الذي ختم به أولى سور "السبع المثاني" (أعني سورة الشعراء-التي رتبتها 47)، ها هي آخر هذه السور السبع (سورة الحجر التي رتبتها 53) تختتم بـ"اصدع بما تؤمر..."، أي الأمر: بـ"الإعراض عن المشركين" من جهة، وعدم التوقف عند حدود الأقربين

يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم. ومنع اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم منهم بعمِّه أبي طالب. وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم (يعني بني هاشم وبني المطلب) إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب".

5 - قال ابن إسحاق عن سبب إسلام حمزة عم النبي (ص): حدثني رجل من أسلم، كان واعية، أن أبا جهل مر برسول الله (ص) عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العَيْب لدينه، والتضعيف لأمره؛ فلم يكلمه رسول الله (ص)، ومَوْلاةٌ لعبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف (أبو جهل) عنه فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحا قوسَه، راجعاً من قَنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم. وكان أعزَّ فتى في قريش، وأشدَّ شكيمة. فلما مر بالمَوْلاةِ، وقد رجع رسول الله (ص) إلى بيته، قالت له : يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد (ص). فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به؛ فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكَرة، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول (في حين أنه لم يكن قد أسلم بعد)؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا. وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه".

من العشيرة من جهة ثانية، الشيء الذي يعنى الاتجاه إلى القبائل العربية التي تقطن خارج مكة والتي تحج إليها في المواسم الدينية وتقصدها في مواعد الأسواق... وتأتي "إنا كفيناك المستهزئين" لتطمئن النبي عليه السلام بكونه لن يلقى بعد الآن نفس الحصار الذي كان يضربه عليه الملأ من قريش للحيلولة دونه ودون نشر الدعوة في الأسواق، ذلك أن شخصيات من هذا "الملأ" التي كانت أكثر استهزاء قد هلكت في "وقت واحد" أي في أيام متقاربة.

وإذا كنا لا ندري مدى استجابة عشيرة النبي ككل للدعوة، ولا مدى التأثير الذي أحدثه فيها رد الفعل السلبي الذي صدر عن أبي لهب [6]، فإن الروايات تكاد تجمع على أن جماعة من كبار المستهزئين، خصوم الدعوة المحمدية، قد ماتوا بصورة مفاجئة قبيل نزول الأمر بـ"الصدع" بالدعوة. وكما هي العادة اختلف الرواة في عددهم وأسمائهم وأسباب وفاتهم. لكن الرواية الأشهر تحصر عددهم في خمسة، وهم "الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث؛ وكانوا من كبار خصوم الدعوة المحمدية ومحاربيها[7]. والمفسرون جميعا متفقون على أن هؤلاء هم الذين أشار إليهم قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزئين"..!

ذلك هو السياق التاريخي العام، الذي ينتظم هذا الأمر الجديد: "اصدع بما تؤمر"؟"..."، فلننتقل الآن إلى الحديث عن هذا "الأمر" المزدوج: الأمر بالصدع، و"الأمر" موضوع الأمر بالصدع به!

أما معنى لفظ "الصدع" فمعروف، وهو الشق والكسر. ومعنى الآية: امض، شاقا الطريق لتبليغ الرسالة التي أنت مكلف بها. وهذا المعنى لا ينبغي، بل لا يجوز عزله عن سياقه النصي، أعني العبارة التي تليه مباشرة وهي :

6- انظر تقديم سورة الشعراء، في القسم الأول من هذا الكتاب.

7- تقول إحدى الروايات : فأما الوليد بن المغيرة فتعلق سهمُ بردائه، فذهب يجلس فقطع أكحله فنزف فمات. وأما الأسود بن عبد يغوث فأتي بغصن فيه شوك، فضرب به وجهه، فسالت حدقتاه على وجهه، فكان يقول: دعوت على محمد دعوة، ودعا عليَّ دعوة، فاستجيب لي، واستجيب له: دعا عليّ أن أعمَى فعميت، ودعوت عليه أن يكون وحيدا فريدا في أهل يثرب فكان كذلك. وأما العاص بن وائل، فوطئ على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك. وأما الأسود بن المطلب وعديّ بن قيس، فإن أحدهما قام من الليل وهو= ظمآن، فشرب ماء من جرّة، فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات، وأما الآخر فلدغته حية فمات.

"وأعرض عن المشركين". إذن: كيف نفهم الصدع بالأمر مع الإعراض عن المشركين، والحال أن هذا "الأمر" منذ كان وهو خطاب إليهم؟ لقد ذهب المفسرون في تفسير هذا الأمر مذاهب لم تخرج في النهاية عن معنى "لا تلتفت إليهم"[8]؛ ولكنهم لا يطرحون السؤال التالي: وإذن، فلمن "سيلتفت"؟ إنهم ينتقلون مباشرة إلى قوله: "إنا كفيناك المستهزئين" دون أن يطرحوا العلاقة بين هذا وذاك؟

أما نحن فنقترح ما يلي: عندما قررت قريش ضرب حصار على أبنائها المستجيبين أو المتعاطفين مع الدعوة المحمدية وتحملت كل قبيلة مسؤولية ذلك، أصبحت الدعوة في وسط قبائل قريش مستحيلة وهذا ما عبرت عنه سورة الحجر في بدايتها بالقول : "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ"[2] (ولكن لم يعد في إمكانهم ذلك بعد أن كذبوا وأعرضوا واختاروا الكفر، إذن :) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"[9]. وتأتي خاتمة السورة لتأمر

8 – من ذلك مثلا قول الطبري في شرح هذه الآية : "وأما قوله "وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"، يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: بلغ قومك ما أرسلت به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم. وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ ذلك بقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" (التوبة 5)! قلت (الجابري): فما أبعد هذا عن سياق الآية. وهذا مثال من عشرات الأمثلة التي يستعمل فيها المفسرون مقولة "النسخ" بدون اعتبار لا للسياق ولا للزمن! فكيف يمكن تصور آية مكية نزلت في ظروف معينة لا علاقة لها بالحرب ولا باستعمال العنف مع المشركين كما هو شأن القرآن المكي كله، تنسخها آية نزلت في المدينة وفي ظروف الحرب مع المشركين، وفي آخر سورة نزلت، "سورة التوبة"؟ المسافة الزمنية بين الآيتين لا تقل عن ثماني عشرة سنة (عشرة بعد الهجرة وثمانية قبلها). أما العلاقة الموضوعية بينهما فهي من نوع علاقة الضد بضده: الآية الأولى نزلت بعد استعصاء إقناع قريش بالدعوة وإصرارهم على عزل الرسول عليه السلام ومنعه عن الاتصال بالناس في مكة، بينما الآية الثانية نزلت في المدينة وفي آخر سورة نزلت، وقريش قد انتهى أمرها عندما تم فتح مكة قبل نزول هذه السورة بنحو سنتين؟!

9– حمل بعض المفسرون هذه الآية على أنها تتحدث عن رد فعل المشركين وهم في النار يوم القيامة حين يرون المسلمين في الجنة. وهذا في نظري لا أساس له في السياق. فلم يسبق أن ذكر يوم القيامة من قبل، وما يلي الآية يتعلق بالدنيا: "ذرهم يأكلوا ويتمتعوا" في الدنيا. ولذلك نميل إلى القول إن معنى الآية شيء آخر يكشف عنه قوله تعالى في آيات تالية: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" (10-13). إذن حكم الله على مشركي مكة أنهم لن يؤمنوا. ومن هنا كان معنى قوله : "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ"، بمعنى أنهم محكوم عليهم بالبقاء كافرين حتى ولو ودوا أن يكونوا مؤمنين لأنهم سبق أن اختاروا رفض الدعوة وأصروا على ذلك إصرارا لم يتركوا=

بالإعراض عنهم خصوصا وقد كفى الله رسوله "المستهزئين" الذين عبرت عنهم بـ"الْمُقْتَسِمين الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ". والمقصود الجماعة الذين تقاسموا أنحاء السوق ليحذروا الناس من محمد ويصدوهم عنه (انظر تقديم سورة الحجر)، ولاشك أنه كان منهم أفراد من الخمسة الذين توفوا وفي مقدمتهم الوليد بن المغيرة زعيم الجماعة.

إذن: الإعراض عن "المشركين" معناه عدم الانشغال بقريش! أما أبناؤها فهم محاصرون من طرف آبائهم وقبائلهم، فهم لن يؤمنوا حتى ولو رغبوا في ذلك. وبما أن المستهزئين (من مشركي مكة) الذي كانوا يلاحقون الرسول ويصدون الناس عنه قد كفى الله أمرهم، فالاتجاه بالدعوة يجب أن يكون صوب القبائل التي تقيم خارج مكة.

إنها مرحلة جديدة في مسار الدعوة، المرحلة التي وَضع كُتَّاب السيرة لها عنوانا من قبيل: "الرسول يعرض نفسه على القبائل". لكن هذه المرحلة – مرحلة الانتقال بالدعوة إلى المواسم والأسواق– التي ستبدأ انطلاقا من سورة الحجر، التي ورد في أواخرها، قوله تعالى "اصدع بما تؤمر"، ستشهد انقطاعا في وسطها. ذلك أن قريشا شعرت بتقدم الدعوة المحمدية في القبائل خارج مكة وذيوع أمرها في الجزيرة العربية ككل، فقررت اغتيال الرسول عليه السلام، ولكنها عدلت عن قرارها عندما هددهم أبو طالب بحرب أهلية يقف فيها الهاشميون والمطلبيون مع محمد بن عبد الله، حفيد عبد المطلب، أبرز وجهاء قريش وزعيمها في تاريخها "القريب".

لقد عدلت قريش عن اغتيال الرسول وقررت مقاطعة عشيرته الهاشميين والمطلبيين بموجب "صحيفة" (عقد) علقوها في الكعبة، علامة على التزام الجميع بمضمونها. فكان أن اضطر النبي وعشيرته إلى الانزواء في "شعب أبي طالب" بجبل قبيس المطل على مكة. أما بقية المسلمين فقد نصحهم الرسول عليه السلام بالالتحاق بإخوانهم في الحبشة، فكانت تلك هي الهجرة الثانية إلى هذه الجهة وبهم صار عدد المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانين بمن فيهم النساء والأبناء. (كانوا في الهجرة الأولى اثني عشر). حصل ذلك، أعني الحصار والهجرة معا، في مستهل السنة السابعة للنبوة. أي بعد نحو سنة

معه لأنفسهم إمكانية التراجع. لقد قطعوا خط الرجعة على أنفسهم. وإذا فرضنا أنه ربما يريد بعضهم أن يسلموا فلن يستطيعوا ذلك لأنهم سجنوا أنفسهم في الرفض الجماعي.

ونصف من "اصدع بما تؤمر". أما الحصار فقد دام ثلاث سنوات، من بداية السابعة إلى بداية العاشرة، تلا ذلك ما نطلق عليه هنا "مرحلة ما بعد الحصار".

المراحل الأولى والثانية والثالثة من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، خصصنا لها القسم الأول من هذا الكتاب. أما هذا القسم الثاني فيضم المراحل التالية: الرابعة والخامسة، والسادسة، من العهد المكي، تنزيلا وسيرة. (وسيختص القسم الثالث من الكتاب بالعهد المدني)

5- لحظات ثلاث في مرحلة الصدع:

كان الخطاب القرآني في المراحل الثلاثة السابقة موجها إلى أهل مكة، فشرح العقيدة وأركانها، وواجه قريشا في تكذيبها وإعراضها وتحدياتها! فكيف سيكون خطاب الذكر الحكيم إلى العرب من غير قريش، في المواسم والأسواق، وهم الذين لم يتلقوا منه إلا ما كانت قريش تمدهم به عنه؟! هنا نقترح التمييز بين ثلاث لحظات[10]

<u>اللحظة الأولى: بداية عرض الدعوة في الأسواق</u>

تقول مصادرنا: إنه ابتداء من "اصدع بما تؤمر" أخذ النبي يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم: يسأل عن القبائل، قبيلة قبيلة، في أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. ذلك أن العرب "كانت إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوّال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج. وكان (النبي) يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه".

كان "يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: ألا رجل يعرض عليّ قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي". وكان يطوف على الناس في منازلهم (مكان نزولهم في الأسواق)، يقول: "يا أيها الناس إن الله يأمركم أن

10- المراحل واللحظات: المرحلة شيء واللحظة شيء آخر. المرحلة، في الأصل، امتداد مكاني فهي مسار يقوم على الاتصال، كل مرحلة ترتبط بما قبلها وما بعدها، وما يفصل بينها لا يعدو أن يكون بمعنى "استراحة المسافر"، فهي محطة تقبل الارتداد، أي العودة إلى الوراء، من الثالثة إلى الثانية مثلا. أما اللحظة فهي قسم من الزمان يتم به وبواسطته الانتقال أو القفز إلى أمام، ويتحقق التطور على شكل طفرة، وبالتالي فاللحظة تقوم على الانفصال وترتبط بالتقدم، ولا تقبل الرجوع إلى وراء. نحن نسير جيئة وذهابا في المكان عبر مراحل، أما الزمان فهو يسير فينا عبر لحظات.

تعبدوه ولا تشركوا به شيئا"، ووراءه أبو لهب يقول: "يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم". وذكر بعضهم أنه رأى الرسول عليه السلام بسوق ذي المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه أبو لهب يرجمه بالحجارة حتى أدمي كعبه ويقول يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب". وفي رواية أخرى : قصد منازل "بني عبس أوبني سليم وغسان وبني محارب وبني نضر ومرة وعذرة والحضارمة، فردوا عليه أقبح الرد. كانوا يقولون له : "أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك". قالوا: "ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه من بني حنيفة"، وهم قوم مسيلمة مدعي النبوة الطامح إلى منافسة الرسول عليه السلام واقتسام الأرض معه: غرب الجزيرة (الحجاز) للرسول وشرقها له[11]. كان ذلك في المرحلة الرابعة التي سبقت "الحصار"، حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب بالجبل، وقد دامت أزيد من سنة ونصف. أما الحصار فقد استمر أزيد من سنتين.

<u>اللحظة الثانية: في البحث عن حليف</u>

وعندما استأنف الرسول الاتصال بالقبائل بعد فك الحصار ووفاة عمه أبي طالب، حاميه من قريش، اشتد عليه ضغط الملأ منهم وتنوعت إذيتهم له فذهب إلى الطائف يطلب النصرة فرفضوه وأمعنوا في إهانته. ولما عاد من الطائف لم يستطع الدخول إلى مكة إلا بطلب جوار من شخصية قرشية تلتقي في النسب مع بني هاشم في جدهم عبد مناف هو المطعم بن عدي ولم يكن قد أسلم بعد. وكانت قريش قد اشترطت في قبول هذا الجوار أن لا يمارس الرسول عليه السلام الدعوة في مكة وأن يلزم داره. وهكذا اضطر عليه السلام إلى تركيز دعوته في المواسم والأسواق، متخذا إستراتيجية جديدة. كان من قبل يخاطب عامة الناس في الأسواق، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام. أما هذه المرة فقد توجه إلى قبائل بعينها، في منازلها ومجالسها، مخاطبا رؤساءها، صحبة أبي بكر وعلي بن أبي طالب. وكان أبو بكر على معرفة بالقبائل وأنسابها وأشرافها وأحوالها، فكان إذا مر بمجلس قبيلة حيا رجالها الحاضرين ودخل معهم في حوار حول شؤون القبيلة حتى إذا حصلت

11- انظر التفاصيل حول حركة مسيلمة في كتابنا العقل السياسي العربي. فصل 4 فقرة 5

الألفة بينه وبينهم قدم لهم الرسول عليه السلام. وقد احتفظت لنا كتب السيرة بنماذج من هذا الأسلوب الجديد في الدعوة نورد منها ما يلي:

– مر الرسول وأبو بكر وعلي بمجلس "فقال أبو بكر: ممن القوم، قالوا: من ربيعة؟ قال: وأي ربيعة؟ من هامتها أو من لهازمها، قالوا: بل الهامة العظمى. قال: من أيها؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال: منكم حامي الذمار ومانع الجار فلان؟ قالوا لا، قال: منكم قاتل الملوك وسالبها فلان؟ قالوا لا، قال: منكم صاحب العمامة الفردة فلان؟ قالوا لا، قال: فلستم من ذهل الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه شاب (منهم) ... فقال له: إن على سائلنا أن نسأله، يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك، فممن الرجل؟ فقال أبو بكر (ض): أنا من قريش، فقال الفتى، بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة، فقال الفتى: أفمنكم قصي الذي كان يُدعى مُجمِّعاً؟ قال لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه قال لا؟ قال: أفمنكم شيبة الحمد عبد المطلب، مطعم طير السماء، الذي كأن وجهه القمر يضيء في الليلة الظلماء؟ قال لا، واجتذب أبو بكر رضي الله تعالى عنه زمام ناقته، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له عليّ (ض): لقد وقعت من الأعرابي على باقعة أي ذي دهاء".

وفي مجلس آخر تقدم أبو بكر "فسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله (ص)" فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر، أي سادة في قومهم، وقد تعرف على رجل منهم اسمه مفروق. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر (ض) : كيف المنعة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد"، أي علينا أن نجهد وليس علينا أن يكون لنا الظفر! فقال أبو بكر (ض) : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما يكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد من الخيل على الأولاد، والسلاح على اللقاح" (أي ذوات اللبن من الإبل)... لعلك أخو قريش"؟ فقال أبو بكر: أوَقد بلغكم أن رسول الله (ص) فيها هو ذا؟ فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلام تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم رسول الله (ص) فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد

تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد. قال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله: "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" (الأنعام 151)[12]. قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم عرفناه. ثم قال: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش، فتلا رسول الله "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (النحل 90)[13]. فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكان مفروق أراد أن يشاركه في الكلام هانىء بن قبيصة، أحد رجال القوم، فقال: هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا. فقال هانىء قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركَنا ديننا، واتباعنا إياك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر (لم يسبقه موعد ولا استعداد) لزلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة؛ ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً (أي دون علمهم ومشورتهم)، ولكن نرجع، وترجع، وننظر وتنظر. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: هذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإن أحببت أن نُؤْويك وننصرك مما يلي مياه العرب (الجانب العربي من دجلة والفرات) دون ما يلي أنهار كسرى (في العراق) فعلنا، فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى: أنْ لا نحدث حدثاً، وأن لا نؤوي محدثاً. وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما تكرهه الملوك! فقال رسول الله (ص): ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه؛ أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويعرسكم نساءهم، تسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا! فتلا رسول الله: "يَا أَيُّهَا

12- كانت سورة الأنعام قد نزلت في اللحظة السابقة كما سنرى.

13- أما سورة النحل فلم تكن قد نزلت بعد، وكلام الراوي في مثل هذه السياق يُحمل على المعنى وليس على اللفظ.

النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (الأحزاب 46)[14]. ثم نهض رسول الله.

وتضيف مصادرنا[15]: ولما قدمت بكر بن وائل مكة للحج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ائتهم فاعرضني عليهم. فأتاهم فعرضه عليهم، فقال لهم: كيف العدد فيكم، قالوا: كثير مثل الثرى، قال: فكيف المنعة؟ قالوا: لا منعة، جاورنا فارس، فنحن لا نمنع منهم ولا نجير عليهم. قال: فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدوه وثلاثاً وثلاثين وتكبروه ثلاثاً وثلاثين؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا رسول الله. ثم مر بهم أبو لهب، فقالوا له: هل تعرف هذا الرجل؟ قال نعم، فأخبروه بما دعاهم إليه، وأنه زعم أنه رسول الله، فقال لهم: لا ترفعوا بقوله رأساً، فإنه مجنون يهذي من أم رأسه. فقالوا: لقد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر. وفي رواية: أنه لما سألهم قالوا له: حتى يجيء شيخنا حارثة، فلما جاء قال: إنا بيننا وبينك من الفرس حرباً، فإذا فرغنا عما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التقوا مع الفرس قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إليه؟ قالوا محمد، قال: فهو شعاركم! (أي اتخذوا هذا الاسم شعارا لكم في حربكم للفرس)، فنُصِروا على الفرس، فقال رسول الله (ص): "بي نُصروا" (أي نصروا بذكرهم اسمي). وتضيف مصادرنا: "لا زال يعرض نفسه على القبائل في كل موسم، ويقول "لا أكره أحداً على شيء، من رضي الذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد منعي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي، فلم يقبله أحد من تلك القبائل، وكانوا يقولون: "قوم الرجل أعلم به، ترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه"!

<u>اللحظة الثالثة: ابتداء انتشار الإسلام في يثرب وبيعة العقبة.</u>

وفي شهر رجب من السنة الحادية عشرة للنبوة، وبينما كان الرسول يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، إذا بأناس من الخزرج من يثرب (المدينة)، وكانوا ستة أو ثمانية أفراد، يلتقي بهم الرسول عليه السلام في "العقبة"[16] فتقدم إليهم وقال لهم: "من أنتم؟ قالوا نفر من

14- سورة الأحزاب مدنية. وكلام الراوي هنا يجب أن يؤخذ على المعنى وليس على اللفظ.

15- سيرة ابن إسحاق والسيرة الحلبية

16- العقبة: منزل في مكة: أحد الأمكنة التي تنزل فيه القبائل عند قدومها إلى مكة ...

الخزرج. فقال: أمن حلفاء يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى! فجلسوا، فوجدهم يحلقون رؤوسهم[17] ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أنه للنبي الذي يُوعِدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه! وكان يهود يثربٍ إذا وقع بينهم وبين الخزرج شيء من الشر قالوا لهم: سيُبعَث نبي قَرُب زمانه نتبعه، نقتلكم معه (أي نتحالف معه ونقتلكم). فلما دعاهم إلى الإسلام أجابوه وصدقوه وأسلموا، وقالوا له: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ... ونواعدك الموسم من العام المقبل؛ فرضي بذلك رسول الله".

وعلى هذا "فلم يقع لهؤلاء الستة أو الثمانية مبايعة، ويسمى هذا ابتداء الإسلام للأنصار، وربما سماه بعضهم العقبة الأولى" (السيرة الحلبية).

هذا من جهة، وروي من جهة أخرى أن رجالا من الأوس (خصوم الخزرج) كانوا قد جاؤوا إلى مكة في السنة نفسها (؟) يلتمسون الحلف من قريش على قومهم الخزرج، فأتاهم رسول الله (ص) فجلس إليهم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له، قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني للعباد، وأدعوهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال شاب منهم: أيْ قوم! والله (هذا) خير مما جئنا إليه، فأخذ أحدهم من تراب فضرب بها وجه الشاب وانتهره، وقال له: دعنا منك. لقد جئنا لغير هذا، فسكت الشاب، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم. قيل: عقد الوفد حلفا مع قريش في غياب زعيمها أبي جهل، فلما حضر ألغاه لكونهم لم يستشيروه. وهذا التصرف من أبي جهل قد قطع حبل الاتصال بين قريش والأوس، وفسح المجال للدعوة المحمدية للانتشار في يثرب بواسطة وفد الخزرج فاستجاب لها رجال من الأوس أيضا.

فلما كان العام التالي، أي السنة الثانية عشرة للنبوة، قدم إلى مكة وفد من الأوس والخزرج معا. فاجتمع بهم الرسول عند العقبة أيضاً، فبايعهم: أي عاهدهم. وقد نصَّ عقد بيعة العقبة، على ما ذكر ابن إسحاق وغيره على : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار: "أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه". وفي رواية أخرى: "أن أحدهم أخذ بيد النبي (ص)، ثم

17 – ومعلوم أن حلق شعر الرأس من شعائر الحج.

قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا أي نساءنا وأنفسنا». «فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر... وقال آخر : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال، يعني اليهود، حبالاً أي عهوداً، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله، ثم قال: "بل الدم الدم، والهدمَ الهدمَ، وذمتي ذمتكم، ورحلتي مع رحلتكم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم". ثم قال لهم الرسول: "أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس"، فاستقبلهم وقال لهم "أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي"[18].

6- انتشار الإسلام في المدينة والهجرة إليها

وجاء في كثير من الروايات أن الرسول عليه السلام بعث معهم ابن أم مكتوم، ومصعب ابن عمير[19] يعلمان من أسلم منهم القرآن ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام. "وكان مصعب يؤمّ القوم: أي الأوس والخزرج، لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض. وجمع بهم أول جمعة جمعت في الإسلام قبل قدومه عليه السلام إلى المدينة، وقبل نزول سورة الجمعة الآمرة بها، فإنها مدنية". وفي رواية عن يوم الجمعة "أن الأنصار قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلمَ لنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونصلي ونشكره، فجعلوه يوم العروبة" [20].

18- من هنا تسميتهم بـ "الأنصار" تشبيها لهم بأنصار عيسى عليه السلام. وسترد في هذا الشأن إشارة عند قوله تعالى : "فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (آل عمران52)

19- الأول هو الذي نزلت في شأنه من قبل سورة "عبس": ابن أم مكتوم واسمها عاتكة، واسمه عمرو، وقيل عبدا لله، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد زوج النبي. أما الثاني: مُصْعَبُ بن عُمَير بن هَاشم بن عبد مناف، من المسلمين الأوائل، هاجر إلى الحبشة ثم عاد منها فهاجر إلى المدينة.

20- يوم الجمعة: قيل هو "سرياني معرب" وأن معنى العروبة الرحمة. قالوا: إن كعب بن لوي بن فهر بن غالب –وإليه تنسب قريش– هو أول من جمع يوم العروبة، وقيل هو أول من سماها الجمعة، وأن قريشا كانت تجتمع عليه في هذا اليوم فيخطب فيهم... وكان عظيم القدر عند العرب ولهذا أرخوا لموته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بهذا الأخير، ثم أرخ المسلمون بعام هجرة النبي إلى المدينة.

وهكذا، فلما عاد هؤلاء "الأنصار" إلى يثرب أظهروا الإسلام، ونشطوا في الدعوة له، ولما علمت قريش بذلك ضيقوا على أصحاب النبي عليه السلام "ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد". وقد شكا بعضهم إلى الرسول ما يعانونه واستأذنوه في الهجرة: فمكث أياماً لا يأذن لهم"، وذات يوم " خرج إليهم مسروراً، وقال: قد أخبِرت بدار هجرتكم وهي يثرب"، فأذن لهم وقال: من أراد أن يخرج فليخرج إليها، فخرجوا خفية متتابعين... ثم لحق بهم بعد نحو شهرين ونصف، كما سنذكر لاحقا.

تلك كانت مراحل السيرة ولحظاتها منذ أن نزل قوله تعالى "فاصدع بما تؤمر"، (السنة الخامسة والنصف للنبوة)، فلننتقل الآن إلى مسار التنزيل، إلى سور الذكر الحكيم التي نزلت خلال تلك المراحل واللحظات.



المرحلة الرابعة

الصدع بالأمر والاتصال بالقبائل

استهلال

كانت المرحلة السابقة (الثالثة- القسم الأول من الكتاب) من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة مركزة، كما رأينا، حول إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، الشيء الذي جعل موقف الملأ من قريش من الرسول عليه السلام ينتقل من مجرد الاستهزاء والتكذيب والاتهام بالجنون، إلى المحاربة ثم التعذيب لأصحابه من الموالي والمستضعفين ومطاردة المسلمين من أبناء قبائلهم. يقول الطبري في تاريخه: "سأل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عروة بن الزبير عن السبب الذي جعل قريشا تعارض الدعوة المحمدية وتقوم في وجهها، فأجابه برسالة قال فيها : "أما بعد، فإنه (يعني الرسول) لما دعا قومه لما بعثه الله إليه بالهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم (أصنامهم) وقدم أناس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه وكرهوا ما قاله لهم، وأغروا به من أطاعهم فانصفق عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل"[1].

وهكذا قاموا بحملة من التعذيب الشرس -حتى الموت- لمن آمن بالرسول عليه السلام من مواليهم وعبيدهم، أما من أسلموا من أبناء قبائلهم فقد "وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم". وأما الرسول عليه السلام فكان في حماية عمه أبي طلب.

ويضيف ابن إسحاق: ولما رأى الرسول عليه السلام ما تفعل قريش بالمسلمين "أمرهم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي[2] لا يُظلم أحدٌ بأرضه ... وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من الرزق (سعة من العيش) وأمنا ومتجرا حسنا، فأمرهم بها رسول الله، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن. "وكان عدد من هاجر إلى الحبشة في هذه الهجرة الأولى أحد عشر رجلا وأربع نسوة، فخرجوا

1-الطبري. التاريخ ج1 ص 546

2- المعروف أن لفظ "النجاشي" يعني الملك، مثل كسرى، وهرقل.

متسللين سرا حتى انتهوا إلى ميناء الشعيبة[3]، منهم الراكب والماشي، فصادفوا سفينتين لتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان خروجهم في حوالي منتصف_السنة السادسة للنبوة. "وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا، فلما وصلوا الحبشة أقاموا فيها خير مقام، وتبعهم جعفر بن أبي طالب عم النبي عليه السلام ومعه رسالة من النبي إلى النجاشي" [4].

أما الرسول (ص) فلم يهاجر بل بقي في مكة "فمكث بذلك سنوات (ربما سنتين) وزعماء قريش يشتدون على من أسلم. ثم حدث أن عاد إلى مكة، بعد شهرين، جل الذين هاجروا إلى الحبشة لأسباب غير معروفة بالضبط[5]، فطاردتهم قريش مما اضطر معه كل منهم إلى طلب الجوار من أحد معارفه. وبعد وفاة المستهزئين الخمسة الذين أشارت إليهم سورة الحجر (الآتية بعد)، بمن فيهم الوليد بن المغيرة الذي كان زعيم خصوم الدعوة المحمدية منذ ظهورها، صارت الزعامة في قريش لاثنين من أشد الناس على هذه الدعوة، أبو جهل من بني مخزوم، وأبو لهب عم النبي الذي نزلت فيه سورة المسد.

قالوا، لما قدم أصحاب النبي (ص) مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطَت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدا. أما الرسول عليه فقد منعه من قريش عمه أبو طالب وبمن استجاب لنصرته من عشيرته، "فرأت قريش أنهم لا سبيل لهم إليه ... فجعلوا يصدون عنه من خافوا منه أن يسمع قوله فيتبعُه، فكان أشد ما بلغوا منه حينئذ ما رواه بعضهم من أن أشراف قريش اجتمعوا يوما في الكعبة "فذكروا رسول الله فقالوا ما رأينا ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم -أو كما قالوا".

"فبينا هم كذلك إذا طلع رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول". قال الراوي "فعرفت ذلك في وجه رسول الله ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى. ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف فقال : "أتسمعون يا معشر قريش! أما

3- ياقوت: "الشُعَيبة مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومُرسى سفنها قبل جُدَة".

4- انظر التعريف بالقرآن الكريم. الفصل الثاني: الدعوة المحمدية وعلاقاتها الخارجية.

5- يربطها بعض المؤرخين بقصة "الغرانيق" انظر رأينا في هذه القصة في سورة النجم 22- التعليق. القسم الأول من الكتاب.

والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح". قال فأخذت القومَ كلمتّه حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى إن أشدهم فيه عداوة قبل ذلك ليَرْفَوْه (يهدئه) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدا، فوالله ما كنت جهولا". قال -الراوي- "فانصرف رسول الله حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحَجَر(الكعبة) وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بغلكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه. فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله نعم أنا الذي أقول ذلك. قال -الراوي- فلقد رأيت رجلا منهم آخذا بجمع ردائه. ثم أضاف الراوي "وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكي: "ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه...".

ثم جاء وقت الموسم فاجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش -كما يقول ابن أسحق- "فقال لهم : يا معشرَ قرَيش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدَمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمرِ صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً ويردّ قولُكم بعضَه بعضاً" ثم اتفقوا على أن يقول عن الرسول : "جاء بقول هو سحر يفرِّق به بين المرءِ وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته".

يبدو أنه في هذه الأثناء مات الوليد ين المغيرة وبضعة أفراد من أعيان قريش الذين كانوا يستهزئون بالنبي عليه السلام فنزلت سورة الحِجْر التي حملت إلى النبي في خاتمتها قوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحج 94-95). فاتجه النبي بالدعوة إلى المواسم والأسواق، وخرجت قريش على أثره ""فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم، ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره"، فكان من نتيجة ذلك أن انتشر خبر الرسول عليه السلام، من خلال ذلك الموسم "في بلادِ العربِ كلها".

53- سورة الحِجــر

- تقديــم

وردت عدة أخبار عن "سبب نزول" آيات من هذه السورة تكاد تكون كلها مصطنعة. نلخصها فيما يلي:

قالوا: "كانت تصلي خلف النبي (ص) امرأة حسناء في آخر النساء، بالمسجد، وكان بعضهم يتقدم إلى الصف الأول لئلا يراها، وكان بعضهم يتأخر في الصف الآخر من صفوف الرجال، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ليراها خلفه في صفوف النساء. فنزلت "وَلَقَد عَلِمنا المُستقدِمين منكم وَلَقد عَلِمنا المُستأخِرين". وعلى العكس من هذا قيل: لما حرض الرسول عليه السلام المصلين على التقدم إلى الصف الأول ازدحم الناس عليه، وكان بنو عذرة، دورُهم قاصيةً. فقالوا: نبيع دورنا ونشتري دورا قريبة من المسجد. (ليتمكنوا من السبق إلى المسجد)، وكان ذلك في المدينة، فنزلت هذه الآية. أما الخبر الأول فلا يستقيم مع السياق كما سنرى، وأما الثاني فهو يفترض أن الآية نزلت في المدينة والحال أن السورة مكية. هذا فضلا عن أن السياق لا يحتمل هذا الخبر كسبب نزول الآية.

وقالوا في قوله تعالى: "وَنَزَعنا ما في صُدورِهِم مِّن غِلٍّ، إِخواناً على سُرُرٍ مُتَقابِلين". إنه نزل في أبي بكر وعمر وعلي. ولما سُئل الرواي عن الغل الذي كان بينهم أجاب: "غل الجاهلية: إن بني تيم (قوم أبي بكر) وعدي (قوم عمر) وبني هاشم (قوم علي) كان بينهم في الجاهلية. فلما أسلموا، فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل عليٌّ يسخن يده فيكمدها، فنزلت هذه الآية. وهذا الخبر ينسب لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولا يستبعد أن يكون قد صُنع للتخفيف من عداء بعض الشيعة لأبي بكر وعمر، لاعتقادهم أن خلافة النبي كان يجب أن تسند لعلي بن أبي طالب قبلهم.

وفي قوله تعالى "وَلَقَد آتيناكَ سَبعاً مِّنَ المَثاني وَالقُرآنَ العَظيم" قيل : "إن سبع قوافل وافت من بُصرى وأذرُعات، وليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر. فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها فأنفقناها في سبيل الله" فنزلت تلك الآية. وهذا الخبر لا يستقيم لأنه يتحدث وكأن السورة نزلت بالمدينة والحال أنها مكيةً!

وروي أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين" فر ثلاثة أيام هاربا من الخوف لا يَعقِل، فجيء به للنبي (ص)، فسأله فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"، فوالذي بعثك بالحق لقد قطّعت قلبي، فأنزل الله : "إن المتقين في جنات وعيون". وهذا غريب! فكأن سلمان سمع فقط "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"، ولم يسمع من يعود إليهم الضمير "هم" قبلها: وهم الغاوون الذين أغواهم الشيطان!

وذكروا أن الرسول عليه السلام: "مر بنفر من أصحابه يضحكون، فقال: أتضحكون وذِكرُ الجنة والنار بين أيديكم؟ فنزلت هذه الآية "نَبِّئْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم". وفي رواية أخرى ورد العكس: روي عن رجل من أصحاب رسول الله قال: "اطلع علينا رسول الله (ص) من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة"، فقال : لا أراكم تضحكون! ثم أدبر، ثم رجع القهقري، فقال: إني خرجت حتى إذا كنت عند الحَجَر جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله يقول لك لِمَ تقنط عبادي؟ "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم". وهذا كله تخمين!

وحول قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزئين" الآية، روي أن النبي عليه السلام: "مر على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي – ومعه جبريل– فغمزه جبريل بإصبعه فوقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحا حتى نتنوا، فلم يستطيع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله "إنا كفيناك المستهزئين". (الواحدي، والسيوطي في اللباب).

وواضح أن هذه الأخبار أقرب إلى مجال "الحياة العامة" والثقافة الشعبية منها إلى ميدان التفسير، فهي تتجاهل السياق تماما كما سنرى، وتنزل بالنص إلى مستوى "حديث المسامرات" وما أشبه. ومع ذلك فهي لا تخلو من فائدة، كما ذكرنا في أماكن عديدة من القسم الأول من هذا الكتاب. ذلك أنها تضعنا في الجو "الشعبي" الذي كان يحيط بالقرآن عند نزوله، أو على الأقل في عصر رواة هذه الأخبار. ولا تزال "الثقافة الدينية الشعبية" في عصرنا تتغذى من مثل هذه الأخبار.

– نص السورة

1- مقدمة: لم يعد في إمكان قريش أن يسلموا فقد اختاروا الكفر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ (ما ذكرته التوراة) وَ(هذا) قُرْآنٍ مُبِينٍ[1] (لكل ذلك). رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ[2] (ولكن لم يعد في إمكانهم ذلك بعد أن

كذبوا وأعرضوا، إذن :) [1] ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[3] (مصيرهم عندما يحين حينه). وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ[4]. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ (ما من أمة تسبق) أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ[5]. وَقَالُوا (قريش) يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ[6]، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ"[7] [2]. (أجاب الله): مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ[8] (ممهلين) [3]. إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (على محمد) وَإِنَّا لَهُ (للنبي) لَحَافِظُونَ[9] (من الجنون الذي يتهمونه به في الآية السابقة)[4]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا (رسلا) مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ (فِرَق) الْأَوَّلِينَ[10]؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[11]! كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ (أي الاستهزاء بالرسل) فِي

1- حمل المفسرون هذه الآية على أنها تتحدث عن رد فعل المشركين وهم في النار يوم القيامة حين يرون المسلمين في الجنة. وهذا في نظري لا أساس له في السياق. فلم يسبق أن ذكر يوم القيامة من قبل، وما يلي هذه الآية يتعلق بالدنيا: "ذرهم يأكلوا ويتمتعوا" في الدنيا. ولذلك نميل إلى القول إن معنى الآية شيء آخر يكشف عنه قوله تعالى في آيات تالية "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" (10-13). إذن حكم الله على مشركي مكة أنهم لن يؤمنوا. ومن هنا كان معنى قوله "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ" : أنهم محكوم عليهم بالبقاء كافرين حتى ولو ودوا أن يكونوا مؤمنين. وهذا الحكم راجع إلى أن الله قضى بذلك بعد أن رفضوا الإيمان.

2 - لا يمكن أن تعترض قريش بهذا قبل أن يجهر الرسول بالقرآن. هذا يصدق على فقرات هذه السورة وعلى السور السابقة. وإذن فالقول بأن الجهر بالقرآن إنما بدأ بعد قوله تعالى لاحقا : "فاصدع بما تؤمر" قول فيه نظر.

3- المعنى: لو نزلنا الملائكة لتمّ إهلاكهم في الحين ولما أمهلوا إلى اليوم فالكفر قديم فيهم.

4- المعنى : بدل أن ننزل الملائكة لإهلاكهم فضلنا تنزيل القرآن لإرشادهم. جمهور المفسرين على أن الضمير في "له حافظون" يرجع إلى الذكر أي القرآن، وأن المعنى: نحن نزلنا القرآن وإنا لهذا القرآن لحافظون. أما بعض أهل اللغة فيقولون إن الضمير يعود إلى "الذي نزل عليه الذكر" أي الرسول عليه السلام، كقوله تعالى "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: 67). بمعنى أن الذكر أي القرآن من عند الله، والرسول ليس بمجنون، وإنا له لحافظون من الجنون. وممن قال بهذا : الفراء وابن الأنباري (ذكره الرازي). وهذا الفهم أنسب للسياق في نظرنا، لأنه بدون ربط "إنا له لحافظون" بـ"الذي نزل عليه الذكر"، تبقى الآية: "إنا نحن نزلنا الذكر (القرآن) وإنا له لحافظون" معزولة عن السياق، لأن ما قبلها وما بعدها يتحدث عن الرسول والرسل، وليس عن القرآن. هذا ويتمسك بعض الناس برد "لحافظون" إلى القرآن كدليل على أنه لم ولن يتغير. وهل نحتاج إلى هذا بعد مرور خمسة عشر قرنا على نزوله وبقائه كما نزل؟! يجب أن يحكم نصُّ القرآن بسياقه فهمَنا له، لا تخوفاتنا من هذا الشيء أو ذاك.

قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ[12] (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالرسول)، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ[13] (5). وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ[14] (يصعدون)، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ[15] (6).

2- يتجاهلون دلالة خلق الله للسماوات والأرض !

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (7) وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ[16]، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ[17] إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ[18]. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا (وضعنا وأنشأنا) فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ[19](منتظم). وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ[20] (بمغذين: أي معاش الحيوانات). وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ[21]. وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[22] (ليست خزائنه في أيديكم). وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ[23] (للجميع). وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ (الأموات السابقين) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ[24] (الأحياء اللاحقين بهم)، وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[25] (8).

3- إعراض قريش امتداد لاعتراض إبليس على أمر الله ...

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[26] (طين أسود متغير)، وَالْجَانَّ (الجن) خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ (قبل خلق آدم وذريته) مِنْ نَارِ السَّمُومِ[27] (حارة لا دخان لها). وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[28]،

5- بمعنى أن من سنة الأولين أن لا يؤمنوا بالرسل ويستهزئون بهم، وكذلك قريش ...

6- والمعنى أنّ هؤلاء المشركين بلغ بهم غلوهم في العناد: أنه لو فتح الله لهم أبواب السماء، ويسّر لهم معراجا يصعدون عليه إليها، ورأوا جبريل يأخذ الوحي إلى محمد، لقالوا: هذا شيء نتخيله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك.

7- بعضهم قال: قصورا ومنازل، وبعضهم قال: كواكب عظيمة، وآخرون قالوا: بروج السماء وهي 12 برجا (الحَمَل، والثّور، والجَوزاء، والسّرطان، والأسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدّلو، والحوت)، وهي "منازل" الكواكب، وينتمي هذا القول إلى علم الفلك القديم وإلى التنجيم خاصة. والظاهر من السياق أن المقصود هو الكواكب العظيمة : في مقابل "الرواسي" أي الجبال الكبيرة على الأرض.

8- واضح من السياق أن ما ذكروه حول الآية 23 ("المستقدمين والمستأخرين" -انظر التقديم) هو مجرد خيالات. أما معنى الآية (23) فتشرحه وتطوقه الآيتان 24-25.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[29]؛ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ[30] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ[31] (9). قَالَ (الله) يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ[32]؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[33]. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[34] (مطرود)، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ[35]. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي (أمهلني) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[36]. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ[37] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ[38]. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي (10) لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[39]، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ[40] (الذين خلصتهم ونجيتهم من تأثيري). قَالَ (الله) هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ[41] (11)، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ[42]، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ[43] (يعني من اتبعه من الغاوين): لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ[44] (12). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[45]، (يقال لهم) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ[46]. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ (نفور بينهم في الدنيا، فصاروا) إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ[47]. لَا

9- تأتي هنا قصة إبليس مكررة، كما في سور عديدة، وذلك لتوضح بأن عصيان إبليس (الشيطان) هو الأصل في إعراض المشركين عن النبي (ص)، فكما برر إبليس إعراضه واستكباره وعناده بكون آدم خلق من طين (أحط الأشياء وأخسها) بينما خلق هو من "نار" أو "نور" فكذلك يُعرض كفار قريش عن الإسلام والالتحاق بالنبي (ص) بدعوى أنهم أعلى مقاما من أصحابه، وأنهم لا يمكن أن يتساووا مع عبيدهم ومواليهم ... وبالتالي فهم لن يرجعوا عن عنادهم لأنهم لن يقبلوا أن يكونوا سواء مع باقي المسلمين.

10- قال المفسرون قوله "رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي": بـ "أضللتني"، أي جعلتني ضالا، واختلفوا هل الضلال من الله أم من الشخص الضال. ولعل أقرب إلى الصواب أن نقول: "الغي" هو الاعتقاد الفاسد. وإبليس اعتقد اعتقادا فاسدا فاعتبر نفسه أشرف من آدم. ومن هنا يكون "أغويتني" بمعنى حكمت علي وعاقبتني على اعتقادي الفاسد. نظيره: "إن كان الله يريد أن يغويكم، "فقدْ قيلَ مَعْنَاهُ : أنْ يُعَاقِبَكمْ عَلَى غَيْكم" أو "يَحْكمُ عَلَيْكم بغَيْكم".

11- "هذا" إشارة إلى ما قبله وما بعده: وبالتالي فـ"العباد المخلصون" "ليس لك (يا إبليس) سلطان عليهم وإنما سلطانك على من اتبعك من الغاويين". وإذن فـ"المخلصين" الذين هم موضوع الاستثناء هم الذين لم يتبعوا إبليس ولم يستسلموا لإغوائه.

12- أي قُسّموا على أبوابها، كل مجموعة تدخل من باب. ورقم "سبعة" هنا ليس مقصودا لذاته، بل هو للدلالة على تعدد أبواب جهنم لاستيعاب جميع أصناف "الغاوين". وتعدد الأبواب في جهنم يقابله تعدد "الجنات (البساتين) والعيون" في الجنة. ولكن بما أن الله قد نزع ما في قلوب أهل الجنة من غل فقد صاروا صنفا واحدا... ويجلسون إخوانا على سرر متقابلين. وإذن فلا أساس لما ذكروا من أخبار عن "هروب سلمان" "وغل الجاهلية بين أبي بكر وعمر وعلي... (انظر التقديم).

يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ[48]. نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[49]، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ[50].(13)

4- ... وأيضا امتداد لعصيان قوم لوط وإصرارهم على إتيان الفاحشة ...

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ[51] (ضيوفه: ملائكة)، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ (علي إبراهيم) فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ[52] (خائفون). قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ (إسحاق) عَلِيمٍ[53] (نبي). قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ (مع كبر سني)، فَبِمَ تُبَشِّرُونَ[54]؟ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ[55] (اليائسين). قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ[56]! قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ[57]؟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ[58] (مذنبين: قوم لوط)، إِلَّا آلَ لُوطٍ (باستثناء المؤمنين به) إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ[59]، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ[60] (قدماء الكافرين). فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ[61] قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ[62] (غرباء)! قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ[63] (يشكون وهو العذاب). وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[64]. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ (أخرج) بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ (ليلا) وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ (امش خلفهم) وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ[65] (إلى الشام). وَقَضَيْنَا (أوحينا) إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ (آخرهم) مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ[66] (يتم استئصالهم عن آخرهم في الصباح). وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ (رجال مدينة سدوم، مدينة قوم لوط) يَسْتَبْشِرُونَ[67] (عازمين على إتيان فاحشة اللواط في ضيوف لوط). قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ[68]، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ[69]. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ[70] (استضافة الناس). قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي (كبديل) إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ[71]! لَعَمْرُكَ (يا محمد) إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ[72] (يترددون): فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ (المهلكة) مُشْرِقِينَ[73] (وقت شروق الشمس)، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ[74] (من طين مطبوخ في النار). إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ[75] (الذين يأخذون العبرة)، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ[76] (إن قرى لوط قائمة على طريق قريش إلى الشام). إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ[77]. وَإِنْ

13- هذا الموقف المتضاد (غفور رحيم- عذاب أليم) أصله أن في زمن الدنيا إيمان وعمل صالح، وكفر وظلم، وأن بعد الموت حساب وجزاء: فالمؤمن قد يغفر له من ذنوبه رحمة به وأما الكافر فلا يغفر له لأنه اختار أن لا يغفر له باستمراره على الكفر. وهذا مبسوط في غير ما آية.

(ولما) كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (غيضة شجر بقرب مدين، والمقصود قوم شعيب) لَظَالِمِينَ[78] (بتكذيبهم شعيبا)، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنَّهُمَا (قرية قوم لوط وقرية قوم شعيب) لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ[79] (على طريق واضح: طريق قريش إلى الشام).

5- ... وكذلك كان شأن أصحاب الحجر، ثمود قوم النبي صالح!

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ (واد بين مكة والشام، والمقصود ثمود: قوم صالح) الْمُرْسَلِينَ[80]، وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[81]. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ[82]، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ (المهلكة) مُصْبِحِينَ[83] (صباحا)، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[84].

6- خاتمة: آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، اصدع بما تؤمر...!

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ[85] (لا تهتم بإعراض قريش). إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ[86] (14). وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي(15) وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ[87]. لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا

14- نظير قوله "فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ" (البقرة 109). ومعنى الآيتين واحد: فالأمر بالصفح هنا جاء مقرونا بـ"حتى يأتي الله بأمره"، وفي الآية أعلاه جاء مقرونا بـ "وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ"، وبالتالي فمعنى الصفح ينصرف لا إلى الخصوم بل إلى الذات. يقول الزمخشري في معنى الآية : "فأعرض عنهم –واحتمل ما تلقى منهم– إعراضا جميلا بحلم وإغضاء". والسياق يؤيد هذا المعنى: أعنى أن على النبي عليه السلام أن لا يقلق أو يحزن أو يضيق على نفسه بسبب إصرار قريش على عدم الاستجابة له، كما أن عليه أن لا يستعجل العقاب لهم، وإنما عليه أن يصبر ويريح نفسه ويطمئن... وأن لا يشغل نفسه بتقلبهم في البلاد وحرية تنقلهم للتجارة وغيرها، كما أن عليه أن لا يقلق من توزع قريش على الأسواق للدعاية ضده الخ.

15- اختلف المفسرون في المقصود بـ"السبع المثاني"، فقيل: الفاتحة؛ وقيل هي السور السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة الخ). قالوا: "وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها". وأنكر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، وجل السور الطوال مدنية (لم تنزل بعد). وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار الخ. وفي رأينا أن "السبع المثاني" لا بد أن تكون قد نزلت قبل هذه الآية، لذكرها بصيغة الماضي ("أعطيناك"). وقد سميت مثاني ليس فقط لأن فيها أشياء تثنى، بل لأن بنيتها واحدة كما بينا عند شرح كل واحدة منها أعني السور السبع الأخيرة بما في ذلك هذه، وهي حسب ترتيب النزول: الشعراء (طسم)، النمل (طس)، القصص (طسم)، يونس (الر)، هود= (الر)، يوسف (الر) (وقد مضت في القسم الأول من هذا الكتاب ثم سابعتها) هذه: الحجر (الر). فهذه السور تثنى بنية ومضمونا وافتتاحا (طسم، طس، طسم – الر، الر، الر، الر).

بِهِ أَزْوَاجًا (فئات) مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ[16] وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ[88]، وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ[89] كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ[90] (17) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ[91]؛ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[92] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ[93]. فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ[94]؛ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ[95] الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[96]. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ[97]، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ[98]، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ[99].

لكن يبقى بيان الفرق بينها وبين القرآن العظيم، وهي جزء منه! في رأينا أن ما نزل قبل هذه السور السبع هو القرآن العظيم كما كان حجمه يوم نزلت. ثم نزلت سور أخر بعد هذه المثاني، وهي لا تتصف بالخصائص البنيوية لهذه السبع، فيشملها حتما تعبير "القرآن العظيم". وهكذا يمكن أن يقال إن المقصود بالقرآن العظيم هو القرآن كله: ما كان قد نزل منه حين نزول هذه السورة، وما لم يكن قد نزل بعد. أما إذا نحن أخذنا بالرأي المشهور وهو أن "السبع المثاني" هي الفاتحة، فإنه لا يكفي أن يقال إنها سميت بهذا الاسم لأنها "سبع آيات تثنى في كل ركعة"، فهذا لا يفسر التمييز بينها وبين "القرآن العظيم"، أعني عطف "القرآن العظيم" عليها إلا إذا اعتبرناها -أعني الفاتحة- تقع خارج القرآن كما يروى عن عبد الله بن مسعود الذي اعتبرها دعاء كان يدعو به النبي (ص)، مثلها مثل المعوذتين (الفلق والناس)، ولهذا السبب لم يدرج هذه السور الثلاث في مصحفه. وشيء آخر يضعف من الرأي القائل إن المقصود بـ"السبع المثاني" هي الفاتحة: فمن جهة ليست الفاتحة سبع آيات باتفاق، بل هناك من جعل آياتها ستا ومنهم من جعلها سبعا ومنهم من جعلها ثمان أو تسعا (انظر التقديم الذي صدرنا به سورة الفاتحة. القسم الأول من هذا الكتاب سورة رقم 20)، ومن جهة أخرى إن الوصف "مثاني" قد وُصِف به القرآن كله في قوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ" الآية (الزمر 23). ونحن نعتقد أن السور التي قلنا إننا نرى أنها هي المقصودة بـ"السبع المثاني" هي وحدها السور السبع التي يثني بعضها الآخر على مستوى البنية فهي أكثر من "متشابهة"، والتشابه في المظهر أو في المضمون أو فيهما معا لا يرقى إلى التشابه في البنية. ولذلك لفتت نظر الزمخشري فوصفها بأوصاف تعبر عن جوانب أساسية من بنيتها (انظر التعليق الذي ختمنا به سورة الشعراء رقم 47. القسم الأول من الكتاب).

16- الزمخشري: "أي لا تتمنَّ أموالهم ولا تحزن على أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفسا عن إيمان الأغنياء والأقوياء "وَقُلْ" لهم "إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ" أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب الله نازل بكم".

17 – المعنى: "وَقُلْ (للعرب في المواسم والأسواق) إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ"، كما قلت ذلك لأهل مكة الذين جاؤوا الموسم فاقتسموا بينهم الدعاية ضدي في الموسم: بعضهم يقول لا تغترّوا بهذا الخارج فينا يدّعي النبوة؛ فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، مستدلين بقطع من القرآن انتزعوها من سياقها انتزاعا واقتسموها بينهم، يعرضونها على مخاطبيهم. (انظر المقدمة والاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة).

- تعليق

تنتمي هذه السورة كما قلنا إلى "السبع المثاني"، وهي آخرها. أما السور التي بعدها فهي متنوعة، لكل منها بنيتها الخاصة كما سنرى ابتداء من السورة القادمة (الأنعام)، التي تبدأ معها مرحلة جديدة. بدأت السورة التي نودعها بفاتحة مشابهة بل مطابقة لفواتح أخواتها الست السابقة: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِين"، ثم اتجهت مباشرة إلى قريش، لتعود إلى القصص. وقد سبق أن نبهنا إلى أن هذا هو شأن هذه السور: تارة تبدأ بالقصص كتوطئة لبيان لما ستواجه به قريش، وتارة تبدأ بقريش لتأتي من القصص بما يؤيد ما قالته عنهم. وبعبارة أخرى تسلك هذه السور منهج المحامي : تارة : تواجه خصمها بالدعوى مباشرة ثم تدلل على صحتها بوقائع... وتارة تذكر الوقائع أولا، ثم تأتي بالدعوى بعدها.

تبدأ السورة التي نحن ضيوف عليها بالوقائع أولا: كثير من رجال قريش يتمنون لو أنهم أسلموا، إما لأنهم اقتنعوا بالدعوة، وإما لأنهم رأوا في انضمامهم إلى صفوفها إمكانية للاستفادة منها إذا هي نجحت، ومنهم من يعطفون على النبي لسمو أخلاقه وشرف محتده، لكنهم جميعا مترددون حائرون لا يستطيعون اتخاذ القرار. ذلك أن اختيارهم الوقوف ضد الدعوة المحمدية أولا قد وضعهم في سجن يصعب التخلص منه. هم متضامنون مع الملأ من قريش وقد سبق أن اتخذوا مواقف منها، ثم إنهم سبق لهم، هم وأصحابهم، أن طرحوا القضية على أنها قضية "هوية" : فعبادة الأصنام هي عبادة آبائهم وأجدادهم، وترك هذه العبادة والدخول في الإسلام يعني إدانة هؤلاء الآباء والأجداد وبالتالي مواجهة زعماء قريش وسفهائهم الذين ما أن يسلم واحد من خصوم الدعوة المحمدية حتى ينهالون عليه بصنوف من الضغط المعنوي والمادي يحاولون استعادته إلى "دين آبائه وأجداده".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يعد في استطاعة قريش أن يؤمنوا لأن موقف العداء الذي وقفوه من الدعوة المحمدية منذ البداية يجعل من الصعب عليهم الاقتناع بحججها وآياتها. إنهم لكي يتوصلوا إلى الاقتناع بالدين الجديد عليهم أن ينتبهوا إلى ما لم يكونوا ينتبهون إليه من قبل، أو على الأقل لا يستخلصون منه العبر اللازمة. لقد عاشوا وهم يتجاهلون نظام الكون ودلالته على الصانع كما تجاهلوا كونه مسخرا لفائدة الإنسان. لقد عاشوا وهم يمارسون أنواعا من السلوك التي يحرمها العقل وتنهى عنها الديانات والأخلاق، مثل الكسب الحرام وأكل مال اليتامى وعدم الإحسان إلى الفقراء الخ، وهذه أمور تستوجب العقاب. وإذا أفلتوا من العقاب في الدنيا فإن تأكيد الدين الجديد على وجود حياة أخرى، ستكون مخصصة للحساب

والجزاء على ما فعله الإنسان في الدنيا، تأكيد يجعلهم في موقع المتهمين المحكوم عليهم سلفا بالخلود في النار. نعم ينص الدين الجديد على أن "الإسلام يجب ما قبله" وأن العقاب في الآخرة لن ينال الذين لم تصلهم الدعوة. ولكن ها هي الدعوة قد قامت في عقر دارهم؛ فهم مكلفون ملزمون، وبالتالي عليهم أن يمارسوا نظاما جديدا في الحياة يتطلب، في هذه المرحلة على الأقل، ترك عبادة الأصنام وبالتالي التخلي عن كل ما يرتبط بهذه العبادة من سلوكات وفوائد ومكاسب.

إذن: قريش مسجونون في وضعية تجعل من الصعب عليهم التخلي عنها والالتحاق بصفوف المسلمين. إنهم لن يؤمنوا حتى ولو رغبوا في أن يكونوا مسلمين، فلا داعي إذن للانشغال بهم.

بعد تقرير هذه النتيجة تنتقل السورة إلى تأكيدها بسوابق من التاريخ المقدس: إن إعراض قريش هو امتداد لإعراض إبليس عن السجود لآدم، لقد اعتبر نفسه أرفع أصلا ومنزلة من آدم، فهو مخلوق من نار/نور وآدم مخلوق من طين/تراب، وقريش يعتبرون أنفسهم أيضا أشرف أصلا، فهم قبائل ذات صولة وصيت، وهم أصحاب أموال وبنين... بينما أصحاب محمد هم في الجملة من مواليهم وعبيدهم أو من قبائل غير ذات شأن! وإعراض قريش امتداد كذلك لإعراض أقوام الأنبياء السابقين، قوم لوط، وأصحاب الحجر (ثمود). ومصير إبليس النار، ومعه الذين أغواهم من أقوام الأنبياء السابقين ومن قريش نفسها.

ما العمل إذن؟ هل يتخلى النبي الأمي، الرسول الأمين عن الدعوة وعن تبليغ رسالته ويستسلم؟ كلا، إن لديه -علاوة على القرآن العظيم" ما نزل منه وما ينزل بعد- هذه السور "السبع المثاني" التي شرحت له الموقف مبينا مكررا سبع مرات. وها هي المثناة السابعة تحمل إليه، ولنقل في "اليوم السابع"، بشرى بداية "أسبوع جديد"، بُشرى : "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". يتعلق الأمر، كما بينا في المقدمة والاستهلال الذين صدرنا بهما هذه المرحلة، بالأمر بالتوجه إلى العرب جميعا، إلى المواسم والأسواق. يجب الانفتاح على العالم كي ينفتح العالم للدعوة! ومن هنا سيكون الخطاب عن "الأنعام" بديلا للخطاب عن "رحلة الشتاء والصيف".

54- سورة الأنعام

- تقديم

ذكروا أن هذه السورة "نزلت بمكة ليلا دفعة واحدة". كما أورد المؤلفون في أسباب النزول عددا من الروايات حول آيات من هذه السورة قالوا نزلت في أشخاص معينين. من ذلك أن بعضهم ذكر أن قوله تعالى في هذه السورة: "وَلَو نَزَّلنا عَلَيكَ كِتاباً في قِرطاسٍ" نزلت ردا على مشركي مكة حين قالوا: "يا محمد، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله". ومن ذلك أن قوله تعالى: "وَهُم يَنهونَ عَنهُ وَيَنأَونَ عَنهُ"، قالوا: "نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس (في المواسم والأسواق) عن اتباع محمد (ص) ويتباعدون بأنفسهم عنه". وفي قوله تعالى: "إِنَّهُ لَيُحزِنُكَ الَّذي يَقولونَ" الآية. قيل: إن أبا جهل قال لسائل سأله عن حقيقة اعتقاده في محمد، هل هو كاذب حقا؟: "والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟". وقالوا: "التقى رسول الله (ص) بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد إنا والله ما نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به"، فنزلت "فَإِنَّهُم لا يُكَذِّبونَكَ وَلَكِنَّ الظّالِمينَ بِآياتِ اللهِ يَجحَدونَ". وفي خبر عن خباب بن الأرت قال: "كنا ضعفاء عند النبي (ص) بالغداة والعشي فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار وما ينفعنا والموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فقالا: إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك. قال: نعم. قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً فأتى بأديم ودواة، فنزلت هذه الآيات "وَلا تَطرُدِ الَّذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ يُريدونَ وَجهَهُ" إلى قوله تعالى "فَتَنّا بَعضَهُم بِبَعضٍ". وفي رواية أخرى: قال عكرمة: جاء "أشراف من بني عبد مناف، من أهل الكفر، إلى أبي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وعبيدنا وعسفاءنا كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. فأتى أبو طالب النبي (ص) فحدثه بالذي كلموه. فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم! فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب

يعتذر من مقالته" (وإذا صح هذا الخبر فإن هذه السورة تكون قد نزلت بين السنة الخامسة والنصف، تاريخ إسلام عمر، وبداية السنة السابعة تاريخ بداية الحصار. وهذا يشهد بالصحة لترتيب النزول الذي نتبعه.

وفي قوله تعالى: "وَلا تَسُبّوا الَّذينَ يَدعُونَ مِن دونِ الله فَيَسُبّوا اللهَ عَدواً بِغَيرِ عِلمٍ"! قال ابن عباس، قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهى الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدْواً بغير علم. وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة". وفي قوله تعالى: "وَلا تَأكُلوا مِمّا لَم يُذكَرُ إسمُ اللهِ عَلَيهِ" الآية ذكروا أن المشركين قالوا للنبي: "يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ قال: الله قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتل الله حرام!

وواضح أنه لما كانت هذه السورة قد نزلت دفعة واحدة، باتفاق، فإن ما يقال عن سبب نزول آية من آياتها يجب أن يوضع في سياق خاص، وهو أن ما تشير إليه آياتها من أحداث أو مناسبات لا بد أن يكون قدر جرى في وقت سابق، وبالتالي فاستعراض ما جرى مع النبي (ص) في هذه السورة مع قريش إنما هو نوع من "التذكير"، المخاطب به هذه المرة ليس الملأ من قريش بل أهل المواسم والأسواق. كان خصوم الدعوة المحمدية يحاربون النبي عليه السلام في الأسواق ويفترون عليه، فيأتي القرآن للرد عليهم، ولتأكيد حقيقة الدعوة، مستحضرا في هذا "التذكير" شؤون أهل البادية ومعهودهم الاجتماعي والديني، وإقرار ما يجب إقراره وتعديل أو إلغاء ما لا يتفق مع الخلقية القرآنية. وإذن فما قد يلاحظ من "تكرار" في الذكر الحكيم، من الآن فصاعدا فليس تكرارا، لأن المخاطب لم يعد هو نفسه قريش، وإنما هو إعادة ما خاطبتهم به الدعوة لمخاطب آخر هم أهل القبائل بما يناسب وضعهم.

- نص السورة

1- مقدمة: الخلق، البعث، تكذيب قريش، مصير المكذبين...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ (أنشأ) [1] الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، ثُمَّ (ومع ذلك فـ) الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ [1] (ينحرفون إلى عبادة

1- "جعل بمعنى : أحدث وأنشأ، كقوله: "وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ". ويتعدى إلى مفعولين إذا كان بمعنى صيّر كقوله: "وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا" (الزخرف: 19) (الزمخشري)

الأصنام). هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا (لموتكم)، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ (يحتفظ به: هو قيام الساعة)، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ[2] (ومع ذلك فأنتم يا كفار قريش تشكون في البعث). وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ[3]. وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ (دلائل وحجج) رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ[4] : فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ (بالقرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[5] (2). أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ (من أجيال) مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ (يا أهل مكة)، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا (ممطرة بغزارة)، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا (قوما) آخَرِينَ[6].

2 – عناد قريش، شجب الشرك، تبليغ القرآن لهم ولغيرهم...

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ(3) فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[7]. وَقَالُوا لَوْلَا (هلا) أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ! وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ[8] (لا يمهلون). وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ[9] (4). وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[10] (أي العذاب الذي أنذرهم الرسل منه). قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[11] (5). قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ. كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (بأن أمهلكم في الدنيا، وإنه) لَيَجْمَعَنَّكُمْ (جيلا بعد جيل) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ. (أما) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (خسروا تلك الرحمة بعدم استجابتهم لرسله) فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[12] (وبالتالي يخسرون تلك الرحمة). وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[13]. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا، فَاطِرِ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ؟ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ

2– كقولهم "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الواقعة 47–48).

3– من ورق. قيل معرب، أصله من الرومية (اللاتينية)، قارن carte.

4– ولو بعثناه ملاكا لوقعوا في اللبس نفسه: فلكي يروه يجب أن نرسله في صورة إنسان، فكيف سيرفعون اللبس عن أنفسهم!

5– تتكرر هذه الآية أو ما في معناها، والمقصود لفت انتباههم إلى الآثار التي يمرون عليها في طريق تجارتهم إلى الشام، وهي آثار ثمود (بمدينة الحجر) وغيرها من القرى التي ذكر الله أنه دمرها بالزلازل والأمطار عندما أصر أهلها على تكذيب رسله إليهم.

أوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ. وَ(قال لي ربي) لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[14]. قُلْ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[15]. مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ (العذاب) يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ[16]. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[17] (قدير على إدامته وعلى إزالته). وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (له القوة والسلطة عليهم)، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[18] (لا يتهور، يتصرف بحكمة ومعرفة بالأمور). قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً (من الله)؟ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ به (أنتم) وَمَنْ بَلَغَ (ومن بلغه هذا القرآن). أَئِنَّكُمْ (يا قريش) لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُلْ (يا محمد أما أنا) لَا أَشْهَدُ. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[19].

3- مشاهد من يوم الحساب: تنكّر لهم شركاؤهم وتمنوا الرجوع!

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) يَعْرِفُونَهُ (يعرفون: "إنما هو إله واحد") كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ. (أما) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ (أي المشركون) فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[20]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (بأن وضع شركاء له) أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ (بدلائله)؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ (هؤلاء) الظَّالِمُونَ[21]. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ[22]؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ (ضلالهم) إِلَّا أَنْ قَالُوا (أقسموا): وَاللَّهِ، رَبِّنَا، مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ[23]! انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ! وَضَلَّ عَنْهُمْ (غاب) مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[24] (من الشركاء). وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ! وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (حواجز وأغطية منعتهم من) أَنْ يَفْقَهُوهُ، (وجعلنا) وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (ثقلا حتى لا يسمعوه). وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ (من الدلائل التي تدل على وحدانية الله) لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (الذي يقصه القرآن) إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[25]. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ (يصرفون الناس عنه) وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ (يبتعدون عن النبي)، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ (بموقفهم ذلك)، وَمَا يَشْعُرُونَ[26]. وَلَوْ تَرَى (هؤلاء يوم القيامة) إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ: فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ[27]! بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ (كانوا يخفون خوفهم من أن يكون البعث واقعا). وَلَوْ رُدُّوا (إلى الدنيا) لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[28]. وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ[29]! وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ (حين جيء بهم للحساب)، قَالَ (لهم ربهم) : أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا! قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

تَكفُرُونَ[30]. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (في الإعداد لها بعمل ما يستحق الثواب)، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ (الآثام والخطايا) عَلَى ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ[31] (يحملون). وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟![32].

4- لا يحزنك ما يقولون عنك في الأسواق.. قد كذبت رسل من قبلك.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ (للعرب في الأسواق لصد الناس عنك)، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ (لكونك محمدا المعروف بالصدق والأمانة)، وَلَكِنَّ (هؤلاء) الظَّالِمِينَ، بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[33] (لا يعترفون بالشواهد والدلائل التي تدل عليه وعلى قدرته على بعثهم). وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا. وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ (تلك سنة الله وستتحقق معك فتنتصر). وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ[34] (جاءك من قصص الرسل ما يؤكد ذلك). وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ (معجزة من النوع الذي يشترطون عليك كي يؤمنوا، فافعل!). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى (والإيمان، بدون ذلك)، فَلَا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ[35]. إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، (أما هؤلاء فهم موتى لا يسمعون)، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ[36]. وَقَالُوا لَوْلَا (هلا) نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[37]: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (أنواع وأجناس) أَمْثَالُكُم، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ. ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ[38] (6). وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ (محرمون

6- جميع المفسرين يتعاملون مع هذه الآية ("وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم" الآية، كجملة نحوية مستقلة: الشيء الذي يعزلها عما قبلها وما بعدها- ثم انساقوا مع التفكير في جزء منها وهو "يحشرون" فخاضوا في موضوع حشر الحيوانات وهل يجري عليها الحساب والعقاب الخ، وكأن الحيوانات مكلفة شرعا حتى تكون موضوع جزاء، ثم رووا في ذلك أحاديث من نوع أحاديث الترغيب والترهيب، وقلبوا الوضع: فبدل أن يطلبوا لها ما يشهد لها بالصحة من القرآن، جعلوها هي تشهد بالصحة على ما تساق إليه فهمهم. أما نحن فنرى أنه لا وجه لبيان الصلة بين هذه الآية وبين ما قبلها وما بعدها إلا بربطها بهما، على النحو الذي فعلنا أعلاه، فقوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (أنواع وأجناس) أَمْثَالُكُم، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، بيان وتأكيد لقوله قبل ذلك : "قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[37] (بمعنى أنهم لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل آية، ولو علموا أنه "ما من دابة ولا طائر" الخ لعلموا ذلك. ولعلموا أيضا أنهم إلى ربهم يحشرون". فالضمير في "ربهم" يعود إلى من تعود عليه الضمائر المماثلة السابقة

من نور العقل، فهم لا يهتدون، بل هم مثل الدواب)، مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضْلِلْهُ (منهم) وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[39]. قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ (تتوجهون بالدعاء ليكشف الضر عنكم)، إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[40]؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ، فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ (من إزالة ذلك الضر عنكم) إِنْ شَاءَ، وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ[41] (أما أصنامكم فتنسون التوجه إليهم بالدعاء لأنكم تعرفون أنهم لن ينفعوكم في شيء). وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ (أخذنا تلك الأمم) بِالْبَأْسَاءِ (البؤس والجوع) وَالضَّرَّاءِ (الأمراض) لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ[42] (إلى الله). فَلَوْلَا (فهلا) إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[43]. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ (ما تلقوا دعوة الرسل) فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[44] (آيسون متشائمون). فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا (استؤصلوا عن آخرهم)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[45]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ؟ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ (ننوع ونوضح) الْآيَاتِ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ[46] (يعرضون). قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ[47]؟

5- قل لا أقول لكم عندي خزائن الله. لا تطرد الضعفاء. لا تتنازل...

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[48]. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[49]. قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ! إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى (الضال) وَالْبَصِيرُ (المهتدي) أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ[50]. وَأَنذِرْ بِهِ (بالقرآن) الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[51]. وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ[52] [(7)]. وَكَذَلِكَ

وهي: إعْرَاضُهُمْ، فَتَأْتِيَهُمْ، لَجَمَعَهُمْ، يَسْمَعُونَ، يُرْجَعُونَ، أَكْثَرَهُمْ، لا يَعْلَمُونَ، ثم يُحْشَرُونَ. الضمير يعود على الكفار وليس على الدواب. وهم الذين قال عنهم تعالى= مباشرة: "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ". انظر آراء المفسرين وتضارب أقوالهم في تعليق لاحق (سورة الانشقاق رقم 84). (سيأتي استطراد هو الحشر، و"حشر الدواب" ...).

7- كان أكابر من قريش قد اشترطوا على الرسول عليه السلام طرد الفقراء والعبيد من صحابته ليجلسوا إليه، وربما طعنوا في إيمانهم أو في دوافع التزامهم مع رسول الله. والآية ترد عليهم بأنه إذا=

فَتَنَّا بَعْضَهُمْ (كبار قريش) بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا: أَهَؤُلَاءِ (الفقـراء) مَـنَّ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ (بالهداية) مِنْ بَيْنِنَا؟! أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ!"[53]. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا (بدلائلنا وعلامات فعلنا) فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ (من غير أن يعلم أنه سوء، أو عمله تحت الضغط) ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[54] (8). وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ، وَلِتَسْتَبِينَ (ولتتعرف على) سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ"[55] (المذنبين). قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"[56].

6- لا علم لي بالساعة. الله وحده يعلم الغيب.. لست عليهم بوكيل.

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ (من قيام الساعة)، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ (يقضي بـ) الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ"[57]. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ"[58] (بما يقتضيه الحكم بالحق في شأنهم). وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"[59]. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ (عند النوم حين تكونون كالموتى لا تفعلون شيئا) وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ (فعلتم قبله) بِالنَّهَارِ (أمس)، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ (في نهار الغد) لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى (وهكذا حتى ينتهي أجلكم)، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ (في الآخرة)، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"[60]. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً (ملائكة) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الملائكة) وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ"[61]. ثُمَّ رُدُّوا (الملائكة) إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ. أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ"[62]. قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؟ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً: لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"[63].

كان في إيمانهم مطعن كما قال كبار قريش فهم وحدهم سيحاسبون، ولن تحاسب أنت (يا محمد) في مكانهم كما أنهم لن يحاسبوا في مكانك، ولا تزر وازرة وزر أخرى. وهذا شبيه بما سبق في سورة الشعراء حكاية عن نوح وقومه : "قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ (يا نوح) وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ..." (الشعراء 111- 115)

8- اختلف الرواة في سبب نزول هذه الآية، والذي يفيده السياق هو أن الحديث متصل مع حكاية طلب كبار قريش، وأن هذه الآية ترد عليهم فيما طعنوا به في بعض الصحابة الفقراء. وربما عنوا بذلك اضطرار بعضهم إلى النطق بكلمة الكفر خلال حملة التعذيب التي شنها عليهم كبراء قريش. وقيل إن من بينهم عمار بن ياسر.

قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ، ثُمَّ (مع ذلك) أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ[64]. قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا (يخلطكم فرقا متناحرة) وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ[65]. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ، وَهُوَ الْحَقُّ! قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ[66]. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ (وقت فيه يخبر به)، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[67].

7- أعرض عمن يخوض في آياتنا .. ويتخذون الدين لعبا ولهوا ...

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا (بالكذب) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَإِمَّا (=إن ما) يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ (فقعدت معهم) فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى (بعد أن تتذكر نهينا عن ذلك) مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[68]. وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ (الله) مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (لن يحسب عليهم أي إثم إذا جالسوهم)، وَلَكِنْ (هذه) ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (يتجنبون الخوض معهم)[69]. وَذَرِ (أعرض عن) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ (القرآن الذي أرسلناك به إليهم) لَعِبًا وَلَهْوًا (بالاستهزاء) وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، (فلا تتعرض لهم) وَذَكِّرْ بِهِ (عظ بالقرآن حتى لا يحدث) أَنْ تُبْسَلَ (ترتهن وتهلك من دون تنبيه أو إنذار) نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ (من ذنوب)، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ[9]، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ (وإن أرادت تلك النفس أن تقدم كل فدية تريد محو ذنبها) لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا! أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا (أهلكوا) بِمَا كَسَبُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ، بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ[70]. قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا (يعني الأصنام) وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا، بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ؛ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى، (يقولون له) ائْتِنَا (تعال إلينا)[10]! قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[71] (وذلك بـ) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[72]. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[73].

9- كان الرسول وأصحابه يجلسون مع كبار قريش يتناقشون معهم. ويبدو أن هذا النهي عن الجلوس مع كفار قريش مرتبط بالأسلوب الجديد للدعوة، أي الاتصال بالقبائل في الأسواق وغيرها، ولذلك جاء الحث على الاتجاه إلى الذين لم تبلغهم الدعوة، تجنبا لتأثير زعماء قريش في بعض المسلمين.

10- قيل: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر فإنه كان يدعو أباه الجوع إلى دين آبائه...

8- إبراهيم : حملة على الشرك... التذكير بالأنبياء الآخرين.

و(اذكر) إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً! إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[74]. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ[75]. فَلَمَّا جَنَّ (أظلم) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ[76]. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا، قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ[77]. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ هَذَا رَبِّي! هَذَا أَكْبَرُ! فَلَمَّا أَفَلَتْ، قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ[78]. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[79]. وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ: أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ[80]! وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا! فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[81]؟ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ[82]. وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[83]. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ! كُلًّا هَدَيْنَا. وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ. وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ (إبراهيم) دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[84]. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ[85]. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ[86]. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[87]. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[88]. أُولَئِكَ (الأنبياء هم) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (الحكمة) وَالنُّبُوَّةَ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ (ذرياتهم وإخوانهم) فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا (آخرين) [11] لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ[89]. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ (=اقتدِ). قُلْ (لقريش) لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى

11- اضطرب فهم بعض المفسرين لهذه الآيات، والمعنى واضح: الله بعث أنبياء في بني إسرائيل وفي غيرهم فإذا كفر بهم فريق من أقوامهم وذرياتهم فقد كان هناك دوما فريق آخر يؤمن بهم، فبهؤلاء المؤمنين الذين لم يغيروا دينهم يجب أن تقتدي أي أن تنتسب، يا محمد. إن سلسلة المؤمنين وسلسلة الكافرين متواصلتان، وأنت حلقة في الأولى فلتواصل عملك.

لِلْعَالَمِينَ[90]. وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا [(12)] مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ! قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ (يكتبونه في دفاتر مقطعة) تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ؟ قُلْ اللَّهُ (جواب : قل من أنزل...). ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ[91].

9- التعرض لليهود: يخفون ما يعرفون من نبو محمد...

وَهَذَا (القرآن) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من التوراة والإنجيل) وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى (مكة) وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالقرآن) وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[92]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ؟! [(13)] وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ؟! وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ (يقولون لهم) أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ (لنقبضها)، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ (الهوان) بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ[93]. (يخاطبهم الله:) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ (مع الله)، لَقَدْ تَقَطَّعَ (ما يصل) بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ[94].

10- الله يخرج الحي من الميت... وسخر لكم ما في الأرض...

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى (حب الزرع ونوى النخل: يشقهما ويخرج من كل منهما نبتته)، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ (النبتة من الحب) وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الحي (الحب من النبات)، ذَلِكُمْ اللَّهُ، فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ[95] (كيف تجحدون؟). فَالِقُ الْإِصْبَاحِ (مخرج نور الصباح من ظلمة الليل)، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا

12- جل المفسرين قالوا إن الضمير يعود هنا اليهود. وهذا لا يستقيم لأن سياق الكلام متماسك والاتصال بين هذه الآية والتي قبلها واضح، والسورة مكية، وإذن فلا يبقى إلا أن المعنيين هنا هم قريش. أما قوله تعالى: "تجعلونه قراطيس" يعني التوراة"، فالخطاب فيه إلى قريش أيضا، وكان في قريش من يقرءون التوراة في أوراق. وقد روي أن النبي غضب لما رأى في يد عمر بن الخطاب أوراقا منها، فقال: "والله لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي".

13- قيل نزل هذا في مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، وكان يقول: محمد رسول قريش، وأنا رسول بني حنيفة، شرق الجزيرة: البحرين وما إليها.

(حسابا لأوقات)، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[96]. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ (الدلائل) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[97]. وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ (ماء رحم المرأة) وَمُسْتَوْدَعٌ (مني الرجل مستودع فيها)[14] قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ[98]. وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ: فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا، وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا (الذي منه يخرج ثمرها) قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ (عراجين متدلية)، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ، وَالزَّيْتُونَ، وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَيَنْعِهِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[99]. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ (افتعلوا له) بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ[100]. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنَّى (كيف) يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ (زوجة)! وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[101]. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ[2]. لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[103].

11- "قد جاءكم بصائر.. وما أنا عليكم بحفيظ"... هم لا يؤمنون!

(قل) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ[104] (برقيب). وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ (نلزمهم الحجج والدلائل)، وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ (تعلمت: علمك آخرون) وَلِنُبَيِّنَهُ (القرآن) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[105]. اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ[106]. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا [15]. وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (رقيبا). وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[107]. وَلَا تَسُبُّوا (آلهتهم) الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا

---

14 – ذهب المفسرون في تفسير معنى "مستقر ومستودع" مذاهب شتى، بعيدة عن الظاهر وعن سياق الآيات السابقة واللاحقة، وهي أشبه بالتأويلات الباطنية. انظر رأينا في الموضوع (سورة الأعراف هامش 30). ونحن نعتقد أن هذا الذي أثبتناه أعلاه أقرب إلى الصحة، يشهد له قوله تعالى: وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (الإنسان-46)، وقوله: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ" (النجم-2) (خليط مني الرجل وماء المرأة).

15 – يقول الزمخشري على رأي المعتزلة في مثل هذه الآية: ولو شاء الله أن يقسرهم ويضطرهم على الإيمان لآمنوا، ويسمون هذه مشيئة قسر، في مقابل مشيئة الاختيار: يميزون بين مشيئة المضطر، ومشيئة غير المضطر. وعلى هذا يكون معنى الآية: إن الله لم يفرض الإيمان عليهم فرضا، بل ترك لهم حرية الاختيار.

اللَّهَ عَدْوًا (جهلا واعتداء) بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ (فريق) عَمَلَهُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[108]. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ (معجزة) لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ. وَمَا يُشْعِرُكُمْ (وما يدريكم أيها المؤمنون) أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ؟[109]. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ (ما يدريكم؟ فنحن قادرون على أن نحول بينهم وبين الإيمان فتعمى أفئدتهم وأبصارهم فلا يؤمنون بالقرآن بعد الإتيان بالآية التي يطلبون) كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[110] (يتحيرون). وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا (قبالتهم)، مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ[111].

12- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ...

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا! وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[112]، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ[113]. (قل) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ (القرآن) مُفَصَّلًا؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (التوراة) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ (القرآن) مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ[114] (الشاكين). وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ (ما جاء في القرآن من وعد ووعيد وثواب وعقاب) صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[115]. وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[116] (يكذبون). إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[117].

13- وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ[118] (انظر التقديم). وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ (من الذبائح) وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ(16) إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ رَبَّكَ

---

16 – لم يسبق بعد تفصيل ما حرم من الذبائح، ولا معنى لربط هذه الآية بما سيأتي في سورة المائدة كما فعل ذلك بعض المفسرين فسورة المائدة مدنية بل هي آخر ما نزل من السور، وسورة الأنعام مكية باتفاق، كما لا يستقيم جعل الخطاب موجها لليهود لأن اليهود في المدينة والسياق لا يحتمل. وإذا كان

هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ[119]. وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ[120]. وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ[121]. أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[122].

14- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا...

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ[123]. وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ (من معجزات)، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ[124]. فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ (العذاب) عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ[125]. وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[126]. لَهُمْ (الذين شرح الله صدرهم للإسلام) دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[127]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا (يوم القيامة وينادون) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ (الاستمتاع) مِنَ الْإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ (استكثر) بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا! قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[128]. وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[129]. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ[130]. ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ[131]. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ[132]. وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ[133]. إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ، وَمَا أَنْتُمْ

لابد من ربط هذه الآية بما يناسبها فالواجب بقوله تعالى في سورة الأعراف: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تشركوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ= تقولوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (الأعراف 33). فإذا كان من العرب من كان يذكر اسم آلهتهم في الذبائح بدل ذكر اسم الله فستكون الإشارة إلى قوله : "وأن تشركوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تقولوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ".

بِمُعْجِزِينَ[134]. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ. إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ[135].

15- وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ...

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ (خلق) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ، بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا (الشياطين). فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ! وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[136] (17). وَكَذَلِكَ زَيَّنَ، لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ، شُرَكَاؤُهُمْ (=فاعل زَيَّن، يعني الشياطين) لِيُرْدُوهُمْ (يهلكوهم) وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ (يشككوهم فيه). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ[137]. وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ (محجورة) لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا (لا تركب)، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا (بل يذكرون أصنامهم، ونسبوا ذلك إلى الله) افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[138]. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ (المحرمة أي ما ستلده) خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ[139]. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ (وأدوا بناتهم خوف الفقر أو العار) سَفَهًا (جهلا) بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ[140].

16- بيان الحلال والحرام في الطعام والسلوك ...

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ (بساتين من نبات غير مرتفع كالكرم والبطيخ) وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ (من أشجار طويلة السيقان)، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ، مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (للمساكين الذي يحضرون للحصاد طلبا للصدقة) وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ[141]. وَمِنَ الْأَنْعَامِ (كالإبل، جعل لكم) حَمُولَةً (يحمل عليها) وَفَرْشًا (تفرشون جلودها وصوفها). كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

---

17 – كانوا ينفقون من أموالهم (من الأنعام والزرع) "صدقة" يقسمونها قسمين : قسم "باسم الله"، وقسم باسم أصنامهم. ومن هنا معنى الآية: جعلوا لله جزءا ولأصنامهم جزءا، فإذا ذهب ما لأصنامهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوه بما هو لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضيوف والمساكين لم يعوضوا منه شيئا، وقالوا: الله مستغن عنه وأصنامنا وشركاؤنا فقراء. وواضح أن هذا الخطاب موجه للقبائل وعلاقاتها...

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[142]. (وأنشأ) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، قُلْ أَالذَّكَرَيْنِ (ذكر الضأن والمعز) حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ (منهما)؟ أَمَّا (أم ما) اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[143]. وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ: أَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ؟ أَمَّا (أم ما) اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا؟! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[144]. قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ (حرام) أَوْ (يكون) فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ (معتد) فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[145] (18). وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ (لم تفرق أصابعه كالإبل والأنعام)، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا (من الشحوم) أَوْ (حملته) الْحَوَايَا (الأحشاء) أَوْ مَا اخْتَلَطَ (من الشحم) بِعَظْمٍ. ذَلِكَ (التحريم) جَزَيْنَاهُمْ (به) بِبَغْيِهِمْ؛ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ[146]. فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ[147]. سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ. كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ[148]. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[149]. قُلْ هَلُمَّ (أحضروا) شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ[150] (ينحرفون). قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[151]، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. وَإِذَا قُلْتُمْ (شهادة) فَاعْدِلُوا (كونوا صادقين) وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا. ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ

18- ما ذكر هو ما حرم في مكة، ثم حرمت أشياء أخرى في المدينة سنذكرها في حينها، مثل: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، والخمر وغير ذلك. وللمفسرين والفقهاء في هذه الآية كلام طويل وآراء متباينة سنعرض لكل ذلك في القرآن المدني.

(الله) بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[152]. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا (وصاكم به) فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[153].

17- لموسى كتاب وهذا كتاب لكم كي لا تقولوا أنزل الكتاب لطائفتين

ثُمَّ (إضافة إلى ما تقدم، كنا) آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا (للنعمة التي أنعمنا عليه) عَلَى (الوجه) الَّذِي (كان) أَحْسَنَ (في عهده)، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ (اليهود) بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ[154]. وَهَذَا كِتَابٌ (القرآن) أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ، وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[155]، أَنْ تَقُولُوا (=أنزلناه كي لا تقولوا) إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ (اليهود والنصارى) مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا (وإنا كنا) عَنْ دِرَاسَتِهِمْ (قراءة كتبهم) لَغَافِلِينَ[156]، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ (أعرض) عَنْهَا؟! سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ[157]. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ (بالهلاك)، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ! يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ (=علامات قيام الساعة) لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا (إن) لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ (لم تكن) كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا(19)، قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ[158].

18- الخاتمة: مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ(20)، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[159]. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ

---

19 المعنى: أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيراً، فلم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرا، ليعلم أنّ قوله: "الّذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصَّلِحَاتِ" (البقرة: 25) جمع بين قرينتين (الإيمان والعمل الصالح)، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك". وبعبارة أخرى الإيمان وحده لا يكفي بل لابد من العمل الصالح، وهذا بدوره لا يفيد بدون إيمان.

20- اختلف المفسرون في هذه الآية، بعضهم قال : المقصودون هنا هم اليهود والنصارى، وقال آخرون بل هم المشركون، وقال فريق ثالث هم جميعا مقصودون. وهناك من قال إن المقصود بتفريق الدين ليس انقسام أشياعه إلى فرق، بل التمييز في "كتاب الدين "بين أشياء يعملون بها وأشياء لا يعملون بها. وهذا مردود بقوله "شيعا".

جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[160]. قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيَمًا، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[161]. قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[162]، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[163]. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ؟! وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[164]. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ"[165].

- تعليق

قلنا في الاستهلال الذي صدَّرنا به سور هذه المرحلة الرابعة من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، التي تأتي في أعقاب الأمر بالصدع بالدعوة ("فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ... " -الحجر 94-95)، إن ذلك "الأمر" يعني -حسب فهمنا- التوجه بخطاب الدعوة، حين المواسم والأسواق، إلى القبائل التي تسكن خارج مكة بعد أن عمد الملأ من قريش إلى تطويق الدعوة وعزلها عن باقي سكان "أم القرى". وتأتي سورة "الأنعام" هذه لتدشن هذه المرحلة بخطاب يستعيد مضمون السور السابقة بأسلوب جديد، ولتضيف بعد ذلك مضامين جديدة لها علاقة مباشرة بحياة القبائل التي تعيش على الأنعام (الماشية). وهكذا تختلف بنية هذه السورة عن بنية السور السبع السابقة اختلافا بينا، بل هي تتميز عن السور المكية كلها على صعيد المضمون.

تبدأ السورة بمقدمة تؤكد فيها على الأركان الثلاثة الرئيسية في العقيدة المحمدية: التوحيد والبعث والنبوة، يلي ذلك التذكير بموقف مشركي مكة، موقف التكذيب والاستهزاء، ورد القرآن عليهم بشجب الشرك وبيان لامعقوليته، مستحضرة ثورة إبراهيم عليه السلام على عبادة الأصنام، إلى جانب التخويف من أن يلحقهم من الهلاك في الدنيا ما لحق بالمكذبين لرسلهم من الأقوام السابقة، مؤكدة الحساب والجزاء يوم القيامة؛ مع الإلحاح على رفض مساومات قريش وعدم الاغترار بوعودهم للنبي إن هو أبعد فقراء المسلمين من حوله الخ.

وبعد أن تشير السورة إلى تجند أبي جهل وجماعته لتتبع خطى الرسول في الأسواق لتشكيك الناس وصدهم عنه، تتجه بالخطاب إليه عليه السلام مثبتة لفؤاده مقوية لعزيمته: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وَلَكِنَّ (هؤلاء) الظَّالِمِينَ، بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[33]. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا

وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا. وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ. وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ[34] (جاءك من قصص الرسل ما تعلم...).

بعد هذا التذكير المركز بمضامين السور السابقة تنتقل السورة التي نحن بصددها (الأنعام) إلى موضوع جديد، ربما كان أكثر اتصالا بحياة القبائل القاطنة خارج مكة (أم القرى)، موضوع الحلال والحرام في ميدان الذبائح من الأنعام وغيرها: "وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ" ، "إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ"، "وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ". وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ"! وهذه عادات يغلب انتشارها في البوادي والقرى، كما أن قتل الأولاد "خشية إملاق" أو خوف العار أكثر في البادية منه في غيرها.

بعد شجب هذه العادات والسلوكات "البدوية" وتحريمها، تأتي السورة ببيان ما حرم الله على الناس وما هم مطالبون به، والخطاب موجه، هنا، على مستوى الخصوص إلى من كانت تخاطبهم الدعوة في هذه المرحلة وهم رواد المواسم والأسواق من القبائل التي تقطن خارج مكة، كما أنه موجه على مستوى العموم إلى الناس جميعا. وهذه خاصية بارزة في الخطاب القرآني: ذلك أنه ما من خصوص يُربط به إلا والعموم يلازمه.

وهكذا تخصص السورة عدة آيات لتفصيل القول في مسألة الحلال والحرام كما يلي: (آيات (145، 151-154، 160، 164)

1- المحرم من الطعام على غير المضطر في هذه المرحلة من الدعوة: الميتة، الدم، لحم الخنزير، وما أهل لغير الله.

2- المنهي عنه من الاعتقادات والأفعال: الشرك بالله، قتل الأولاد خشية إملاق، الفواحش ما ظهر منها وما بطن (والمقصود في الغالب: الزنا)، قتل النفس بغير حق، التصرف في مال اليتيم بما يضر به، النزاع والفرقة.

3- المأمور به: : الإحسان إلى الوالدين، العدل في الكيل والميزان، أداء الشهادة بالحق، الوفاء بالعهد.

وإذا نحن قارنا بين هذه البنود، التي وردت في سورة الأنعام، وبين ما سبق أن ورد في سورة الأعراف (الآيات 31-34) التي كان الخطاب فيها متجها إلى الملأ من قريش في مكة، نجد أن السورتين لا تشتركان إلا في بندين اثنين: هما النهي عن "الشرك" والنهي عن "الفواحش". أما ما عداهما فجله يخص بالدرجة الأولى حياة العرب في البادية والقرى، مما يزكي ما ذهبنا إليه من أن

هذه السورة تدشن مرحلة توجه الخطاب القرآني إلى خارج "أم القرى"، بعد نزول قوله تعالى: "اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين". وسنجد في السور التالية المزيد.



55- سورة الصافات

- تقديم

لم يرد شيء يستحق الذكر بخصوص هذه السورة سوى أنها مكية، وأن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تتحرك بين الرتبتين 53 و56، تارة بعد سورة الأنعام وتارة قبلها. وقد وردت حول بعض آياتها أخبار لعل أهمها ما يلي: فحول قوله تعالى "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم" الآية، قيل إنها نزلت جوابا على أبي جهل حين قال للمسلمين: "زعم صاحبكم هذا أن النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإننا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد"! وحول قوله تعالى: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا" الآية، قيل نزل ردا على قريش في قولهم: "الملائكة بنات الله". وعندما اعترض عليهم: "فمن أمهاتهم؟ قالوا بنات سراة الجن". وحول قوله تعالى: "وإنا لنحن الصافون" الآية، قيل: كان الناس يصلون متبددين، فأنزل الله الآية فأمرهم أن يصفوا. وحول قوله : "أفبعذابنا يستعجلون" الآية، قيل نزلت عندما قالت قريش: يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجله لنا".

- نص السورة

1- مقدمة: تأكيد وحدانية الله من خلال نظام الكون.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا[1] (1)، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا[2]، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا[3]، إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ[4]: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ[5].

---

1 – اختلف المفسرون في تحديد معنى "الصافات" هنا. قال بعضهم إن المقصود هم الملائكة القائمين صفوفا للعبادة. وقيل بل المقصود هو "الطير"، بالاستناد إلى قوله تعالى "والطير صافات" (النور – 14). ثم ذهب آخرون، خاصة بعض المتأخرين، مذاهب أبعد ما تكون عن معهود العرب فأولوا اللفظ تأويلات مستقاة من الفلسفة الدينية الهرمسية التي تسربت بقوة إلى الثقافة العربية الإسلامية في العصر العباسي (انظر كتابنا: نقد العقل العربي ج1، وج2). ونحن نعتقد أن أقرب المعاني إلى معهود العرب وإلى ما عهدناه في القرآن هو تفسير "الصافات" بالطيور، تصطف جماعات جماعات في رحلاتها. وعلاوة على=

2- سماء زينة للناظرين وشهب للشياطين، و"الصيحة" على المكذبين

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ[6]، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ[7] (عاتٍ، كي) لَا يَسَّمَّعُونَ (يتسمعون) إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى (الملائكة)، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ[8] دُحُورًا (مطرودين)، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ[9] (دائم)، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ[10] (2). فَاسْتَفْتِهِمْ (قريشا): أَهُمْ أَشَدُّ (أصعب) خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ[11] (صلصال). بَلْ عَجِبْتَ (من إصرارهم على نكران البعث مع أنهم يعلمون أن خلقهم أيسر من خلق السماوات!) وَيَسْخَرُونَ[12] (من تعجبك)، وَإِذَا ذُكِّرُوا (بالقرآن) لَا يَذْكُرُونَ[13] (لا يتعظون)، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً (فعلا من أفعال الله) يَسْتَسْخِرُونَ[14] (كل منهم يسخر ويدفع صاحبه ليسخر كما في إلقاء النكت). وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[15]: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[16]؟ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ[17] (أيضا يبعثون)؟ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ[18] (صاغرون) : فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ (صيحة) وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ[19] (يشاهدون قيام الساعة).

3- مع الصيحة القيامة... المكذبون شركاء يتخاصمون في جهنم!

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا (هلاكنا) هَذَا يَوْمُ الدِّينِ[20] (الحساب والجزاء! فيُرد عليهم) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ[21]. (ويقال للملائكة) احْشُرُوا (اجمعوا) الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ (رؤساء ومقلدون) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ[22] مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ[23]. وَقِفُوهُمْ (عند الصراط) إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ[24] (يسألون

أن هذا المعنى ينسجم مع الآية المذكورة (والطير صافات) فإن القسَم في القرآن، وفي بداية السور تخصيصا، جرى على هذا المجرى، أي أن المقسم به كائنات ومخلوقات يعرفها الناس ويدركون معانيها والمقصود من القسم بها. فقد أقسم تعالى بالليل، والفجر، والضحى، والشمس، الخ، وأقسم كذلك بـ"العاديات" وهي الأفراس، و"الذاريات" وهي الرياح الخ. وفي رأينا أنه في هذا الصنف يدخل القسَم بـ "الصافات"، أي الطيور المصفوفة، والمقصود لفت الانتباه إلى النظام البديع الذي يتجلى في طيرانها جماعات جماعات والذي يدل كغيره من أنواع النظام في الكون على أن من ورائه صانعا ماهرا حكيما. ولا بد أن نضيف هنا أن القسم بالطيور الصافات يناسب معهود القبائل في البوادي والأرياف حيث يشكل منظر رحلات الطيور مشهدا لافتا للنظر.

2- الكواكب زينة للسماء بأضوائها، وتقوم النجوم بحفظها من الشياطين الذين يريدون استراق السمع والاطلاع على ما تقوله الملائكة (إشارة إلى الكهانة والتنجيم). ويقال للنجوم التي تنقض على الشياطين: الشهُب، بمعنى أنها تتبع الشيطان فتقبه وتحرقه. هذا هو المعنى الذي ينتمي إلى معهود العرب. ولابد من التذكير هنا بأن المقصود من هذا تأكيد نهاية التنجيم والكهانة بظهور الرسول الذي يتلقى الوحي من عند الله ويبلغ رسالته إلى الناس.

هناك عما فعلوا، فيقال لهم:) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ[25] (لا تجيبون)؟ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ[26]. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[27] (يتلاومون): قَالُوا (المقلدون لرؤسائهم) إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ[28] (تحلفون أنكم صادقون)! قَالُوا (ردوا عليهم) بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ[29] (أصلا)، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ، بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ[30] (ضالين). فَحَقَّ عَلَيْنَا (جميعا) قَوْلُ رَبِّنَا: إِنَّا لَذَائِقُونَ[31] (للعذاب. وأضافوا:) فَأَغْوَيْنَاكُمْ (ضللناكم) إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ[32]. (وهكذا:) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ[33]، إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ[34].

4- مشاهد من الجنة للمصدقين، وأخرى من النار للمكذبين.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ[35] وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ[36]؟ (يقال لهم كذبتم) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ[37]. إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ[38]، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[39]. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[40] (الذين أخلصوا لنا فأخلصناهم أي نجيناهم): أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ[41]: فَوَاكِهُ، وَهُمْ مُكْرَمُونَ[42] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[43] عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ[44]، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ[45] (خمر) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ[46]، لَا فِيهَا غَوْلٌ (ليس كحول يفقدهم عقولهم) وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[47] (يسكرون). وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ[48] (كبيرة عيونهم)، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ (كبيض النعام) مَكْنُونٌ[49] (ملفوف بريشه). فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ (بعض أهل الجنة) عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[50] : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ[51] (صاحب) يَقُولُ: أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ[52]؟ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ[53] (محاسبون)؟ قَالَ (ذلك الذي كان له قرين لأصحابه) هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ[54]؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ (رأى قرينه ذاك) فِي سَوَاءِ (وسط) الْجَحِيمِ[55]! قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ[56] (لتهلكني)، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[57] (معك)! أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ[58] إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى (في الدنيا، كما كنت تزعم؟)، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[59] (كما كنت تقول)؟ إِنَّ هَذَا (الجنة التي منها يتكلم ذلك القائل منهم) لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[60] لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ[61]. (وأضاف) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ[62]؟ (شجرة شديدة المرارة تنبت في جهنم. قال الله عنها) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ[63] (الذين قالوا كيف تنبت الشجرة في جهنم، والنار تحرق الشجر؟). إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ (عمق) الْجَحِيمِ[64]، طَلْعُهَا (منه يخرج ثمرها) كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ[65]، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ[66]، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا

(معها) لَشَوْبًا (شرابا شديد السخونة) مِنْ حَمِيمٍ[67] (من جهنم)، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ[68] : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا (هناك) آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ[69]، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ[70] (يساقون).

5- ضلت قريش كما ضل أكثر الأولين ... والفوز العظيم للمرسلين.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ[71]، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ[72]، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ[73]، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[74]. (3)

أ- نادانا نوح .. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم..

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ[75]، وَنَجَّيْنَاهُ وأهلَه مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ[76]، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ[77]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ (ثناء حسنا) فِي الْآخِرِينَ[78] (في الأجيال التالية). سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ[79]، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[80]، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[81]، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ[82].

ب- ابراهيم ثار على الأصنام: سلام على ابراهيم، كان من المؤمنين.

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ[83]، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[84]، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ[85]؟ أَئِفْكًا (كذبًا)، آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ[86]؟! فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[87]؟ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ[88]، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ[89] (على شفى المرض)، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ[90]. فَرَاغَ (انسل هو) إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ (لهم استهزاءً): أَلَا تَأْكُلُونَ[91] (وقد وُضع الطعام أمامهم)؟ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ[92]؟ فَرَاغَ (انهال خفية) عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ[93]، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ[94] (يسرفون)، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ[95]؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[96]! قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا (فرنا) فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ[97]، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ[89] (المهزومين: لأنه خرج من النار سالما)! وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِي[99]، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ[100]، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ[101]، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ (قيل إسماعيل وقيل إسحاق)

3- ستأخذ السورة في سرد ملخص مركز لقصص أنبياء سبق أن فصلت في سور أخرى. ويجب أن لا ننظر إلى هذا على أنه تكرار، بل على أنه إخبار لأهل القبائل العربية بما سبق أن أخبرت بـــه قـــريش بتفصيل. ويصدق هذا في نظرنا على جميع ما سيرد في السور التالية في هذه المرحلة وإلى نهاية العهد المكي، من آيات توهم بالتكرار.

[4] إنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ[102]. فَلَمَّا أَسْلَمَا (أمرهما إلى الله) وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (أطاح إبراهيم بابنه على جنبه في وضعية الذبح)[103]، وَنَادَيْنَاهُ[5] أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ[104]: قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[105]. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ (الاختبار) الْمُبِينُ[106]، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ (كبش) عَظِيمٍ[107]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ (ذكرى حسنة) فِي الْآخِرِينَ[108]: سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ[109]. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[110]. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[111]. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ[112]، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ[113].

ج- وموسى وهرون.. نصرناهما .. فكانا هما الغالبين.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[114]، وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ[115] (عذاب فرعون)، وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ[116]، وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ[117] (التوراة)، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ[118]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا (الثناء الحسن) فِي الْآخِرِينَ[119] (في الأمم التالية): سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ[120]. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[121]، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[122].

د- الياس ثار على الصنم "بعل"، انه من عبادنا المؤمنين.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ[6] لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[123]، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ[124]؟ أَتَدْعُونَ بَعْلًا[7] (صنما اسمه بعل) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ[125]: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمْ

4- كثير من المفسرين قالوا إن المقصود هو إسحاق (انظر الطبري)، والغالب أنهم انساقوا في ذلك مع الإسرائيليات فقد ورد في التوراة أن الذبيح هو إسحاق. أما ما يفهم من سياق الآية أعلاه فهو أن الذبيح هو إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم. فالقرآن لا يشير إلى ميلاد إسحق إلا بعد أن ذكر قصة الذبيح، الشيء الذي يعني أن المعني هو إسماعيل. أما مسألة الحقيقة التاريخية فالانشغال بها هنا لا معنى له لأن المطروح هنا هو الحقيقة القرآنية، كما أن المطروح بالنسبة لليهود هو الحقيقة التوراتية وكلتاهما لا تخضعان لمقاييس الحقيقة عند المؤرخين. انظر: "<u>التعريف بالقرآن</u>"، القسم الثالث، المقدمة.

5- الواو هنا زائدة. قال الطبري: "وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا وهذا جواب قوله: فَلَمَّا أَسْلَمَا. ومعنى الكلام: فلما أسلما وتله للجبين، (و) ناديناه أن يا إبراهيم. وأدخلت الواو في ذلك كما أدخلت في قوله: حتى إذا جاءُوها -و- فُتِحَتْ أبوابُها، وقد تفعل العرب ذلك فتدخل الواو في جواب فلما، وحتى...".

6- اختلف المفسرون في تحديد المقصود بهذا الاسم اختلافا كبيرا. والغالب أنه إيلياء من أنبياء بني إسرائيل.

7- في التوراة: "وَأَقَامَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي شِطِّيمَ، فَشَرَعَ الرِّجَالُ يَرْتَكِبُونَ الزِّنَى مَعَ الْمُوآبِيَّاتِ 2اللَّوَاتِي أَغْوَيْنَ الشَّعْبَ لِحُضُورِ ذَبَائِحِ آلِهَتِهِنَّ وَالأَكْلِ مِنْهَا وَالسُّجُودِ لَهَا. 3فَاشْتَرَكَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي عِبَادَةِ بَعْلَ=

الأَوَّلِينَ[126]؟ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ[127] (إلى جهنم)، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[128]، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ[129]: سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ[131] (إلياس وأهله). إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[130]، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ[132].

هـ- ولوط نجيناه وأهله ودمرنا الآخرين، وتمرّون على منازلهم!

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[133]، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ[134]، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ[135]، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ[136]. وَإِنَّكُمْ (يا قريش) لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ (على منازلهم) مُصْبِحِينَ[137] وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ[138]!

و- يونس أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ[139]، إِذْ أَبَقَ (هرب) إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ[140] (8)، فَسَاهَمَ (في القرعة) فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ[141] (المغلوبين فألقوه في البحر)، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ[142] (ملام لهربه إلى البحر). فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ[143] لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ (الحوت) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[144]. فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ (قذفناه من بطن الحوت على الأرض) وَهُوَ سَقِيمٌ[145]، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ (جانبه) شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (تظله)[146]، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ[147] (بأرض الموصل بالعراق)، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ[148].

ز- وَلَقَدْ سَبَقَ وعدنا لِلْمُرْسَلِينَ: هُمْ الْمَنصُورُونَ...

فَاسْتَفْتِهِمْ : أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ[149]؟ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ[150]؟ أَلَا إِنَّهُمْ، مِنْ إِفْكِهِمْ، لَيَقُولُونَ[151]: وَلَدَ اللَّهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[152]. أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ[153]؟! مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ[154] (تعبدون الإناث وأنتم تفضلون البنين على البنات)! أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[155]. أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ (وحي) مُبِينٌ[156]؟ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[157]. وَجَعَلُوا بَيْنَهُ (الله) وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا (الجنة: الملائكة) (9)، وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ[158] (للنار)، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ[159]، (جملة اعتراضية)، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[160] (فهم غير محضرين

فَغُورَ. فَاحْتَمَى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ. 4فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «خُذْ جَمِيعَ قَادَةِ عَبَدَةِ الْبَعْلِ وَاصْلِبْهُمْ، وَعَلِّقْهُمْ تَحْتَ وَطْأَةِ حَرَارَةِ الشَّمْسِ أَمَامَ الرَّبِّ، فَتَرْتَدَّ شِدَّةُ غَضَبِهِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

8 -. انظر قصته في سورة القلم رقم 35 هامش 3، وفي سورة يونس رقم 50 هامش 7

9- كان بعض العرب يقولون: "إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن". هذا، ومعنى الجن والجنة لغة: الكائنات المخفية التي لا ترى. انظر: تعليق واستطراد في موضوع الجن والشيطان. آخر سورة الجن رقم 40

للنار لأن موعدهم الجنة)، فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ[161] مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ[162] (بمضلين أحدا)، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ[163] (=يصلاها. وقال جبريل للنبي:) وَمَا مِنَّا (نحن الملائكة) إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ[164]. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ[165]، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ[166] (نحن مصطفون صفوفا نسبح، كالطيور الصافات). وَإِنْ كَانُوا (قريش) لَيَقُولُونَ[167] (في جهنم): لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ[168] لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[169]، فَكَفَرُوا بِهِ (بالذكر الذي جاءهم وهو القرآن وفيه قصص الأولين) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[170]. وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ[171]: إِنَّهُمْ، لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ[172]، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ[173].

6- خاتمة: وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ، وأبصر فسوف يبصرون.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ[174]، وَأَبْصِرْهُمْ (بخيالك وهم منهزمون) فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ[175] (ذلك بأعينهم)، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ[176]، فَإِذَا نَزَلَ (عذابنا) بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ[177] (بئس صباحهم). وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ[178]، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ[179]! سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ[180]، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ[181]، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[182].

تعليق

بدأت هذه السورة بمقدمة تؤكد فيها ما ختمت به السورة السابقة، أعني التذكير بقوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[162]، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ[163]. قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ؟! ثم جاءت مقدمة هذه السورة لتبرهن على وحدانية الله من خلال اعتبار ما في الكون من نظام بديع لا يمكن أن يكون قد أقامته الأصنام أو غيرها مما يعبد المشركون. لقد أقسمت بهذا النظام لافتة النظر إلى ما فيه من جمال ونظام : كل جزء منه يؤدي وظيفته في تكامل وتناغم مع الكل، وضربت لذلك مثلا بمشهد من معهود العرب وغيرهم : هناك جماعات من الطيور مصفوفة، إما على جدار أو حين طيرانها (وهذه هي الصافات صفا)، وهناك بجانبها طيور أخرى تزجر المنفلتات أو المنشغلات باللعب أو التناقر... وكأن مهمتها السهر على النظام وتراص الصفوف الخ، وهذه هي "الزاجرات زجرا"، وهناك في هذا الموقع أو ذاك، داخل الصفوف أو خارجها، طيور أخرى تغرد، وعندما تغرد الحمامة فكأنها "تذكر" : تتحدث وتحكي: "أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد" (المعري). والعامة

اليوم، وربما بالأمس أيضا، تقول عنها: "إنها تذكر الله". وهذه هي "الملقيات ذكرا". والمقصود من ذلك كله تأكيد موضوع القسم والاحتجاج له بظواهر الطبيعة، وهو "أن إلهكم لواحد". وقد أكدت السورة هذا المعنى في الآية التالية مباشرة : "رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ". وهي ترسم مجال التداول الذي سيتم فيه بيان موضوع هذه السورة. وهذا أسلوب قرآني في البيان والبرهنة والحجاج يتكرر بكثرة، خاصة في القرآن المكي الذي يكاد يتخصص في جدال المشركين والرد عليهم ولفت انتباههم إلى ما في الكون من نظام بديع لابد أن يكون من صنع إله واحد، وأنه لو كان ثمة آلهة غير الله لما استقام هذا النظام ولكان فيه اختلاف وتناقض[10].

بعد هذا المشهد تنتقل السورة إلى مثال آخر مستقى من معهود العرب ومعتقداتهم، ذكرته مرات وتكرره هنا أيضا. وهو كون السماء قد شددت فيها الحراسة بعد بعثة النبي محمد بن عبد الله، وبالتالي لم يعد هناك مجال لما يدعيه المنجون والكهان من استعمال الشياطين لاستراق السمع بالتنصت إلى حديث الملائكة في السماء والحصول على "علم الغيب". لقد انتهى "عهد استراق السمع" وجاء عهد الوحي الذي ينزل به الملاك جبريل إلى الرسول محمد، ليخبر الرسول وكل مستمع إلى هذا الوحي (القرآن) بأخبار الأولين والآخرين. ومن هنا كان تكرار هذا الحديث ضروريا لمسح ما استقر في أذهان قريش والعرب عموما من دعاوى المنجمين والكهان وإخلاء المكان لتلقي حقائق الوحي.

وبعد تأكيد البعث بالرد مرة أخرى على المكذبين به وتوعدهم بصيحة القيامة وبيان حالهم في جهنم حيث يندمون ويتلاومون، تنتقل السورة إلى عرض شهادة التاريخ المقدس، تاريخ "الأنبياء والرسل، مذكرة بكفاح الأنبياء ضد أقوامهم المشركين الذين يعبدون الأصنام وينكرون البعث والحساب ويكذبون الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، لتتخلص إلى قريش لتؤكد لهم أن مصيرهم سيكون مثل مصير الأولين، وأن النبي سينتصر مثلما انتصر الأنبياء السابقون، لأن الله قضى بذلك منذ الأزل : "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ171: إِنَّهُمْ، لَهُمْ الْمَنْصُورُونَ172 وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ"173.

ثم تختم السورة بالتوجه إلى النبي عليه السلام لتخاطبه بقوله تعالى: "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ174، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ175، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ176، فَإِذَا نَزَلَ (عذابنا) بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ177 (بئس صباحهم). ثم تكرر: "وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ178، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ"179! ولكي ندرك ما وراء تكرار هذا الحث على الصبر يجب أن نستحضر ردود الفعل السلبية التي واجهت به القبائل دعوة الرسول في هذه المرحلة وقد أشرنا إليها في الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة.

10- تنبيه: سياق "الصافات صفا..." يختلف عن سياق "المرسلات عرفا"، ولذلك فضلنا هنا مشهد "الطيور"، بينما فضلنا هناك مشهد "الملائكة".

56- لقمان

- تقديم

ذكر رواة "أسباب النزول" أخبارا حول بعض آيات هذه السورة، من ذلك ما يلي: روي أنه لما أسلم سعد بن أبي وقاص قالت له أمه: "يا سعد بلغني أنك صبوت (أي مِلت عن دين آبائك)، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه"، وكان أحب ولدها إليها! فأبى سعد. فصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى خشي عليها. فأتى سعد النبي صلى الله عليه وسلم وشكا ذلك إليه، فأنزل الله تعالى : "وَوَصَّيْنَا الإنسانَ بِوالِدَيهِ حُسناً" إلى قوله: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ (أرغماك) عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" الآية. وفي رواية أخرى مخالفة، عن سعد ابن أبي وقاص قال: "كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمتُ قالت: يا سعد ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن عن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتُعَيَّـرُ بي فيقال: يا قاتل أمه. قلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدَع ديني هذا لشيء، قال: فمكثتْ يوماً لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، قال فمكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل فأصبحت وقد اشتد جهدها. قال: فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجتْ نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي. فلما رأت ذلك أكلت. فأنزلت هذه الآية "وَإِن جاهَداكَ لِتُشرِكَ بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعهُما".

وقد فسر بعضهم قوله تعالى "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشتَري لَهوَ الحَديثِ لِيُضِلَّ عَن سَبيلِ الله" بما هو أبعد مما تحتمله الآية فقالوا : "نزلت في شراء القيان والمغنيات"، وعززوا قولهم هذا بحديث نسبوه إلى الرسول عليه السلام ورد فيه قوله: "لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن، وأثمانهن حرام". وقالوا: في مثل هذا نزلت الآية المذكورة. وأضافوا: "وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله تعالى عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت" (الواحدي: أسباب النزول). وقد وُصف هذا الحديث من بعض النقاد بأنه "غريب". وسنرى أن في هذا ابتعاد كبير عن الآية. على أنه لو كان قصد الشارع تحريم الغناء وأدواته لورد نص واضح كالنص الذي يحرم الميتة والخنزير والخمر الخ. هذا فضلا عن أن بعضهم يجعلون هذا الآية "تصديقا"

لهذا "الحديث" بينما المفروض هو العكس. فدور الحديث هو أن يبين ما في القرآن وليس العكس. أما أقرب ما رووه إلى أن تكون له علاقة مع الآية السابق فهو ما ذكروا من أنها "نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار؛ فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد؛ وقيل: كان يشتري المغنّيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قيْنَته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه؛ ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه". وسياق الآية يزكي هذه الرواية، أعني مضمونها كما سنرى أسفله.

نص السورة

1- مقدمة: آيات الكتاب الحكيم، هدى للمحسنين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الم[1]، تِلْكَ (ما سيأتي ذكره) آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ[2] (استعمال لفظ الحكيم هنا مناسب للموضوع : حكمة لقمان)، هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ[3] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (الصدقات) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[4]. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[5].

2- رد على الذي يشتري لغو الحديث، هذا خلق الله فماذا خلق غيره؟

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي(1) (كتب) لَهْوَ الْحَدِيثِ (الذي لا فائدة فيه) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَّخِذَهَا (سبيل الله) هُزُوًا (موضوع استهزاء)، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[6]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ (على الذي اشترى كتب قصص الفرس) آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا (صمما)، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[7]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ[8]، خَالِدِينَ فِيهَا، وَعْدَ اللَّهِ

1- ذهب كثير من المفسرين والفقهاء إلى أن المقصود بـ"لهو الحديث" هنا هو الغناء، ومن هنا انساقوا يفتون بتحريم الغناء الخ. ونحن نعتقد أن معنى هذه الآية مرتبط بالآية التي بعدها وأن المناسب كسبب لنزولها هو ما ذكروه عن النضر بن الحارث (انظر التقديم والتعليق). هذا والمقام هنا ليس مقام تحليل ولا تحريم، بل هو مقام التمييز بين كلام القصاص الذي يلهي الناس وبين "آيات الذكر الحكيم" الذي منه وصايا لقمان وهي من جنس الحكمة.

حقًّا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[9]. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (جبالا ثوابت تمنعها من) أَنْ تَمِيدَ (تميل) بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ[10]. هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[11].

3- حكمة لقمان : بديل عن أساطير صاحب لغو الحديث...

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ (الإصابة في القول): أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ. وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[12]. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[13]. وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ (وهي من مشقة الحمل إلى مشقة الولادة الخ) وَفِصَالُهُ (فطامه) فِي عَامَيْنِ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ[14]. وَإِنْ جَاهَدَاكَ (أرغماك) عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (بالإحسان إليهما)، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[15]. يَا بُنَيَّ : إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ (السيئة) مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ (يوم الحساب)، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[16]. يَا بُنَيَّ : أَقِمْ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[17] (من الأمور التي يعزم بها) . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ (لا تمل بوجهك متكبرا)، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا (مشية الخيلاء)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ (متبختر) فَخُورٍ[18] (يفتخر على الناس). وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ (بين السرعة والبطء)، وَاغْضُضْ (اخفض) مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنكَرَ (أقبح) الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ[19].

4- وإذ قيل لهم اتبعوا ما أنزا الله قالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا!

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ[20]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ. قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ[21] (يتبعونه أيضا؟). وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[22]. وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[23]. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ[24].

5- لا تنفد كلماته... وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[25]. لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[26]. وَلَوْ أَنَّمَا (أن ما) فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ (مدادا لكتابة كلمات الله)، مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ (أسماء مخلوقاته). إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[27]. مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[28]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كلٌ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة)، وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[29]. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[30]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ الْفُلْكَ (السفن) تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ (كالرياح وغيرها) لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[31]. وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ (وارتفع هذا الموج وأصبحوا مهددين بالغرق) دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ، فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ (بين الكفر والإيمان)، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا (ومنها هذه) إِلَّا كلُ خَتَّارٍ (غدار) كَفُورٍ[32].

6- خاتمة: موعظة : اتقوا ربكم، لا تدري نفس بأي أرض تموت...!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ[33]. إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[34] .

- تعليق

يمكن القول إن سورة لقمان نزلت ردا على النضر بن الحارث: قالوا كان النضر بن الحارث يخرج تاجراً إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت فيه هذه الآية: (وَمِن الناسِ مَن يَشتَرِي لَهوَ الحَديثِ). وبما أن الخطاب في هذه المرحلة موجه لأهل المواسم والأسواق فمن الجائز أن تكون الآية قد نزلت في النضر وغيره

من القصاص الذين يشغلون الناس فيها بـ "لهو الحديث". هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن القول إن لها علاقة أيضا بما ذكره ابن إسحاق عن الفترة التي بدأ النبي (ص) يعرض فيها نفسه على القبائل وأنه عليه السلام لما علم بمقدم سويد بن صامت ... "إلى مكة حاجا أو معتمرا –وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل لـجلده وشعره ونسبه وشرفه– فتصدّى له رسول الله (ص) حين سمع به، فدعاه إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعلّ الذي معك مثل الذي معي! قال: فقال له رسول الله (ص) "وَما الّذِي مَعَكَ؟" قال مجلة لقمان ـ يعني حكمة لقمان ـ فقال له رسول الله (ص): "اعْرِضْها عَلَيَّ!" فعرضها عليه، فقال: "إنّ هَذَا الكَلامَ حَسَنٌ. مَعِي أفْضَلُ مِنْ هَذَا، قُرآنٌ أنْزَلَهُ اللّهُ عَلَيَّ هُدًى وَنُورٌ". قال: فتلا عليه رسول الله (ص) القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن ثم انصرف عنه".

أما عن شخصية لقمان فقد اختلف رواة الأخبار بصددها اختلافا كبيرا: منهم من قال: كان نبـيّاً، وقـيل: كان حكيماً لقول الله تعالى: "ولقد آتينا لقمان الحكمة"، وقيل: كان رجلاً صالحاً، وقيل: كان خيّاطاً، وقيل: كان نجّاراً، وقيل: كان راعياً. وروي أن إنساناً وقف عليه وهو في مجلسه فقال: ألَسْتَ الذي كنتَ ترعى معي في مكان كذا وكذا؟ قال: بلى! قال: فما بَلَغَ بك ما أرى؟ قال: صِدْقُ الحديث، وأداءُ الأَمانة، والصَّمْتُ عما لا يَعْنِيني.

وبعضهم ذكر أنه هو بلعام بن باعوراء الذي ورد خبره في التوراة (سفر العدد 22–24) ضمن ما ذكرته من أخبار عن مرحلة التيه زمن موسى[2]، وأنه كان نبيا من أهل مدين. بينما عرف عنه في الموروث العربي الإسلامي أنه كان حكيما. على أن بعضهم ذهب إلى القول بنبوة لقمان الذي نسب الله إليه الحكمة لأن لفظ الحكمة يسمح بهذا القول، لأنه أطلق على النبوءة في كثير من القرآن، كقوله في داود "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب". وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" بما يشمل النبوءة. لكن ذلك يخالف ما روي عن ابن عمر من أنه : "قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمنَّ عليه بالحكمة"

وقد ذكر كثير من المفسرين أن لقمان كان في زمن داوود عليه السلام، وأنه كان ابن أخت أيوب، الشيء الذي يعني أنه من بني إسرائيل. قال ابن كثير إن لقمان كان قاضيا في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام. وهذه الرابطة التي يقيمها

2- تاه بنو إسرائيل في صحراء سينا أربعين سنة زمن خروج موسى بهم من مصر.

بعض المفسرين بين لقمان وداود، تتناقض مع ما ذكرناه أعلاه من أن بلعام (المتوهم أنه لقمان) كان في زمن موسى، وأخباره تخص فترة التيه.

هذا وقد نسبت إلى لقمان حكم عديدة، وما يهمنا هنا هو ما ورد في هذه السورة باسم "وصايا لقمان لابنه"، وهي وصايا تدخل في باب العقيدة والأخلاق في القرآن المكي، وبالتالي فهي متصلة مع ما سبق ذكره في سورة الأنعام وما سيرد في سور لاحقة في هذا القسم من الكتاب. يتعلق الأمر هنا : بتجنب الشرك، وبالإحسان للوالدين في جميع الأحوال، وطاعتهما ما لم يحاولا حمل ابنهما على الشرك، واتباع سبيل المؤمنين، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المصائب، وتجنب التكبر والتجبر والتبختر، والاعتدال في المشي، وخفض الصوت الخ.

57- سورة سبأ

- تقديم

ذكروا أن رجلين شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر في مكة، فلما بُعث النبي (ص)، كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه، وكان يقرأ بعض الكتب، فأتى النبي (ص) فقال: إلام تدعو؟ فقال إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله! فقال: وما علمك بذلك؟ قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة القوم ومساكينهم، فنزلت الآية: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" (سبأ 34)"، فأرسل إليه النبي (ص) وقال له: "إن الله قد أنزل تصديق ما قلت". وسنرى أن في السورة ما قد يشهد بالصحة لهذا الخبر.

ومن جهة أخرى ذكروا أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى "لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ" (الآية الأخيرة من سورة الأحزاب) قال لأصحابه: كأنَّ محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت! واللاتِ والعزّى لا تأتينا الساعة أبداً. فأنزل الله تعالى: "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ" (سبأ: 3) الآية، وهذا في غاية الخلط. فسورة "الأحزاب" مدنية، بينما سورة "سبأ" مكية. وإذا كان لابد من ربط الآية الأخيرة بأبي سفيان فالأولى أن يقال: إن هذا الذي نسب إليه، قاله في الأسواق تكذيبا لما كان الرسول (ص) يصدع به فيها وهو في مكة، وهذا واضح من السياق الذي وردت فيه الآية، والذي يربط بين مضمون هذا الخبر ومضمون الخبر السابق.

- نص السورة

1-مقدمة: يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ[1]، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ[2] .

2- الرد على الذين يحاربون الدعوة المحمدية في الأسواق.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ! قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ[3]، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[4]. وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (مثبطين: يصدون الناس في الأسواق عن الاستماع إلى النبي) أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ[5]، وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ[(1)] (أَن) الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[6]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (الذين كانوا يحاربون النبي في الأسواق) هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ (هو محمد) يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ (في القبور) إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ[7]! (فيُجيب من قيل لهم ذلك) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ؟ (يجيب القرآن:) بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ[8]، أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ[9] (ومن آياته التي تشهد على قدرته على فعل ذلك ما خص به داوود وسليمان من أمورٍ خارقة للعادة، وهي كما يلي:)

3- سخر لداود وسليمان الطير والرياح والجن وصناعة السلاح ...

وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا: (من ذلك: قلنا) يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ (كوني تحت تصرفه) وَالطَّيْرَ (كذلك)، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ[10] (يتصرف فيه كما يشاء وقلنا له) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ (دروعا طويلة) وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ (اجعل الدروع على مقاسات الجنود) وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[11]. وَلِسُلَيْمَانَ (سخرنا) الرِّيحَ: غُدُوُّهَا شَهْرٌ (تقطع في الصباح ما يقطعه الراجل في شهر) وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ (وتقطع مثل ذلك في المساء)، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ (نجم النحاس)، وَ(سخرنا له) مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ! وَمَنْ يَزِغْ (ينحرف) مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

1- ربما يكون المقصود هنا بـ " الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" هو الرجل الذي قال له الرسول، في الخبر الذي أوردناه في التقديم: ""إن الله قد أنزل تصديق ما قلت". أما المفسرون فيميلون إلى القول إن المقصود هم أهل الكتاب، ومنهم من عمم وقال: المقصود هم المسلمون جميعا. وما قلناه هو الأنسب، والسياق يشهد له. فالتقابل فيه هو بين ما قاله ذلك الرجل الذي "أمن" بمجرد سماع أن الرسول لم يتبعه إلا الفقراء الخ، وبين أبي سفيان ومن يمثلهم من المترفين المحاربين للدعوة المحمدية في الأسواق.

السَّعِيرِ[12]. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ (مساكن) وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ (كالأحواض في الكبر) وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ (لا تتزعزع)! اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا (شاكرين)، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"[13]. فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ! فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ (كما يعتقد من يعبدونهم) مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ[14] (تحت سلطان سليمان).

4- عقاب أهل سبأ: سيل العرم خرّب بساتينهم.. و"تفرقوا أيدي سبأ"!

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[2] فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ"[15]. فَأَعْرَضُوا، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ (سيل وادي سبأ المنهار) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ (مر) وَأَثْلٍ (نوع من الشجر) وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ[16]! ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ"[17]، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ (أهل سبأ باليمن) وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (مواطن الأنبياء: قرى الشام التي يرتادونها للتجارة) قُرًى ظَاهِرَةً (متواصلة متقاربة على طول هذا الطريق) وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، (محطات فمحطات) : سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا (ليل نهار) آمِنِينَ"[18]. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا (بين هذه المحطات ربما ليتاح لهم الغزو والسلب)، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (فتاهوا في الطرق وتفرقوا وضرب بهم المثل: "تفرقوا أيدي سبا")، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ[3]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[19]. وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"[20]. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ (من ذاته، وما منحناه ذلك السلطان) إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ"[21].

2- روى الطبري أن رجلا سأل الرسول عليه السلام قائلا: "يا رسول الله أخبرني عن سَبَإٍ ما كان؟ رجلا كان أو امرأة، أو جبلا، أو دوابّ؟ فقال: "لا، كانَ رَجُلا مِن العَرَبِ ولَــهُ عَــشَرَةُ أولادٍ، فَتَيَمَّنَ مِنهُمْ سِتَّةٌ (أقاموا باليمن)، وتَشاءَمَ أرْبَعَةٌ (رحلوا إلى الشام)، فَأمَّا الَّذِينَ تَيَمَّنُوا مِنهُمْ فَكِنْدَةُ، وحِمْيَرُ، والأزْدُ، والأشْعَرِيُّونَ، ومَذْحِجٌ، وأنمارُ الَّذِينَ مِنها خَثْعَمٌ وبَجِيلَةُ. وأمّـا الَّذِينَ تَشاءَمُوا: فَعامِلَةُ، وجُذامُ، ولَخْمُ، وغَسَّانُ" (أسماء قبائل).

3- فرق قبائلهم، قيل: "أما غسّان فقد لَحِقوا بالشام، وأما الأنصار فلحقــوا بيثــرب، وأمــا خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعُمان".

5- الله هو الخالق، ولكنكم تشركون به، فأنتم الضالون.

قُلِ (بعد هذا الذي منحناه لداود وسليمان وفعلناه بأهل سبأ...) ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ! (إنهم) لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ (شراكة) وَمَا لَهُ (الله) مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ[22] (معين). وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ (يوم القيامة) إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (الله من الملائكة)، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ (زال الفزع عن قلوب المكذبين بالبعث) قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا (من إذن لهم الله بالشفاعة): الْحَقَّ. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[23]. قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ اللَّهُ. (وإذا قالوا هم كذلك: هو الله، واستووا معكم في الاعتراف بالله، فقل لهم) وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[24]! (والنتيجة الضمنية: أنتم الذين في ضلال مبين لأنكم تعترفون بأن الله هو الخالق الرازق، ومع ذلك تعبدون الأصنام وهي لا تخلق ولا ترزق). قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ[25]. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ[26]. قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ (ماذا خلقوا)! كَلَّا! بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[27]. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ (بمن فيهم القبائل) بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[28] (ذلك ويظنون أننا إنما أرسلناك لقريش)(4). وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[29]؟ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ[30].

6- تلاوم المستضعفين والمستكبرين في النار.. والملائكة يتبرؤون!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (وهم في الدنيا) لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من التوراة والإنجيل)! وَلَوْ تَرَى إِذِ (هؤلاء) الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (في الآخرة)، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا (الضعفاء منهم) لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ[31]. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ[32]. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ (مكركم) مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا. وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ (أي المستضعفون، ظهرت أمارات

4- الطبري: "ذُكر لنا أن نبيّ الله (ص) قال: "أنا سابقُ العَرَب، وصُهَيْبُ سابقُ الرُّوم، وبلالُ سابق الحَبَشةِ، وسَلْمانُ سابق فــارس"، بمعنى أن كلا منهم سابق قومه إلى الإســلام، وأن الإسلام لجميع الأقوام: للناس كافة.

الندامة علي جباهم) لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟![33]. وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[34]، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[35]. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[36]. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا (عند الله) زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ (في الجنة) آمِنُونَ[37]. وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (كالنضر بن الحارث وأبو جهل في الأسواق) أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ[38] قُلْ (للمترفين الذين يعتزون بأموالهم وأولادهم) إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[39]. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (الله) جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ؟[40] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ[41] (5). فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ"[42].

7- خاتمة: إفك مفترى..! قُلْ جَاءَ الْحَقُّ. وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ!

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ (على من في الأسواق) آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا (قال لهم الذين تبعوا الرسول يحاربونه) مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى (كذب مختلق)! وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ[43]! وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ[44]. وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[45]. قُلْ (لأهل الأسواق) إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ (أن تقولوا لا إله إلا الله) مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا! مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ (كي لا تقعوا) بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ[46]. قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ(6)! إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[47]. قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ

5- عبادة الجن كانت منتشرة عند البدو أما قريش فكانت تعبد أصنامها...

6- تكرر معنى هذه الآية مرارا في السور السابقة، لكن يمكن أن نلتمس لها هنا دلالة خاصة: فإن كنتم (يا من في الأسواق) تظنون أني سأطلب منهم أجرا على عظاتي لكم كما يفعل آخرون، (هنا في الأسواق)، فأنا أقول لكم إن الأجر الوحيد من عظاتي: هو لكم أنتم وحدكم، وهو أنكم ستنجون من العذاب يوم الحساب إذا آمنتم؟

بِالْحَقِّ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ[48]. قُلْ جَاءَ الْحَقُّ. وَمَا يُبْدِئُ (ما يخلق) الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ[49] (يعيد الخلق: البعث). قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ"[50]. وَلَوْ تَرَى (يا محمد) إِذْ فَزِعُوا (حين رأوا النار يوم القيامة) فَلَا فَوْتَ (لا نجاة)، وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ[51]، وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ! وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ (التراجع، عن كفرهم)[(7)] مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ[52] (أي بعد أن أصروا على الكفر منذ مدة طويلة)، وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ[53] (يكذبون النبي وينكرون البعث الخ). وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ (من إعلان إيمانهم بعد كفرهم) كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ (بأمثالهم من الأمم الماضية)، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ"[54] (من يوم الحساب).

- تعليق

قصة "سبأ" التي وردت في هذه السورة لم ترد من قبل، وقد شغلت حيزا كبيرا من السورة حتى إنه ليمكن القول إن عليها بنيت. وقد سبقت قصة الملكة بلقيس مع سليمان (سورة النمل) ولم تتعرض لقوم سبأ ولا لسد العرم. ويبدو أن نزول هذه السورة له علاقة بالمرحلة الجديدة من الدعوة أعني الخروج إلى الأسواق ودعوة القبائل. ومما يرجح هذا الاحتمال ما ذكره ابن إسحاق من أن من أوائل من اتصل بهم عليه السلام في الموسم قبيلة كندة[(8)] اليمنية. قال: حدثنا ابن شهاب الزهرى: أنه (الرسول) أتى كِنْدة في منازلهم (في المكان الذي نزلوا فيه في السوق)، وفيهم سيد لهم يقال له مُلَيْح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبَوْا عليه".

نحن نظن أن ذلك كان مناسبة لنزول هذه السورة، فقد ذكَرت بما كانت قبائل اليمن تعيش فيه من رغد العيش ثم انقلب وضعها رأسا على عقب بانهيار سد العرم، كما ورد في الأخبار التي تداولها المفسرون ومنها ما يلي: قالوا: "لما ملكت بلقيس، جعل قومها يقتتلون علـى ماء واديهم (وادي سبأ)، فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها فتركت مُلكها، وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشرّ بينهم، وندموا أتوها، فأرادوها على أن ترجع إلى مُلكها، فأبت فقالوا: لترجعنّ أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا

7- "يقال للقوم في الحرب، إذا دنا بعضهم إلى بعض بالرماح ولم يتلاقوا: قد تناوش القوم".

8- قال بعض النسابين العرب : " كندة: هم بنو ثور بن مرة بن أدد بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ".

تطيعونني، وليست لكم عقول، ولا تطيعوني، قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيرا بعدك، فجاءت ... فسدّت ما بين الجبلين، فحبست الماء من وراء السدّ، وجعلت له أبوابا بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثي عشر مخرجا على عدّة أنهارهم فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السدّ، فأمرت بالباب الأعلى ففتح، فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها، فجعل بعض البعر يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البعر في الماء، حتى خرج جميعا معا (بمعنى أن سرعة الماء صارت واحدة)، فكانت تقسمه بينهم على ذلك (بالتساوي)، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان" (الطبري).



استطراد

الدعوة تغزو العرب في المواسم والأسواق!

وبعد، فماذا كانت نتيجة هاتين السنتين[1] اللتين قضاهما الرسول عليه السلام في الدعوة في المواسم وعرض نفسه على القبائل؟

تؤكد مراجعنا أن النبي عليه السلام كان "يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج ... يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة". وكانت أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. قالوا: وكانت العرب "إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوّال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج"؛ وكان الرسول عليه السلام يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه" (انظر تفصيل ذلك في مقدمة هذا القسم من الكتاب)

ومع ذلك فقد كانت هناك بوادر إيجابية وردت عنها تلميحات في سور هذه المرحلة وقد توقفنا عندها في حينها. من ذلك لقاؤه مع شخصية تدعى سُويد بن صامت، الذي كان يحمل معه "صحيفة لقمان"[2]. ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن إسحاق من أنه: "لما قدم (من يثرب) أبو الحَيْسَر، أنس ابن رافع، مكة ومعه فِتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحِلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول اللّه (ص)، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له؟ الخ (انظر تفصيل ذلك في المقدمة)

ومع هذه السلبيات، أعني أنه على الرغم من أن القبائل العربية لم تستجب لطلب الرسول عليه السلام، فإنها قد تعرفت عليه،/ وبدون شك ستنتشر خبره في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وستكون يثرب أكثر تأثرا وستصبح "مدينة الرسول"، ولكن بعد ست سنوات: ثلاث منها يقضيها الرسول في الحصار وثلاث خارج الحصار.

ولا بد من التأكيد هنا على أن ربط الخطاب القرآني منذ سورة الحجر إلى آخر ما نزل في مكة ، بالدعوة في أوساط القبائل من أهل البادية، في المواسم والأسواق، هو اجتهاد منا، لم

---

1 – هذا التحديد الزمني من تقديرنا، وذلك اعتمادا على أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت حوالي الخامسة والنصف حسب جل الروايات وأن حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب كان في بداية السنة السابعة كما ذكره ابن سعد. وإذن فقد مرت سنتان على دعوة الرسول القبائل إلى الإسلام، والأصح أن نقول مر موسمان من مواسم الحج والأسواق.

2– انظر "التعليق" في سورة لقمان.

نعثر على شبيه له في التفاسير التي بأيدينا وأيدي الناس. والسبب الرئيسي في انفرادنا بهذا هو انفرادنا في بناء فهم للقرآن على ترتيب النزول. ولا شك أن القارئ قد لمس بنفسه نتائج هـذه المحاولة من خلال ما قدمناه من فهم مستقل، وأحيانا مختلف، عن فهم جميع المفسرين.

نذكر هذا ليس افتخارا وإنما من أجل جلاء خاصية "التكرار" في القرآن المكي. وكما قلنا في "التعريف بالقرآن" (المدخل)، فالخطاب في القرآن يسير على نهج العرب في المخطابة، المنهج الذي عبر عنه البلاغيون بالقول "لكل مقام مقال"، وأن ما يميـز القـرآن عـن أنـواع الخطابات العربية الأخرى هو أن الثابت فيه هو المقال، بينما المتغير هو المقام. مقال القـرآن المكي واحد (يدور حول النبوة والتوحيد والبعث)، سواء تعلق الأمر بمقام قريش ووضعيتها أو بمقام أهل القبائل أو غيرهم.

المرحلة الخامسة

حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب
وهجرة المسلمين إلى الحبشة



استهلال

كانت نهاية المرحلة السابقة (الرابعة)، من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، متميزة باتجاه النبي عليه السلام إلى الاتصال بالقبائل والأسواق بعد نزول قوله تعالى "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحجر94-95). ومع أن الاستجابة كانت قليلة، بل تكاد تكون منعدمة كما رأينا في "الاستطراد" أعلاه؛ إلا أن الاتصال المباشر بين الرسول عليه السلام وبين القبائل في الأسواق وحديثه إليهم وطلبه حليفا يحميه من قومه حتى يبلِّغ رسالته قد جعل قريشا تدرك أن أمر محمد عليه السلام لم يعد محصورا في مكة وأن الإسلام أخذ يطرق آفاق جديدة لم تكن في الحسبان فخططوا لمواجهة هذا التطور الجديد.

يقول ابن إسحق: ""ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: "يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا: مِن شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"، أو كما قالوا! ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم يطِب نفسا بإسلام (تسليم) رسول الله لهم ولا خذلانه"، فرجعوا بخفي حنين. أما أبو طالب الذي أدرك من لهجة وفد قريش أن الرسول قد أصبح مهددا أكثر من ذي قبل فقد قام في بني هاشم وبني المطلب (عشيرة النبي) فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله إلا ما كان من أبي لهب" (ابن إسحاق).

وعلى أثر تضامن عشيرة النبي مع أبي طالب في حماية الرسول "اجتمعت قريش فائتمرت بينها أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم... وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب (بجبل أبي قبيس) ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبئ رسول الله (ص). وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شِعبه مع بني هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد وسُمع أصوات صبيانهم من

وراء الشِّعب! فمن قريش مَن سره ذلك ومنهم من ساءه ... فأقاموا في الشعب ثلاث سنين"

"أما بقية المسلمين "فأذن لهم رسول الله (ص) في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ونالوهم بالأذى. وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار فلما سمعوا بمهاجرة رسول الله (ص) إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثماني نسوة" (ابن سعد وابن إسحاق).

كان ذلك هو مسار الدعوة في هذه المرحلة "الخامسة"، مرحلة الحصار، التي دامت نحو سنتين. يبقى أن نشير إلى أن بعض الروايات قد ذكرت أن قريشا "بعثت – على أثر الهجرة الأولى إلى الحبشة– عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي إلى النجاشي مع هدايا كثيرة أهدوها إليه وإلى بطارقته وأمروهما أن يسألا النجاشي تسليم مَن قِبله وبأرضه من المسلمين إليهم، فشخص عمرو وعبد الله إليه في ذلك فنفذا لما أرسلهما إليه قومهما، فلم يصلا إلى ما أمَّل قومهما من النجاشي، فرجعا مقبوحين" (الطبري: التاريخ).

قالوا: إن فشل مهمتهما واحتفاء النجاشي بالمهاجرين كانا وراء اشتداد ضغط القرشيين على الرسول والمسلمين في مكة وقرارهم فرض الحصار على النبي وأهله. وهذا لا يستقيم، لأن هجرة من هاجر إلى الحبشة، الهجرة الأولى، كانت في رجب من سنة خمس للنبوة وأنهم لم يمكثوا سوى ثلاثة أشهر في الحبشة إذ عادوا إلى مكة بتأثير إشاعة مفادها أن النبي قد تصالح مع قريش إثر قصة الغرانيق. أما سفر وفد قريش إلى النجاشي لطلب تسليم المسلمين فلا بد أن يكون بعد الهجرة الثانية لأنه لم يكن قد بقي قبلها في الحبشة من المهاجرين ما يبرر إرسال ذلك الوفد. فالمهاجرون في الهجرة الأولى كان أكثرهم قد عاد ودخل في جوار رجال من قريش.

والواقع أن مسار الدعوة يدل على أن قريشا أرسلت الوفد المذكور إلى النجاشي بعد حصار قريش للنبي في شعب أبي طالب سنة سبع للنبوة، الشيء الذي يعني أن إذن النبي لأصحابه بالهجرة الثانية كان بعد دخوله الحصار أو قُبيله بقليل وخوفه على المسلمين. ومهما يكن من أمر فإن الإشارة الوحيدة في القرآن إلى الهجرة إلى الحبشة إنما نجدها في سورة "الزمر" التي سننتقل إليها الآن. ولذلك جعلناها أولى السور التي نزلت خلال الحصار. وليس من المستبعد أن يكون نزولها قبله بقليل.

58- سورة الزمر

- تقديـــم

لعل أهم ما ورد في روايات "أسباب النزول" بخصوص هذه السورة روايتان: إحداهما عن ابن عباس قال: قوله تعالى: "قُلْ يعِبَادِ الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ رَبّكُمْ" الآية، نزل في جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة، والأخرى ورد فيها أن قوله تعالى: "وأرض الله واسعة" أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة.

أما الروايات الأخرى التي ربطوا نزولها بأشخاص فهي -كما سبق القول مرارا- إنما فائدتها في ما تساهم به في جلاء الأثر الذي كان للقرآن في المجتمع المكي. من ذلك: قوله تعالى "والذين اتخذوا" الآية، قال ابن عباس نزلت في ثلاثة أحياء (قبائل): عامر، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون الملائكة بناته، فقالوا "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى". وأما قوله تعالى: "والذين اجتنبوا الطاغوت الآية" فقد قيل نزل في نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، وهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي. وقالوا أما الآية: "ويخوفونك" الخ، فقد نزلت في الرد على قريش حين قالت للنبي (ص) "لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلن". وقالوا: نزل في مشركي أهل مكة حين قالوا للنبي (ص): أتضلل آباءك وأجدادك يا محمد؟ فأنزل الله "قل أفغير الله تأمروني أعبد" إلى قوله "من الشاكرين". وقيل: مَــرَّ يهودي بالنبي (ص)، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذِه، والأرضين على ذِه، والماء على ذِه، والجبال على ذِه؟ فأنزل الله "وما قدروا الله حق قدره" الآية. وقيل: لما نزلت "وسع كرسيه السموات والأرض" قالوا: يا رسول الله هذا الكرسي هكذا؟ فكيف العرش؟ فأنزل الله "وما قدروا الله" الآية. قيل "إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسَن، إن تخبرنا لما علمناه كفارة! فنزلت هذه الآية "يا عِبادِيَ الَّذينَ أسرَفوا عَلى أنفُسِهِم".

– نص السورة

1– مقدمة: ألا لله الدين الخالص. والأصنام لا تنفع ولا تشفع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[1]. إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ[2]؛ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.

2– خلقكم من نفس واحدة ... ولا تزر وازرة وزر أخرى!

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (يقولون) مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (قربى)، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ[3]. لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، سُبْحَانَهُ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[4]. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ[5]. خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا(1)، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ(2). يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ (نطفة، فمضغة، فعلقة الخ) (3)، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ(4). ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَهُ الْمُلْكُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ[6] (عن الله) ؟ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[7]. وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا (أصناما آلهة) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ. قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا

---

1 – انظر تعليقنا حول هذا الموضوع في سورة الأعراف هامش 30 (القسم الأول من الكتاب)

2 – الإبل والبقر والضأن والمعز، ذكورا وإناثا: ثمانية أزواج. الزوج : ذكر وأنثى.

3 – على نحو ما هو مذكور في سورة المؤمنون : "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (المؤمنون 12-14)

4 – شرحها المفسرون بكونها : ظلمة البطن، وظلمة الرّحم، وظلمة المَشِيمَة.

(في الدنيا) إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ[8]. أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[(5)] آنَاءَ اللَّيْلِ، سَاجِدًا وَقَائِمًا، يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ! (كمن لا يعمل ذلك؟). قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ[9].

3- أرض الله واسعة: الحبشة. أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين.

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ[(6)]. إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ (على غربة الهجرة إلى الحبشة) أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[10]. قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ[11]، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ[12]. قُلْ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[13]. قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي[14]، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ. قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ (هم) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[(7)]! أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[15] : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ. ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ[(8)]، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِي[16]. وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ (الأصنام) أَنْ يَعْبُدُوهَا

5- القنوت: "الطاعة، هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: "وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ" (الأحزاب 35)؛ ثم سمي القيام في الصلاة قنوتا، وفي الحديث: "أفضل الصلاة طول القنوت"، ومنه قنوت الوتر" (الجوهري).

6- قال بعض المفسرين إن في هذه الآية إشارة إلى الهجرة إلى الحبشة. ونسب إلى ابن عباس أنه فسر قوله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ" : يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة (ذكره الطبري). وعلى هذا فالسورة تكون قد نزلت بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة، في ظروف الحصار، وبذلك تكون هذه السورة أول ما نزل في هذه الظروف.

7- خسران الأهل هنا، ربما يشير إلى المهاجرين إلى الحبشة، يخبرهم أنهم لن يخسروا أهلهم، فخسران الكفار لأهلهم (أي مفارقتهم الأبدية) تكون يوم القيامة. أما في الدنيا فثمة دائما إمكانية للقاء. وقد يكون المعنى أن الرسول وهو تحت الحصار لم يخسر أهله. وهذا كله مبني على قراء الآيات السابقة على أنها تستحضر وضعية الحصار والهجرة إلى الحبشة. أما "الخسران المبين" الذي يكون يوم القيامة فهو للمشركين في جهنم حيث تلاقي كل نفس مصيرها بمفردها.

8- هذه الآية مع مثيلاتها تطرح مسألة "التخويف" الذي يوصف به ما يقدمه القرآن كمشاهد للآخرة: هل يجب حمل ألفاظ تلك المشاهد والصور التي تقدمها على الحقيقة أم على المجا؟ ومهما يكن فحديث الجنة والنار هو للترغيب والترهيب من حيث الصور المشخصة التي يقدمها القرآن، ولكنه قبل ذاك وبعده يحمّل الإنسان مسؤولية ما يفعل في الدنيا، وهذا ما كان يتهرب منه الملأ من قريش، إن إنكارهم للبعث هو تهرب من الجزاء.

(اجتنبوا عبادة الأصنام)، وَأَنَابُوا إِلَى اللَّه، لَهُمْ الْبُشْرَى! فَبَشِّرْ عِبَادِي[17] الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ[18]. أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (طبق عليه حكم الله فألقي به في النار) أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ[19]؟ لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ (في الجنة) غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ: وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ[20]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ (ييبس) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا (فتاتا)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ[21] (وكذلك حال البعث). أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ (كمن بقي على ضلاله)، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ (ينفرون) مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[22].

4- قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ! اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ، إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ!

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ[(9)]، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[23]. أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (كمن يدخل الجنة)! وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ (الملقى بهم في العذاب) ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ[24]. كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[25]، فَأَذَاقَهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ (الذل) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[26]. وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[27]، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ[28]: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ (عبداً مملوكا له أكثر من سيد يتنازعون عليه)، وَرَجُلًا (وعبداً آخر) سَلَمًا لِرَجُلٍ (خالصا لرجل واحد)، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[29] [(10)].

9- متشابها : يشبه بعضه بعضا نظما ومضمونا، مثاني: تُــثــنَّى وتكرر فيه القصص والمواعظ والحجج والوعد والوعيد...

10 - معنى المثل واضح: وهو أنه ليس من العدل جعل الناس، في الآخرة، كلهم في الجنة أو في النار، لأن وضع الناس في الدنيا قائم على الاختلاف: ومن مظاهر هذا الاختلاف وقوع بعضهم حكاما ظالمين وأسيادا مستغلين وآخرين محكومين مظلومين الخ. وهكذا فوضع الذين يؤمنون بإلــه واحد يختلف عن وضع الذين يعبدون آلهة متعددة : أولئك يفصل بينهم إله واحد بالعدل، وهؤلاء يقعون تحت طائلة اختلاف آلهتهم، وبهذا المعنى ترتبط الآيات التالية بالسابقة في سياق واحد. على أن هذا المثل الذي ضرب هنا في مجال المعاد ينطبق=

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ (قريش) مَيِّتُونَ[30]، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ[31]. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مأوى) لِلْكَافِرِينَ[32]؟ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (وهو النبي) وَصَدَّقَ بِهِ (وهم المؤمنون)، أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ[33]. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ[34]، لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[35] (بما كانوا يعملون من الحسنات). أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (النبي)[(11)]؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ (من دون الله: الأصنام) ! وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[36]، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ. أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ[37]؟ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ (الأصنام) كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ[38]. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ (جهتكم التي اخترتم) إِنِّي عَامِلٌ (على جهتي التي تمكنت عندي)، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[39] مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ[40] (مستمر متواصل).

5- فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِه وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ...

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[41]. اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ (يجعل نهاية لنشاطها وحيويتها) حِينَ مَوْتِهَا (عندما تستوفي آجالها)، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ (لم تستوف أجلها، يتوفاها) فِي مَنَامِهَا (يجعل حدا لنشاطها): فَيُمْسِكُ (عنده) الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى (في الدنيا) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى[(12)]. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[42]. أَمِ (بل) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ؟! قُلْ (لهم) أَوَلَوْ كَانُوا لَا

أيضا على مسألة التوحيد لبيان استحالة وجود أكثر من إله واحد، لأنه لو كان ثمة أكثر من واحد لوقع التنازع بينهم، خصوصا والإله في الإسلام من أسمائه "المالك". وفي هذا المعنى قوله تعالى: " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" (الأنبياء 22)

11 - قيل: "أنّ قريشاً قالت لرسول الله (ص): إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك معرتها لعيبك إياها"، وجاء الجواب: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ" : الله يحفظه ...

12- وذلك على معنى أن الحياة هي وجود النشاط الحسي والنفسي والعقلي. والوفاة هي خمود ذلك النشاط، إما بسبب الموت (على سبيل الحقيقة) وإما عند النوم (على سبيل المجاز). جاء في لسان العرب: "وأما توفّي النائم فهو استيفاء وقت عقله وتمييزه إلى أن نامَ".

يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ[43]! قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[44]. وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[45]. قُلْ اللَّهُمَّ (يا الله)، فَاطِرَ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[46]. وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (أي لأعطوه يوم القيامة فداء للعذاب الذي يكونون فيه)؛ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبُونَ[47] (يظنون) : وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[48] (من الوعيد). فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ (ابتلاء). وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[49]. قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[50]، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا؛ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ (قريش) سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا. وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (الله)[51]. أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يضيقه على من يشاء)؟! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[52].

6- حث على الإيمان ووعد ووعيد...

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (اقترفوا ذنوبا ولم يسلموا) لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا (إذا أسلمتم)، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[53]. وَأَنِيبُوا (ارجعوا) إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (اتركوا العناد وأخلصوا له) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ[54]، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ (القرآن) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ[55]! (افعلوا ذلك في الدنيا قبل) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ (يوم القيامة) يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ (وإني) كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ[56]، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ[57]، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً (رجعة إلى الدنيا) فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[58]! (جواب من يقول ذلك:) بَلَى! قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ[59]. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ: وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مقام) لِلْمُتَكَبِّرِينَ؟[60]. وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ (بفوزهم بالجنة) لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[61]. اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (متصرف)[62]. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ[63]. قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ[64]! وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ (يا محمد) وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[65]. بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِين[66].

7- خاتمة: مشهد القيامة والجزاء...

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (ما عرفوا قدره وعظمته): وَالْأَرْضُ جَمِيعًا (تكون في) قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[67]. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (النفخة الأولى) فَصَعِقَ (مات) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ؛ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ (من قبورهم) يَنْظُرُونَ (ينتظرون ما سيفعل بهم)[68]. وَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (أضيئت)، وَوُضِعَ الْكِتَابُ (الذي سجلت فيه الأعمال للحساب)، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ (من الملائكة: يشهدون أن الرسل بلغوا رسالات ربهم كما يشهدون على ما كان الناس يعملون)، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[69]. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ[70]، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا (جماعات)، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَى! وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ[71]. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا؛ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ[72]. وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، طِبْتُمْ! فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ[73]. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[74]. وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ (محيطين) مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ. وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[75].

– تعليق

تدور موضوعات هذه السورة حول محوري التوحيد والمعاد، وهما الركنان الأساسيان في العقيدة الإسلامية، وبهما ينفصل الإسلام انفصالا كليا عن وثنية العرب، التي تقوم على "الشرك" من جهة، وإنكار البعث والجزاء من جهة أخرى. والتركيز على هذين الركنين في الظروف التي نزلت فيها هذه السورة له مغزاه. فالرسول وهو محاصر في شعب أبي طالب بالجبل، أو في مكان آخر ووضعية أخرى، مطالب دوما

بتبليغ الرسالة. وقد نزلت آيات عديدة في السور السابقة تحثه على الثبات على العقيدة وعدم التنازل.

وكما رأينا فمنذ أن انتقل القرآن، من الاقتصار على الدعوة إلى التوحيد إلى شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام وبيان لامعقوليتها، وقريش تحاول بكل الوسائل حمل الرسول على ترك المس بالأصنام... وعندما فشلت في مساومته في هذا الموضوع عمدت إلى تعذيب المسلمين وضرب الحصار على القبائل القرشية لمنع تسرب الدعوة المحمدية، فكان البديل الذي قدمه القرآن هو "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (الحجر 214-216)' الشيء الذي يعني: سلوك سياسة اللين والتعاطف مع من أسلم من عشيرته وتجنب الاصطدام، مع من لم يسلموا وترتيب العلاقة معهم على أساس سلمي قوامه "إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ"، أي لا أتحمل معكم مسؤولية كفركم. وإذا كانت الروايات قد اقتصرت على ذكر رد فعل عمه أبي لهب، الذي سبق أن نزلت فيه سورة "المسد"، فإنها لا تذكر شيئا عن ردود فعل أخرى سوى أن كثيرا من خصوم الدعوة المحمدية كانوا حائرين لمعرفتهم بصدق وأمانة محمد بن عبد الله، وكان كثير من هؤلاء الحائرين يكشفون في خلواتهم عن اعتقادهم بأن محمدا صادق فيما يقول. وسينكشف بعد مدة قصيرة تأثير "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" في كل من بني هاشم وبني المطلب –وهم عشيرة النبي– في رد فعل قريش عندما قررت التخلص من محمد بن عبد الله بالاغتيال، الشيء الذي حرك التضامن معه داخل عشيرته، فانتقلت كلها معه –باستثناء أبي لهب– إلى شعب أبي طالب، مكان الحصار، لتحميه من أي مكروه ولتفهم قريشا أنها لن تبقى مكتوفة الأيدي إزاء أي عدوان على حياة محمد.

لقد استعدنا هذه المعطيات لنبرز الحقيقة التالية: وهي أن وضع النبي عليه السلام خلال مرحلة الحصار كان أقوى مما كان عليه الحال في المراحل السابقة. ففي المراحل السابقة كان النبي (ص) وحيدا يتحدى قريشا، ولم يكن يمنعه، من ذهاب قريش في اضطهاده إلى أكثر من الاستهزاء والإهانة الشخصية، سوى مكانة عمه أبي طالب في الوسط القرشي، ليس فقط لأنه كان عميد الهاشميين بل أيضا لأنه لم يفارق دين قريش، دين آبائه وأجداده، فدافع عن شخص محمد ابن أخيه من زاوية ما نعبر عنه اليوم بـ"حرية العقيدة". أما "أتباع محمد"، أي المسلمون فقد سلطت عليهم قريش طغيانها فعذبت حتى الموت المستضعفين منهم، ثم "وثبت" كل قبيلة من قبائل قريش على من فيها من المسلمين أو المتعاطفين معهم. وأمام تلك الحملة الشرسة فتح النبي عليه السلام باب الهجرة إلى الحبشة أمام أصحابه، فاستمرت نحو سنة ونصف لتشمل جميع المسلمين تقريبا مع ابتداء مرحلة الحصار.

وهكذا يبدو وضع النبي خلال مرحلة الحصار أخف وطأة مما كان عليه قبل. إنه الآن في شعب أبي طالب في أمان تحميه عشيرته، أما أصحابه فهم في الحبشة عند النجاشي في أمن وأمان عبرت عنهما زوج رسول اللّه (ص): أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وكانت من المهاجرات بقولها: "لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خيرَ جار، أمِنّا على ديننا، وعبدنا اللّهَ تعالى لا نُؤذَى ولا نسمعُ شيئا نكرهه".

هذه الوضعية المريحة، قياسا على ما سبقها، هي التي تفسر لهجة هذه السورة التي كانت أول ما نزل بعد الحصار: لقد ركزت كما قلنا على الركنين الرئيسيين في العقيدة الإسلامية: التوحيد والمعاد، مع تحدي قريش أن تنفذ ما خوفته به من تسليط أذى الأصنام عليه. كما أسهبت في الدعوة إلى التوحيد باستعمال العقل، وفي وصف مشهد للقيامة والجزاء، هو بحق آية في البيان.



59- سورة غافر

- تقديـــم

هذه السورة تعرف باسم "غافر" و"الطول" و"المؤمن"، يغالب عليها الاسم الأولى في المغرب العربي والثاني في المشرق، والثالث أقل استعمالا. وهي أول الحواميم السبعة (جمع: حم. وهي: حم/غافر، حم/فصلت، حم/الشورى، حم/الزخرف، حم/الدخان، حم/الجاثية، حم/الأحقاف). وتتميز هذه الحواميم -أو آل حميم- بكونها نزلت متتابعة، كما هي هنا، ورتبت متتابعة في المصحف كما في لوائح ترتيب النزول دون خلاف. وهذا التتابع -دون خلاف أو اختلاف الذي ليس له مثيل في ترتيب سور القرآن- دليل على أنها نزلت خلال الحصار وأن المرجع فيها واحد هو الرسول عليه السلام. وقد ورد في امتداحها عدة روايات منها أحاديث منسوبة إلى النبي عليه السلام فقد روي أنه قال: "الحواميم ديباج القرآن". وأن : "لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هنّ روضات حسان، مخصبات متجاورات. فمن أحبّ أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم". وفي حديث ثالث قال: "مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب". وعن أنس بن مالك قال: "سمعت رسول الله (ص) يقول: "إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف، الأنعام، التوبة/الأنفال) مكان التوراة، وأعطاني "الراءات" (جمع ألر: ا. ل. ر) (أربعة) إلى الطواسين (ثلاثة) مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصل (المفصل : القصيرة من السور، ما بين سورة "ق" وسورة الناس)، ما قرأهن نبـــي قبلي". وعن ابن عباس قال: "إن لكل شيء لباباً وإن لبابَ القرآن الحواميم". "الحواميم روضة من رياض الجنة" [1].

1- سبق أن أوردنا (في سورة الفاتحة: التعليق) جملة آراء تعترض على امتداح بعض القرآن دون بعض نقلا عن القرطبي نوجزها فيما يلي: قال: "اختلف العلماء في تفضيل بعض السُّوَر والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن=

يمكن لسائل أن يسأل: لماذا لا تعتبر سورة الزمر والحواميم هي"السبع المثاني"؟ فعلا، كنت أشرت إلى هذه الإمكانية في التعريف بالقرآن الكريم، وقد حملني على ذلك كونها نزلت في فترة الحصار. ولكن تبين لي فيما بعد أن هناك أمرين لا يشجعان على ذلك. أولهما أن قوله تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" ورد في سورة الحجر (آية 87) وهذه السورة نزلت قبل الزمر والحواميم، بينما "السبع المثاني" لا بد أن تكون قد نزلت قبل هذه الآية حتى يستقيم الكلام (وقد آتيناك...). أما الأمر الثاني فهو أنه لو كان المقصود بالمثاني هي الحواميم لورد ذكرها ضمن العبارات التي تنسب إلى النبي والتي تشيد بها (أعلاه)...

ومما لفت انتباه المفسرين المناسبة بين أول هذه السورة وآخر التي سبقتها "انتهت سورة الزمر بذكر ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن، لتأتي سورة غافر باستهلال يؤكد أن الله "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ"... "ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه". كما لاحظوا أن هناك أوجها للمناسبة بين سورة الزمر والحواميم السبعة منها "تآخي المطالع في الافتتاح بعبارة "تنزيل الكتاب"، ومجيئ الحواميم كلها متتابعة بعد الزمر.

وبقطع النظر عن مدى صحة هذه المرويات فإن تعددها وورودها من جهات مختلفة يدل في نظرنا على أن كثيرين قد لمحوا في الحواميم ميزة خاصة بها. ومع أنني أؤيد الرأي القائل إن القرآن كله واحد ولا ميزة لآية أو سورة منه على الباقي، فإني أرى أن الميزة الخاصة بهذه السور هي كونها نزلت في فترة الحصار: حصار قريش للنبي وعشيرته في شعب أبي طالب. ومع أننا أكدنا في التعليق الخاص بالسورة السابقة أن النبي عليه السلام بدخوله الحصار وهجرة أصحابه إلى الحبشة قد صار في وضعية أفضل من حيث الأمن والآمان على شخصه وعلى أصحابه، فإن المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي وأهله واستمرارها نحو ثلاث

حيان البُستي، وجماعة من الفقهاء. ورُوي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: "مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه". وعلى هذه الأقوال تكون الأحاديث السابقة من قبيل الترغيب في قراءة القرآن

سنوات قد خلقت وضعا لا يطاق، خصوصا وقد قطعت عنهم "الميرة" وطاردتهم في الأسواق...

- نص السورة

1- مقدمة: لا يغررك هيمنة قريش على البلاد.

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[2]. غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (الإنعام الواسع)، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ[3]. مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ[4] (هيمنتهم على مكة وأسفارهم للتجارة وأنت في الحصار. ذلك هو الشأن مع الأقوام الذين كذبوا رسلهم فأمهلناهم إلى حين).

2- لقد همت كل أمة برسولهم ليقتلوه، أنت تعرف كيف كان العقاب!

أ- مثال نوح! فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ!

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَالْأَحْزَابُ (أقوام وأمم) مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (ليقتلوه كما همت قريش على فعل ذلك فانتقل النبي وأهله إلى شعب أبي طالب)، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ[5]؟! (أنت تعرف ذلك). وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (كفار قريش) أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ[6]. (الملائكة) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (قائلين): رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[7]. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ، وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[8]. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[9] (2). إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

2- يحتمل أن يكون المقصود بهؤلاء المؤمنين الذين تدعو الملائكة لهم ولمن "صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" بالجنة وأن يقيهم الله السيئات، هم المهاجرين إلى الحبشة، فقد هاجر جلهم ومعهم زوجاتهم وأبناؤهم، وهم معرضون في بلاد الهجرة إلى كل احتمال، ولذلك

يُنَادَوْنَ (يقال لهم) لَمَقْتُ اللَّهِ (لكم في الدنيا وأنتم تكفرون) -أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ (يوم القيامة بسبب العذاب الذي حل بكم)- إِذْ (كنتم في الدنيا) تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ[10]. قَالُوا (أجابوا معترفين بالبعث) رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ (جعلتنا عدمًا مرتين: مرة قبل خلقك لنا ومرة بعد توفيك لنا) وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (عندما خلقتنا أول مرة، وعندما بعثتنا من قبورنا) فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا! فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ[11] (إلى العودة إلى الدنيا لنعمل صالحا؟ الجواب:)، ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا(3)، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ[12]. هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ[13]. فَادْعُوا اللَّهَ (يا محمد وأصحابك) مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[14]: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ (يُنزِّل الوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ[15] (يوم القيامة). يَوْمَ هُمْ (يعني الذين جاءتهم نذر الله) بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ! لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[16]. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[17]. وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ (القيامة) إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ (ممتلئات غما): مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ[18]. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (ما تسرق من نظر) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ[19]. وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[20]. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ[21]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ. إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ[22]. (من ذلك : موسى...)

ب- وَقَالَ فِرْعَوْنُ (=أبو جهل): ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى (محمدا) وَلْيَدْعُ رَبَّهُ !

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ[23] إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ (وزيره) وَقَارُونَ (صاحب الخزينة)، فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ[24]. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ (استبقوهن

كان الطلب لهم بأن يقيهم السيئات. والجدير بالإشارة أن هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي يذكر فيه القرآن هذا الدعاء "وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ".

3 – لم يكن العرب ينكرون وجود الله بل كانوا يؤمنون به وبوسطاء إليه هم الأصنام.

للخدمة)، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[25]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ [(4)]، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ[26]. وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ[27].

ج- رجل مؤمن من آل فرعون : أتقتلون رجلا لأنه يقول ربي الله؟

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا (بسبب) أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ [(5)] وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ! وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ[28]. يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ (أسيادا) فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى (الرأي هو رأيي)، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ[29]. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ[30] (الأقوام الذين تحزبوا ضد الرسل) : مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ[31]. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ[32] (القيامة)، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ (ينادي بعضكم بعضا)، مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ! وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[33]. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ (قبل موسى) بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ[34]. الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبُرَ (ذلك) مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[35]. وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ[36]، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ (ما يوصلني إليها) فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا! وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ؛ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (خسارة)[37]. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ: يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ[38]. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ

4- هذه هي المرة الأولى التي يقول فيها فرعون في القصص القرآني "ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى". فرعون هنا رمز لأبي جهل، وكان قد طالب باغتيال النبي (ص) قبل الحصار.

5- روي أن أبا بكر قرأ آية "أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" (غافر: 28) حين آذى نفر من قريش رسول الله (ص) حول الكعبة، وأن ذلك كان خلال الحملة التي شنتها قريش على النبي وصحبه، وقد ذكرنا ذلك قبل. لكن السياق يشكك في هذه الرواية لأن القائل "رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه"، فالمماثلة بينه وبين أبي بكر غير مستقيمة. وبالتالي فالراجح أي يكون أحد غير المسلمين من القرشيين المتعاطفين مع النبي هو المقصود.

الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ[39]. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ[40]. وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ[41]! تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ[42]. لَا جَرَمَ أَنَّمَا (أن ما) تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ (الشريك مع الله) لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ[43]. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ[44]. فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ[45]. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا؛ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ (يقال لهم) أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ[46].

د- حوار في جهنم بين الضعفاء والذين استكبروا...

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ (الكفار) فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ[47]. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا! إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ[48]. وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ[49]. قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا بَلَى! قَالُوا فَادْعُوا! وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[50]. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ[51]، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[52].

3- اصبر. إن وعد الله حق. الذين كفروا اليوم كالذين كفروا بالأمس.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ[53]، هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ[54]. فَاصْبِرْ (على الحصار)، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ[55]. إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ؛ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[56]. لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (من جديد يوم البعث)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[57]. وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ، قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ[58]. إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[59]. وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[60] (صاغرين). اللَّهُ

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ[61]. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ[62] (تهربون من حججه عليكم). كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[63]: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ. ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[64]. هُوَ الْحَيُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[65].

4- نُهيت أن أعبد الذين تدعون...

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[66]. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا؛ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ؛ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى (أجلكم)، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[67]. هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ[68]. أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ[69]! الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[70] إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ، يُسْحَبُونَ[71] فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ[72] (يحرقون)؛ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ[73] مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ[74]. ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ[75]. ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ[76].

5- خاتمة: اصبر. ففي مصير المكذبين في الماضي عزاء...

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[77]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ[78]. اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[79]، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ[80]، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ، فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ

تُنكِرُونَ[81]؟ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[82]. فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (فضلّوا معقداتهم على ما جاءت به الرسل) وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[83] (من البعث والحساب والعقاب). فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ[84]؛ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ[85].

– تعليق

تدور هذه السورة بمجملها حول وضعية الحصار فتوجه "عدة رسائل" – حسب التعبير المعاصر – إلى الجهات المعنية به:

– رسالة إلى سكان مكة وبالخصوص منهم الذين يكتمون إيمانهم ويتعاطفون مع الرسول وصحبه غير مقتنعين بما قام به أبو جهل وجماعته من الملأ من قريش من فرض الحصار على النبي وأهله بني هاشم وبني المطلب، فإلى هؤلاء تتوجه السورة: تطلب منهم الاستجابة الصريحة للدعوة والتخلي عن الذين يجادلون في آيات الله، فالله غافر الذنب قابل التوبة واسع الرحمة، أما الذين كفروا وجادلوا ويجادلون في آيات الله فمصيرهم العقاب الشديد.

– ورسالة إلى النبي عليه السلام تواسيه وتقوي عزيمته وتطلب منه أن لا يحزن أو يتألم، أو يغتر بكون هؤلاء الذين أصروا على التكذيب والعناد وتآمروا على اغتياله ويجادلون في آيات الله، ومع ذلك يمارسون حياتهم العادية متسلطين متكبرين فيقومون بأسفارهم للتجارة وغيرها، فتؤكد له أن مصير هؤلاء سيكون مثل مصير أمثالهم من الأقوام الماضية الذين فعلوا مثلهم: كذبوا رسلهم وتآمروا على قتلهم. وهنا تقدم شهادتين من التاريخ المقدس، إحداهما لها علاقة مع نوح والأخرى ترتبط بفرعون وملئه. والمثالان جديدان، بمعنى أنهما لم يسبق أن ذُكرا في إطار قصص الأنبياء، بل وردا في إطار مستقل بهما وأكثر ارتباطا بحادثة الحصار منهما بغيرها من الأحداث التي في قصص الأنبياء. والجامع بين المثالين هو قوله تعالى: "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ".

بالنسبة للمثال الأول تقتصر السورة على الإشارة إلى نوح ومن تحزبوا ضد رسلهم من بعده. وقصصهم معروضة في سور سابقة. فقد تعرض نوح للرفض الكامل عندما تعرض لأصنامهم، ولما أصر على مواصلة تسفيه عبادة الأصنام قرروا

إحراقه، فدعا عليهم فكان الطوفان الذي أغرقهم باستثناء نوح ومن كان معه، أما قومه الكفار الذين تآمروا ليقتلوه فقد حق عليهم الوعيد فهم "أصحاب النار". وهنا تستطرد السورة، لترسم مشهدا ليوم القيامة يمتزج فيه "الغائب" (المستقبل) بالحاضر: وهكذا فبينما يعاني الكفار في جهنم من العذاب الذي استحقوه، يتوجه الملائكة "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ" بالدعاء وطلب المغفرة "لِلَّذِينَ آمَنُوا" قائلين: "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[7]. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[8]. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"، والذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف يومذاك هم المهاجرون إلى الحبشة وهم جل المسلمين يومئذ- إن لم يكن كلهم. أما الَّذِينَ كَفَرُوا فيخاطبهم أولئك الملائكة قائلين: "لَمَقْتُ اللَّهِ (لكم في الدنيا) أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ" وأنتم في النار، لأنكم كنتم "تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ". هنا يعترف هؤلاء الكفار بكفرهم ويطلبون السماح لهم بالعودة إلى الدنيا ليحيوا حياة جديدة كلها توبة وإيمان! وترد عليهم الملائكة بالتذكير بخطاب الدعوة وبموقفهم العدائي الرافض وبأن مصيرهم هو نفس المصير المقرر للأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، "فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ. إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ".

أما المثال الثاني، ويتعلق بفرعون، فيورد عنصرا جديدا في قصة موسى مع فرعون لم يسبق ذكره في ما مضى من قصص، هذا العنصر أفصح عنه قوله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ". وواضح أن موقف فرعون هذا يذكرنا بفرعون قريش (أبو جهل)، الذي تحدث مرارا عن ضرورة التخلص من الرسول عليه السلام بالاغتيال بعد أن فشلت محاولاتهم الأخرى. وهنا يأتي الرد، على قرار فرعون قتل موسى، من "رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ" فيخاطب فرعون وملأه: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ! وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ". وواضح أن هذا الاحتجاج يستحضر وضعية الرسول عليه السلام، واعتزام قريش قتله، من حيث إنه لا ذنب لموسى ومحمد إلا أن قال كل منهما "ربي الله"... ويتحول احتجاج الرجل الذي يكتم إيمانه إلى عظة بليغة يذكرهم فيها بـــ"دأب قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ"... قبل أن يتحول هذا "الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه" إلى رجل يدعو قومه إلى الله، فتتماهي دعوته مع الدعوة المحمدية، فصار يتكلم باسم النبي محمد عليه السلام قائلا: "يَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ[41]! تَدْعُونَنِي

لأكفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ[42]. لَا جَرَمَ أَنَّمَا (أن ما) تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ[43]. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ "[44]. بعد ذلك تستعيد السورة مؤمن آل فرعون بعد أن أنهى استطراده لتخبرنا بفشل مكر فرعون إزاءه : "فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ"[45].

بعد ذلك تتجه السورة بالخطاب إلى النبي عليه السلام توصيه بالصبر والثبات وتؤكد له أن وعد الله حق. وأن في مصير المكذبين في الماضي عزاء له.

60- سورة فصلت

- تقديم

لم يرد شيء يستحق الذكر حول هذه السورة. وهذا عام في الحواميم كلها تقريبا، وما ورد في بعضها من "أسباب نزول" لا يعدو أن يكون عبارة عن التماس وقائع وأحداث "تصلح" أن تعتبر "أسباب نزول، أي أدوات للشرح والإيضاح. والغالب ما يخلطون فيها بين المكي والمدني من النوازل. أما سبب قلة ما ورد بخصوص هذه السور فواضح: ذلك أنها نزلت في فترة الحصار الذي ضربته قريش على النبي (ص) وهجرة جل المسلمين إلى الحبشة، الشيء الذي كان لا بد أن ينعكس أثره على مجال العلاقة مع النبي (ص)، مجال السؤال والرواية عنه وتتبع تحركاته الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا فأعرَض فأكثرُهم...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ[2]: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (بُيِّنَت) قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[3] (العربية)، بَشِيرًا وَنَذِيرًا. فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ[4]. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ (حجاب) مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ (ضعف)، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَاعْمَلْ (بدينك) إِنَّنَا عَامِلُونَ[5] (فنحن نعمل بديننا).

2- أنذرتكم مثل صاعقة عاد وثمود...

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ. وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ[6] الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (لا ينفقون على الضعفاء)، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ[7]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ



مَمْنُونٍ[8] (غير منقوص). قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا، ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ[9]. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ[10]. ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ (لا نجوم فيها ولا ضوء) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ[11]. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا (لها من استراق السمع)، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[12]. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[13] إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ. قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ[14]. فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[15]. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا (باردة قوية) فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ، وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ[16]. وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[17]. وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ[18]. وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ[19] (يساقون إليها)، حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[20]. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[21]. وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ[22]. وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ، أَرْدَاكُمْ، فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ[23]. فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا (يعتذروا) فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ[24]. وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ (شياطين) فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ[25].

3- قالوا: لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيه!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (شوشوا عليه) لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ[26]. فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[27]. ذَٰلِكَ، جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ : النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا

بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ[28]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ[29]. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ (قائلين لهم): أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ[30]. نَحْنُ (الملائكة) أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ[31] (تتمنون). نُزُلًا (عطاء وثوابا) مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ[32].

4- وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[33]؟! وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (لا تقابل السيئة بالسيئة، بل تجاوزها إلى ما هو أحسن، وستكون النتيجة:)، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[34] (مناصر قريب). وَمَا يُلَقَّاهَا (لا يتحمل دفع السيئة بما هو أحسن) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[35]. وَإِمَّا (إنْ ما) يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إن يصرفك عن التي هي أحسن ويزين لك الانتقام مثلا)، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[36].

5- مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ...

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[37]. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ (الملائكة) يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ[38]. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً (هادئة يابسة)، فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ (انتفخت كأنها حامل)، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[39]. إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا (يحرفونها) لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا. أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ، أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! (قل) اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[40]. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ (القرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ (لا ينالون منه شيئا)، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ[41] (قوي محفوظ) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[42]. مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ[43]. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (بينت بالعربية)! أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟ (أقرآن

أعجميّ، ونبيّ عربي"؟) (1) قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ. وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ[44] (2). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ (بعضهم صدق، وبعضهم كذب)، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير الحساب إلى يوم القيامة) لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ[45].

6- خاتمة: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[46]. إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي (أصنامهم)؟ قَالُوا آذَنَّاكَ (أعلمناك) مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (على أن لك شريكا)[47]. وَضَلَّ عَنْهُمْ (غاب عنهم) مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (من أصنام) وَظَنُّوا (أيقنوا) مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (مهرب)[48]. لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ[49]. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى. فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[50]. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ[51] (يطلب من الله أن يرفعه عنه). قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ (ذلك الشر) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ (3) (بالله، فكيف تدعونه ليرفعه عنكم)! (ليس هناك) مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ

1- قالوا: لولا أنزل القرآن بالعربية والأعجمية حتى يفهمه جميع الناس! (انظر التعليق).

2- قال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادي من مكان بعيد.

3- جميع المفسرين يعودون بالضمير في "كفرتم به" (الآية 52) إلى "الذكر"، بمعنى القرآن، في الآية رقم 41 ("إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ"...)، وبالتالي يجعلون معنى الآية أعلاه هكذا : قُلْ لهم: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ الذكر (الذي كفرتم به) هو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ" الآية، وهذا تفسير ركيك العبارة، فضلا عند بعد المسافة بين الآيتين (41-52)، فالتفسير لا ينبغي له أن ينقل العبارة من قالبها اللغوي السليم إلى قالب ركيك فيه تكرار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالرجوع بالضمير في الآية 52 إلى "الذكر" في الآية 41، لا مسوغ له داخل السياق، فليس بين الآيتين ما يمكن اعتباره جملة اعتراضية أو استطرادا طارئا. لذلك نرى أن الأولى والأصح الرجوع بالضمير إلى أقرب مذكور -كما تقتضي القاعدة-=

هُوَ (مثلكم) فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ[52]؟ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ (في رحابة الكون)، وَفِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (يتبين لهم كون الخير والشر من الله) (4). أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[53]؟! أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ (شك) مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ[54].

- تعليق

ميزنا في السورة التي نحن ضيوف عليها بين ست فقرات.

1- المقدمة وتتحدث عن إعراض قريش عن القرآن مع كونه قرآنا عربيا، ورفضهم الاستماع إليه وردهم على دعوة النبي (ص) بالتمسك بوثنيتهم.

2- وفي الفقرة الثانية تنبههم السورة إلى أن إعراضهم عن القرآن والتمسك بالأصنام معناه الكفر بالله الذي خلق السماوات والأرض وقدر أجزاءها، وليلها ونهارها، وأقوات الكائنات فيها... فالموقف خطير! ولذلك تحذرهم من أن ينالهم غضب من الله فتنزل عليهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود تفنيهم وتمحوهم من الوجود. وقد سبق أن قص القرآن حالهم وبين مصيرهم في سور سابقة، فاكتفت هذه السورة بالتذكير.

3- أما الفقرة الثالثة فقد خصصتها السورة لنوع آخر من ردود فعل قريش على القرآن، يتجاوز الإعراض والتكذيب إلى الدعوة إلى "اللغو" فيه بالتحريف والتشويش والتعييب الخ. وبعد أن تذكرهم السورة بالوعيد الذي ينتظرهم يوم

وهو "الشر" في "إذا مسه الشر". وبذلك يستقيم معنى الآية مع سياقها، والمعنى: عندما ينعم الله على الإنسان بالمطر مثلا يتبختر ويبطر ولا يفكر في الله الذي أنعم به عليه، أما عندما يصاب بضر فهو حينئذ يتذكر الله ويدعوه بكل وسعه أن يرفعه عنه. وهنا يأتي السؤال: أريتم إن كان هذا الضر الذي نزل بكم هو من الله الذي تدعونه، وأنتم به كافرون جاحدون لنعمه! فكيف يستقيم موقفكم؟ وهل هناك أضل منكم، بابتعادكم عن الله وانشقاقكم عن سبيله، وفي الوقت نفسه تتوجهون إليه بالدعاء ليرفع الضر عنكم!

4 - اختلف المفسرون حول المقصود بالحق هنا على أربعة أقوال: "أحدها أنه القرآن. والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه. والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع أن محمدا (ص) هو الرسول الحق. وواضح أن هذا الاختلاف والاضطراب ناتجان عن عودتهم بالضمير في "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" إلى غير محله. ونحن نرى أن المقصود بالحق هنا هو ما جعلنا ذلك الضمير يعود إليه، وهو كون السراء والضراء من الله. وما تبقى من السورة يعضد هذا المعنى، أعني قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟! أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ (شك) مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ".

الحساب، والوعد الذي خص الله به الذين آمنوا و"استقاموا"، ترد على قريش: لماذا اللغو في القرآن؟ وهل هناك قول أحسن من الذي جاء به النبي محمد عليه السلام: يدعو إلى الله والعمل الصالح ويعلن انتماءه إلى دين الإسلام والسلام: الإسلام إلى الله بالخضوع له وحده، والسلام مع الناس ببناء العلاقات معهم على السلم والأمان.

4- وهنا تأتي الفقرة الرابعة لتقرر قاعدة أخلاقية تنطوي على استراتيجية للسلام فريدة، تقوم على أربعة أركان:

أ) "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! فالقول الحسن الذي جاء به محمد (ص) والذي يدعو إلى الإيمان بإله واحد والعمل الصالح، لا يمكن أن يساويه ما تدعون إليه من اللغو فيه والتشويش عليه. وهكذا في كل شيء: فما هو حسن لا يعادله السيئ، سواء تعلق الأمر بالأقوال أو بالأفعال.

ب) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[34]. لا تقابل السيئة بالسيئة، بل تجاوزها إلى ما هو أحسن، وستكون النتيجة أن الذي أساء إليك سيشعر بالصغار أمامك وسيتحول بغضه لك إلى تقدير ومودة...

ج) وَمَا يُلَقَّاهَا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[35]. لكن هذا السمو بالأخلاق والتعالي على الإساءة ليس بالأمر الهيّن على النفس، ولذلك كان لا بد من تعويد النفس على الصبر وتحمل أخطاء الآخرين وإساءاتهم المقصودة وغير المقصودة.

د) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[36]. وإذا حدث أن صعب حمل النفس على الصبر في مثل هذه المواقف بتأثير الشيطان (أو النفس الغضبية واستيقاظ حمية الجاهلية) وشعرت بالميل إلى الانتقام فغلّب العقل واستعذ بالله، وعُد إلى رشدك.

5- وتأتي الفقرة الخامسة لتطبق هذه الإستراتيجية السلمية على أسلوب الدعوة إلى الله وذلك ببنائها على الحجة والإقناع مثل التنبيه إلى أن الأولى بأن يُعبَد، ليس الشمس والقمر أو غيرهما من الكواكب كما يفعل العرب وغيرهم، بل الأولى بالعبادة هو الله الذي خلق هذه الكواكب، مثلما يفعل الملائكة فهم لا يسجدون لا للشمس ولا للقمر بل يسبحون لله وحده.

وبمثل هذه الإستراتيجية السلمية ينبغي إقناع الناس بالبعث. فإذا كانوا يستغربون بل يستهزئون من القول بالبعث بعد الموت فيجب لفت انتباههم إلى أن الأرض الميتة تنقلب حية مخضرة بالنبات عندما يرسل الله إليها المطر. فكذلك إحياء الموتى. أما الذين لا يعترفون بمثل هذه الحجج فالله يعرفهم وجزاؤهم يوم القيامة. أما القرآن الذي يدعون إلى اللغو فيه فهو محفوظ لا يتطرق إليه الباطل.

وتخاطب السورة الرسول عليه السلام لتؤكد له أن: "مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ"! فالذين يكذبون القرآن اليوم ويريدون اللغو فيه هم كالذين فعلوا ذلك بالأمس مع رسلهم. يقول مشركو قريش: لماذا لم يأت هذا القرآن باللغة التي جاءت بها الكتب القديمة -كالتوراة- حتى يفهمه الناس جميعا ويخاطب العرب وغيرهم؟ ويأتي الرد: لو جاءكم أعجميا لطالبتم به عربيا! ثم كيف يأتيكم أعجميا والنبي الذي كلف بتبليغه لكم عربي منكم. وستؤكد هذا المعنى آية أخرى هي قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (إبراهيم.4). ويخبرهم القرآن: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ (بسبب اختلاف لغته عن بعض لغات اليهود الموزعين في الأرض). فهل تريدون أن يكون كتابكم موضوع اختلاف بسبب اللغة مثلما حدث لكتاب موسى[5].

وتختم السورة بتقرير مبدأ أساسي في العقيدة الإسلامية وهو المسؤولية الفردية : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا"، وأن الحساب سيأتي يوم القيامة ولابد. ثم تشير مرة أخرى إلى طبع متأصل في الإنسان، ويخص قريشا بصفة خاصة، وقد عبرت عنه السورة بقوله تعالى: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ"، قلنا إن هذا الطبع متأصل في قريش خاصة لأن موارد حياتهم خاضعة للتقلب : فأرضهم صحراء معرّضة لتعاقب الخصوبة والجفاف. وكذلك تجارتهم معرضة للربح والخسارة. وهذه الثنائية انعكست على تدينهم: هم يعرفون الله ويعترفون به كخالق للكون، ولكنهم يعبدون الأصنام كوسطاء إليه ويعتقدون في التنجيم والكهانة الخ. وهكذا فإذا ضاق بهم الحال بسبب جفاف أو خسارة في تجارتهم لجأوا إلى الله يدعون أن يرفع عنهم الضيق والضرر، أما إذا جاء المطر واخضرت الأرض وتوفر الكلأ لمواشيهم وربحت تجارتهم فهم يبطرون وينسبون ذلك إلى أصنامهم وصدق كهانهم ومنجميهم.

5- هناك اختلاف بين الباحثين حول اللغة التي كتب بها موسى التوراة "بوحي من الله" هل هي العبرية أم غيرها؟ ومما يثار في هذا الصدد أن بني إسرائيل بقوا في مصر، منذ أن جاؤوها مع يوسف إلى أن خرج بهم موسى في اتجاه فلسطين، نحو أربعمائة سنة، كانوا يتعاملون خلالها مع محيطهم داخل مصر وخارجها. الشيء الذي جعل بعض الباحثين يقولون إن التوراة كتبت أولا باللغة المصرية القديمة الهيروغليفية...

61- سورة الشورى

- تقديم

لم يرد حول هذه السورة ما يستحق الذكر. وما ذكره بعضهم بصدد آيات منها يشير إلى نوازل حصلت في المدينة، وهذه السورة، هي والحواميم الأخرى مكية باتفاق. على أن هناك ما يشبه أن يكون تحديدا لتاريخ نزول هذه السورة: ذكر مقاتل بن سليمان أنه بناء على ما فيها من إشارة إلى سني الجفاف الذي أصاب قريشا، تكون قد نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة. وهذا قريب من الصواب لكون الحواميم نزلت كلها بين السابعة والعاشرة للنبوة.

- نص السورة

1- مقدمة: الله يوحي إليك وإلى الذين من قبلك...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. عسق[2]. كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (1) اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[3]. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ[4]. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ (تنشققن) مِنْ فَوْقِهِنَّ (من جهة الأعلى)(2)، وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ! أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[5].

2- ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ...

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (أصناما أو شركاء)، اللَّهُ حَفِيظٌ (رقيب) عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ[6]. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى

1- "يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله" (الزمخشري).

2- قال الزمخشري: "يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته ...

(مكة: كبيرة القرى) وَمَنْ حَوْلَهَا [3]، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ (يوم القيامة) لَا رَيْبَ فِيهِ، (حيث يتفرق الناس) فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[7]. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (إما في الجنة جميعا وإما في النار)، وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (أي الذين يستحقونها، وهم الذين يعبدونه وحده)، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[8] (وبالتالي فمصيرهم جهنم). أَمْ (بل) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (لهم)، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ، وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[9]. وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (مع الكفار، فقل:) حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[10]. فَاطِرُ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (كنوع : الإنسان) أَزْوَاجًا، وَمِنَ الْأَنْعَامِ (كنوع يجمع الأبل والبقر والضأن والمعز) أَزْوَاجًا، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ (يكثركم في النوع، نسلا بعد نسل). لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، (يكوّن معه زوجا أو نوعا، بل هو واحد لا متكثر). وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[11] [4]، لَهُ مَقَالِيدُ (مفاتيح)

3- قال الرازي في تفسير هذه الآية: "ومن حولها" من أهل البدو والحضر وأهل المدر. فإن قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحي إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولا إليهم فقط وأن لا يكون رسولا إلى كل العالمين، فالجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولا إلى هؤلاء خاصة، وقوله "وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَآفَّةً لّلنَّاسِ" (سبأ: 28) يدل على كونه رسولا إلى كل العالمين، وأيضا لما ثبت كونه رسولا إلى أهل مكة وجب كونه صادقا، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعي أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين. قلت (الجابري): وفي رأينا أن الجديد الذي ورد في هذه السورة هو ذكر "من حولها" أي من حول مكة من أهل الحضر والبدو. وعبارة "من حولها" لم تذكر من قبل، وإنما ذكرت في هذه السورة بعد أن بدأ الرسول يدعو القبائل في المواسم والأسواق. أما تخصيص مكة ومن حولها أي العرب فلا يستقيم مع السياق، خصوصا مع قوله مباشرة : "وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ"، يوم القيامة، وهو يوم حساب جميع الناس، ولم يرد ما يخصصه بالعرب، فضلا عن أن تخصيصه بهم لا يعقل.

4 - دارت حول هذه الآية خصومات مذهبية لا حد لها بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم. فالمعتزلة فهموا من قوله "ليس كمثله شيء" أنه لا يشبه الكائنات في كونها تتألف من ذوات وصفات، ولذلك نفوا عنه الصفات، وجعلوها عين الذات. أما خصومهم –وقد سموا "الصفاتية"– فقد أثبتوا له الصفات لأن الذات بدون صفات هي عندهم عدم، قياسا على الشاهد. فإذا نزعنا من التفاحة مثلا حجمها وشكلها ولونها ورائحتها الخ، فما يبقى منها؟ وقد احتجوا بقولهم إن الآية نفسها تثبت الصفات عندما تصفه بـ"السميع البصير". ونحن نعتقد أن الذي أدى إلى هذا الفهم، المعتزلي والأشعري معا، هو تفكيرهم= في الآية المعنية بدون اعتبار سياقها. فالسياق هنا هو كون المخلوقات الحية خلقها الله أزواجا، تتناسل، والد وولد... والآية "ليس كمثله شيء" : تنفي عنه هذه الزوجية التي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (ويمسكه عمن يشاء)، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[12].

3- شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا.... والمودة في القربى

شَرَعَ (سَنَّ) لَكُمْ مِنْ الدِّينِ (عقيدة التوحيد) مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ (اعتقدوه وطبقوه) وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، (من التوحيد وترك عبادة الأصنام). اللَّهُ يَجْتَبِي (يختار) إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ[13] (إليه ويرجع). وَمَا تَفَرَّقُوا (أقوام أولئك الأنبياء في العقيدة)، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ (تفرقوا بسبب بغيهم بعضهم على بعض لحزازات واختلاف مصالح)، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ (إرادة وقرار) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير القيامة والحساب) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (وهم في هذه الدنيا). وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ (من بعد أولئك الأنبياء، وهم قريش) (5) لَفِي شَكٍّ مِنْهُ (من القرآن) مُرِيبٍ[14] (يبعث على القلق والكره). فَلِذَلِكَ (إلى القرآن) فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ. وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (عليّ) مِنْ كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ (يا قريش الذين تعيشون في حالة شقاق)، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (ما دمتم في شك منه مريب)، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ[15]. وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ (الفريق من قريش الذين يحاربون الدعوة المحمدية) مِنْ بَعْدِ

تقتضي أن يكون له شريك، وأن يكون والدا، أو ولدا. وأما قوله "وهو السميع البصير:" فهو كقوله "له مقاليد السماوات والأرض" الخ ... جملة مستقلة.

5 - جل المفسرين على أن الضمير في : "من بعدهم" يعود على اليهود، وهذا في نظرنا لا يستقيم لا مع الظرف ولا مع السياق. فمن جهة، السورة مكية وقد نزلت والنبي عليه السلام في حالة حصار، ولم يكن هناك في مكة وفي هذه الظروف بالذات جدل بينه وبين اليهود، ولم يحدث ذلك إلا بعد الهجرة إلى المدينة. ومن جهة أخرى فقوله "وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ" لا يستقيم صرفه إلى اليهود، والنبي في مكة لا علاقة له بيهود المدينة إلا إذا فرضنا أنهم بعثوا إليه من المدينة يتحاكمون لديه في أمر من أمورهم، وهذا لا يزكيه السياق هنا! فالآيات التي تلي هذه لا تحتمل تأويلا مثل هذا، وهي قوله "لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا". وعليه فالضمير في قوله: "وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ" لابد أن يعود على قريش. وإذا نحن استحضرنا أن قريشا كانت منقسمة يومئذ : بعضهم أقام الحصار على النبي وأهله، وبعضهم لم يعجبه ذلك ولم يوافق عليه، الشيء الذي سيعجل بفك الحصار كما سنرى، وجب أن نفهم من قولنا "قريش" في هذا المقام : الفريقين معا، وهما المعنيان بالآيات أعلاه. وسيتأكد هذا في الآيات التالية لها.

مَا اسْتُجِيبَ لَهُ (استجاب للإسلام أناس من أهل مكة وجلهم مهاجرون في الحبشة)، حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ (ساقطة) عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ"[16]. اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ"[17] (قيامها). يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ. أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ (يشكون) فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ[18]. اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ"[19]. مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ (العمل من أجلها) نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ[20]. أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ (آلهة) شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ (لولا أننا قضينا بأن الفصل يكون يوم القيامة) لَقُضِيَ (لحكم) بَيْنَهُمْ (هنا في الدنيا)، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[21]. تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (نازل بهم). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ"[22]، ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ (به) عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

4- وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ...

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على الإنذار الذي أقوم به) أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى(6)، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ"[23]. أَمْ

---

6 – اختلف المفسرون في تفسير المقصود من "المودة في القربى" في هذه الآية. عن ابن عباس قال معناها: "إلا أن تودّوني في قرابتي منكم؛ أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدّقوني" (القرطبي). ومنهم من جعل المعنى هكذا : "لا أسألكم أجرا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي؛ أو : لا أسألكم أجرا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم" (الزمخشري). وعلى هذا القول الأخير تكلموا كثيرا في موضوع "المودة لقرابة النبي" ورويت أحاديث فيها، من ذلك أن الرسول سئل في إطار هذه الآية: "يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما»، كما رووا حديثا ورد فيه أن علي بن أبي طالب قال: "شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا». كما يذكرون حديثا ورد فيه: "حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي. ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة"... انظر مزيدا من مثل هذه الأقوال في (الزمخشري). أما نحن فنرى أن معنى الآية يجب أن يفهم في إطار الظروف التي نزلت= فيها. لقد كان الرسول وأهله وأقاربه محاصرين في شعب أبي طالب وقد ضيقت قريش الخناق عليهم، وإذن فطلب الرسول إلى خصوم الدعوة من مشركي قريش أن يراعوا "المودة

يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ (لو كان الأمر كذلك) وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[24]. وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[25]. وَيَسْتَجِيبُ (يجيب دعاء) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ[26]. وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ[27]. وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ [(7)]، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ[28]. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ[29]. وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ[30]. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[31]. وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي (السفن) فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[32] (كالجبال) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (البحر)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ[33]، أَوْ يُوبِقْهُنَّ (يغرق تلك السفن) بِمَا كَسَبُوا (ما اقترفوا، وإن يشأ يُنجِ تلك السفن) وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ[34]؛ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ[35] (ملجأ: إذا عصفت الرياح بالسفن، أو توقفت وركدت السفن).

5- أخلاق... الشورى

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (من أموال بالتجارة عبر الأراضي والبحار الخ) فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[36]، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ[37]، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[38]،

في القربى" في تعاملهم معه. روي عن ابن عباس قوله: "قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْرا إلاّ المَوَدّةَ فِي القُرْبَى": يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، قال لقريش: «لا أسألكم من أموالكم شيئا، ولكن أسألكم أن لا تؤذوني لقرابة ما بيني وبينكم، فإنكم قومي وأحق من أطاعني وأجابني». وهذا المعنى ينسجم مع وضعية الحصار الذي وضع فيه النبي وأهله. والملاحظ أن لفظ "القربى" قد جاء مقرونا باليتامى والمساكين وابن السبيل الخ، سواء في القرآن المكي أو المدني. ولم يرد هذا اللفظ قط في القرآن غير مقرون باليتامى والمساكين الخ إلا في هذه الآية. وإذن فما ذكروا من أخبار حول مكانة قرابة الرسول عليه السلام –أسرته– لا مكان لها هنا كتفسير أو تعليق على الآية التي نحن بصددها.

7- قالوا تلك إشارة إلى سنوات من الجفاف أصابت قريشا حتى قنطوا وطلبوا من النبي أن يدعو ربه فيسقيهم...

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ (بأن قتل منهم أحد زمن الفتنة مثلا) هُمْ يَنْتَصِرُونَ[39] (يأخذون حقهم بالقصاص على أساس :) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (وهو المرغوب فيه) فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ[40]. وَلَمَنْ انْتَصَرَ (أخذ حقه) بَعْدَ ظُلْمِهِ (بعد أن اعتدي عليه) فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ[41] (لا مؤاخذة عليهم)؛ إِنَّمَا السَّبِيلُ (المؤاخذة والعقاب) عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[42]، وَلَمَنْ صَبَرَ (على حقه) وَغَفَرَ (للمعتدي وعزم على العفو)، إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[43]، (من الأمور المستحسنة).

6- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ...

وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ (يوم القيامة) يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ (رجوع إلى الدنيا) مِنْ سَبِيلٍ[44] وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا (على النار) خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ؛ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ: (هم) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ[45] (مقيم فيهم لا يفارقهم) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ[46]. اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ[47] (يستنكر ما أنتم فيه ويطلب تغييره). فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ. وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً (مطرا) فَرِحَ بِهَا، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ[48]. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ[49]، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[50] (8).

7- خاتمة: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ!

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ[51]. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا (جبريل) مِنْ أَمْرِنَا؛ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ! وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ (القرآن)

---

8 - الظاهر أن وجه الصلة بين الآيتين 49-50 الخاصتين بالإناث والذكور هو الآية 48 : فلما كان العرب يتشاءمون من البنت إذا ولدت لهم ويعتبرون ميلاد الذكر حدثا سعيدا فقد وقع ربط الآيات الثلاث بعضها ببعض من حيث أن الجفاف والغيث والبنين والبنات والعقم ... كل ذلك من عند الله.

نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ (يا محمد) لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[52]. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ[53].

- تعليق واستطراد

أولا: فقرات السورة

تتألف السورة من سبع فقرات، حسب توزيعنا. تتناول أركان العقيدة الثلاثة: التوحيد، المعاد، النبوة، مضيفة ركنا آخر بدأ التركيز عليه منذ سورة الأعراف وهو الأخلاق. (الأعراف، الفرقان، الأنعام، لقمان، وفصلت).

1- تبدأ السورة بمقدمة تعلن فيها، كما في أخواتها الحواميم، أن هذا الكتاب الذي يوحى به إلى الرسول محمد (ص) كما أوحي إلى الرسل من قبله: هو من عند إله علي عظيم، هو في السماء العليا، تكاد السماوات يتشققن لعلوه، بينما تنقطع الملائكة إلى تسبيحه وتعظيمه والاستغفار لمن في الأرض.

2- تليها الفقرة الثانية، وفيها تشرح السورة حال مَن في الأرض بعد أن أشارت إلى حال من في السماء: وهكذا ففي مقابل الملائكة المسبحين لله وحده والمستغفرين لمن في الأرض نجد من بين هؤلاء (الذين في الأرض) من يتخذ مع الله شركاء. وهذا الفريق من الناس هم تحت مراقبة الله الدائمة. أما أنت يا محمد فلست موكلا بهم. أنت مهمتك هي أن تبلغ القرآن الذي أنزلنا إليك بلغة القوم الذين كلفناك بإنذارهم -وهم أهل مكة ومن حولها- وتفهيمهم أن بعد هذه الحياة بعث يجتمع فيه سائر المخلوقين ليحاسبوا، منهم من يكون مصيره الجنة ومنهم من يلقى به في النار. لقد اتخذوا من دون الله أولياء فأبلغهم أن الله هو الولي وأنه يحي الموتى، فإذا اختلفتم في شيء فحكمه إلى الله، خالق السماوات والأرض كما خلق الكائنات الحية بما فيها الإنسان؛ ولضمان استمرار هذه الكائنات إلى أجل مسمى جعلها، وأنتم منها، أزواجا تتناسلون، يبسط الرزق لمن يشاء ويضيق على من يشاء!

3- وهذا الدين الذي شرع لكم هو نفسه ما وصى به الأنبياء السابقين فخذوه جميعا ولا تتفرقوا فيه كما تفرق من كانوا قبلكم، بسبب مصالح وحزازات. فإلى هذا الدين ادع يا محمد سالكا الصراط المستقيم. أما الذين يعارضونك بعد أن بدأ هذا الدين ينتشر فحججهم ساقطة ولن ينجحوا، وسينالون جزاءهم يوم "" للظالمين جهنم وللمؤمنين الجنة. ومن يأت بحسنة نزده منها.

4- أما أنت فقل لهم: إني لا أطلب منكم أجرا ولكن أطلب فقط أن تراعوا القربى التي تجمعني بكم وما تقتضيه من المودة. وذكرهم بأن الله يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات. فليبادر المترددون إلى إعلان إسلامهم قبل فوات الآوان، فكما أن الله يأتي بالمطر بعد القحط وينقذ السفن من الغرق، فهو غفور رحيم يعفو عن كثير.

5- ومن هنا الفقرة الخامسة التي تقرر قواعد أخلاقية تشيد بخصال وفضائل تتكامل مع ما سبق في سورتي الأنعام ولقمان، وهي تخص هذه المرة خصال المؤمنين وهي: الزهد في متاع الدنيا، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، وعدم المؤاخذة فيما يغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والتشاور في الأمور، وأخذ الحق للقتيل على أساس "جزاء سيئة سيئة مثلها"، والعفو والصلح أفضل، وتجنب الظلم والبغي، والصبر والمغفرة أفضل من الأخذ بالثأر. إن على الرسول أن يدعو إلى التحلي بهذه الخصال. وإذا أعرض عنها المكذبون فعليه أن لا ينزعج، لأن الله لم يرسله عليهم حفيظا رقيبا. إِنْ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وأما جزاؤهم فعند الله.

6- وكما جرت العادة تختم السورة باستعادة موضوع المقدمة، فتبين الكيفية التي يوحى بها الله إلى أنبيائه. يقول تعالى: "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ". والمعنى: ليس لأحد من البشر "أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ" على ثلاثة أوجه: 1) إما على طريق الوحي وهو الإلـــهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ... 2) وإما على أن يُسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجسام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، لأنه في ذاته غير مرني. وقولـــه: "مِن وَرَآءِ حِجَابٍ"، أي كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. 3) وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى" (الزمخشري). أما ما عدا هذه الطرق الثلاثة، مثل التنجيم والكهنة وادعاء النبوة وما أشبه فكلها كذب. وأما أنت، يا محمد، فقد أوحينا ونوحي إليك بواسطة جبريل، منه عرفت ما الإيمان وما الكتاب، وبهما تهدي إلى الصراط المستقيم.

ثانيا استطراد: مسألة الرؤية والكلام وخلق القرآن

هذا وقد اتخذ المتكلمون هذه الآية (الآية 51، الفقرة الأخيرة) مرجعا لوجهات نظرهم، كل من زاوية مذهبه، خصوصا في مسألتين من أهم مسائلهم :

"مسألة الروية" (إمكانية رؤية الله يوم القيامة) و"مسألة كلام الله". وقد عرض الرازي في تفسيره لهاتين المسألتين رأي المعتزلة ورأي الأشاعرة نورد هاهنا ما قاله بشأنهما، ثم نعقب بما نراه صوابا. قال: "قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يُرى (يوم القيامة)، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد، فحينئذٍ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ" إلا على هذه الأوجه الثلاثة"! يرد الرازي على رأي المعتزلة -هذا- من موقعه كأشعري يقول برؤية الله يوم القيامة فيقول: "تزيد في اللفظ قيداً فيكون التقدير: وما كان لبشر أن يكلمه الله "في الدنيا" إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وحينئذٍ لا يلزم ما ذكرتموه." ويضيف: "وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة"!

هنا لا مفر من القول إن الرازي يقترح الزيادة في لفظ القرآن حتى يصير الحق إلى ما عليه مذهبه. وهذه الزيادة غير جائزة وغير مستقيمة لأن المسألة برمتها مبنية على قوله تعالى :"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" (القيامة 22-23)، وقد سبق أن عرضنا لهذه المسألة وبينا كيف أن التقابل في السياق بين "ناضرة" و"ناظرة" يفيد بأن المطروح ليس مسألة الروية (انظر تفسيرنا للآية وما قلناه في التعليق : سورة القيامة رقم 30 القسم الأول من هذا الكتاب).

وأثار الرازي مسألة كلامية أخرى تخص "كلام الله" فقال: "أجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم. ومن سوى الأشعري وأتباعه، أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة (التي هي القرآن). وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات. أما الفريق الأول: وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان أحدهما: الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يذكروا في زمرة العقلاء" (كذا!)، وأضاف: "واتفق أني قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي؟ والأول باطل لأن التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم (نظم القرآن) المركب على هذا التعاقب والتوالي، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى، والثاني: باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة. ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال: الواجب علينا أن نقر ونمر، يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه. فتعجبت من سلامة

قلب ذلك القائل. وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات (حروف وأصوات القرآن) كائنة بعد أن لم تكن حاصلة، بعد أن كانت معدومة. ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة، أو لا يقال ذلك، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى" واختلفوا أيضاً في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر، فالأول: هو قول الكرامية والثاني: قول المعتزلة. وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن..." هو أن الملَك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب، قالوا وكما لا يبعد أن تُرى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز، فأيُّ بُعْدٍ في أن يُسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة (التي كلم الله موسى عندها) وهذا القول قريب من قول المعتزلة.

ويضيف الرازي: " قال القاضي[9] هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه الأول: أن قوله تعالى: "أَن يُكَلِّمَهُ اللّهُ" يدل عليه، لأن كلمة "أن" مع المضارع تفيد الاستقبال. الثاني: أنه وصف الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه. الثالث: أن قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ" يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه الملَك إلى الرسول البشري مثل الكلام الذي سمعه من الله، والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث، ومثل الحادث حادث، وجب أن يقال إن الكلام الذي سمعه من الله حادث. الرابع: أن قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ" يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً". ويرد الرازي على كلام القاضي بما يلي: "أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها (=للبرهنة على حدوث كلام الله) إلى الحروف والأصوات (=بدل صرفها إلى كلام الله جملة كما فعلتم)، ونعترف بأنها (الحروف والأصوات) حادثة كائنة بعد أن لم تكن. وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك، فأي حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي عُلمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن"؟

ومما يتصل بمسألة قدم أو حدوث "كلام الله"، مسألة "خلق القرآن" وهي في الحقيقة الموضوع الذي يدور عليه ما هو مسكوت عنه هنا. لقد شرحنا بتفصيل

9- ربما يعني القاضي عبد الجبار أحد كبار المعتزلة المتأخرين الذي جمع المذهب في المغني، وفي الأصول الخمسة...

"مسألة خلق القرآن" وخلفياتها السياسية في كتابنا "المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد"، فليرجع عليه. أما هنا فسنقتصر على إجمال الخلاف بين المتكلمين حولها من زاوية "العقيدة"، فنقول:

افترقت آراء المتكلمين وتنوعت في هذه المسألة التي كانت القضية المركزية المحورية في مناقشاتهم ومجادلاتهم في العصر العباسي الأول، إلى درجة أن "علم الكلام" نفسه إنما سمي بهذا الاسم، في رأي بعض مؤرخي الفرق الكلامية في الإسلام، "لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام" [10]، كلام الله.

والقضية من الناحية العقدية، هي باختصار كما يلي: كان المعتزلة قد شيدوا مذهبهم على فكرة "التوحيد" المطلق، فنفوا الشريك مع الله من كل جهة، وكان ذلك في أول الأمر ردا على المانوية (نسبة إلى ماني، زعيم ديني فارسي) القائلين بمبدأين للكون: النور والظلمة (الخير والشر). لقد خاض المعتزلة معارك فكرية ضد هذا المذهب فقالوا إن كل ما عدا الله مخلوق له. وعندما طرحت مسألة العلاقة بين ذات الله وصفاته جعلوا الصفات هي عين الذات وذلك فرارا من أن تفهم صفات الله، كالحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام الخ، على أنها زائدة على الذات فتكون قديمة مثلها، الشيء الذي يؤدي إلى تعدد القدماء وبالتالي إلى هدم فكرة التوحيد. وبما أن من صفات الله "الكلام"، والقرآن كلام الله فلا بد أن يكون القرآن "مخلوقا"، غير قديم، وإلا وقعنا في القول بقديمين، وهذا مناف لفكرة التوحيد.

وفي مقابل القول بـ"خلق القرآن" وكرد فعل ضده قام رجال من أهل السنة الذين كانوا خصوما للمعتزلة، فرفعوا شعارا مناقضا تماما وهو القول بـ "القرآن غير مخلوق". وكان منهم أولئك المشبهة المتطرفون الذين تصوروا الله على غرار البشر، فقالوا في القرآن إنه قديم أزلي وأن الحروف والأصوات والرقوم المكتوبة قديمة أزلية. وقد برروا ذلك بالقول إن القرآن كلام الله، ولا يعقل كلام ليس بحروف ولا كلِم، واستدلوا بأخبار منها ما رووا عن النبي عليه السلام: "ينادي الله تعالى يوم القيامة بصوت يسمعه الأولون والآخرون". ورووا: "أن موسى عليه السلام كان يسمع كلام الله كجر السلاسل" [11].

أما التيار السلفي من أهل السنة فقد رفض هذا التطرف في التشبيه والتجسيم وميز بعضهم بين عنصرين في مفهوم الكلام: المعاني وقد عبروا عنها بـ"الكلام النفسي"، أما العبارة عن تلك المعاني فألفاظ وحروف. ثم قالوا: إن

---

10 - الشهرستاني، الملل والنحل. ج1، ص وما بعدها 92 ، القاهرة 1968

11 - نفس المرجع ص 106

المقصود بقولنا: "القرآن غير مخلوق"، هو معانيه أي كلام الله النفسي، أما الألفاظ فهي مخلوقة. من هؤلاء أبو الحسن الأشعري الذي أراد الخروج بمذهب وسط فميز بين الدلالة والمدلول في عبارة "القرآن كلام الله": فالألفاظ والعبارات المنزلة على لسان جبريل إلى النبي عليه السلام دلالات على الكلام الأزلي، وهي مخلوقة. أما المدلول، أي المعنى، فهو قديم غير مخلوق. وشبه القراءة والمقروء بالذكر والمذكور، فالقراءة مخلوقة مثلها مثل الذكر. أما المقروء فقديم غير مخلوق مثله مثل المذكور[12]! وبهذا المعنى يكون المتكلم هو "من قام به الكلام[13]، وليس من فعل الكلام كما يقول المعتزلة.

أما المعتزلة فقد جعلوا مسألة "كلام الله" متفرعة عن باب "صفات الأفعال"، فالكلام عندهم فعل، "لأنه يصح أين يقع على وجه فيقبح، وعلى وجه آخر فيحسن، وما هذه خاصيته هو من باب "العدل". فمن عدل الله "أنه أنزل القرآن على نبيه "ليكون علما ودالا على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام". فهو بهذا المعنى "مجعول" لنا، وما هو مجعول فهو مخلوق. وهذا المخلوق الذي نسمعه اليوم ونتلوه، وإن لم نقل إن الله أحدثه وخلقه على الحقيقة، فهو مضاف إليه على الحقيقة، كما يضاف إلى امرئ القيس على الحقيقة ما ننشده اليوم من شعره، وإن لم يكن مُحدِثا له الآن"[14]. على أن من المعتزلة من حسم في الأمر فقال: القرآن مخلوق لفظا ومعنى. هو "مخلوق لفظا" لأنه مركب من حروف والمركب محدث. وهو "مخلوق معنى"، لأنه أمر ونهي وأحكام وأخبار الخ، موجهة إلى مخاطبين مخلوقين. وقال آخرون منهم: "إن الله تعالى خلق القرآن في اللوح المحفوظ، ولا يجوز أن ينقل (إلينا)، إذ يستحيل أن يكون الشيء الواحد في مكانين في حالة واحدة. (وبالتالي فما) نقرأه فهو حكاية عن المكتوب الأول في اللوح المحفوظ، وذلك فعلنا وخلقنا"[15].

هذا النزاع العقدي حول كون القرآن "مخلوقا" أو قديما غير مخلوق، كانت وراءه خلفية سياسية هي وحدها تعطي المعنى لأصول هذا النزاع ولما انتهى إليه من محنة، كان حجمها وعواقبها أكبر كثيرا مما يمكن أن يتصوره من يقف في هذه المسألة عند هذه النقطة (انظر التفاصيل في كتابنا المذكور).

---

12 - الشهرستاني. نفس المرجع.

13 - أي الذي يمارس عملية الكلام، دون أن يعني ذلك أنه هو الذي يخلق كلامه، ومثل ذلك قولنا: عالم، فهو من قام به العلم، أي اتصف بالعلم، وليس الذي خلق العلم في نفسه.

14 - القاضي عبد الجبار بن أحمد. شرح أصول المعتزلة. تحقيق عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة. القاهرة 1965، ص528

15 - الشهرستاني المرجه نفسه نفسه ص70

62- سورة الزخرف

- تقديـــم

وردت أخبار عن لقاءات واعتراضات ربطوها ببعض آيات هذه السورة. من ذلك: قول بعضهم إن قريشا قالت: قيّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه، فقيضوا لأبي بكر طلحة، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر إلام تدعوني؟ قال أدعوك إلى عبادة اللات والعزى. قال أبو بكر: وما اللات قال : ربنا! قال : وما العزى قال بنات الله. قال أبو بكر : فمن أمهم؟ فسكت طلحة ولم يجبه. فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة : قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، فأنزل الله و"من يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا" الآية. ومن ذلك ما قيل من أن الرسول عليه السلام قال لقريش إنه ليس أحد يُعبَد من دون الله فيه خير؛ فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا صالحا وقد عُبِدَ من دون الله؟ فأنزل الله "ولما ضرب ابن مريم مثلا" الآية. وقالوا: بينما ثلاثة بين الكعبة وأستارها، فقال واحد منهم: أترون الله يسمع كلامنا؟ فقال آخر: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت: "أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم" الآية.

هذا وقدر بعضهم أن هذه السورة نزلت في الثامنة أو التاسعة. وهذا يتسق مع ترتيبنا للحواميم بوصفها نزلت في فترة الحصار الذي دام من السابعة إلى حدود العاشرة للنبوة.

- نص السورة

1- مقدمة: إنه في أم الكتاب ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ[3] (تفهمون). وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ(1) لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ[4] (مكانته عندنا رفيعة وهو مملوء حكمة).

1- قيل: "أم الكتاب" هو اللوح المحفوظ. انظر التعريف بالقرآن. الفصل الثامن. فقرة 2

2- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا. وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ!

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ[5] (2). وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ[6]، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون[7]، فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ (من قريش) بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ[8] (سبق أن تحدثنا عنهم). وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ[9]. (هو) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (فراشا وبساطا)، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (للعيش) لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[10]؛ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ (بقدر الحاجة) فَأَنْشَرْنَا (أحيينا) بِهِ بَلْدَةً (أرضا) مَيْتًا، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ[11] (من قبوركم عند قيام الساعة كما يخرج النبات من الأرض)؛ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (السماء والأرض، الذكر والأنثى الخ)، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ[12] لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ (المركب)، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[13] (مطيقين، ضابطين)، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ[14]! (ومع هذه الدلائل البينة على وحدته فإن قريشا أشركوا بالله:) وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (نصيبا هم: الملائكة سموها بنات الله)(3)! إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ[15]. أَمْ اتَّخَذَ (هل اتخذ الله) مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ (اختصكم) بِالْبَنِينَ[16] (لكونكم تفضلون البنين على البنات)؟ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا (إذا أخبر بأنه ولدت له بنت) ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[17] (حزينا متسائلا باستنكار: هل وُلدت لي أنثى؟ مبررا استنكاره بالقول) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (الزينة) وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟ (هو ما ولد لي؟)[18] (4).

2- اختلف المفسرون في هذه الآية، وأقرب الأقوال إلى المعنى في نظرنا هو قول من قال: "أفنمسك عن إنزال القرآن فلا ننزله عليكم لأنكم لا تؤمنون به؟".

3- اختلف المفسرون في معنى "الجزء" هنا. قال بعضهم "الجزء عند أهل العربية يعني البنات". وقد تحفظ صاحب لسان العرب على هذا وقال: "قال أبو إسحاق: وقد أنشدت بيتا يدل على أنَّ معنى جُزْءاً معنى الإناث، قال: ولا أدري البيت هو قديمٌ أم مَصْنوعٌ". ثم ذكر المعنى الذي أثبتناه أعلاه. أما الزمخشري فقال: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له، مع ذلك الاعتراف، من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى "مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا" أن قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له". وأضاف: "ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول".

4 - شرح المفسرون هذا الآية بما يفيد أن قائل معناها هو الله تعالى. واختلفوا: بعضهم يجعل معناها أن الله يتساءل -باستفهام إنكاري- هل تخصون الله بالمرأة التي تنشأ في=

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا! أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ (كيف عرفوا أنهم إناث وليسوا ذكورا؟)[5] سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ (تلك) وَيُسْأَلُونَ (عنها يوم القيامة)[19]. وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ[6]. مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا

الزينة وتنشغل بها ولا تعرف كيف تجادل ولا كيف تقنع؟ ومنهم من قال إن المقصود هم أصنام قريش المصنوعة من الحلي، ذهبا وفضة، والتي لا تتكلم ولا تجيب. ونحن نرى أن المتسائل المتعجب في قوله تعالى : "أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟ هو نفسه الذي ذكرته الآية السابقة لهذه مباشرة والذي قالت عنه: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ"، بمعنى أن "أحدهم"، هذا، هو نفسه الذي تساءل، مبررا حزنه وتشاؤمه، من ازدياد بنت لديه. وتتضح الصورة أكثر لو وضعنا قبل "أو من ينشأ..." كلمة: "قائلا" "أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين"، يعني الأنثى، والاستفهام هنا إنكاري. والفرق بين ما ذهب إليه المفسرون وبين ما قررنا هو أن نسبة ذلك الكلام عن البنت إلى الله فيه تحقير للمرأة أو على الأقل صدور عن رؤية تحط من شأنها. أما ما قررناه فهو ينسب ذلك الكلام إلى الإنسان، إلى قريش، وهذا فعلا يعكس نظرتهم إلى المرأة.

5- معروف أن لفظ "الملائكة" بالعربية هو جمع ملاك وهذا مفرد مذكر. وكلمة "ملاك" عبرية، ولعلها من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية. وقد وردت في التوراة بهذه الصيغة maleak وتعني ما تعنيه في الإسلام: الملائكة رسل الله. ففي التوراة بصدد طرد آدم من الجنة : "23فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْ تُرَابِهَا. 24وَهكَذَا طَرَدَ اللهُ الإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ، وَأَقَامَ مَلاَئِكَةَ الْكَرُوبِيمِ وَسَيْفاً نَارِيّاً مُتَقَلِّباً شَرْقِيَّ الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ». (التكوين 3). و"الكروبيم" جمع كروب بالعبرية cherub والجمع بالعربية "كروبون" ملائكة يقيمون جنب حضرة الله يرسلهم إلى حيث يشاء ولهم أجنحة (قارن: الملائكة المقربون). وفي التوراة عن حلم يعقوب: "12وَرَأَى حُلْماً شَاهَدَ فِيهِ سُلَّماً قَائِمَةً عَلَى الأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَمَلاَئِكَةُ اللهِ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا، 13وَالرَّبُّ نَفْسُهُ وَاقِفٌ فَوْقَهَا يَقُولُ: «أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحقَ (التكوين 28). وهناك غير الكروبيين من الملائكة، منهم ملائكة الهلاك: "وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمْ حَمْلَةً مِنْ مَلاَئِكَةِ الْهَلاَكِ. (المزامير 49)، و"الْمَلاَئِكَةُ الْقِدِّيسُونَ (المزامير5)، و"الْمَلاَئِكَةُ السَّرَافِيمِ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، يقيمون بالحضرة الإلهية يسبحون"، (إشعياء). وأيضا الساقطين: "21ذَلِكَ الْيَوْمَ يُعَاقِبُ الرَّبُّ الْمَلاَئِكَةَ السَّاقِطِينَ فِي السَّمَاوَاتِ، وَالْمُلُوكَ الْمُتَغَطْرِسِينَ عَلَى الأَرْضِ(إشعياء).

6 - اختلف المفسرون حول الآية بسبب الانتماء المذهبي فالقرطبي خصم المعتزلة يفسرها بقوله: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل وكل شيء بإرادة الله، وإرادته تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها؛ أما الزمخشري المعتزلي فهو يرفض هذا الرأي وينسبه للمجبرة الذين ينفون عن الإنسان حرية الإرادة. يقول: "فإن قلت: ما أنكرت على من يقول:=

يَخْرُصُونَ[20]. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ (القرآن) فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ[21]؟ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (على طريقة ومذهب)، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ[22]. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا (أغنياؤها) إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (مذهب وطريقة)، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ[23]. (وإذا) قَالَ (النذير لهم) أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ (أتقلدونهم مع ذلك؟) قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ[24]. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[25]. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ[26]. إِلَّا (لكن) الَّذِي فَطَرَنِي (خلقني) فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي[27]. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (أي قوله ذاك) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[28] (إلى دين إبراهيم)، بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ[29]. وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ[30].

3- فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...

وَقَالُوا (قريش) لَوْلَا (هلا) نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[31] (من عظماء مكة أو الطائف). أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (أي النبوة)؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (يسخر الأغنياء من الأقل غنى)، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ (النبوة) خَيْرٌ

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل. على أن الله تعالى قد حكى عن ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر، أنهم جعلوا له من عباده جزءا، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً، وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكى الذي هو إيمان عنده، لو جدّوا في النطق به، مدحاً لهم من قِبَل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء؛ فبقي أن يكونوا جادين، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر. فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله! فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءاً لم يكن لقوله تعالى: "مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ" معنى، لأنّ من قال لا إله إلا الله على طريق الهزء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً". قلت (الجابري): وفي رأينا أن الآية واضحة: القرآن يقول عنهم إن ما قالوه عن كون الملائكة إناثا وكونها بنات الله ليس لهم به علم بل هم يخرصون، أي يتكهنون ويخمنون. فهم في الحقيقة لم يقولوا ذلك على سبيل الاستهزاء بل بسبب تقليدهم آباءهم، إن موقفهم الحقيقي هو قولهم لاحقا: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وقولهم للرسول عليه السلام مثل الذي قالته الأقوام الماضية لرسلهم أي: "إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ".

مِمَّا يَجْمَعُونَ[32] (من الأموال). وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (مترفين كافرين) لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ (درجا) عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ[33] (وهم في الأعالي)، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكِئُونَ[34]، وَزُخْرُفًا، وَإِنْ (وما) كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا (إلا) مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ[35]. وَمَنْ يَعْشُ (يُعرض) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ[36]. وَإِنَّهُمْ (الشياطين) لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ (أي الكفار) مُهْتَدُونَ[37]، حَتَّى إِذَا جَاءَنَا (الكافر يوم القيامة) قَالَ (للشيطان قرينه) : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ[38]. وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ (يا قريش) إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ[39] (مع شياطينكم). أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[40]. فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ (نتوفاك)، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ[41] (من بعدك)، أَوْ نُرِيَنَّكَ (مصيرهم في الدنيا) الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ[42]. فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[43]. لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ[44]. وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا (سأل أهل الكتاب) أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ[45] (7).

4- فرعون استخف بعقول قومه فأطاعوه...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ[46]. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ[47]. وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ (معجزة) إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ (الجفاف الطوفان: الآيات التسع) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (عن الكفر)[48]. وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ (من إزالة العذاب إذا آمنا) إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ[49]. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ[50]. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ[51]؟ أَمْ (تبصرون أني) أَنَا خَيْرٌ مِنْ (موسى) هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ (ضعيف) وَلَا يَكَادُ يُبِينُ[52]. فَلَوْلَا (هلا) أُلْقِيَ عَلَيْهِ (إن كان صادقا) أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ[53] (ملازمين يشهدون بصدقه)! فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ (اعتبرهم ضعاف العقول) فَأَطَاعُوهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[54]. فَلَمَّا آسَفُونَا (أغضبونا) انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ (قومه) أَجْمَعِينَ[55]. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا (عبرة للأولين) وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ[56].

---

7 – انظر موقف التوراة والإنجيل من الأصنام في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثالثة.

5- قالوا عن عيسى: أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ قل: هو عبد جعلناه مثلا...

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[57] (انظر التقديم). وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ (هذا مثل) مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (من أجل إحراجك)، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ[58] (هم خصوم لك وأعداء). إِنْ هُوَ (عيسى) إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ[59] (آية وعبرة يستدل منها على أنه رسول من الله إليهم، وليس ابن الله كما تقول النصارى). وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ[60] (يكونون بدلا عنكم). وَإِنَّهُ (=القرآن) لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ (يخبركم بها وبأحوالها)، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا (تشكون فيها)؟ وَاتَّبِعُونِي (أطيعوني)، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[61]. وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[62]. وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي[63]. إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ[64]. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ (اختلفت فرقهم هل هو الله أم ابنه)، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ[65]. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[66]. الْأَخِلَّاءُ (الأصدقاء) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[67]، (يقال لهم) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ[68]، (إنهم) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ[69] (يقال لهم): ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ[70] (تكرمون). يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[71]. وَتِلْكَ (هي) الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[72]، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ[73]. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[74]. لَا يُفَتَّرُ (يخفف) عَنْهُمْ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[75] (صامتون يائسون). وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ[76]. وَنَادَوْا يَا مَالِكُ (خازن جهنم) لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ! قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ[77]. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[78]. أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا (هل دبروا مكيدة للرسول(8)) فَإِنَّا مُبْرِمُونَ[79] (محكمون الحماية لك)؟ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟ بَلَى! وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ[80]. قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ[81] (لهذا الولد لو كان له فعلا ولد). سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ[82]. فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ[83].

8- إشارة إلى تآمرهم –قبيل الحصار– على اغتيال الرسول.

6- خاتمة: قال الرسول رب هؤلاء قوم لا يؤمنون! الجواب: اتركهم!

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[84]. وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[85]. وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ[(9)] إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[86]. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ[87]. وَقِيلِهِ (قال الرسول) يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ[88]. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ (أعرض عنهم ولا تنشغل بهم ولا تحزن عليهم) وَقُلْ سَلَامٌ (اتركهم وامض في طريقك) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[89].

تعليق

تكاد هذه السورة تقتصر على الرد على اعتراضات قريش على الركن الأساس في العقيدة المحمدية وهو "التوحيد". والاعتراضات التي تحتج بها قريش هنا ليست بنت ساعتها، فقد سبق أن ردت عليها سور سابقة. وهذه مسألة عامة، ذلك أنه نادرا ما يأتي الرد في القرآن المكي على ما تقول قريش في الحين، فالأمر يتعلق بالعقائد، وعرضها والدفاع عنها لا يكون مرة واحدة، بل هي موضوع جدل متكرر. ولما كان الرسول، في هذه المرحلة، محاصرا في شعب أبي طالب فلنا أن نفترض أن تكرار هذه السور (الحواميم) للرد على اعتراضات قريش هو من أجل تسليته وتثبيت فؤاده. وهذا واضح من تكرار دعوته إلى الصبر وعدم اليأس وانتظار الفرج.

ولعل هذه السورة ومثيلاتها نموذج من "علم الكلام" مارسته قريش قبل أن يظهر هذا "العلم" بنحو قرن من الزمان؟ ومن الأمثلة التي يمكن تصنيفها ضمن "علم الكلام" القرشي، قولهم في هذه السورة : "وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ" (الآية 20). وهذا تلبيس وتغطية للسبب الحقيقي، وهو تقليدهم لآبائهم وعدم قدرتهم التحرر مما وجدوهم عليه، وقد كشفت السورة الغطاء عنه حينما ردت عليهم "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ" (الآية 22). ومن ذلك أيضا قولهم "لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (الآية 31) حتى يتبعهما الناس، مشيرين بذلك إلى كون الرسول عليه السلام ليس من الأغنياء وأنه

9- روي أن نفرا من قريش قالوا: إن كان البعث حقاً كما يقول محمد فنحن نعبد الملائكة، فهم أحق بالشفاعة منه، فجاء الجواب: الملائكة لا يشفعون إلا لمن آمن بالبعث والحساب والجزاء وشهد أن ذلك حق وتصرف على أساسه.

بسبب ذلك لم يتبعه إلا الفقراء من المولي والعبيد وبعض أبناء القبائل الصغيرة الخ. وترد عليهم السورة : ومتى كان الغنى أساسا للنبوة؟ إن الغنى مصدر الفرقة، فالأكثر غنى يسخر ويستهزئ بالأقل غنى، وهل رأيتهم غنيا اجتمع عليه الأغنياء وأحبوه واتبعوه؟ أليست العلاقة بين الأغنياء علاقة تنافس وتطاحن؟ إن النبوة التي يطلبون رحمة، وهم بغناهم يقعون خارج نطاق هذا النوع من الرحمة! قال تعالى: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (أي النبوة)؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (يسخر الأغنياء من الأقل غنى)، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ الآية (الآية 32). ثم تلتفت السورة إلى النبي (ص) بعد أن عيروه ضمنيا بالفقر وضعف المنزلة فتخاطبه بما يثبت فؤاده ويشد من عضده، قال تعالى: "فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[43]. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ" (الآية 44).

ومن ذلك أيضا قولهم: إذا كان النصارى وهم من أهل الكتاب يعتقدون في عيسى أنه ابن الله ويعبدونه فلماذا تنكر علينا اعتقادنا في الملائكة أنها بنات الله وتطلب منا ترك عبادتها هي والأصنام التي نقيمها تماثيل لها كما يقيم النصارى تماثيل وصورا لعيسى ومريم ويعظمونهما؟ وقد ردت عليهم السورة بأن هذا المثل الذي ضربتموه هو قول جدلي محض لا يراد به البحث عن الحقيقة وإنما المقصود منه إحراج الخصم. ذلك أن الدين الذي جاء به عيسى هو نفسه دين إبراهيم كما ورد في التوراة، أما ما أنعم به الله على عيسى من الآيات والمعجزات فهي لإقناع بني إسرائيل أنه فعلا مبعوث من عند الله، فهو في هذا مثل موسى الذي أنعم عليه الله بسبع آيات معجزات: ذلك ما عبرت عنه السورة بقوله تعالى: "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[57]. وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ (هذا مثل) مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا

63- سورة الدخان

- تقديـــم

لم يرد في شأن هذه السورة ما يستحق الذكر سوى خبر ربطه كثير من المفسرين بقوله تعالى: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ، هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ" (الآيات 10-12) هذا الخبر مفاده - حسب رواية عبد الله بن مسعود وقد ذكرها البخاري- "أنَّ قُرَيشاً أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبيُّ (ص) فقال: اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبع يوسفَ؛ فأخذَتْهم سَنَةٌ (من الجفاف) حتى هَلَكوا فيها وأكلوا الميتةَ والعظامَ، ويرَى الرجلُ ما بينَ السماءِ والأرض كهيئةِ الدُّخان، فجاءهُ أبو سفيانَ فقال: يا محمدُ، جئتَ تأمرُنا بصِلةِ الرَّحم، وإنَّ قومكَ قد هلكوا، فادعُ اللّهَ. فقرأ: "فارتقب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين ــ إلى قوله ــ عائدون" (الدخان: 10 ــ 15) (قال ابن مسعود) أفيُكشَف عنهم عذابُ الآخرةِ إذا جاء، ثم عادوا إلى كفرهم. فذلك قولَهُ تعالى: "يومَ نبطِشُ البطشةَ الكبرى" الدخان: 16) يومَ بدرٍ. واضح من الرواية (ذكر غزوة بدر) أن أحداثها تنتمي إلى العهد المدني، أما السورة فهي مكية باتفاق، أما القول بأن بعض هذه الآيات مدنية، فقول غير معتبر، خصوصا والسورة مبنية كلها حول هذه الآيات، كما سيتضح في "التعليق".

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ

باسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ[2]، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ (1)، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ[3]. فِيهَا يُفْرَقُ (ينزل) كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ[4] (2): أَمْرًا مِنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ[5] رَحْمَةً

1- فسرها معظم المفسرين بأنها "ليلة القدر" وذلك بناء على قوله تعالى: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" (البقرة: 185). وقوله: ""إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" (القدر: 1). واختلفوا في سورة القدر : هل هي مكية أم مدنية؟ ونحن قد رجحنا هذا القول الأخير فاعتبرناها مدنية وسنشرح ذلك في حينه. أما الآية أعلاه فهي والسورة التي وردت فيها

(نبوة) مِنْ رَبِّكَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[6]؛ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ[7]. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ[8].

2- ارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، إنا منتقمون.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ[9] (ويستهزئون مما ينذرهم به القرآن من الوعيد). فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ[10] يَغْشَى النَّاسَ (كغبار الرمل الذي تعرفه جزيرة العرب فيقولون): هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[11]، (قد يقولون) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ (عذاب الدخان) إِنَّا مُؤْمِنُونَ[12]. (وحينئذ سنقول) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى (لو استجبنا لطلبهم هل سيوفون بما قالوا) وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ[13] (ولم يؤمنوا)، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ (له من يعلمه) مَجْنُونٌ[14]؟ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا، إِنَّكُمْ عَائِدُونَ[15] (إلى تكذيبكم وكفركم)! يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (يوم القيامة) إِنَّا مُنْتَقِمُونَ[16].

3- أغرقنا قوم فرعون... فما بكت عليهم السماء والأرض...

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ[17]، (موسى: قال لهم) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ (أعطوني بني إسرائيل) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ[18]، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[19]، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي[20]، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي[21] (اتركوني وشأني ولا تقتلوني). فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ[22]، (فكان الجواب:) فَأَسْرِ بِعِبَادِي (اخرج ببني إسرائيل) لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ[23] (يتبعكم فرعون وجنده)، وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا (يبسا) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ[24] (3). كَمْ تَرَكُوا (جند فرعون،

مكيتان. وعليه فالليلة المباركة هي التي نزل فيها جبريل بـ"اقرأ باسم ربك" الخ، على الرسول في غار حراء.

2- نظير قوله تعالى عن سورة القدر: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر 4).

3- تقوم السورة هنا بالتذكير بقصة فرعون، من خلال ذكر وقائع منها، فقد سبق أن عرضت في سور سابقة. وهكذا فقوله "اترك البحر رهوا" تذكير بقوله تعالى في سورة الشعراء: "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ" (الشعراء 63-66). والمعنى اضرب بعصاك في البحر ينشق فيه طريق يابس عريض كالجبل لتجتاز أنت=

منْ ورائـهم بعد غرقهم) مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[25]، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ[26]، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ[27]؟ كَذَلِكَ (حصل)، وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ[28]. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ[29] (ممهلين حتى يتوبوا). وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ[30]: مِنْ فِرْعَوْنَ، إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ[31]، وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ (بني إسرائيل)، عَلَى عِلْمٍ[(4)]، عَلَى الْعَالَمِينَ[32]، وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ[33].

4- إنما يسرناه بلسانك وبطريقة التجوز فيه... لعلهم يتذكرون.

إِنَّ هَؤُلَاءِ (قريش) لَيَقُولُونَ[34] إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ[35] (بمبعوثين) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[36]! أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ [(5)] وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ! إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ[37]. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ[38]، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[39]. إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ[40]، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى (سيد) عَنْ مَوْلًى (عبد، والعكس) شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ[41] إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[42]. إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ[43]، طَعَامُ الْأَثِيمِ[44] (الفاجر) [(6)]، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ[45]، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ[46] (الماء الحار جدا: يقال لخزنة جهنم) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ (جروه) إِلَى سَوَاءِ (وسط) الْجَحِيمِ[47]، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ[48]، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

وقومك، واترك الطريق وراءك يابسة كي يدخلها جند فرعون الذين يطاردونك، فسنعيد الماء إلى وضعه ويغرقون...

4- المعنى: كقولنا اليوم "ونحن نعرف ما نفعل". والمعنى الكلي: اخترنا إنقاذ بني إسرائيل من طغيان فرعون –دون غيرهم– ونحن ننوي تخصيصهم بآيات ونبوات كي نختبرهم: هل سيستقيمون ويشكرون؟ أم أنهم سيزيغون ويضلون؟ وبما أن هذا قد ورد في خطاب موجه إلى قريش فمن الواضح أنه يقدم لهم مثال بني إسرائيل ليأخذوا منه العبرة. ذلك أن الله قد خص قريشا فاختار منهم رسولا وأصبحوا هم أيضا "أهل كتاب" كي يختبرهم كما اختبر بني إسرائيل.

5 – ملوك اليمن: كانوا يسمون التبابعة. فتُبَّعْ لقب للملك منهم مثل كِسْرَى عند الفُرْس.

6 – قال المفسرون: "وشجرة الزقوم: شجرة خلقها الله في جهنم، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحار. وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل، وهو النحاس المذاب". والمعنيُّ هنا هو أبو جهل الذي سبق أن سخر منها وقال: الزقوم هو التمر والعسل. وكان يكنى: "أبا الحكم" ويقول عن نفسه إنه أعز من في مكة فخاطبته الآية "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيم".

الْكَرِيمُ[49]. إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ[50] (تشكون فيه في الدنيا). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ[51]، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[52]، يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ (7) مُتَقَابِلِينَ[53]. كَذَلِكَ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ[54] (8)، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ[55]، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى (في الدنيا، وبعدها هم خالدون في الجنة) وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[56]: فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[57].

5- خاتمة: إنما يسرنا القرآن بلسانك لعلهم يتذكرون...

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (القرآن) (9) بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[58]، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ[59].

- تعليق

تناولت هذه السورة، بعد المقدمة، موضوعا واحدا هو موضوع المعاد. أما المقدمة فتشير لأول مرة حسب ترتيب النزول إلى أن القرآن نزل في "ليلة"، اقتصرت السورة على وصفها بـ"مباركة"، فلم تطلق عليها اسما ولم تحدد لها تاريخا، ولم تبين هل هي ليلة فريدة وحيدة أم أنها تتكرر. وقد رجح كثير من المفسرين أنها "ليلة

---

7 - السُّنْدُس: ما رَقَّ من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه. والديباج ثياب منقوش: فارسي.

8 - "والحور: البيض؛ جمع حوراء. والحَوْراء: البيضاء التي يُرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه في كعبها كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون" (القرطبي).

9- المعنى أن هذا الذي قلناه عن مشاهد القيامة والجنة والنار قد عبرنا عنه باللسان العربي ومعهود العرب اللغوي والحضاري العالم، من ذلك استعمال المثال والمجاز والتشبيه والتشخيص الخ، كل ذلك من أجل أن نقربه لأفهامهم ويكون يسير الفهم عليهم. قلت (الجابري): هذا يعني أن ما ذكر من نعيم الجنة مثالات لما سيكون، معبرا عنه وفق معهود العرب، أما حقيقة ما سيكون، وفق أنواع المعهود لجميع البشر منذ الخليقة إلى يوم القيامة، فعلمه عند الله! هذا وقد لاحظ الشاطبي أن الله خاطب العرب بما يعرفون ولم يخاطبهم بما لا يعرفون، وقال في شأن ما وصف به القرآن نعيم الجنة: "وأخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا، لكن مبرأ من الغوائل والآفات التي تلازم التنعيم الدنيوي: كقوله وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود إلى آخر الآيات، وبين من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ما هو عندهم مألوف، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم، بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة". (الموافقات للشاطبي. ج2 ص78).

القدر"، وقد سميت باسم "القدر" سورة خاصة ورد فيها، "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ"، وأن من الأمور التي نزلت فيها القرآن. وسنعود إلى عرض ومناقشة ما ذكره المفسرون بشأنها عندما نصل إليها، فقد رجحنا الرأي القائل إنها مدنية، ورتبناها مع القرآن المدني. أما الآن فلنواصل صحبتنا لسورة "الدخان" المكية التي وصفت الليلة المباركة المذكورة بأن "فيها يفرق ويوزع بأمر الله كل أمر حكيم، بما في ذلك إرسال الرسل رحمة بالناس: تبين لهم بأن الله وحده هو الإله، وأنه هو رب السماوات والأرض وما بينهما وأنه هو الذي يحيي ويميت وأنه هو رب الآباء الأولين.

بعد هذه المقدمة تنتقل السورة إلى موضوعها، الذي عبرت عنه في القسم الأخير من المقدمة، وهو الرد على قريش خصوصا في إنكارهم البعث، وذلك انطلاقا من آخر المقدمة: "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ". وهكذا تتوالى فقرات السورة، مرتبة منظمة؛ فتبدأ هذه المرة، لا بالتذكير بمصير الأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، بل بالإعلان عن المصير الذي ينتظر المشركين من قريش والطريقة التي سيكون بها هلاكهم، ومشهد قيام الساعة عندهم (الدخان/الغبار)، إذا هم استمروا في تكذيب رسول الله إليهم وإلى الناس كافة وواصلوا الاستهزاء بالقرآن الذي ينزل عليه من عند الله.

وهكذا فالهلاك سيأتيهم من جنس الظاهرة الكونية التي يعرفونها وتشكل جزءا من معهودهم، وذلك بحدوث عاصفة من الغبار الذي يعم أجزاء من الجزيرة العربية بين حين وآخر على شكل عواصف رملية تغطي السماء وتمنع الرؤية وتحول الحياة جحيما، فيشعرون وكأن الأمر يتعلق بقيام القيامة فيخافون ويندمون ويدعون الله أن يكشف عنهم هذه الغمة الطبيعية القاتلة ويمنحهم فرصة أخرى من الحياة الطبيعية، يتحولون فيها إلى مؤمنين يعملون صالحا كما أمرهم الكتاب المنزل على الرسول المبعوث إليهم. وبما أن الله رحيم بعباده، وأن إرسال الرسل إلى الناس هو تشخيص لهذه الرحمة، فإنه سيرفع العذاب عنهم وهو يعلم أنهم عندما يتبدد الغبار/الدخان وتعود الحياة إلى وضعها الطبيعي سيعودون إلى ما كانوا عليه: يكذبون رسولهم ويستهزئون بالقرآن ويسخرون من الاعتقاد في البعث والحساب. هنا، بعد أن اختاروا الضلالة من جديد، فعادوا إلى ما كانوا عليه، يخاطبهم الذكر الحكيم: "إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ[15]، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (يوم القيامة) إِنَّا مُنْتَقِمُونَ".

وبعد أن تذكرهم السورة بالمصير الذي لقيه فرعون وملؤه، بعد أن رفضوا الاستجابة للرسول الذي بعثه الله إليهم، إذ سلط الله عليهم عدة كوارث كانوا يطلبون

الرحمة عند كل واحدة فيستجاب لهم، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، ليكون مصيرهم في النهاية الغرق والهلاك، أقول بعد أن ذكرت السورة مشركي قريش بمصير فرعون وملئه تنبيها لهم إلى أن استجابة الله لطلبهم الرحمة لا تعني تغيير المصير المحتوم وإنما إتاحة الفرصة لهم ليتوبوا ويعملوا صالحا، تخاطبهم السورة بآيات بليغة الدلالة: ترد أولا على عناد قريش -بإنكارهم البعث وتأكيد اعتقادهم في أنه ليس هناك إلا موتة واحدة ولا شيء بعدها، وبتحدِّيهم الرسول والقرآن والمؤمنين جميعا قائلين: إذا كنا سنبعث حقا بعد أن نموت "فَأْتُوا بِآبَائِنَا" كدليل على صدقكم- ترد عليهم السورة بدليلين: الأول من تاريخ العرب أنفسهم وذلك بتذكيرهم بمصير الملوك التتابعة باليمن جارهم، ومن كان قبلهم، ممن قاموا بحملات متتالية لغزو مكة. هؤلاء كانوا أشد قوة منهم فأفشل الله محاولاتهم وأهلكهم جميعا. أما الدليل الثاني فهو التأكيد لهم مرة أخرى أن الله لم يخلق السماوات والأرض لهوا ولعبا وأنهم لو كانوا يتفكرون لتساءلوا عن الغاية من خلقها. أما الجواب فسيجدونه جاهزا بينا في القرآن الذي وضح الغرض من خلق آدم وما جرى له حين أغواه الشيطان، وأن طرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض هو من أجل اختباره وتحميله مسؤولية الأسماء (الخير والشر، المسؤولية والجزاء الخ) التي علَّمها له. وبعد أن رسمت السورة مشهدين لنوعي الجزاء، جهنم والجنة، شخصت فيهما تشخيصا بليغا صورة كل منهما، تستعيد مقدمتها في الخاتمة -كما هي العادة- فتعود إلى القرآن المنزل في "ليلة مباركة": وتخاطب الرسول: "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (القرآن) بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[58]، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ"[59].

والمعنى إن هذا الذي قلناه عن الدخان/الغبار الذي سنسلطه على مشركي قريش والصورة التي رسمناها للجنة والنار، قد عبرنا عنه بطريقة اللسان العربي في استعمال المثال والمجاز والتشبيه والتشخيص الخ، كل ذلك من أجل أن نقربه لأفهامهم ويكون يسير الفهم عليهم. إنها مثالات لما سيكون، مبينة وفق معهود العرب، لغة وحضارة. والأمر نفسه يصدق على الرسل السابقين فقد بعثهم الله بلسان أقوامهم وضرب لهم الأمثال بما هو معهود عندهم، وفاقا مع قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ". والجدير بالإشارة أن لفظ "اللسان" في لغة العرب واسع الدلالة، فهو يعني: "اللُّغَةُ، والرِّسالَةُ، والمُتَكَلِّمُ عن القَوْمِ". لسان بني فلان: ينطق باسمهم حسب معهودهم الخ، ويطابقه اليوم قولنا: "الناطق باسم الحكومة".

64- سورة الجاثية

- تقديـــم

لم يرد حول هذه السورة من المرويات ما يستحق الذكر. فجميع ما ذكر من مناسبات لنزول هذه الآية أو تلك وقائع حدد رواتها مكانها أو زمانها في العهد المدني من البعثة، هذا في حين أن هذه السورة مكية باتفاق، مثلها مثل أخواتها الحواميم. روايتان وردتا، حول آيتين، تفسران مضمونهما بالرد على معتقدات كان العرب يعتقدونها في الجاهلية، إحداهما "عن سعيد ين جبير قال : كانت قريش تعبد الحجر حينا من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول، وعبدوا الآخر، فنزلت "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"، وهذا شيء معروف وقد سبق أن ذكرنا ذلك في الاستطراد الذي خصصناه لموضوع الأصنام في آخر "المرحلة الثالثة" (بعد سورة يوسف، آخر القسم الأول من الكتاب). والرواية الثانية عن أبي هريرة قال: "كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار، فأنزل الله "وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر". واضح أن الروايتين كلتيهما ليستا من "أسباب النزول" وإنما هما من قبيل "التفسير" لا غير. أما الرواية الوحيدة التي قد تكون لها علاقة بـــ "أسباب النزول" على الرغم من كونها تنسب من قبل الأكثرية إلى العهد المدني" فسنعرض لها في "التعليق".

- نص السورة

1- مقدمة: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[2] (العزيز: القوي المنيع). إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ[3]، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[4]. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[5]. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ (حديث) اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ[6]؟

2- وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا..

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ (كذاب) أَثِيمٍ[7]: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ[(1)] ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[8]. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا (موضوع استهزاء)، أُولَئِكَ (أمثال هذا الشخص) لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ[9]: مِنْ وَرَائِهِمْ (=من أمامهم، بين أيديهم) جَهَنَّمُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا، وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[10]. هَذَا هُدًى! وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ[11]. اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (=التجارة)، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[12]. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ (=إنعاما منه)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[13]. قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا (يتغاضوا عما يصيبهم من أذى من جانب المشركين، أي) لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ (لا يحسبون حسابا لتقلب الأحوال فلا يستشعرون انقلابها عليهم)، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[14] (أي أن جزاءهم سيكون يوم القيمة). مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[15].

3- "جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها"...

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (العلم، القضاء) وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ[16]؛ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ (من شؤون الدين) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (بغى بعضهم على بعض)، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[17]. ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا[(2)]، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[18]

---

1 - اختلفوا في اسم الرجل المعنيّ هنا: بعضهم قال أبو جهل، وبعضهم قال الحارث بن كلدة...

2 -المعنى الذي يقتضيه السياق لهذه الآية هو : كلفناك برسالة التوحيد فبلغها ولا تتبع ديانات الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (قريش). وقد فهم كثير من المفسرين هذه الآية فهما فقهيا (الحلال والحرام) فاختلفوا: هل شريعة الأنبياء السابقين شريعة لنا أم لا؟ قال ابن العربي: "ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع مَن قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبيّ (ص) وأمته في هذه الآية بشريعة" ويضيف: "ولا ننكر أن النبي (ص) وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي (ص) عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا؟ (ذكره القرطبي). ونحن نرى أن السياق هو سياق=

(قريش). إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ[19]. هَذَا بَصَائِرُ (بينات) لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ[20]. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا (اكتسبوها) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[21]. وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[22]. أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (يعبد ما يمليه عليه هواه كالأصنام والملائكة والجن) وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ (بكونه اختار الشرك)، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[23]! وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ (الزمان)، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ[24]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[25]. قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[26].

4- وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ...

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ! يَوْمَئِذٍ، يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ[27] (المكذبون). وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً (على ركبها)، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا: (يقال لهم) الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[28]: هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[29]. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ[30]. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا: (فيقال لهم) أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ[31]؟ وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ[32]. (وعندما قامت الساعة تيقنوا) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[33]. وَقِيلَ (لهم): الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[34]. ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[35] (يسترضون).

القول في التوحيد وليس في الشريعة. فالقرآن المكي في جملته قرآن يدور حول العقيدة وليس حول الشريعة، وهو مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل على مستوى قصص الأنبياء السابقين وكفاحهم من أجل عقيدة التوحيد وما يتصل به فقط.

5- خاتمة: فالحمد لله: له الكبرياء، العزيز الحكيم.

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ[36]، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ و الْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[37].

- تعليق

تتميز هذه السورة بوحدة الموضوع، فمنذ المقدمة التي افتتحتها، كأخواتها الحواميم، بالتأكيد على أن القرآن تنزيل من الله "العزيز الحكيم"، وهي تعرض وتشرح هذين الوصفين وتبرهن عليهما في إطار الرد على موقفين من مواقف مشركي قريش لا تذكر -كما هي العادة- أسماء المعنيين بهما(3). وهكذا ففي المقدمة ذاتها نجد التذكير بالبرهان القرآني على وجود الله: دلائل في خلق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، في خلق الإنسان وغيره من الكائنات الحية، وفي اختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح والأمطار وتهيئة الظروف للنبات والشجر الخ، لتختم المقدمة بالتساؤل: إذا كان مشركو قريش لا يقتنعون أن ذلك دليل على وجود الله، فأي دليل يمكن أن يقنعهم؟

هنا تشير الآية ضمنيا إلى شخص بعينه -ولو أنها وردت على صيغة العموم- فتتوعده بالويل والعذاب الأليم، وتصفه بـ "الأفاك الأثيم"، كذاب يرتكب الإثم: "يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا". وأكثر من ذلك يسخر ويستهزئ بما سمع منها، ناسيا أو متناسيا أن الله هو الذي سخر له ولقريش، بل وللناس جميعا، البحر الذي تحملهم عليه السفن للتجارة كما سخر لهم "مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا". هؤلاء المنكرون للنعمة الذين يؤذون المسلمين ويظلمونهم، لا ينبغي الانشغال بهم ولا الرد عليهم أو الانتقام منهم، بل على المؤمنين أن يتغاضوا عما يصيبهم منهم من أذى، أولئك لا يحسبون حسابا لتقلب الأحوال فلا يستشعرون انقلابها عليهم، فجزاؤهم سيكون يوم القيامة، حيث سيكون الحساب مبنيا على أساس : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا".

هذا المبدأ تقرر في الرسالات السابقة وخاصة عند بني إسرائيل الذين أتاهم الله خلال تاريخهم "الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (العلم، القضاء) وَالنُّبُوَّةَ" فقدم لهم بينات في هذا الأمر، لكنهم اختلفوا فيه عندما بغى بعضهم على بعض، وسيقضي الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

3- نذكر هنا بما نبهنا عليه سابقا (سورة المسد) من أن أبا لهب هو الاسم الوحيد الذي ذكره القرآن. ذلك أن ما جرى عليه منهج القرآن في هذا الشأن هو تجنب ذكر الأسماء سواء في معرض المدح والوعد أو في معرض الرد والوعيد.

ثم تتجه السورة إلى النبي (ص) بقوله تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا"، بمعنى كلفناك برسالة التوحيد فبلغها، "وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (قريش). هؤلاء الجاهلون الظالمون هم من جنس الذين أشارت إليهم السورة في الفقرة الثانية –إن لم يكونوا هم أنفسهم- سيجازون على أساس المبدأ نفسه: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا". وسيكونون مخطئين إذا هم ظنوا أن مصيرهم بعد الموت سيكون كمصير "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ". لقد اختاروا الضلال واتخذوا أهواءهم آلهة لهم، يعبدون الأصنام والكواكب والشياطين، وأصروا على الكفر حتى صار طبعا فيهم، فأضلهم الله لأنه يعلم أنهم اختاروا الضلال ولن يرجعوا عنه، فختم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فأصبحوا غير قادرين على التراجع عن الضلال، ولا الاستجابة لهدى القرآن! إذن لا تطمع في هدايتهم!

هم ينكرون وجود الله فمن أين ستأتيهم الهداية؟ هم ينكون البعث الذي يقوم عليه مبدأ المسؤولية القاضي بـــ "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا"، فكيف يمكن أن يرجى منهم الإيمان، خوفا من جهنم أو طمعا في الجنة؟ إنهم يقولون بصريح العبارة، ليست هناك بعد الممات جنة ولا نار: "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"؟ عجبا! ومن أين علموا ذلك، "إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"! وإذا أنت حاولت إقناعهم بأن الله يؤكد أن البعث سيكون، وسيكون بعده حساب وجزاء، لا تجد عندهم من حجة يردون بها "إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ"، أي ابعثوهم لنا لنسألهم ونرى حالهم! تجيبهم السورة برسم مشهد مشخص لما سيجري يوم القيامة، حيث سيواجهون أولا بكتاب استنسخت فيه جميع أعمالهم في الدنيا وسيقدم لهم الدليل المشخص على ما أُخبروا به قبل مماتهم، وعبثا سيحاولون الاستعطاف وطلب المغفرة، سيقال لهم: "الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ".



65- سورة الأحقاف

- تقديم

وردت في شأن آيات من هذه السورة أخبار نذكر بعضها فيما يلي: فعن قوله تعالى "وَما أَدري ما يُفعَلُ بي وَلا بِكُم" الآية. ورد عن ابن عباس: "لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله (ص) رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين. ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا: يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرضِ التي رأيت؟ فسكت رسول الله (ص)، فأنزل الله تعالى "وَما أَدري ما يُفعَلُ بي وَلا بِكُم"! يعني لا أدري أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أولا! ثم قال: إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي". ومضمون هذه الرواية لا يستقيم أصلا مع سياق الآية كما سنرى.

وهناك روايات قد تكون لها فائدة على مستوى السيرة نذكر منها ما يشير إلى أمور محتملة في مكة ضاربين صفحا عما يحيل إلى وقائع حدثت في المدينة لأن السورة مكية باتفاق. منَ ذلك ما روي عن ابن عباس من أنه قال في قوله تعالى: "حَتّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَربَعينَ سَنَةً" الآية : "أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله (ص) وهو ابن ثمان عشرة ورسول الله (ص) ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة فنزلوا منزلاً فيه سدرة، فقعد رسول الله (ص) في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين فقال له: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا والله نبي، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد نبي الله. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله (ص) في أسفاره وحضوره، فلما نُبِّئَ رسول الله (ص) وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدق رسول الله (ص). فلما بلغ أربعين سنة قال "رَبِّ أَوزِعني أَن أَشكُرَ نِعمَتَكَ الَّتي أَنعَمتَ عَلَيَّ"... وسنرى أن السياق لا يستقيم مع هذا. ومن ذلك ما ذكر من أنه كانت لعمر ابن الخطاب أمَة أسلمت قبله، يقال لها زنين، فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر. وكان كفار قريش يقولون، لو كان (الإسلام) خيرا ما سبقتنا إليه زنين، فأنزل الله في شأنها "وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا" الآية. كما روي عن

ابن مسعود أنه قال : "إن الجن هبطوا على النبي (ص) وهو يقرأ القرآن ببطن مكة في "نخلة" (مكان)، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن" إلى قوله "ضلال مبين" من هذه السورة. (انظر ما كتبناه في "تعليق واستطراد"، سورة الجن رقم 40). وسنرى أن جميع هذه الروايات لا تستقيم مع الآيات التي ربطت بها. ونحن إنما ذكرناها لما قد يكون فيها من فائدة في التعرف على جوانب من وقائع السيرة، إذ يجوز أن يكون بعض ما تحكيه هذه الروايات صحيحا كأحداث دون أن تكون بالضرورة ذات علاقة بالآيات التي ربطت بها.

- نص السورة

1- مقدمة: ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم[1]. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ[2]. مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى. وَالَّذِينَ كَفَرُوا، عَمَّا أُنْذِرُوا، مُعْرِضُونَ[3]!

2- قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ. وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا (القرآن) أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ (أو أي صحيفة من الصحف الأولى فيها وحي نبوي) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[4]؟ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ[5]! وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا (يعني آلهتهم) لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ[6]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[7]. أَمْ (بل) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ (تخوضون فيه). كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ[8]. قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ. وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ! إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ(1)، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ[9]. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ

1- واضح أن رواية ابن عباس التي ذكرناها في التقديم، حول هذه الآية، لا تستقيم مع سياق الآية: فالكلام هنا متصل والخطاب موجه للمشركين!

عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ (على مثل ما جئتكم به) فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[10]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ(2)، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـذَا إِفْـكٌ قَدِيمٌ[11]. وَمِنْ قَبْلِهِ (من قبل القرآن نزل) كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً، وَهَذَا (القرآن) كِتَابٌ مُصَدِّقٌ (لكتاب موسى) لِسَانًا عَرَبِيًّا (نزل بلسان عربي)، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ[12]. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[13]. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[14].

3- وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا: وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ...

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا (مع مشقة) وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا(3)، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي (ألهمني) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ[15]. أُولَئِكَ، الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، (هم) فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ (4): وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ[16]. وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ (طلبا منه أن يسلم) أُفٍّ لَكُمَا، أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ (أبعث بعد الموت) وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، وَهُمَا (الوالدان) يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ: وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْـأَوَّلِينَ[17]! أُولَئِـكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَـانُوا خَاسِرِينَ[18] (5). وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُـونَ[19].

---

2 – ذكروا أن المشار إليه في قوله "ما سبقونا إليه هم العبيد والموالي وكانوا من أوائل المسلمين. وهذا لا يستقيم مع السياق. انظر التعليق.

3 – مدة الحمل والرضاعة معا.

4- واضح أنه ليس في هذه الآية ما يجعلها خاصة بأبي بكر كما ورد في الرواية التي ذكرناها في التقديم.

5- قالوا إن الآيات الأولى، ابتداء من "وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا"، نزلت في أبي بكر الصديق، كما ذكرنا في التقديم، وأن الآيات التالية لها، ابتداء من قوله "وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا"، نزلت في ابنه عبد الرحمان، أعني عبد الرحمان بن أبي بكر، الذي قالوا عنه إنه رفض أن يسلم وعاب على أبويه ترك دين الآباء والأجداد وسخر من البعث الخ. وهذا الجمع بين تلك الآيات وهذه من أغرب الأمور. فالسياق يكذب مثل هذا الجمع، ويبدو أن الروايتين مختلقتين معا، وأنهما من مظاهر الصراع بين المطالبين بدم عثمان وعائلة أبي بكر الذي اتهم ابنه محمد بالمساهمة في قتل عثمان (انظر كلاما في القرطبي، يشعر بذلك).

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَي النَّارِ (يقال لهم): أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَق وَبِمَا كُنتمْ تفسُقُون[20].

4- وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَاف

وَاذْكُرْ (هودا) أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ [(6)] وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[21]. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا (لتصرفنا) عَنْ آلِهَتِنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ[22]. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ[23]. فَلَمَّا رَأَوْهُ (ما يعدهم) عَارِضًا (سحابا) مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا! (قيل لهم) بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ (=الساعة): رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[24]، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ[25]. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ، فِيمَا (في الذي) إِنْ (زائدة) مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحَاقَ (نزل) بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[26]. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ (يا قريش) مِنْ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[27]. فَلَوْلَا (هلا) نَصَرَهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[28] .

5- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ [(7)]، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا! فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ[29]. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ[30]. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ (يحميكم) مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[31]. وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ، أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[32]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

6- جبال من الرمل مستطيلة، قالوا: موقعها ما بين عُمَان وحضرموت (ياقوت).

7 - انظر سورة الجن رقم 40 : التقديم. القسم الأول سورة 40

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ، بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[33]. وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا! قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ"[34].

6-خاتمة: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ ...

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (لقريش بالعذاب)، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ (من العذاب، سيخيل إليهم أنهم) لَمْ يَلْبَثُوا (في انتظاره) إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ! (هذا) بَلَاغٌ! فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ"[35].

- تعليق

كانت السورتان الأخيرتان مخصصتين، كما رأينا، لمحوري التوحيد والمعاد، أما هذه فمخصصة لركن النبوة. لقد ميزنا فيها بين ست فقرات:

اتجهت في المقدمة مباشرة إلى تقرير موقف قريش من نبوة الرسول عليه السلام، مؤكدة أن الذين كفروا مصرون على الإعراض عما يدعوهم إليه القرآن، مكذبون بما ينذرهم به، متسائلة: أنتم تعبدون أصناما وتتوسلون إليهم! فهل خلقوا شيئا يدل على مقدرتهم على إعانتكم والاستجابة لكم مثلما تدل السماوات والأرض التي خلقها الله؟ هل خلقوا شيئا في الأرض؟ هل هم شركاء مع الله في خلق السماوات وتدبيرها؟ إن كان الأمر كذلك فأتوني بكتاب من الكتب المنزلة يتحدث عن هذا، أو بأية آثار أو دلائل من ظواهر الطبيعة أو من الصحف الأولى تعززه؟

إن قريشا قوم ضالون! هم مصرون على عبادة الأصنام وتوجيه الدعاء إليها؛ إنها لن تستجيب لهم حتى ولو استمروا يدعونها إلى يوم القيامة، ذلك لأنها جامدة لا حياة فيها، إنها لا تشعر بهم، "غافلة" عن دعائهم. وعندما تقوم القيامة وينطقها الله ستتبرأ منهم وتعلن عن كفرها بعبادتهم لها. ذلك موقف مشركي مكة من أصنامهم وذلك ما سيؤولون إليه.

أما موقفهم من القرآن فشيء آخر: عندما يسمعون ما يأتيهم به من آيات بينات تدل على صنع الله وتدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له يقولون هذا مجرد سحر، وأن محمدا ينسبه إلى الله افتراء! وترد عليهم السورة على لسان الرسول: إن كان الأمر افتراء كما تدّعون فماذا عساكم تقدرون على فعله لإثبات صحة ذلك؟ الله يعرف ما تفترون علي، وكفى به شهيدا بيني وبينكم. هو يعلم أني رسوله إليكم وأنتم تعرفون أنه قد بعث رسله إلى الأقوام السابقين، وما أنا إلا واحد منهم، فلست بدعة

فيهم، بل أنا مجرد واحد في سلسلتهم؟ كل ما هناك هو أنكم لا تريدون أن تصدقوني. أنا لا أستطيع حملكم على تصديقي، وليس من شأني ذلك. إن الأمر لله وحده، وليس لي علم بما سيفعل بي ولا بكم؟ كل ما عليّ هو اتباع ما يوحى إلي وإبلاغكم إياه. أما أنتم فأنتم تضعون أنفسكم في مأزق بإصراركم على تكذيبي: افترضوا أن ما أقوله لكم هو فعلا من عند الله، وأن أحدا من علماء اليهود الذين تعترفون أنهم أهل كتاب من الله، قد سمع ما أقول وشهد على أن هذا الذي آتيكم به موجود مثله في كتابهم وأنه من الله حقا، فَآمَنَ هو وَاسْتَكْبَرْتُمْ أنتم؟! إنه الظلم بعينه و"إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ". وإذا سألهم أحد من المسلمين : لماذا لا تصدقون به وقد صدق به من لهم علم بالكتاب من بني إسرائيل؟ فإنهم سيجيبون: لَوْ كَانَ هذا القرآن خَيْرًا من ديننا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ[8] وبالتالي سيكررون قولهم: "هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ". والحق أن القرآن قد جاء من بعد كتاب موسى فشهد بصدقه من له من اليهود علم بالتوراة تماما كما يصدق القرآن التوراة باللسان العربي، الذي هو لسان الذين جاء "لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم" ويبشر الذين استقبلوه بنية وأعمال حسنة وقالوا "رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا". هؤلاء "لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، هم "أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

يلي ذلك في الفقرة الثالثة موضوع يبدو وكأنه لا علاقة له بما سبق. والواقع أنه امتداد للفقرة التي سبقته، بل لآخر آية فيها: لقد انتهت هذه الفقرة إلى التمييز في الناس بين "الذين ظلموا" وبين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وتأتي الفقرة الثالثة لتضرب مثلا لهؤلاء برجل يحترم والديه ويقدر المشاق التي تكبدوها من أجله الخ، حتى إذا اكتملت رجولته ونضج علقه وبان رشده " قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي (ألهمني) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ". أما الآخرون "الذي ظلموا" فتضرب السورة مثلا لحالهم برجل عصا والديهم وأصر على رفض دعوتهم له إلى الإيمان بالرسالة المحمدية صائحا في وجهيهما : "أُفٍّ لَكُمَا"؛ متهكما بما يؤكده القرآن من

---

8 – ذكروا أن المشار إليه في قوله "ما سبقونا إليه هم العبيد والموالي وكانوا من أوائل المسلمين"، لكن السياق يحيل إلى رجال من اليهود المفترض فيهم أنهم سمعوا القرآن وصدقوا به وشهدوا أن في التوراة مثله. بعض المفسرين يقولون إن المشار إليهم هنا هو عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه الذين أسلموا. وهذا مردود لأن إسلام هؤلاء لم يحدث إلا بعد الهجرة، والسورة مكية. وبما أن المقام مقام جدل فلا حاجة لوجود أشخاص معينين هم المشار إليهم. بل يكفي أن السياق يفترض وجودهم. وهكذا يتضح أنه لا شيء يبرر ما ذكره المفسرون من أن ضمير الجمع في "ما سبقونا إليه" يعود إلى فقراء المسلمين. فالجدل مع الذين كفروا، وهم الذين يردون على شهادة "أهل الكتاب" المفترض أنهم صدقوا بالقرآن، قائلين: لو كان الدين الذي يدعو إليه محمد (ص) خيرا من ديننا ما سبقنا إليه هؤلاء اليهود.

القيامة والبعث والحساب والجزاء، محتجا بأنه قد مرت قرون وقرون ولم يبعث أحد يخبر بذلك، وبالتالي فـ "مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين".

وترد السورة بشهادة من التاريخ المقدس"، تاريخ الأنبياء وصراعهم مع أقوامهم، فتحيل إلى قوم تعرفهم قريش وتتناقل أخبارهم، هم قوم عاد، فتذكر بالمصير الذي آل إليه أمرهم بعد أن كذبوا نبيهم هود، ثم تلتفت إلى قريش لتذكرهم بما قصه القرآن من قبل عن سكان قرى تقع حولهم ويمرون عليها في أسفارهم، وكان مصيرهم الدمار والهلاك، منبهة إلى أن أصنامهم التي كانوا يعبدون من دون الله لن تنفعهم يوم القيامة في شيء، بل لن يعثروا لها على أثر. لقد كذبوا رسلهم فكان ذلك نتيجة لتكذيبهم إياهم. وإلى هذه الشهادة من القرون الماضية تضيف السورة (الفقرة الخامسة) شهادة فريدة عاصرها النبي (ص) عندما أوحي إليه في سورة سابقة (سورة الجن): "أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا" (الجن 1-2).

وتختم السورة بدعوة النبي إلى الصبر، وهي دعوة تكررت في الحواميم السابقة كما في غيرها من السور. وتتميز هذه الدعوة في هذه السورة بدعوة النبي إلى اتخاذ "أولي العزم من الرسل قدوة". وقد اختلف المفسرون في تحديد أسمائهم. ونحن نرى أن لفظ "العزم" هنا يحيل إلى تجربة آدم، الذي أوصاه الله بعدم الأكل من شجرة، فنسي وأكل منها : "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا" (طه 115) أي لم يثبت ولم يصمد. وإذن فالمقصود هو الاقتداء بالرسل الذين ثبتوا وصمدوا، فلم يستعجلوا العذاب لأقوامهم كما فعل بعض الرسل(نوح)، ولا تخلوا عن تبليغ رسالتهم وطلبوا النجاة لأنفسهم كما حدث لآخرين (يونس)، ولا أغرتهم نساء فتعاملوا مع الأصنام نوعا من التعامل (سليمان).

وأضافت الخاتمة إلى الصبر صورة بيانية "لطيفة" وهي أن مشركي قريش سينظرون يوم القيامة إلى حياتهم في الدنيا، التي كانوا يعدونها بعشرات السنين، وكأن زمنها لا يعادل إلا ساعة من نهار. وإذا كان الأمر كذلك فكم سيعادل الزمن الذي ستقضيه، يا محمد، هنا في الحصار؟ وتضيف: "بلاغ"..! لمن؟ ليس هناك مخاطب آخر غير النبي عليه السلام! والمعنى واضح: إن المدة التي تقضيها هنا في الحصار ستبدو لك بعد انحلاله، وكأنك لم تلبث فيه "إلا ساعة من نهار".

بالفعل لقد انحل الحصار بعد هذا البلاغ؛ فعلينا أن ننتقل إلى المرحلة التالية: مرحلة ما بعد الحصار، ولكن بعد استطراد!

استطراد

مسألة الهداية والإضلال ...

أولا: مقدمة

عبارات الهداية والإضلال كثيرة في القرآن، وقد وردت في السور التي نودعها (الحواميم) بصورة لافتة، ولذلك ارتأينا أن نخصص هذا الاستطراد لهذه المسألة "الكلامية" التي كانت لها وما زالت أصداء مدوية في الفكر الإسلامي، وذلك إلى درجة صُنِّف -ويصنَّف- جميع المسلمين بموجبها إلى "قدرية" وجبرية"، أي إلى القائلين بـ"الاختيار" والقائلين بـ"الجبر"، وبعبارة أخرى: إلى القائلين بأن الهداية والضلال من الله، والقائلين بأن ذلك يرجع إلى إرادة الإنسان واختياره.

وبما أن الرازي قد عرض في تفسيره -بتفصيل- آراء الفريقين وردود بعضهما على بعض، فقد ارتأينا أن ننقل إلى القارئ هنا جملة ما ذكره. وفخر الدين الرازي (ابن الخطيب) (544هـ - 606هـ)، المتكلم الفيلسوف الأشعري، قد عاش في عصر انتقل فيه "علم الكلام" من "طريقة المتقدمين" التي كانت تعتمد، إلى عصره، الاستدلال بالشاهد على الغائب وهي طريقة المعتزلة وأهل السنة، إلى "طريقة المتأخرين" التي كان هو من أبرز من رسخها، والتي جرى الاعتماد فيها على الاستدلال الصوري الأرسطي، بدل اعتماد الاستدلال بالشاهد على الغائب[1].

1- مسألة الهداية والضلال زمن النبوة

وقبل أن نشرع في نقل ما أورده الرازي في الموضوع الذي يهمنا -وقد أجرى الكلام فيه على طريقة المتقدمين تلك- نرى من المفيد الرجوع بالمسألة،

1- انظر التفاصيل في كتابنا "بنية العقل العربي" القسم الرابع، الفصل الأول ، فقرة 2

مسألة الهداية والضلال، إلى زمن النبوة، أي المرحلة التي تنتمي إليها السور القرآنية التي نتوّج تعاملنا معها هنا بهذا الاستطراد، فنقول:

عندما كان الخطاب موجها إلى مشركي مكة لم تكن القضية تتخذ وضعا إشكاليا. لأن الآيات التي تنسب الضلال للإنسان أو التي تنسبه إلى الله كانت تنزل منجمة مفرقة حسب مقتضى الأحوال، وبالتالي لم يكن التناقض الظاهري فيها قضية عقلية مطلقة بل كان محكوما بالسياق والظروف، ظروف الجدل مع المشركين بصفة خاصة. وكمثال على ذلك نشير إلى قوله تعالى: "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ" (الأنعام 147-148). ويرد عليهم القرآن في نفس الآية بقوله تعالى: "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (الأنعام 148)، بمعنى أن قولهم "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا" ادعاء كاذب، وأن الصحيح هو أن الله لم يرد لهم الشرك والضلال! وهذا يتناقض ظاهرا مع قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" (الأنعام 106-107). فقوله تعالى هنا : "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا" معناه أنه لم يشأ لهم الإيمان، وأنه تركهم يشركون!

لكن هذا التناقض الظاهري يتبخر عندما نلاحظ أن الآية الأخيرة تخاطب النبي عليه السلام لتسليه وتخفف عنه مما كان يحس به من أسى وأسف، لكون قومه قد أعرضوا عن دعوته وكذبوه واتهموه بالجنون وغيره؛ والرسول بشر فكان لا بد أن يقلق ويتخوف من أن يؤدي إصرار قريش على عدم الاستجابة لدعوته إلى فشله في تبليغ رسالته من جهة، وإلى تعرض قومه للعذاب والهلاك كما حصل لأقوام ماضية اتخذت نفس الموقف السلبي من أنبيائهم. فمن أجل تسلية الرسول والتخفيف عنه نزلت الآية هذه لتقول له: لا تقلق ولا تحزن لكون قومك رفضوا الدعوة وأصروا على الشرك، فمهمتك هي التبليغ فقط، وليس أن تقسرهم على الإيمان. في هذا السياق جاء قوله تعالى: "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" أي لا تنشغل بكون المشركين مصرين على الشرك، فلو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك رقيبا عليهم ومكلفا بسلوكهم وتوجيه إرادتهم واختيارهم. أما الآية الأولى فهي تحكي ما قاله المشركون ردا على الحجج التي عرضها عليهم القرآن والتي تبين لا معقولية عبادة الأصنام، وأن العبادة لله وحده وأنه الخالق، وحده لا شريك له، وأن التمييز بين الحلال والحرام هو من الله الخ، فكان ردهم: "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ". وواضح أن

قول المشركين هنا إنما هو تهرب وإعلان منهم عن عدم قدرتهم على التحول مما اعتادوه ووجدوا عليه آباءهم. وقد أجاب القرآن بأنهم يكذبون: "كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ". ثم قال للنبي عليه السلام: "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا"، والمقصود بالعلم هنا "الوحي من الله"، لأن الإدعاء بأن الله لو شاء "ما أشركوا" إدعاء لا يمكن إثباته بأية وسيلة أخرى غير الوحي، لأن الأمر يتعلق بمشيئة الله، وبما أنه ليس هناك تبليغ من الله في هذا الموضوع فإن قولهم ذالك لا أساس له، ولذلك خاطبهم تعالى: "إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ"، ثم أضاف : "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" (أنتم يا بني آدم)، أي لجعلكم مَهْدِيِّين منذ البداية، كالملائكة.

وقد سبق أن بَيَّن في قصة آدم كيف أن هذا الأخير عصى أمر الله وضل بتأثير الشهوة والهوى (الشيطان) وأكل من الشجرة التي أوصاه بعدم الأكل منها. لكن الله تاب عنه، وأنزله إلى الأرض ليعمرها ويتم اختباره فيها: هل سيتعظ ويتحرر من سلطان الهوى، الذي يحركه الشيطان، أم سيبقى سجينا له.

ذلك هو الإطار الذي تتحدد به الآيات القرآنية التي نزلت في جزئيات تطرح مسألة "الفعل البشري" : هل هو، وما يرتبط به من الإرادة والقدرة، فعلٌ وخلقٌ من الله، أم أنه من الإنسان؟ لم يكن هناك مجال لطرح هذه المسألة طرحا إشكاليا بهذه الصيغة زمن النبوة، لأن المشركين، الذين كان الخطاب القرآني يوجَّه إليهم في هذه المسالة، لم يكونوا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء، بل أنكروا ذلك وسخروا منه، وبالتالي لم يكونوا يربطون هذه المسألة بالمسؤولية في الآخرة. ومع ذلك فقد كان عليهم أن يفسروا أنواعا من السلوك اللامعقول الذي كانوا يأتونه مثل عبادة الأصنام وانتظار الشفاعة منها وهي لا تسمع ولا تعقل الخ. وهكذا لم يجدوا لتبرير فعلهم ذاك إلا الركون إلى التقليد فقالوا: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (طريقة وسلوك) وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" (الزخرف 23)، أو التهرب من المسؤولية بإنكار البعث والقول: "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ". وعندما أُحرجوا بالأدلة التي يوردها القرآن في إثبات البعث لم يردوا عليه بحجج في وزنها بل هربوا إلى الأمام وقالوا: "ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية24-25).

2- مسألة الجبر والاختيار بعد الفتنة الكبرى : القدرية والجبرية.

كان ذلك هو "الوضع" الذي كان يؤطر، زمن النبوة، ما عُبِّرَ عنه بمسألة "خلق الأفعال" أو "الجبر والاختيار"، بعد "الفتنة الكبرى" (الحرب بين علي ومعاوية التي قتل فيها عدد كبير من المسلمين، صحابة وتابعين). لقد طرحت بعد هذه الفتنة

مباشرة مسألة ما إذا كان معاوية وأنصاره، الذين انتزعوا الخلافة من علي بن أبي طالب بالقوة واستبدوا بالحكم ومارسوه بعسف وقهر، يتحملون مسؤولية ما قاموا به من أعمال، وفي هذه الحالة تجب الثورة عليهم والحكم عليهم بالمصير يوم القيامة إلى النار حسبما ينص عليه القرآن، أم إنهم إنما تصرفوا بقضاء وقدر، كما قال معاوية في عدد من خطبه؛ منها ما ورد في خطبة له وهو يقف على رأس جيشه في مواجهة علي وجنوده، حيث قال: "وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ولفَّت بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظر، وقد قال الله سبحانه وتعالى : "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (البقرة 253). وعندما فرض ابنه يزيدا وليا للعهد قال: ""إن أمر يزيد قضاء وقدر وليس للعباد الخيرة من أمرهم"[2].

تلك هي "الفتنة الفكرية الكبرى" التي أعقبت الفتنة السياسية العسكرية. لقد انقسم المسلمون (أعني علماءهم ومفكريهم) منذ ذلك الوقت، وإلى الآن، إلى فريقين:

– فريق يرى أنه بما أن القرآن يحمل الإنسان مسؤولية أفعاله إذ يقول: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (الحديد 7-8)، ويؤكد "أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى" (النجم 38-41)، والآيات كثيرة في هذا المعنى، فإن أفعال الإنسان، التي يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب، لا يمكن أن تنسب إلى القضاء والقدر أي إلى الله، بل لابد من نسبتها إليه، إلى إرادته واختياره وفعله.

– وفريق يلتجئ إلى آيات أخرى من مثل قوله تعالى: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف 178)، وقوله "مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الأنعام 39)، وهذا يعني بصريح العبارة أن أفعال الإنسان ليست من اختياره بل هو مجبور عليها.

كان الجدل حول هذا الموضوع، في العصر الأموي، من المسائل التي قام عليها ما عرف بـ"علم الكلام" (أي العلم أو القطاع المعرفي الذي يناقش ويجادل في قضايا العقيدة). وقد أطلق على الفريق الأول اسم "القدرية"، أي الذي يقولون بقدرة الإنسان على إتيان أفعاله وبالتالي يتحمل مسؤوليتها، وقد سمُّوا في أواخر العصر الأموي باسم "المعتزلة"، أما هم فيطلقون على أنفسهم "أهل العدل" لكونهم يرون أن الحساب والجزاء يوم القيامة قائم على العدل، عدل الله، بمعنى أن الله سيطبق وعده ووعيده يوم القيامة على البشر جميعا، بدون استثناء. وفاقا مع قوله تعالى: "يَوْمَئِذٍ

---

2 – انظر التفاصيل في كتابنا: العقل السياسي العربي. الفصل التاسع .

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الحديد 6-8)، وعلى هذا فمصير الذين قتلوا الناس في الحرب بين علي ومعاوية، ومصير الحكام الأمويين الذي مارسوا العسف والظلم الخ، هو النار...
أما خصومهم القائلين بأن ما ينسب من فعل إلى الأمويين وإلى الإنسان عامة إنما ينسب إليه على سبيل المجاز، فليس الإنسان بفاعل بل الله هو الفاعل (لا فاعل إلا الله) وبمعنى آخر الإنسان مجبور على فعل ما يفعل وليس له اختيار. ولذلك يطلق المعتزلة على خصومهم هؤلاء اسم "المجبرة". لقد احتد الجدل في مسألة الجبر والاختيار في علم الكلام، وقد عـبّـرَ عنها بمسألة "خلق الأفعال"، أو "الهداية والضلال".

ثانيا: عرض الرازي للمسألة

بعد هذه المقدمة التي وضعنا فيها المسألة في إطارها التاريخي ننتقل إلى عرض الرازي لآراء الفريقين، وحجج كل منها النقلية والعقلية، كما سجلها في تفسيره. أما ما قاله في كتبه الأخرى عن الموضوع نفسه فلا يهمنا هنا. وبما أن كلامه قد جاء بأسلوب يتطلب من القارئ أن يكون قد اكتسب "رياضة" ذهنية من خلال "الألفة" مع أسلوب المتكلمين في الحجاج، فإننا سنحاول عرضه مبسطا دون الإخلال بمضمونه:

أولا: الإضلال

قال الرازي في معرض تفسيره للآية 26 من سورة البقرة [3]:

"ونريد أن نتكلم ههنا في الهداية والإضلال ليكون هذا الموضع كالأصل الذي يرجع إليه في كل ما يجيء في هذا المعنى من الآيات، فنتكلم أولاً في الإضلال فنقول:

إن الهمزة تارة تجيء لنقل الفعل من غير المتعدي إلى التعدي كقولك خرج فإنه غير متعدٍ، فإذا قلت أخرج فقد جعلته معتدياً... إذا ثبت هذا فنقول: قولنا: أضله الله لا يمكن حمله إلا على وجهين:

3- هي قوله تعالى : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26 البقرة). وبما أنه بنى تفسيره على ترتيب المصحف كسائر المفسرين فإن هذه الآية هي أول آية ورد فيها لفظ الضلال (يضل) والهداية (يهدي).

أحدهما: أنه صيره ضالاً، والثاني: أنه وجده ضالاً. أما التقدير الأول وهو أنه صيره ضالاً فليس في اللفظ دلالة على أنه تعالى صيره ضالاً عما ذا؟ وفيه وجهان: أحدهما: أنه صيره ضالاً عن الدين. والثاني: أنه صيره ضالاً عن الجنة.

أما الأول وهو أنه تعالى صيره ضالاً عن الدين فاعلم أن معنى الإضلال عن الدين في اللغة هو الدعاء إلى ترك الدين وتقبيحه في عينه، وهذا هو الإضلال الذي أضافه اللــه تعالى إلى إبليس فقال: "إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ" (القصص: 15) وقال: "وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ" (النساء: 119) "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا" (فصلت: 29) وقال: "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ" (النمل: 24 العنبكوت: 38)، وقال (الشيطان): "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" (إبراهيم: 22) وأيضاً أضاف اللــه تعالى هذا الإضلال إلى فرعون فقال: "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى". واعلم أن الأمة مجمعة على أن الإضلال بهذا المعنى لا يجوز على اللــه تعالى لأنه تعالى ما دعا إلى الكفر وما رغب فيه بل نهى عنه وزجر وتوعد بالعقاب عليه، وإذا كان المعنى الأصلي للإضلال في اللغة ليس إلا هذا، وهذا المعنى منفي بالإجماع، ثبت انعقاد الإجماع على أنه لا يجوز إجراء هذا اللفظ على ظاهره. وعند هذا افتقر أهل الجبر والقدر إلى التأويل.

<u>- تأويل الجبرية لمعنى الإضلال: الله خلق الضلال والكفر ...</u>

أما أهل الجبر فقد حملوه على أنه تعالى خلق الضلال والكفر فيهم وصدهم عن الإيمان وحال بينهم وبينه، وربما قالوا هذا هو حقيقة اللفظ في أصل اللغة، لأن الإضلال عبارة عن جعل الشيء ضالاً، كما أن الإخراج والإدخال عبارة عن جعل الشيء خارجاً وداخلاً.

<u>- رأي المعتزلة : هذا غير جائز، الضلال من الإنسان.</u>

وقالت المعتزلة هذا الرأي(=أي القول بأن الله خلق الضلال والكفر) غير جائز لا بحسب الأوضاع اللغوية ولا بحسب الدلائل العقلية:

أما الأوضاع اللغوية فبيانه من وجوه:

أحدها: أنه لا يصح من طريق اللغة أن يقال لمن منع غيره من سلوك الطريق كرهاً وجبراً أنه أضلــه بل يقال منعه منه وصرفه عنه، وإنما يقولون إنه أضلــه عن الطريق إذا لبَّس عليه وأورد من الشبهة ما يلبس عليه الطريق فلا يهتدي لــه.

وثانيها: أنه تعالى وصف إبليس وفرعون بكونهما مضللين، مع أن فرعون وإبليس ما كان خالقين للضلال في قلوب المستجيبين لــهما، بالاتفاق (اتفاق الجبرية والقدرية). وأما عند الجبرية فلأن العبد لا يقدر على الإيجاد، وأما عند القدرية فلأن العبد لا يقدر على هذا النوع من الإيجاد، فلما حصل اسم المضل حقيقة مع نفي الخالقية بالاتفاق، علمنا أن اسم المضل غير موضوع في اللغة لخالق الضلال.

وثالثها: أن الإضلال في مقابلة الــهداية، فكما صح أن يقال هديته فما اهتدى وجب صحة أن يقال أضللته فما ضل، وإذا كان كذلك استحال حمل الإضلال على خلق الضلال.

وأما بحسب الدلائل العقلية: فلا يصح (القول عند المعتزلة: بأن الله خلق الضلال) من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لو خلق الضلال في العبد ثم كلفه بالإيمان لكان قد كلفه بالجمع بين الضدين وهو سفه وظلم، وقال تعالى: "وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ" (فصلت: 46) وقال: "لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا" (البقرة: 286) وقال: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج: 78)

وثانيها: لو كان تعالى خالقاً للجهل وملبساً على المكلفين لما كان مبيناً لما كلف العبد به، وقد أجمعت الأمة على كونه تعالى مبيناً.

ثالثها: أنه تعالى لو خلق فيهم الضلال وصدهم عن الإيمان لم يكن لإنزال الكتب عليهم وبعثة الرسل إليهم فائدة، لأن الشيء الذي لا يكون ممكن الحصول كان السعي في تحصيله عبثاً وسفهاً[4].

ورابعها: أنه على مضادة كبيرة من الآيات نحو قوله: "فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ" (الانشقاق: 20) "فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ" (المدثر: 49)، "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً" (الإسراء: 94) فبين أنه لا مانع لهم من الإيمان البتة، وإنما امتنعوا لأجل إنكارهم بعثة الرسل من البشر. وقال: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ" (الكهف: 55) وقال: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ" (لبقرة: 28) وقال: "فَأَنَّى تُصْرَفُونَ" وقال: "فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" فلو كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين وصرفهم عن الإيمان لكانت هذه الآيات باطلة.

4- نلاحظ أن الرازي الأشعري يستعمل ألفاظا ينسبها إلى خصومه المعتزلة لا تليق به تعالى. خصوصا وهو لا ينقل من كلامهم بل يروي من عنده آراءهم.

وخامسها: أنه تعالى ذم إبليس وحزبه ومن سلك سبيله في إضلال الناس عن الدين وصرفهم عن الحق وأمر عباده ورسوله بالاستعاذة منهم بقوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" إلى قوله: "مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ"، "وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ" (المؤمنين: 97)، "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" (النحل: 98) فلو كان الله تعالى يضل عباده عن الدين كما تضل الشياطين لاستحق من المذمة مثل ما استحقوه ولوجب الاستعاذة منه كما وجب منهم، ولوجب أن يتخذوه عدواً من حيث أضل أكثر خلقه كما وجب اتخاذ إبليس عدواً لأجل ذلك، قالوا بل خصيصية الله تعالى في ذلكَ أكثر إذ تضليل إبليس، سواء وجوده وعدمه فيما يرجع إلى حصول الضلال، بخلاف تضليل الله فإنه هو المؤثر في الضلال فيلزم من هذا تنزيه إبليس عن جميع القبائح وإحالتها كلها على الله تعالى فيكون الذم منقطعاً بالكلية عن إبليس وعائداً إلى الله سبحانه عن قول الظالمين.

وسادسها: أنه تعالى أضاف الإضلال عن الدين إلى غيره وذمهم لأجل ذلك، فقال: "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى" (طه: 79)، "وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ" (طه: 85)، "وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ"(الأنعام: 116)، "إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (ص: 26) وقوله تعالى حاكياً عن إبليس: "وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ" (النساء: 119)، فهؤلاء إما أن يكونوا قد أضلوا غيرهم عن الدين في الحقيقة، أو يكون الله هو الذي أضلهم، أو حصل الإضلال بالله وبهم على سبيل الشركة. فإن كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين دون هؤلاء فهو سبحانه وتعالى قد تقوّل عليهم إذ قد رماهم بدأبه وعابهم بما فيه وذمهم بما لم يفعلوه، والله متعالٍ عن ذلك؛ وإن كان الله تعالى مشاركاً لهم في ذلك فكيف يجوز أن يذمهم على فعل هو شريك فيه ومساوٍ لهم فيه، وإذا فسد الوجهان صح أن لا يضاف خلق الضلال إلى الله تعالى.

وسابعها: أنه تعالى ذكر أكثر الآيات التي فيها ذكر الضلال منسوباً إلى العصاة على ما قال: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" (البقرة: 26). "وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27)، "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: 67)، "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ" (غافر: 34)، فلو كان المراد بالضلال المضاف إليه تعالى هو ما هم فيه، كان كذلك إثباتاً للثابت وهذا محال.

وثامنها: أنه تعالى نفى إلهية الأشياء التي كانوا يعبدونها من حيث أنهم لا يهدون إلى الحق قال: "أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى" (يونس 35)، فنفي الربوبية عن تلك الأشياء من حيث أنها لا تهدي وأوجب ربوبية

نفسه من حيث أنه سبحانه وتعالى يهدي، فلو كان سبحانه وتعالى يضل عن الحق لكان قد ساواهم في الضلال وفيما لأجله نهى عن اتباعهم، بل كان قد أربى عليهم، لأن الأوثان كما أنها لا تهدي فهي لا تضل، وهو سبحانه وتعالى مع أنه إله يهدي فهو يضل.

وتاسعها: أنه تعالى يذكر هذا الضلال جزاء لهم على سوء صنيعهم وعقوبة عليه، فلو كان المراد ما هم عليه من الضلال كان ذلك عقوبة وتهديداً بأمرهم له ملابسون، وعليه مقبولون، وبه ملتذون ومغتبطون، ولو جاز ذلك لجازت العقوبة بالزنا على الزنا وبشرب الخمر على شرب الخمر، وهذا لا يجوز.

وعاشرها: أن قوله تعالى: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ، الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ" (البقرة: 26، 27) صريح في أنه تعالى إنما يفعل به هذا الإضلال بعد أن صار هو من الفاسقين الناقضين لعهد الله باختيار نفسه، فدل ذلك على أن هذا الإضلال الذي يحصل بعد صيرورته فاسقاً وناقضاً للعهد مغاير لفسقه ونقضه.

وحادي عاشرها: أنه تعالى فسر الإضلال المنسوب إليه في كتابه، إما بكونه ابتلاءً وامتحاناً، أو بكونه عقوبة ونكالاً، فقال في الابتلاء: "وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ" أي امتحاناً إلى أن قال: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ" (المدثر: 31) فبين أن إضلاله للعبد يكون على هذا الوجه من إنزاله آية متشابهة أو فعلاً متشابهاً لا يعرف حقيقة الغرض فيه؛ والضال به هو الذي لا يقف على المقصود ولا يتفكر في وجه الحكمة فيه بل يتمسك بالشبهات في تقرير المجمل الباطل كما قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" (آل عمران: 7). وأما العقوبة والنكال فكقوله: "إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ والسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ" (غافر: 71) إلى أن قال: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" فبين أن إضلاله لا يعدو أحد هذين الوجهين، وإذا كان الإضلال مفسراً بأحد هذين الوجهين وجب أن لا يكون مفسراً بغيرهما دفعاً للاشتراك، فثبت أنه لا يجوز حمل الإضلال على خلق الكفر والضلال.

المعتزلة: الوجوه العقلية لنفي الإضلال عن الله

(قال المعتزلة) وإذا ثبت ذلك فنقول:

بينا أن الإضلال في أصل اللغة الدعاء إلى الباطل والترغيب فيه والسعي في إخفاء مقابحه، وذلك لا يجوز على الله تعالى فوجب المصير إلى التأويل، والتأويل الذي ذهبت الجبرية إليه قد أبطلناه (يقول المعتزلة) فوجب المصير إلى وجوه أخر من التأويلات.

أحدها: أن الرجل إذا ضل باختياره، عند حصول شيء، من غير أن يكون لذلك الشيء أثر في إضلاله، فيقال لذلك الشيء إنه أضله. قال تعالى في حق الأصنام "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ" (إبراهيم: 36) أي ضلوا بهن، وقال: وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً، وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً" (نوح: 23، 24) أي ضل كثير من الناس بهم وقال: "وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً" (المائدة: 64) وقال: "فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَاراً" (نوح: 6) أي لم يزدادوا بدعائي لهم إلا فرارا، وقال: "فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي" (المؤمنون: 110) وهم لم ينسوهم في الحقيقة بل كانوا يذكرونهم الله ويدعونهم إليه ولكن لما كان اشتغالهم بالسخرية منهم سبباً لنسيانهم أضيف الإنسان إليهم. وقال في براءة: "وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ" (التوبة: 124، 125)، فأخبر سبحانه أن بنزول السورة المشتملة على الشرائع يعرف أحوالهم، فمنهم من يصلح عليها فيزداد بها إيماناً، ومنهم من يفسد عليها فيزداد بها كفراً، فإذن أضيفت الزيادة في الإيمان والزيادة في الكفر إلى السورة، إذ كانوا إنما صلحوا عند نزولها وفسدوا كذلك أيضاً، فكذا أضيف الهدى والإضلال إلى الله تعالى إذا كان إحداثهما عند ضربه تعالى الأمثال لهم وقال في سورة المدثر: "وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ" (المدثر: 31) فأخبر تعالى أن ذكره لعدة خزنة النار (وهم تسعة عشر) امتحان منه لعباده ليتميز المخلص من المرتاب فآلت العاقبة إلى أن صلح عليها المؤمنون وفسد الكافرون، وأضاف زيادة الإيمان وضدها إلى الممتحنين فقال ليزداد، وليقول، ثم قال بعد قوله: "مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ" (المدثر: 31) فأضاف إلى نفسه إضلالهم وهداهم بعد أن أضاف إليهم الأمرين معاً، فبين تعالى أن الإضلال مفسر بهذا الامتحان. ويقال في العرف أيضاً: أمرضني الحب أي مرضت به: ويقال قد أفسدت فلانة فلاناً وهي لم تعلم به، وقال الشاعر: دع عنك لومي فإن اللوم إغراء، أي يغري الملوم باللوم، والإضلال على هذا المعنى يجوز أن يضاف إلى اللـــه تعالى على معنى أن الكافرين ضلوا بسبب الآيات المشتملة على الامتحانات: ففي هذه الآية: الكفار لما قالوا: ما الحاجة إلى الأمثال وما الفائدة فيها، واشتد عليهم هذا الامتحان حسنت هذه الإضافة.

وثانيها: أن الإضلال هو التسمية بالضلال فيقال أضلـــه أي سماه ضالاً وحكم عليه به، وأكفر فلان فلاناً إذا سماه كافراً ...

وثالثها: أن يكون الإضلال هو التخلية وترك المنع بالقهر والجبر، فيقال أضله إذا خلاه وضلاله، قالوا ومن مجازه قولـــهم: أفسد فلان ابنه وأهلكه ودمر عليه، إذا لم يتعهده بالتأديب... ويقال لمن ترك سيفه في الأرض الندية حتى فسد وصدئ: أفسدت سيفك وأصدأته.

ورابعها: الضلال والإضلال هو العذاب والتعذيب، قال تعالى: "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ" (القمر: 47، 48)، فوصفهم اللـــه تعالى بأنهم يوم القيامة في ضلال، وذلك لا يكون إلا عذابهم. وقال تعالى: "إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ قَـــالُواْ ضَــلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" (غافر: 71 ــ 74)، وقد فسر ذلك الضلال بالعذاب.

وخامسها: أن يحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال كقولـــه: "الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد: 1) قيل أبطلـــها وأهلكها. ومن مجازه قولـــهم: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً فيه، ويقال أضللته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم. ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه في قبره فأخفوه حتى صار لا يرى...

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال كقولـــه: "الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد: 1) قيل أبطلـــها وأهلكها ومن مجازه قولـــهم: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً فيه ويقال أضللته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه في قبره، فأخفوه حتى صار لا يرى. وقال تعالى: "وَقَالُواْ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة: 10)، أي أئذا اندفنا فيها فخفيت أشخاصنا فيحتمل على هذا المعنى يضل اللـــه إنساناً أي يهلكه ويعدمه فتجوز إضافة الإضلال إليه تعالى على هذا الوجه، فهذه الوجوه الخمسة إذا حملنا الإضلال على: الإضلال عن الدين.

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإضلال عن الجنة، قالت المعتزلة: وهذا في الحقيقة ليس تأويلاً بل حملاً للفظ على ظاهره فإن الآية تدل على أنه تعالى يضلـــهم وليس فيها دلالة على أنه عما ذا يضلـــهم، فنحن نحملـــها على أنه تعالى يضلـــهم عن طريق الجنة. ثم حملوا كل ما في القرآن من هذا الجنس على هذا المحمل وهو اختيار الجبائي قال تعالى: "كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ

إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" أي يضلـــه عن الجنة وثوابها. هذا كلـــه إذا حملنا الـــهمزة في الإضلال على التعدية.

وسابعها: أن نحمل الـــهمزة على الوجدان، على ما تقدم في أول هذه المسألة بيانه، فيقال أضل فلان بعيره أي ضل عنه، فمعنى إضلال اللـــه تعالى لـــهم أنه تعالى وجدهم ضالين.

وثامنها: أن يكون قولـــه تعالى: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً" من تمام قول الكفار، فإنهم قالوا ماذا أراد اللـــه بهذا المثل الذي لا يظهر وجه الفائدة فيه، ثم قالوا: يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وذكروه على سبيل التهكم، فهذا من قول الكفار. ثم قال تعالى جواباً لـــهم: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" أي ما أضل به إلا الفاسق.

قال الرازي هذا مجموع كلام المعتزلة.

رد الجبرية

ثم قال: "وقالت الجبرية –ردا على المعتزلة– لقد سمعنا كلامكم واعترفنا لكم بجودة الإيراد وحسن الترتيب وقوة الكلام، ولكن ماذا نعمل ولكم أعداء ثلاثة يشوشون عليكم هذه الوجوه الحسنة؟ والدلائل اللطيفة:

أحدها: مسألة الداعي: وهي أن القادر على العلم والجهل والإهداء والإضلال لمَ فعل أحدهما دون الآخر؟

وثانيها: مسألة العلم على ما سبق تقريرها في قولـــه تعالى: "خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ". وما رأينا لكم في دفع هذين الكلامين كلاماً محيلاً قوياً. ونحن، لا شك، نعلم أنه لا يخفى عليكم مع ما معكم من الذكاء، الضعف عن تلك الأجوبة التي تكلموا بها. فكما أنصفنا واعترفنا لكم بحسن الكلام الذي ذكرتموه فأنصفوا أيضاً واعترفوا بأنه لا وجه لكم عن هذين الوجهين فإن التعامي والتغافل لا يليق بالعقلاء.

وثالثها: أن فعل العبد لو كان بإيجاده لما حصل إلا الذي قصد إيجاده، لكن أحداً لا يريد إلا تحصيل العلم والاهتداء، ويحترز كل الاحتراز عن الجهل والضلال فكيف يحصل الجهل والإضلال للعبد مع أنه ما قصد إلا تحصيل العلم والاهتداء؟ فإن قيل إنه اشتبه عليه الكفر بالإيمان والعلم بالجهل فظن في الجهل أنه علم فقصد إيقاعه فلذلك حصل لـــه الجهل، قلنا: ظنه في الجهل أنه علم، ظن خطأ. فإن كان اختاره أولاً فقد اختار والخطأ لنفسه، وذلك غير ممكن. وإن قلنا إنه اشتبه عليه ذلك بسبب ظن آخر متقدم عليه لزم أن يكون قبل كل ظن ظن لا إلى نهاية وهو محال.

ورابعها: أن التصورات غير كسبية، والتصديقات البديهية غير كسبية، والتصديقات بأسرها غير كسبية، فهذه مقدمات ثلاثة[5].

المقدمة الأولى: في بيان أن التصورات غير كسبية، وذلك لأن من يحاول اكتسابها فإما أن يكون متصوراً لها أو لا يكون متصوراً لها، فإن كان متصوراً لها استحال أن يطلب تحصيل تصورها لأن تحصيل الحاصل محال، وإن لم يكن متصوراً لها كان ذهنه غافلاً عنها والغافل عن الشيء يستحيل أن يكون طالبه[6].

المقدمة الثانية: في بيان أن التصديقات البديهية غير كسبية لأن حصول طرفي التصديق إما أن يكون كافياً في جزم الذهن بذلك التصديق أولاً يكون كافياً، فإن كان الأول كان ذلك التصديق دائراً مع ذينك التصورين على سبيل الوجوب نفياً

5- هذا الاعتراض لا يمكن أن يكون من أهل السنة لأنه مبني على مصطلحات منطقية لم تبدأ في الشيوع إلا مع الغزالي والرازي نفسه. أما قوله "كسبية" فهو نسبة إلى فكرة "الكسب" التي حاول بها أبو الحسن الأشعري الهروب من الجبر. قال: "إن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عُقيب القدرة الحادثة، (أي التي يحدثها في الإنسان) أو تحتها أو معها، الفعل الحاصل إذا أراده العبد وتجرد له، وسمى هذا كسبا. فيكون خلقا من الله تعالى إبداعا وإحداثا، وكسبا من العبد حصولا تحت قدرته". وذلك ما لم يستسغه الجويني الذي يرى أن إثبات قدرة لا أثر لها بوجه، كما يقول الأشعري، هو كنفي القدرة أصلا، وأما إثبات التأثير لهذه القدرة في حالة دون أخرى كما يقول الباقلاني، فشيء لا يعقل، لأن القول بهذا كالقول بنفي التأثير. من أجل هذا "لا بد من نسبة التأثير إلى فعل العبد وقدرته حقيقة"، ولكن "لا على وجه الإحداث والخلق"، لأن الذي يخلق يشعر باستقلاله، كما أن الخلق يعني الإيجاد من العدم، والحال أن الإنسان، كما يشعر بقدرته على الفعل يشعر أيضا بعدم استقلاله في فعله "فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة العقل إلى القدرة، وكذلك يستند سبب إلى سبب حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها". ثم يضيف الشهرستاني الذي أورد ما ذكرنا قائلا: "وهذا الرأي أخذه (=الجويني) من الحكماء الإلهيين (أرسطو) وأبرزه في معرض الكلام" الشهرستاني. الملل والنحل. ج3 ص97

6- وهذا احتجاج سفسطائي أيضا! ذلك أن الحجة مبنية على ما سموه بـ "العلم الضروري"، وهو ما تمدنا به حواسنا من دون إرادة منا. فإذا فتحت عينيك ورأيت شجرة، فانطباع صورة الشجرة في ذهنك لم يكن بإرادتك وبالتالي فـ "تصور" الشجرة لم يكن من عملك وكسبك، بل حصل ذلك لديك باضطرار، وهذا معنى أن قولهم إن "التصورات غير كسبية" أو "المعارف الحسية ضرورية".

وإثباتاً، وما كان كذلك لم يكن مقدوراً، وإن كان الثاني لم يكن التصديق بديهياً بل متوقفاً فيه[7].

المقدمة الثالثة: في بيان أن التصديقات بأسرها غير كسبية وذلك لأن هذه النظريات إن كانت واجبة اللزوم عن تلك البديهيات التي هي غير مقدورة كانت تلك النظريات أيضاً غير مقدورة. وإن لم تكن واجبة اللزوم عن تلك البديهيات لم يمكن الاستدلال بتلك البديهيات على تلك النظريات، فلم تكن تلك الاعتقادات الحاصلة في تلك النظريات علوماً، بل لا تكون إلا اعتقاداً حاصلاً للمقلد وليس كلامنا فيه، فثبت أن كلامكم (أيها المعتزلة) في عدم إسناد الاهتداء والضلال إلى الله تعالى معارض بهذه الوجوه العقلية القاطعة التي لا جواب عنها"[8]. (وهكذا فبعد أن اعترف الرازي بضعف ردود الأشاعرة باستعمال طريقة المتقدمين (الاستدلال بالشاهد على الغائب) أراد أن ينقد الموقف باعتماد طريقة المتأخرين أي طريقة الاستدلال في المنطق الأرسطي، فأتى بمقدمات ادعى لها الصحة والضرورة واستنتج منها ما يريد! بعد هذا قال: "ولنتكلم الآن فيما ذكروه (المعتزلة) من التأويلات:

- أما التأويل الأول فساقط لأن إنزال هذه المتشابهات هل لها أثر في تحريك الدواعي أو ليس لها أثر في ذلك؟ فإن كان الأول وجب على قولكم أن يقبح لوجهين:

7- "التصديقات" هي الأحكام. التصديق: مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل باصطلاح النحويين: "فلان سارق"، "سرق فلان". وهذه تصديقات كسبية أي كسبها الإنسان بأفعاله، أما التصديقات البديهية فهي لا تحتاج إلى فعل وبالتالي ليست كسبية. فقولنا "الكل أكبر من الجزء" (أي من أي جزء من أجزائه) تصديق، أو حكم بديهي، لأنه عقلي محض، لا يحتاج إلى برهان. ومقصود الرازي هو أن الضرورة العقلية التي توصف بها البديهيات "ليست مقدورة للإنسان" بل هي موضوعة في عقولنا وواضعها هو الله.

8 - المقصود بالتصديقات الكسبية هي الأحكام التي نتوصل إليها بالاستدلال، والاستدلال في المنطق الأرسطي الذي يستعين به الرازي هنا ، لا تكون نتائجه صادقة إلا إذا كانت مقدماته صادقة. وهذه لا تكون صادقة إلا إذا كانت بديهيات أو مبنية على بديهيات (مثل الكل أكبر من الجزء، ومبدأ السببية، ومبدأ عدم التناقض...) كما هو الشأن في النظريات الهندسية. وبما أنه "أثبت" في الفقرة السابقة أن "التصديقات البديهية" غير كسبية بمعنى أنها ليست من عندنا بل من واضعها في عقولنا وهو الله، فإن النظريات المبنية عليها أي معارفنا وآراؤنا واعتقاداتنا المبنية على الاستدلال هي أيضا غير كسبية. بالتالي فهي إما نتيجة وتقليد سمع ونقل الخ -ويقول وهذا ليس هو المطروح هنا- وإما أنها من وضع الله في عقولنا، وإذا ثبت هذا ثبت أن الإضلال من الله، بمعنى أن وقوع الإنسان في الضلال ليس من مقدوره ولا من اختياره.

الأول: أنا قد دللنا في تفسير قوله: "خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ" على أنه متى حصل الرجحان فلا بدّ وأن يحصل الوجوب وأنه ليس بين الاستواء وبين الوجوب المانع من النقيض واسطة، فإذا أثر إنزال هذه المتشابهات في الترجيح وثبت أنه متى حصل الترجيح فقد حصل الوجوب فحينئذٍ جاء الجبر وبطل ما قلتموه.

الثاني: هب أنه لا ينتهي إلى حد الوجوب إلا أن المكلف ينبغي أن يكون مزاح العذر والعلة، وإنزال هذه المتشابهات عليه مع أن لها أثراً في ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كالعذر للمكلف في عدم الإقدام على الطاعة، فوجب أن يقبح ذلك من الله تعالى، وأما إن لم يكن لذلك أثر في إقدامهم على ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كانت نسبة هذه المتشابهات إلى ضلالهم كصرير الباب ونعيق الغراب، فكما أن ضلالهم لا ينسب إلى هذه الأمور الأجنبية كذلك وجب أن لا ينسب إلى هذه المتشابهات بوجه ما، وحينئذٍ يبطل تأويلهم.

– أما التأويل الثاني، وهو التسمية والحكم، فهو، وإن كان في غاية البعد، لكن الإشكال معه باقٍ لأنه إذا سماه الله بذلك وحكم به عليه فلو لم يأتِ المكلف به لانقلب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهلاً، وكل ذلك محال والمفضي إلى المحال محال، فكان عدم إتيان المكلف به محالاً وإتيانه به واجباً، وهذا عين الجبر الذي تفرون منه وأنه ملاقيكم لا محالة. وههنا ينتهي البحث إلى الجوابين المشهورين لهما في هذا المقام وكل عاقل يعلم ببديهة عقله سقوط ذلك،

– وأما التأويل الثالث وهو التخلية وترك المنع فهذا إنما يسمى إضلالاً إذا كان الأنول والأحسن بالوالد أن يمنعه عن ذلك، فأما إذا كان الولد بحيث لو منعه والده عن ذلك لوقع في مفسدة أعظم من تلك المفسدة الأولى لم يقل أحد إنه أفسد ولده وأضله، وههنا الأمر بخلاف ذلك، لأنه تعالى لو منع المكلف جبراً عن هذه المفسدة لزمت مفسدة أخرى أعظم من الأولى، فكيف يقال إنه تعالى أفسد المكلف وأضله بمعنى أنه ما منعه عن الضلال مع أنه لو منعه لكانت تلك المفسدة أعظم.

وأما التأويل الرابع فقد اعتراض القفال عليه فقال: لا نسلم بأن الضلال جاء بمعنى العذاب، أما قوله تعالى: إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ" (القمر: 47) فيمكن أن يكون المراد في ضلال عن الحق في الدنيا وفي سعر: أي في عذاب جهنم في الآخرة ويكون قوله: "يَوْمَ يُسْحَبُونَ" من صلة سعر وأما قوله تعالى: "إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ" إلى قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" فمعنى قوله ضلوا عنا أي بطلوا فلم ينتفع بهم في هذا اليوم الذي كنا نرجو شفاعتهم فيه، ثم قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" قد يكون على معنى كذلك يضل الله أعمالهم أي يحبطها يوم القيامة،

ويحتمل كذلك يخذلهم الله تعالى في الدنيا فلا يوفقهم لقبول الحق إذ ألفوا الباطل وأعرضوا عن التدبر، فإذا خذلهم الله تعالى وأتوا يوم القيامة فقد بطلت أعمالهم التي كانوا يرجون الانتفاع بها في الدنيا.

- وأما التأويل الخامس: وهو الإهلاك فغير لائق بهذا الموضع لأن قوله تعالى: "وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً" يمنع من حمل الإضلال على الإهلاك.

- وأما التأويل السادس: وهو أنه يضله عن طريق الجنة فضعيف لأنه تعالى قال: "يُضِلُّ بِهِ" أي يضل بسبب استماع هذه الآيات والإضلال عن طريق الجنة ليس بسبب استماع هذه الآيات بل بسبب إقدامه على القبائح، فكيف يجوز حمله عليه؟

- وأما التأويل السابع: وهو أن قوله: "يُضِلُّهُ" أي يجده ضالاً قد بينا أن إثبات هذه اللغة لا دليل عليه وأيضاً فلأنه عدى الإضلال بحرف الباء فقال: "يُضِلُّ بِهِ" والإضلال بمعنى الوجدان لا يكون معدى بحرف الباء.

- وأما التأويل الثامن: فهو في هذه الآية يوجب تفكيك النظم لأنه إلى قوله يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً من كلام الكفار ثم قوله: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ" كلام الله تعالى من غير فصل بينهما بل مع حرف العطف وهو الواو، ثم هب أنه ههنا كذلك لكنه في سورة المدثر وهو قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ" لا شك أنه قول الله تعالى"

قال الرازي: فهذا هو الكلام في الإضلال.

ثانيا: الهدى

<u>رأي المعتزلة:</u>

ثم قال: "أما الهدى فقد جاء على وجوه عند المعتزلة:

- أحدها: الدلالة والبيان قال تعالى: "أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا" (السجدة: 26) وقال: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ" (البقرة: 38) وهذا إنما يصح لو كان الهدى عبارة عن البيان وقال: "إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى" (النجم: 23)، وقال: "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً" (الإنسان: 3)، أي سواء شكر أو كفر فالهداية قد جاءته في الحالتين، وقال: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى" (فصلت: 17)، وقال: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام: 154)، وهذا لا يقال للمؤمن. وقال تعالى حكاية عن خصوم داود عليه السلام: "وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ" (ص 22) أي أرشدنا، وقال: "إِنَّ

الّذِينَ ارْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ" (محمد: 25)، وقال: "أَن تَقُولَ نَفْسٌ يحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطَتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ" (الزمر: 56) إلى قوله: "أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" (الزمر: 57) إلى قوله: "بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ" الزمر: 59): أخبر أنه قد هدى الكافر مما جاءه من الآيات وقال: "أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى" (الأنعام: 157) وهذه مخاطبة للكافرين.

- وثانيها: قالوا في قوله: "عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (الشورى: 52) أي لتدعو وقوله: "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" (الرعد: 7) أي داع يدعوهم إلى ضلال أو هدى.

- وثالثها: التوفيق من الله بالألطاف المشروطة بالإيمان يؤتيها المؤمنين جزاء على إيمانهم ومعونة عليه وعلى الازدياد من طاعته، فهذا ثواب لهم، وبإزائه ضده للكافرين وهو أن يسلبهم ذلك فيكون مع أنه تعالى ما هداهم يكون قد أضلهم، والدليل على هذا الوجه قوله تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى" (محمد: 17)، "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْاْ هُدًى" (مريم: 76)، "وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86)، "يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27)، "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَق وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86) فأخبر أنه لا يهديهم وأنهم قد جاءهم البينات، فهذا الهدى غير البيان لا محالة، وقال تعالى: "وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" (التغابن: 11) أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" (المجادلة: 22).

-. ورابعها: الهدى إلى طريق الجنة قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً" (النساء: 175) وقال: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ"، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (المائدة: 15، 16). وقال: "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ" (محمد: 4 ـ 6).

والهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الجنة. وقال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ" (يونس: 90) وهذا تأويل الجبائي.

- وخامسها: الهدى بمعنى التقديم يقال هدى فلان فلاناً أي قدمه أمامه، وأصل هدى من هداية الطريق؛ لأن الدليل يتقدم المدلول، وتقول العرب أقبلت هوادي الخيل. أي متقدماتها ويقال للعنق هادي وهوادي الخيل أعناقها لأنها تتقدمها.

وسادسها: يهدي أي يحكم بأن المؤمن مهتد وتسميته بذلك لأن حقيقة قول القائل هداه جعله مهتدياً، وهذا اللفظ قد يطلق على الحكم والتسمية قال تعالى: "مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ" (المائدة: 103) أي ما حكم ولا شرع، وقال: "إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ" (آل عمران: 73) معناه أن الهدى ما حكم الله بأنه هدى وقال: "مَن يَهْدِ اللّهُ" أي من حكم الله عليه بالهدى فهو المستحق لأن يسمى مهتدياً".

قال الرازي: فهذه هي الوجوه التي ذكرها المعتزلة في الهدى وقد تكلمنا عليها فيما تقدم في باب الإضلال".

رد الجبرية على المعتزلة في الهدى

ثم أضاف: "قالت الجبرية: وههنا وجه آخر وهو أن يكون الهدى بمعنى خلق الهداية والعلم، قال الله تعالى: "وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (يونس: 25) قالت القدرية هذا غير جائز لوجوه:

أحدها: أنه لا يصح في اللغة أن يقال لمن حمل غيره على سلوك الطريق كرهاً أنه هداه إليه وإنما يقال رده إلى الطريق المستقيم وحمله عليه. فأما أن يقال إنه هداه إليه فلا.

وثانيها: لو حصل ذلك بخلق الله تعالى لبطل الأمر والنهي والمدح والذم والثواب والعقاب. فإن قيل هب أنه خلقُ الله تعالى إلا أنه كسب العبد قلنا هذا الكسب مدفوع من وجهين:

الأول: أن وقوع هذه الحركة إما أن يكون بتخليق الله تعالى أو لا يكون بتخليقه، فإن كان بتخليقه، فمتى خلقه الله تعالى استحال من العبد أن يمتنع منه، ومتى لم يخلقه استحال من العبد الإتيان به، فحينئذٍ تتوجه الإشكالات المذكورة وإن لم يكن بتخليق الله تعالى بل من العبد فهذا هو القول بالاعتزال.

الثاني: أنه لو كان خلقاً لله تعالى وكسباً للعبد لم يخل من أحد وجوه ثلاثة، إما أن يكون الله يخلقه أولاً ثم يكتسبه العبد أو يكتسبه العبد أولاً ثم يخلقه الله تعالى، أو يقع الأمران معاً: فإن خلقه الله تعالى كان العبد مجبوراً على اكتسابه فيعود

الإلزام، وإن اكتسبه العبد أولاً فالله مجبور على خلقه، وإن وقعا معاً وجب أن لا يحصل هذا الأمر إلا بعد اتفاقهما؛ لكن هذا الاتفاق غير معلوم لنا، فوجب أن لا يحصل هذا الاتفاق. وأيضاً فهذا الاتفاق وجب أن لا يحصل إلا باتفاق آخر، لأنه من كسبه وفعله، وذلك يؤدي إلى ما لا نهاية له من الاتفاق. وهو محال.

قال الرازي: "هذا مجموع كلام المعتزلة"، يعني رد الجبرية على مجمع كلام المعتزلة.

- رأي الجبرية: الله خالق أفعال الإنسان.

ثم قال: "قالت الجبرية: إنا قد دللنا بالدلائل العقلية التي لا تقبل الاحتمال والتأويل على أن خالق هذه الأفعال هو الله تعالى، إما بواسطة أو بغير واسطة، والوجوه التي تمسكتم بها وجوه نقلية قابلة للاحتمال، والقاطع لا يعارضة المحتمل، فوجب المصير إلى ما قلناه وبالله التوفيق".

وهكذا نرى أن الكلام في الهداية والإضلال ينتهي إلى مسألة "خلق الأفعال"، أفعال الإنسان: هل يأتيها هو، أم أن الله هو خالقها. وهذا تعبير آخر عن نفس المسألة : مسألة الجبر والاختيار. وهي في الحقيقة من المسائل التي لا يمكن الفصل فيها بصورة نهائية. فهناك أفعال يأتيها الإنسان بإرادته ولكن هناك حوادث وأشياء تحدث وتنسب للحظ أو لقوانين الطبيعة أو لغير ذلك من التسميات التي تعني أنها خارجة عن إرادة الإنسان.

وفي هذا المعنى كتب ابن تيمية رسالة صغيرة نختم بها هذا الاستطراد.

ابن تيمية: وجوب الإيمان بالقدر ونفي الاحتجاج به:

قال : "وليس في القدر (بمعنى القضاء والقدر) حجة لابن آدم ولا عذر، بل القدر يؤمَن به ولا يُحتج به، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض، فإن القدر إن كان حجة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتصّ منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظُلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه. وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن أحداً أن يفعله فهو ممتنع طبعاً محرم شرعاً.

ولو كان القدر حجة وعذراً لم يكن إبليس ملوماً معاقباً ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ولا إقامة الحدود جائزاً لا قطع السارق ولا جلد الزاني ولا رجمه، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه. ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة

من الأمم. ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع. فالشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون مُنزّلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك، ثم المنزّلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم. وتارة لا تغير ولا تبدل، وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل". (رسائل ومسائل ابن تيمية ج1 ص95).

المرحلة السادسة

ما بعد الحصار:
مواصلة الاتصال بالقبائل ...
والاستعداد للهجرة إلى المدينة



استهلال

مكث الرسول عليه السلام في الحصار هو وأهله من بني هاشم وبني المطلب نحو ثلاث سنوات، في أغلب الأقوال: من بداية السنة السابعة للنبوة إلى بداية العاشرة. ومع أن مقام الرسول وعشيرته في شعب أبي طالب قد شهدت أوقاتا قاسية فإن مقاطعة قريش لم تكن تامة ولا شاملة، ولا بنفس الشدة، مدة الحصار كله. كانت هناك ثغرات "قَبَلية"، إذ كان بعض أقارب الهاشميين غير متحمسين للحصار، كما أن العقد الذي أبرمه الملأ من قريش بينهم يتعهدون فيه بمقاطعة بني هاشم (وسموه "الصحيفة") كان يُلزم قريشا وحدها، أما القبائل العربية الأخرى فكانت تتعامل في الأسواق مع بني هاشم وبني المطلب رغم ضغوط أبي جهل وجماعته.

وهكذا، فإذا كانت "الصحيفة" قد أملاها منطق "القبيلة"، فإن "القبيلة" ليست منطقا وحسب بل هي وجدان أيضا. وهكذا سينقُضُ وجدان "القبيلة"، ما أبرمه "عقلـ"ـها! ذلك أن شخصا يدعى هشام بن عمرو، وكان قريبا من ناحية الأم لأحد المحاصرين من بني هاشم، كان يحمل الطعام إليهم كل ليلة. ثم إنه بعد مدة اتصل بأفراد آخرين ممن لهم علاقة قرابة، من ناحية الأم، مع بني هاشم واتفقوا في نهاية الأمر على نقض الصحيفة؛ فجاءوا مجلس قريش بالكعبة، الواحد بعد الآخر، وأعلنوا عن عدم التزامهم بالصحيفة مبررين ذلك بأنهم لم يكونوا قد وافقوا عليها. وهكذا انفرط عقد حصار قريش، فأخرجت الصحيفة من الكعبة ومزقت وخرج بنو هاشم من الحصار (ابن إسحق).

بعد خروج أبي طالب من الحصار مرض مرض موته، وتقول إحدى الروايات[1] إن زعماء قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، تنادوا لمناقشة أمر محمد (ص) فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فنكلمه فيه فلينصفنا منه، فيأمره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبد، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء فتُعَيِّرُنا العرب ويقولون: تركوه حتى إذا مات عمه وتناولوه". وهكذا بعثوا رجلا منهم إلى أبي طالب ليقول له: "يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من

---

1 - الروايات حول لقاءات قريش مع أبي طالب وما جرى فيها من كلام متداخلة غير مرتبة زمنيا، بعضها يكرر بعضا، ونحن نذكر منها، بين حين وآخر، ما هو أقرب إلى زمن اللقاء وظروفه.

ابن أخيك، فمُرْه فليكُفَّ عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. وتقول إحدى الروايات إن أبا طالب بعث إلى النبي عليه السلام "فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق! فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بَداءٌ، وأنه خاذِله ومسلِمُه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله: يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. ثم استعبر رسول الله فبكى، ثم قام. فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي! فأقبل عليه رسول الله فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشر أبدا!"[2].

ولم تمر إلا أيام حتى توفي أبو طالب، كما توفيت بعده خديجة زوج النبي (ص)، -وقيل بين موتهما نحو شهر- "فاجتمعت على رسول الله (ص) مصيبتان فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به[3]، فبلغ ذلك عمه أبا لهب -الخصم اللدود للدعوة المحمدية- وقد تحركت فيه نوازع القرابة فجاءه فقال: يا محمد امض لِما أردت، وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه! لا، واللات لا يوصل إليك حتى أموت! وحدث أن سبَّ رجل من كبار قريش النبي (ص)، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش صبا (أسلم) أبو عتبة (=أبو لهب)! فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب (أبوه)، ولكني أمنع بن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم! فمكث رسول الله (ص) كذلك أياما، يذهب ويأتي، لا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك (أي مصيره وهو ميت)؟ فقال له أبو لهب يا محمد: أين مدخل عبد المطلب؟ قال مع قومه. فخرج أبو لهب إليهما، فقال قد سألته فقال: مع قومه. فقالا يزعم أنه في النار! فقال (أبو لهب): يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار. فقال أبو لهب: والله لا برحت (سأبقى) لك عدوا أبدا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار". قال الراوي: فاشتد عليه هو وسائر قريش.

2- تقول إحدى الروايات إن النبي (ص) طلب من عمه أبي طلب أن يسلم وألح في الطلب، فامتنع أبو طالب قائلا: إني أخاف أن يعيرني العرب لكوني أسلمت خوفا من الموت.

3 - روي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال بعد موت أبي طالب: "لقد رأيت رسول الله (ص) أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ قال علي: فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟».

وعلى أثر ذلك خرج (ص) إلى الطائف، يلتمس النصرة من أهلها... فعَمَد إلى سادة ثقيف وأشرافهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ... فقال له أحدهم: "أما وجد الله أحداً يرسله غيرك"؟ وقال آخر: "والله لا أكلمك أبدا. لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك". فقام رسول الله (ص) من عندهم وقد يئس من خير ثقيف. لقد تعصبوا ضده، وأغروا به سفهاءهم وعبيدَهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حديقة، ولما رجع عنه سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه، عمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه". "وكان خروجه إلى الطائف في شوال سنة عشر من النبوة، وأقام هناك عشرة أيام وقيل معه مولاه زيد بن حارثة".

لم يتجه إلى مكة مباشرة عند رجوعه من الطائف لأنه -كما قيل- خشي أن يثير طلبه النصرة من ثقيف غَضبَ قريش، للتنافس القبلي الذي كان بينهما، فيمنعوه من دخول مكة أو يُمعنون في أذيته، خصوصا بعد وفاة أبي طالب وانقلاب أبي لهب عليه بسبب ما قاله في مصير أبيه عبد المطلب كبير عشيرته ورمز قوتها. من أجل تجنب ذلك سار إلى حراء، ثم بعث إلى بعض معارفه يطلب جوارهم، فامتنع منهم اثنان وقبِل ثالث هو المطعم بن عديّ. تسلح هذا الأخير هو وأبناؤه وخرجوا حتى أتوا المسجد، فقام على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجَرْتُ محمداً فلا يؤذه أحد منكم، ثم بعث إلى رسول الله (ص) أن أدخل، فدخل وقصد المسجد فسلّم وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله[4].

***

استمرت هذه المرحلة السادسة من مسيرة الدعوة المحمدية ومسار تنزيل القرآن بمكة أربع سنوات: من خروجه عليه السلام من الحصار في بداية السنة العاشرة، إلى أوائل السنة الرابعة عشرة للنبوة، وهي السنة الأولى للهجرة إلى المدينة. وفي ما يلي بيان لمدارج هذه المرحلة، كما أمكننا استخلاصها من واقع السيرة ومسار التنزيل.

- كانت السنة العاشرة سنة الحزن والشدة بسبب وفاة كل من عمه أبي طالب وزوجته خديجة، ورجوعه من الطائف في أسوء حال، ودخوله موطنه مكة في جوار أحد المشركين. وفي أواخر هذه السنة تزوج زوجته الأولى بعد خديجة: سودة بنت زمعة ودخل عليها في مكة. وفيها أيضا عقد عقده على عائشة بنت أبي بكر وكانت في نحو التاسعة من عمرها، ولم يدخل عليها إلا في المدينة.

4- ابن إسحاق- ابن سعد- السيرة الحلبية ...

في أواخر العاشرة وأوائل الحادية عشرة استأنف الدعوة في المواسم والأسواق[5] متخذا إستراتيجية جديدة. فبدلا من دعوة الناس إلى الإيمان بالله والبعث وترك عبادة الأصنام الخ، جهارا وبشكل جماعي كما جرت عادة الخطباء والقصاص في الأسواق، أخذ في عقد لقاءات مباشرة مع وفود القبائل، صحبة أبي بكر الذي كان خبيرا بالشؤون القبلية في الجزيرة العربية. وكان التركيز هذه المرة على البحث عن قبيلة تأويه وتتبنى دعوته وتتحالف معه. وقد أثمرت هذه الإستراتيجية: إذ استجاب له وفد الخزرج من يثرب (المدينة) وأسلموا وحملوا معهم الإسلام إلى بلدهم بعد أن وعدوه بأنهم سينقلون رغبته في التحالف معه ضد قريش ويأتونه بالنتيجة في العام القادم[6].

5- وكان قد بدأها قبل الحصار عندما نزل عليه: اصدع بما تؤمر". انظر المرحلة الرابعة في أول هذا القسم من الكتاب. الاستهلال وسورة الحجر 53.

6- تفصيل ذلك: كانت تسكن يثرب قبيلتان يمنيتان، الأوس والخزرج؛ قيل نزحتا إليها بعد انهيار سد مأرب. وكانت تقطنها قبلهما قبائل من اليهود أشهرها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قَيْنقاع"، وقد بنوا حصونا يجتمعون بها إذا ضاقوا. فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتنوا المساكن والحصون، إلا أن الغلبة والحكم إلى اليهود". ثم نشب نزاع بينهم وبين الأوس والخزرج فاستنجد هؤلاء ببني عمومتهم من اليمنيين الذين كانوا قد نزلوا الشام، فأنجدوهم وتغلبوا على اليهود وصار الأمر إليهم. ومع مرور الزمن حدثت احتكاكات قبلية بين الأوس والخزرج تطورت إلى سلسلة متوالية الحلقات من حروب "الأيام" كان كل طرف فيها يتحالف ضد الطرف الآخر مع اليهود ويبحث عن حلفاء آخرين خارج يثرب. كان من حروبهم "يوم معبس ومضرس"، انهزم فيه الأوس "هزيمة قبيحة لم يهزموا مثلها"، فاضطر قسم منهم إلى موادعة عدوهم الخزرج بينما رفض قسم آخر منهم، وهم بنو عبد الأشهل، فأبوا إلا الاستعداد لأخذ الثأر. "ثم سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشا على الخزرج وأظهروا أنهم يريدون العمرة". وهناك في مكة التقى بهم محمد (ص) وتعرف على قضيتهم وقال لهم : "هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له"، فدعاهم إلى الإسلام وشرح لهم قضيته فتحمس لها أحدهم، وكان شابا وقال: "هذا والله خير مما جئنا به"، فنهره رئيس الوفد قائلا "دعنا منك فقد جئنا لغير هذا فسكت". ثم مضى وفد الأوس في مهمته فعقد حلفا مع قريش، غير أن أبا جهل زعيمهم كان غائبا، فلما عاد أنكره وسعى في فسخه. ثم نشب نزاع آخر بين الأوس والخزرج فتحالف الأوس مع يهود بني قريظة وبني النضير فكان "يوم بُعاث" الذي انتهى بانتصار الأوس. وفي الموسم التالي ذهب وفد من الخزرج إلى مكة للحج والعمرة فالتقى بهم= الرسول (ص) وعرض عليهم نفسه. وكان اليهود في يثرب قد قالوا لهم، في إطار نزاع كلامي معهم: "إن نبيا مبعوثا قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم". فلما كلمهم الرسول (ص) قال بعضهم : "تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه - أجابوا محمدا (ص) - فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فنقدِم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي

- ولما حان وقت الموسم التالي (السنة الثانية عشرة)، جاء وفد منهم يتكون من اثني عشر رجلا فالتقوا بالرسول (ص) في "العقبة" وبايعوه على الإسلام، ولكن دون الالتزام بالقتال معه. وتلك هي بيعه العقبة الأولى. وقد بعث معهم الرسول (ص) مصعب بن عمر بن هاشم بن عبد مناف ليعلمهم القرآن و"كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج، كره بعضهم أن يؤمه بعض". وهكذا بدأ انتشار الإسلام في يثرب بسرعة.

- وفي العام التالي (السنة الثالثة عشرة)، وأثناء موسم الحج كذلك، قدم إلى مكة وفد يثرب وكان يضم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من المسلمين. فتواعد الوفد أثناء الموسم مع النبي (ص) في "العقبة" مرة أخرى، فتسللوا إليها مستخفين، فجاءهم النبي (ص) ومعه عمه العباس، -ولم يكن قد أسلم بعد "إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق منه"- فتكلم العباس مخاطبا الوفد: "إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فانتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده". فقبلوا منه ذلك وطلبوا من الرسول (ص) أن يتكلم فقال : "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم"، فوافقوا. واستدرك أحدهم قائلا :"يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا"؟ فأجابهم الرسول (ص) : "بل الدم الدم، الهدم الهدم"، أي ما هدمتم من الدماء أهدمه والعكس أيضا، ثم أضاف "أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"، ثم طلب منهم أن يعينوا اثني عشر نقيبا ينوبون عنهم فعينوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فبايعوه وبايعهم، وتلك هي العقبة الثانية"، وبيعتها "بيعة الحرب" بمعنى "حلف حربي". وفي أواخر هذه السنة (الثالثة عشرة) نزلت الآية التي فيها الإذن بالقتال (سورة الحج)، فأخذ يستعد للهجرة إلى المدينة. قيل بين بيعة العقبة الثانية والهجرة نحو ثلاثة أشهر.

- ومع دخول السنة الرابعة عشر نظمت قريش مؤامرة لاغتياله قبل أن يتمكن من مغادرة مكة، لكن المؤامرة فشلت، فكانت الهجرة فيها في صفر أو في غرة ربيع الأول.

أجبناك إليه من هذا الدين". (استعدنا فقرات من هذا التعليق من كتابنا "العقل السياسي العربي". الفصل الثاني. القبيلة. فقرة 4).

تلك هي مجمل التطورات التي عرفتها الدعوة المحمدية بعد خروجه عليه السلام من الحصار، قد استعدنا هنا أجزاء مما سبق أن عرضناه في مقدمة الكتاب، حتى يتمكن القارئ من أن يتتبع معنا مسار التنزيل خلالها. وسنستكمل تفصيل هذه التطورات مع تتبعنا لسور هذه المرحلة التي نزل فيها قرآن كثير.

66- سورة نوح

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى أنها رتبت في لوائح ترتيب النزول بين رتبة 66 ورتبة 73. وبالنظر إلى مضمونها وأسلوبها ولهجتها رجحنا أن تكون أول سورة نزلت في مرحلة ما بعد الحصار. وكما ذكرنا في "الاستهلال" فقد عانى الرسول عليه السلام في السنة العاشرة، التي انهار الحصار في بدايتها، معاناة شديدة، حتى سميت "سنة الحزن" : فقد توفي فيها مانعه من أذى قريش عمه أبو طالب وتوفيت بعده بأيام زوجته خديجة، كما تراجع أبو لهب عن حمايته، فانهالت عليه سهام أذى قريش من كل جانب. وحينها ذهب إلى أهل الطائف ليطلب النصرة منهم فكانت ردود فعلهم سيئة جدا. وعندما أراد العودة إلى مكة اضطر إلى طلب جوار أحد معارفه من مشركي قريش ... كل ذلك يرجح القول إنه عليه الصلاة والسلام لم يستأنف الدعوة إلا في أواخر السنة العاشرة، سنة انحلال الحصار.

ومن هنا كان ترتيب سورة نوح في لائحة جابر بن زيد في رتبة 66 مناسبا تماما. هناك من الرواة من ذكر أن النبي عليه السلام سُمع وهو يقرأ "سورة الطارق" عند عودته من الطائف، عندما جاءها يطلب النصرة من أهلها، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أن هذه السورة نزلت حينها كما تذكر بعض المصادر، فقد تكون نزلت من قبل، وهذا ما يدل عليه ترتيبها في لوائح الترتيب. (انظر القسم الأول من هذا الكتاب، سورة الطارق، رقم 36: التقديم). أما الرتبة التي وضعت فيها السورة التي نحن بصددها (سورة نوح)، في بعض اللوائح، والتي تجعلها بعد سورة النحل بموجب خبر ورد فيه أنها "نزلت بعد نزول أربعين آيةً من سورة النحل وقبل سورة الطور"، فوضع لا يستقيم في نظرنا لأن كلا من السورتين (نوح والنحل) مستقلة بنفسها، بموضوعها ولهجتها وأسلوبها وأفقها، كما سيلاحظ القارئ ذلك بنفسه. من أجل هذا حافظنا لها على رقم ترتيبها ووضعناها في مقدمة السوة التي نزلت في هذه المرحلة.

– نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِه أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ(1) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[1]. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ[2]، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِي[3]، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ (يؤخر وفاتكم) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[4].

2- نوح: وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ!

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا[5]، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا[6]. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (كي لا يسمعوني)، وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (غطوا وجوههم كي لا يروني)، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا[7]. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا[8]، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (دعوتهم علانية وسرا)[9]، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا[10]: يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[11] (بمطر كثير)، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا[12]. مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا[13]؟ (2) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا[14] (نطفة، فعلقة...). أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[15] (بعضها فوق بعض) ؟ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا[16]! وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا[17] (أنشأكم في الأصل من الطين فنبتم)(3). ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا[18]. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا[19]، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا[20] (طرقا واسعة).

1- واضح أن المقصود هنا من حكاية كفاح نوح ضد قومه عبدة الأصنام هو إعطاء مثال يطابق حال النبي محمد عليه السلام مع قومه، واعتمادا على هذا يمكن إقامة مماثلة بينهما على مستوى السورة ككل.

2- لعل المعنى الأقرب إلى مضمون الآية هو ما قاله الزمخشري: "مالكم لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم".

3 - كان القدماء خلق الإنسان من طين على غرار نشوء الدود فيها. قالوا: يتخمر الطين بفعل اختلاط الماء والتراب فيتكون الدود فيصير كائنا حيا في أدنى درجات التكوين ثم يتطور إلى ما هو أرقى إلى الحيوان، ثم إلى الإنسان. وقد اختلف المفسرون واللغويون في قوله "ينبتكم نباتا" من حيث أن مصدر أنبت هو إنبات. وقال بعضهم إن مصدر فعل "نبت" يأتي=

3- ... وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا[21] (عصاني قومي أهل مكة واتبعوا الملأ منهم)، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا[22] (صدوا

على وجهين: نباتا، وإنباتا. ونحن نرى أن المقارنة بين قوله "ينبتكم نباتا" وقوله "يخرجكم إخراجا" يثوي وراءها معنى خاص: وهو أن استعمال لفظ "إخراج" فيه تأكيد اقتضاه إنكارهم للبعث، فيه نوع من الإكراه لهم، أما في الخلق الأول فبما أنهم لا ينكرونه فقد استعمل لفظا أخف وهو "نباتا" بدل إنباتا". هذا، وقد يكون من المفيد هنا عرض ملخص لتصور الفكر القديم للعلاقة بين مستويات الوجود، نقتبسه من فصل طويل في مقدمة ابن خلدون لهذا الموضوع. لخص ابن خلدون في مقدمته تصور القدماء لمراتب الموجودات، من أدناها وهي الجماد إلى أعلاها وهي الوجود الروحاني، نقتبس منه الفقرات التالية. قال: "اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة (تحول) بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك، ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، وأوله عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء، ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل (يتحول) بعض الأوقات!، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط! ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول الأرفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية... وكان ذلك أول أفق من الإنسان، وهذا غاية شهودنا. ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مباينا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات، لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا، وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل ... وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك" الخ. وهذا النوع من التصور الذي شاع لدى إخوان الصفا والإسماعيلية والباطنية عموما هو خليط من علم النفس الأرسطي والأفلاطونية المحدثة، وعليه تقوم الفلسفة الدينية الهرمسية.

الناس عني –وفود القبائل). وَقَالُوا (لهم) لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ (أصنامكم:) وَدًّا، وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا[23]، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا، وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا[24].

4- خاتمة : أغرقوا وأدخلوا نارا.

مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ (بسبب ظلمهم) أُغْرِقُوا (قوم نوح) فَأُدْخِلُوا نَارًا [(4)] فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا[25]. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[2] (ساكن دار). إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا[27] [(5)]. رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا[28] (الهلاك).

– تعليق

لاشك أن المتأمل في آيات هذه، مضمونا ولهجة، يستنتج أنها نزلت في ظروف صعبة كان يعاني فيها الرسول عليه السلام أشد الضغط والاضطهاد من قريش. وهذا يبرر وضعها في الرتبة التي وضعناها فيها. وإضافة إلى هذا هناك في السورة ما يشير إلى أنها نزلت فعلا في الظروف التي تلت انفكاك الحصار واتجاه النبي عليه السلام إلى الدعوة وسط القبائل في المواسم والأسواق من جهة، وتجَنّد قريش لمحاربته وتحريض القبائل على عدم الاستجابة له وحثها على الاستمرار في عبادة أصنامها. وهذا ما يشكل في نظرنا الهدف من تخصيص سورة لـــ"نوح" بعدما

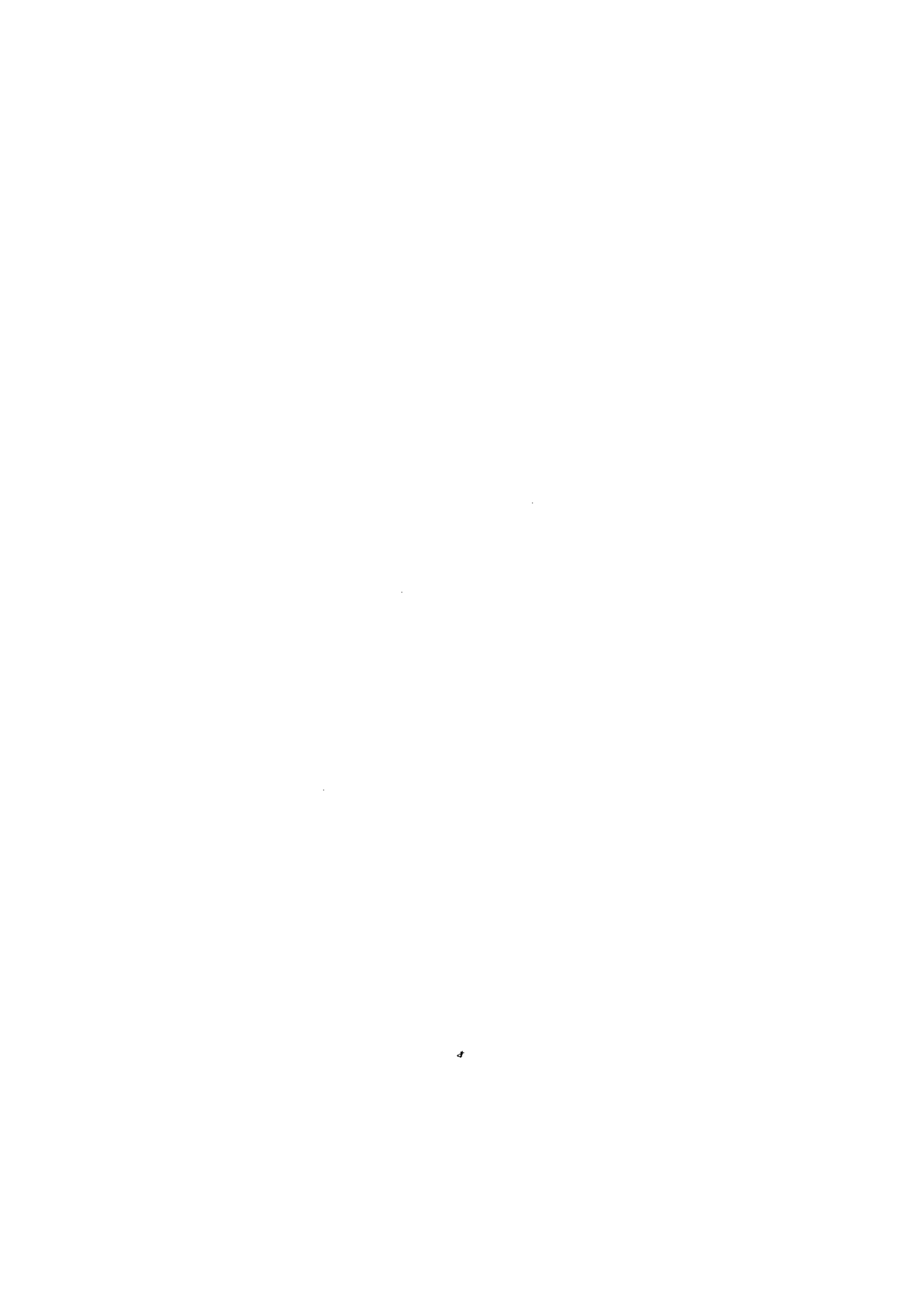
4- اختلف المفسرون في شرح هذه الآية. والإشكال الذي طرحوه يتعلق بقوله تعالى "أغرقوا فأدخلوا نارا". منهم من قال إنه مباشرة بعد حدوث الغرق أدخلوا "نارا"، وبما أن "نار جهنم" زمانها بعد قيام القيامة والحساب، فقد قالوا إن "النار" هنا تعني "عذاب القبر"، وقد اخذ القائلون بـــ"عذاب القبر" من هذا الفهم لهذه الآية دليلا من القرآن على وجود عذاب القبر. وواضح أن هذا التأويل مجرد تكلف. فلو كان الأمر يتعلق بعذاب القبر لفصل القرآن القول فيه تفصيلا كما فعل في كثير من جزئيات قيام الساعة والحساب والجنة والنار. أما حجة القائلين بأن قوله يفيد ذلك فمبنية على كون "الفاء" تدل على أنه حصلت تلك الحالة عقيب الإغراق فلا يمكن حملـــها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء"، هذا بينما قال آخرون ومنهم مقاتل والكلبي: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة نارا، ثم عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقولـــه: "وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ" (الأعراف: 50)، "وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ" (الأعراف: 44).

5- استند بعض فرق الخوارج إلى هذه الآية في حكمهم بقتل أطفال مخالفيهم.

وردت قصته في سور عديدة سابقة. واللافت للنظر أن هذه السورة لا تعرض قصة نوح، ولا عناصر منها، كما عرضتها سور سابقة، بل اقتصرت على عرض شكواه من إعراض قومه عن دعوته، وأيضا- وهذا هو الجديد- قيام الملأ منهم بتحريض الناس ضده وحثهم على التمسك بآلهتهم وأصنامهم. وقد اختلف المفسرون في شأن هذه الأصنام فمنهم من اكتفى بالقول إنها كانت أصنام خاصة بقوم نوح. ومنهم من قال كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك أصناما لهم. قالوا: "كان "ودّ" لهذا الحيّ من كلْب بدومة الجَندل، وكانت سُواع لهذيل برياط، وكان يغوث لبني غُطَيف من مُراد بالجُرْف من سَبأ، وكان يعوق لهمدان ببلخع، وكان نسر لذي كلاع من حِمْير". وقيل: "ولذلك سمت العرب بعبد ود، وعبد يغوث". وهذه الأصنام كانت معروفة زمن النبي (ص) وبعضها كان قائما يعبد؛ وقد بَعثَ الرسول عليه السلام -إثر فتح مكة وكسر أصنامها- سرايا لهدم أصنام القبائل العربية، وذكروا أنه بعث عمرو بن العاص في سرية لهدم الصنم "سواع" الخ.

وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن الملأ من قوم نوح هم المقصودون بقوله تعالى: " وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ (أصنامكم:) وَدًّا، وَلَا سُوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"(6) وأنهم قالوا ذلك لمن هم دونهم بما فيهم قبائل قومهم واستحضرنا ظروف نزول هذه السورة أمكننا أن نفهم من ذلك أن المقصود هم زعماء قريش يصدون القبائل عن الدعوة المحمدية ويوصونهم بالتمسك بأصنامهم. فيكون الكلام هنا من قبيل : "إياك أعني واسمعي يا جارة"، وقد سبق مثل هذا في قوله تعالى: "قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ (يا نوح) وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟ قَالَ: وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ" (الشعراء11- 114)، ثم جاء نفس الجواب، الذي كان قيل على لسان نوح، خطابا للرسول عليه السلام : "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام 52).

6- من الجدير بالملاحظة أن أسماء هذه الأصنام تذكر هنا لأول مرة في القرآن،. يقول صاحب معجم البلدان: نقلا عن الكلبي: "كان وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسْر أصنام قوم نوح وقوم إدريس، عليهما السلام، وانتقلت إلى عمرو بن لحَيّ" (الذي ذكرنا سابقا حكاية مجيئه بالأصنام إلى مكة. انظر الاستطراد حولا الأصنام المرحلة الثانية القسم الأول)، وأعطاها لمن أجابه إلى عبادتها فأجابته إلى عبادتها همدان فدفع إليها يعوق. قال ابن حبيب: وَدّ كان لبني وبرة وكان بدومة الجندل وكانت سدانته لبني الفرافصة ابن الأحوص الكلبيين الخ.



67- سورة الذاريات

– تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة سوى خبرين، أحدهما يربط إحدى آياتها بواقعة حدثت في المدينة، في حين أن السورة مكية باتفاق، ولذلك صرفنا النظر عنه. أما الخبر الثاني، وقد روي عن علي ابن أبي طالب، فمفاده أنه لما نزلت هذه السورة وفيها قوله تعالى "فتول عنهم فما أنت بملوم" فَهِم منه بعضُ أصحابه أن "الوحي قد انقطع" وأن مصير قريش سيكون الهلكة. قالوا: فأنزل الله "وذَكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"، فزال الجزع عن أنفسهم. هذا يفترض أن يكون ثمة فاصل زمني بين الآية الأولى والثانية. وهذا ما لا نستطيع إثباته ولا نفيه. كل ما يمكن قوله هو أن السورة تندرج في السياق نفسه الذي وردت فيه سورة نوح السابقة. وسنرى كيف أن هذه السورة قد استعرضت (في الفقرة الثالثة) تجارب الأنبياء السابقين مع أقوامهم مركزة على الهلاك الذي آل إليه مصيرهم بعد أن كذبوا رسلهم، وقد ختمت بالإشارة إلى قوم نوح ("وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[46])، مع أنه أول المرسلين، واكتفت بهذه الإشارة وكأنها تحيل إلى سورة نوح السابقة. ومن هنا يصير مفهوما أن يقلق بعض المستمعين من صحابة الرسول من قوله تعالى: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[52]، أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[53]. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (يا محمد) فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ"[54]، وبالتالي يصير مفهوما أن يتوقعوا نهاية الرسالة إلى قريش والحكم عليهم بالهلكة على غرار ما حدث لقوم نوح.

أما تاريخ نزول السورة فلم يرد عنه شيء يذكر، غير أن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تتحرك ما بين رتبتي 64 و 67، وقد احتفظنا بهذا الرقم الأخير لتوافقه مع ترتيبنا. يمكن القول إذن إن هذه السورة من أوائل ما نزل بعد خروجه عليه السلام من الحصار، وبالتالي تكون قد نزلت في أواخر السنة العاشرة عندما استأنف عليه السلام الدعوة في المواسم. ومما ينبغي التنبيه إليه أن السور الأولى التي نزلت بعد خروجه عليه السلام من الحصار قد ركزت على قضية المعاد: البعث والحساب والجزاء، ولكن دون أن يعني ذلك غياب القضايا الأخرى التي تشكل الأركان الرئيسية للدعوة المحمدية في العهد المكي: النبوة، التوحيد، البعث الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: البعث آت والحساب واقع.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا[1] (الرياح تذرو: تنشر)، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا[2] (السحب مثقلة بالماء)، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا[3] (الرياح تجري بالسحب)، فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا[4] (الرياح توزع السحب الممطرة بأمر ربها). (1)، إِنَّمَا تُوعَدُونَ (البعث)، لَصَادِقٌ[5]، وَإِنَّ الدِّينَ (الحساب) لَوَاقِعٌ[6].

2- في السماء، والأرض، وفي أنفسكم آيات! أفلا تبصرون؟

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ[7] (حبكت بالنجوم، حبكا منتظما) إِنَّكُمْ (يا قريش) لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ[8] (مضطرب، حائرين) (2)، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ[9] (يصرف عن قولكم المختلف من صرفه الإيمان). قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (هؤلاء الحائرون)[10]، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ (من الجهل) سَاهُونَ[11]، يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ[12]، يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ[13] (يبتلون ويقال لهم) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ! هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ[14]. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[15]، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ[16] (في الدنيا)، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (ينامون)[17]، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[18]، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ[19] (يعطون الصدقات). وَفِي الْأَرْضِ (كما في السماء ذات الحبك) آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ[20] (فيها أدلة على صحة ما يدعوكم

1- اختلف المفسرون في تعيين المقصود من هذه الأشياء المقسم بها، وقد ذهب جلهم إلى أن الذاريات والحاملات هي السحاب، وأن الجاريات هي السفن، وأما المقسمات فهي الملائكة. ويقول الزمخشري: "ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشئ السحاب وتنقله وتصرفه، وتجري في الجو جريا سهلا، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب"... وبه نقول نحن كذلك. ذلك أنه لا معنى لإقحام الملائكة مع الرياح، والقرآن يُقسم بالظواهر الطبيعية مبرزا من خلال انتظامها المطرد وتعاقبها الدائم أنها آيات وعلامات على وجود حياة أخرى تعقب هذه. ووجه العلاقة بين عناصر القسم وجوابه هو أنه كما أن الرياح تحمل المطر إلى غاية معينة تنتهي عندها فكذلك الحياة الدنيا، فهي تسير نحو الحياة الأخرى.

2- العلاقة بين القسم وجوابه هو أنه أقسم بانتظام السماء التي هي من خلقه على عدم انتظام رأي قريش في البعث، تارة ينكرونه وتارة يستعجلونه.

إليه محمد)، وَفِي أَنفُسِكُمْ (أيضا فيها آيات) أَفَلَا تُبْصِرُونَ[21] (ذلك)؟ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[22] (من المطر وما ينبت به، وتلك آيات أخرى). فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (فما يدعوكم إليه محمد) إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ[23].

3- تلك آيات من كتاب الطبيعة وهذه أخرى من كتاب تاريخ الرسل.

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ (ضيوف) إِبْرَاهِيمَ (من الملائكة) الْمُكْرَمِينَ[24]، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ. قَوْمٌ مُنكَرُونَ! (غرباء لا يعرفهم)[25]. فَرَاغَ (ذهب سرًّا) إِلَى أَهْلِهِ (ليأتي بما يكرمهم به) فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ[26]، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ (ولم يقتربوا من الطعام)، قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟ (فلم يجيبوا)[27]؟ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً (خاف منهم)، قَالُوا لَا تَخَفْ (نحن ملائكة مرسلون)! وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ[28] (إسحاق). فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (تصيح) فَصَكَّتْ (لطمت) وَجْهَهَا وَقَالَتْ (أنا) عَجُوزٌ عَقِيمٌ[29]. قَالُوا كَذَٰلِكَ (الذي قلنا) قَالَ رَبُّكِ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ[30]. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ (شأنكم) أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ[31]؟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ[32] (هم قوم لوط)، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ[33]، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ[34] (خصصها لعقاب المجرمين). فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[35] (أصحاب لوط)، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ[36]، وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ[37] (أهلكنا الكافرين). وَفِي مُوسَىٰ (أيضا تركنا آية للذين يخافون العذاب) إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ[38] (هي معجزاته)، فَتَوَلَّىٰ (أعرض فرعون محتميا) بِرُكْنِهِ (جنده) وَقَالَ: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[39]! فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ (البحر)، وَهُوَ مُلِيمٌ[40] (أتى بما يلام عليه). وَفِي عَادٍ (تركنا آية كذلك) إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ[41]، مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ[42] (كالثوب البالي). وَفِي ثَمُودَ (آية كذلك) إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ[43]، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (لم يستجيبوا) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ[44]، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ[45]. وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[46]. وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (بقوة) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ[47] (قادرون)، وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[48]، وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[49] (3). فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ[50]، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ[51].

3- المعنى كوننا خلقنا من كل شيء زوجين يجب أن ينبهكم (عن طريق المماثلة) إلى أن الحياة هي أيضا زوجان: حياة وموت الخ، وبالتالي فالبعث آت كما يأتي الليل بعد النهار.

4- خاتمة: مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ ...

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ[52]، أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[53]. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (يا محمد) فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ[54]، وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ[55]. وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي[56]، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِي[57]. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ[58]. فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا (من أهل مكة) ذَنُوبًا[(4)] (وبالتالي عذابا) مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ (أمثالهم من الأقوام الماضية التي أهلكها الله) فَلَا يَسْتَعْجِلُونِي[59] (لتنفيذ العقاب). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يُوعَدُونَ[60].

– تعليق

تبدأ السورة كالعادة بمقدمة تطرح فيها المحور الذي تندرج فيه، وهو هنا محور المعاد، فتؤكد بواسطة القسم أن البعث آت لا محالة. ثم تنتقل إلى موضوعها فتبدأ بالقسم بالسماء وانتظام حركات نجومها لتلفت النظر بالمقابل إلى حيرة قريش، تارة تصف النبي بالمجنون وتارة بالشاعر؛ تارة تنفي البعث نفيا تاما، وأخرى تستعجل العذاب الذي يوعدون به يوم القيامة. والأرض كالسماء فيها آيات تعطي اليقين لمن يتدبرها. ويأتي قسم ثالث جامع: "فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ (=البعث) لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ". بعد ذلك تستعيد السورة، شهادات من تاريخ الأنبياء في صراعهم مع أقوامهم، لتختم بالعودة إلى القضية المطروحة في المقدمة: "إِنَّمَا تُوعَدُونَ (البعث)، لَصَادِقٌ[5]، وَإِنَّ الدِّينَ (الحساب) لَوَاقِعٌ[6]. "فَلَا يَسْتَعْجِلُونِي[59] (لتنفيذ العقاب).

هذا التركيز على قضية البعث، قضية المصير بعد الحياة كان سلاح الدعوة المحمدية كما بينا في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية من مسار التنزيل (القسم الأول من الكتاب)، حيث بينا كيف أن خطاب الجنة والنار في القرآن : سلاح وأخلاق. هو سلاح من حيث إنه ترهيب وترغيب، وأخلاق من حيث أنه يحمّل الإنسان مسؤولية أفعاله، وبالتالي يحث على العمل الصالح وفعل الخير (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ،وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7-8).

4- الذَّنوب بالفتح: الدلو يسقى به من البئر. والمعنى : إن كفار قريش يسقون من نفس البئر التي كانت تسقي منها الأقوام الماضية المكذبة لرسلهم.

68- سورة الغاشية

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى ما ذكره الطبري من أنه "لما نعت الله ما في الجنة، عَجِّب من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله: "أفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ"، فكانت الإبل من عيش العرب ومن خوَلهم" (من الأنعام الملازمة لهم). ونضيف أنه لم يسبق لقريش أن أبدت مثل هذا التعجب مع أن مشاهد للجنة والنار كهذه قد وردت في كثير من السور التي كانوا هم المخاطبين فيها. وسنعود إلى هذا في التعليق. أما ما عدا ذلك فلا شيء يدل على تاريخ نزولها سوى أنها مكية باتفاق. لكن يبدو واضحا أنها بمثابة تكملة للتي قبلها.

لقد ركزت السورة السابقة على إثبات البعث، وأشارت إشارة مقتضبة إلى عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، فجاءت هذه لتصف هذا النعيم وذاك العذاب. وإذن فالرتبة الذي وضعتها فيه لوائح ترتيب التنزيل (وهي رتبة 68) مناسبة تماما لما قبلها (الذاريات)، أما مناسبتها للسورة التي بعدها فموضوع سنناقشه بعد.

- نص السورة

1- مشاهد القيامة: عذاب جهنم ونعيم الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ[1] (القيامة): وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ[2] (ذليلة)، عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ[3] (متعبة بالسلاسل والأغلال)، تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً[4]، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ[5] (شديدة الحرارة)، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ[6] (شوك تعافه الدواب)، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ[7]. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ[8]، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ[9]، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ[10]، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً[11]. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ[12]، فِيهَا سُرُرٌ (أسرة) مَرْفُوعَةٌ[13] (عن الماء)، وَأَكْوَابٌ (أواني للشراب) مَوْضُوعَةٌ[14] (جاهزة)، وَنَمَارِقُ (وسادات) مَصْفُوفَةٌ[15]، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ[16].

2- أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ[17]؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ[18]؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ[19]؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[20]؟ فَذَكِّرْ (بهذا)، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ[21]، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ[22]. إِلَّا (أمّا) مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ[23]، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ[24]. إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ[25]، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ[26].

- تعليق

تقدمت سور من هذا النوع فيها وصف بديع للجنة والنار وحال كل منهما وما يجري فيهما من حوار، سواء بين أصحاب الجنة بعضهم مع بعض، أو أصحاب النار بعضهم مع بعض، أو بين هؤلاء وأولئك. وستأتي سور أخرى في الموضوع نفسه. وقد سبق لنا أن خصصنا لهذا الموضوع الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية (القسم الأول من الكتاب) التي كان محورها المركزي هو المعاد، تحدثنا فيه عن دور سلاح الوعد بالجنة والوعيد بجهنم كأداة فعالة في الترغيب والترهيب في الإسلام، مشيرين إلى غياب هذا السلاح في كل من خطاب التوراة وخطاب الأناجيل.

ما يلفت النظر في ما ذكرته هذه السورة من أوصاف لمظاهر النعيم في الجنة والعذاب في النار هو ما ورد في الرواية الذي ذكرنا في التقديم من كون أناس "من أهل الضلالة" قد تعجبوا من الأوصاف التي نعتت بها السورة الجنة إذ قدمت مشهدا، حيا مشخصا، عما فيها من وسائل الراحة والتمتع والاطمئنان. وإذا كانت الرواية لم تذكر ما قاله "أهل الضلالة"، فإن مجرد وصفهم هذا بـ"الضلالة" كاف ليدلنا على أن الأمر يتعلق بتعجب فيه اعتراض أو استهزاء وما أشبه. وقد سبق أن رأينا في سورة الجاثية (رقم 45) مَن تجاوز إنكارَ البعث إلى إنكار الخالق وتوجيه التحدي: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا (...) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ الجاثية (24-25)! وكما رد القرآن عليهم هناك رد عليهم هنا في "الغاشية". فقد خاطبتهم هذه السورة بما معناه: إذا كنتم تعجبون مما ذكر من وسائل الراحة والمتعة في الجنة، فلماذا لا تعجبون مما في حياتكم ومعهودكم من وسائل مسخرة لراحتكم: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ[17]؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ[18]؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ[19]؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[20]". والتركيز هنا على الإبل والجبال الخ يشعر بأن المخاطبين هنا هم العرب أهل القبائل، وكذلك الشأن في السورة السابقة. هذا ما يفسر في نظرنا "عجب أهل الضلالة" لما سمعوا ما ورد في

السورة من وصف مشخص للجنة والنار، وهو "عجب" لم يصدر عن قريش من قبل -على الأقل فيما وصلنا من روايات- وإنما أبداه أهل القبائل الذين يسمعون هذا لأول مرة. وإذن فالمخاطب في هذه السورة وما سبقها من سور هذه المرحلة هم أهل القبائل المرتادون للمواسم والأسواق.

69- سورة الإنسان

- تقديم

رتبت هذه السورة مع القرآن المدني. وقد اتفق المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن على أنها من السور التي وقع الاختلاف حولها : هل هي مكية أم مدنية، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني.

ومن الذين قالوا إنها مكية ابن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل، ابن مسعود، وقد رتبها هذا الأخير في مصحفه ضمن السور المكية. وبناء على هذا نسب بعض المفسرين مكيتها إلى الجمهور. أما الذين قالوا إنها مدنية فالحسن وعكرمة والكلبي ولكن استثنوا منها آيات قالوا إنها مكية. ويرى ابن عاشور الذي حقق في أمر هذه السورة أن "الأصح أنها مكية: فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية". وأضاف: "ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ" (الإنسان: 8) نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكيناً ليلةً، ويتيماً أخرى، وأسيراً أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري. وكثيراً ما حملوا نزول الآية على مُثُل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول"... ونحن رجحنا مكيتها ورتبناها هنا مع الذاريات والغاشية لمشابهتها لهما شكلا ومضمونا.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ (قد) أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا[1]: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (خليط من ماء الرجل وماء المرأة) نَبْتَلِيهِ (نختبره

بالخير وبالشر)، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا[2] (قادرا على تمييز الخير من الشر). إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا[3] [(1)].

2- والنتيجة أن الإنسان سيجازى على أعماله: إما العذاب وإما النعيم...

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا (سلاسل في أعناقهم يسحبون بها إلى النار) وَسَعِيرًا[4] (نار مهيجة). إِنَّ الْأَبْرَارَ (الأخيار الذين في الجنة) يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (تعطي نسمة الكافور)[5]، عَيْنًا (هي عين) يَشْرَبُ بِهَا (منها) عِبَادُ اللَّهِ، يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا[6] (في كل وقت). يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (كانوا يوفون بالعهد في الدنيا) وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا[7] (عاليا)، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[8]، (قائلين لهم) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا[9]. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا[10](كريها مخيفا)، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً (حسنا) وَسُرُورًا[11]، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً (أدخلوها) وَحَرِيرًا[12] (ألبسوه)، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا (حرارة) وَلَا زَمْهَرِيرًا[13] (بردا)؛ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (ظلال أشجارها)، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا[14] (سهلة القطف). وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ[15]، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا[16] (على قدر ري الشاربين)، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا[17] (مستطاب كطيب الزنجبيل)، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا[18] (لسلاسة مائها). وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (لا يفنون) إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا[19]، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ (في الجنة)، رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا[20]، عَالِيَهُمْ (فوقهم) ثِيَابُ سُنْدُسٍ (حرير) خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ (غليظة)، وَحُلُّوا (حلي في أيديهم) أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا[21]. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا[22].

3- اصبر لحكم ربك ...

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا[23] فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ، وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ (من مشركي مكة) آثِمًا أَوْ كَفُورًا[24]. وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا[25]، وَمِنَ اللَّيْلِ

---

1 – تطرح هذه الآيات مسألة المشيئة مرة أخرى، مسألة الهداية والضلال، وقد عرضنا لها بتفصيل في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة السابقة.

فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا[26]. إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا[27] (شديدا: يوم القيامة). نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (ربطهم)، وَإِذَا شِئْنَا (أهلكناهم) بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا[28].

4- خاتمة: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا.

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا[29]، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ[(2)]، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا[30]. يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[31].

- تعليق

تندرج هذه السورة في أفق السورتين السابقتين من حيث اقتصارها على ذكر تفاصيل أخرى عن نعيم الجنة تبدو وكأنها مكملة لما ورد فيهما، وأن خطابها متجه إلى الذين يسمعون القرآن لأول مرة من الوافدين على المواسم والأسواق، ومن هنا يمكن أن نفهم ما يبدو وكأن هذه السور تكرر ما نزل قبلها في وصف الجنة والنار. والواقع أن القرآن يومذاك لم يكن مجموعا في مصاحف يمكن أن توزع على الناس في كل مكان وزمان، فيغني ذلك عن تكرار النزول. كلا، لقد كان ما نزل من القرآن من قبل تحفظه أقلية من الناس ويكتبه كتاب الوحي، ولم تكن هناك وسيلة لنشره وتعميمه. وما نزل من قبل كان يخاطب قريشا، وربما سمعوا منه شيئا ولم يسمعوا أشياء. أما في هذه المرحلة من مسيرة السيرة، مرحلة مخاطبة الوفود القادمة من جهات مختلفة إلى أسواق مكة ومواسمها فقد كان لا بد، لتعريفهم بالدعوة وبما جاء به القرآن، من قراءة بعض آياته أو سوره عليهم، وكان لابد من سور جديدة تعبر عما سبق أن نزل، مخاطبا قريشا، بما يناسب معهود أولئك العرب الوافدين، ولفت انتباههم إلى آيات من بيئتهم ومخايلهم. وهذه السور التي تجمع بين حديث الجنة والنار فيها ترغيب وترهيب كما لا يخفى. وهما سلاح الدعوة كما بينا سابقا.

2 - الزمخشري قوله: "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ" : إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة. "وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء ٱللَّهُ" : أي ما تشاءون طريق الطاعة إلا إذا أجبركم الله عليها.



70- سورة الكهف

- تقديم

ذكرنا قبل، في الاستهلال الذي صدرنا به المرحلة الرابعة من مسار التنزيل، أن النبي عليه السلام بدأ في الاتصال بالقبائل والانتقال بالدعوة، من التحرك على مستوى العلاقات الفردية إلى دعوة العشيرة، ثم الصدع بها في الأسواق والمواسم، وقلنا إن هذا الاتساع في مجال الدعوة قد أزعج قريشا مما جعلها تقرر مقاطعة الرسول وأهله ومحاصرتهم في شعب أبي طالب. وعندما انحل هذا الحصار رأينا الرسول عليه السلام يبادر إلى استئناف الدعوة خارج قريش، وذلك بالذهاب إلى الطائف. ومع أنه قوبل هناك بإساءة بالغة فقد اتجه في طائفة من أصحابه عامدين إلى سُوق عكاظ؛ قيل قبل دخوله مكة، وقيل بعد ذلك. ويبدو أن الخلاف قد توسع في صفوف قريش بعد انحلال حصارهم له وإلغاء عقد "الصحيفة"، ودخول النبي عليه السلام مكة، بعد زيارته الطائف، وحصوله على الحماية فيها بموجب حلف الجوار الذي منحه له المطعم بن عديّ، أحد أشراف قريش، فأخذت الدعوة المحمدية في الانتقال إلى وضع أحسن، وبدأ المستجيبون لها في التكاثر خاصة خارج مكة ومن الوافدين عليها وعلى مواسمها وأسواقها. وقد جاء رد فعل قريش هذه المرة على شكل محاولة الحصول من يهود يثرب (المدينة) على فتوى تكذب نبوءة الرسول عليه السلام.

ذلك ما انتهى إليه زعماء قريش في اجتماع عقدوه لهذا الغرض نقلته عدة روايات أشهرها النص الذي رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس، وقد ورد فيه ما يلي: "بعثت قريش النضْر بن الحارث، وعُقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدِما المدينة، فسألوا أحبار يهودَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال الراوي: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فرَوْا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب!

وسلوه عن رجل طوّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبيّ فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجلٌ متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضرُ وعقبة حتى قَدِما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهودَ أن نسأله، عن أمور، فأخبروهم بها؛ فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «أُخْبِرُكُمْ غدا بِمَا سأَلْتُمْ عَنْهُ»، ولم يستثن (لم يقل "إن شاء الله") فانصرفوا عنه، فمكث رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم خمس عشرة ليلة، لا يُحْدِث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعَدَنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزنَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم مُكْثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه، من الله عزّ وجلّ، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف"(1). هذا وقد وردت أخبارٌ -منسوبة كلها تقريبا إلى ابن عباس- تخص آيات معينة في السورة لا فائدة في ذكرها، فهي تجزئ وحدة السورة ولا تجدي نفعا، لا على مستوى "أسباب النزول" ولا على مستوى فهم السورة".

- نص السورة

1- مقدمة: لعلك باخع نفسك أسفا لكونهم لم يؤمنوا...

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا[1]، قَيِّمًا (معتدلا) لِيُنذِرَ بَأْسًا (عذابا) شَدِيدًا (ينزل بالكفار) مِن لَّدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا[2] (الجنة)، مَاكِثِينَ فِيهِ (في الأجر: الجنة) أَبَدًا[3]، وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا[4] (المشركون الذين جعلوا الملائكة بنات الله) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ، وَلَا لِآبَائِهِمْ. كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا[5]. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ (مُهلك) نَّفْسَكَ، عَلَى آثَارِهِمْ (بعدهم) إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا

1- أما عن السؤال الخاص بالروح فانظر سورة الإسراء، لاحقا.

بِهَذَا الْحَدِيثِ، أَسَفًا[6] (مهلك نفسك حزنا على عدم إيمانهم). إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ (في الدنيا) أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[7]، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا (يوم القيامة) صَعِيدًا جُرُزًا[8] (أرضا خاوية)(2).

2- قصة أصحاب الكهف : دليل على أن البعث واقع!

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ (قيل كتاب لهم، وقيل كلبهم) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا[9] (آية لا تفهم!)(3): إِذْ أَوَى (أولئك) الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ، فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا[10] (4)، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ (جعلناهم لا يسمعون = نائمين) فِي الْكَهْفِ (مدة) سِنِينَ عَدَدًا[11]، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ (أيقظناهم) لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ (هل الفتية، أم قومهم المشركون؟) أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا[12] (مدة السنين التي لبثوها نائمين في الكهف). نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى[13]، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ (منحناهم قوة وعزما) إِذْ قَامُوا (من نومهم) فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا[14] (لو دعونا إلها غيره). (قال بعضهم لبعض) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، لَوْلَا (هلا) يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا[15]. (قال ربهم، وقيل رئيسهم:) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ (اعتزلتم قومكم) وَمَا يَعْبُدُونَ، إِلَّا اللَّهَ (لم تعتزلوه بل بقيتم تعبدونه)، فَأْوُوا إِلَى

2- وجه اتصال هذه الآية مع التي قبلها ومع السياق عموما كما فهمه بعض المفسرين، كما يلي: "يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح، والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق واختبارهم. هم يكفرون ويتمردون، ومع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم. فأنت أيضاً يا محمد ينبغي أن لا تغرق في الحزن بسبب كفرهم، إلى درجة أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الذي أمرت بتبليغه". ونحن نرى أن هذا المعنى مناسب للظروف التي نزلت فيها هذه السورة، ظروف اشتداد محاربة قريش للنبي عليه السلام خصوصا بعد وفاة عمه أبي طالب، وهي السنة التي خرج فيها من الحصار، كما ذكرنا، وبذلك تكون هذه السورة فعلا من أوائل ما نزل بعد الخروج من الحصار.

3- أتظن أن أصحاب الكهف الذين سألوك عنهم، كانوا وحدهم من آياتنا التي تثير العجب. كلا، إن آياتنا كلها عجب! أليس من كان قادرا على خلق السموات والأرض بقادر أيضا على تزيين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان، ثم تحويلها بعد ذلك إلى مكان خال من كل شيء، وقادر كذلك على أن يحفظ أهل الكهف في كهفهم مئات السنين؟ وسنعود إلى هذا المعنى بعد قليل.

4- هذا معناه أن أولئك الفتية كانوا موحّدين وسط قومهم المشركين فاضطروا إلى الاختفاء في الكهف، وهناك دعوا...

الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا[16] (مقاما مناسبا وهو كما يلي) : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَزَاوَرُ (تميل) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ (تتركهم) ذَاتَ الشِّمَالِ، وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ (أي داخله)؛ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ[(5)]: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا[17]. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (بفناء الكهف)؛ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا[18] (لم يكن أحد يقدر أن يطلع عليهم، لهول المنظر) [(6)]. وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ (أيقظناهم) لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ: قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ (بدراهمكم) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا[19]. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ (يطلعوا على أمركم) يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا[20]. وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ (بهذه الطريقة أطلعنا عليهم قومهم)، لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ (كونه يبعث الموتى) حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا. إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ (يتنازع قومهم في أمرهم) فَقَالُوا (قال الذين لا يؤمنون بالبعث) ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ. قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ (أصحاب النفوذ فيهم) لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ (حولهم) مَسْجِدًا[21]. سَيَقُولُونَ (المتنازعون زمن النبي في عدد الفتية: كانوا) ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ، رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ! قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلَا تُمَارِ (تجادل) فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا (بما أوحينا إليك)، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا[22]. وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا[23]، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ[(7)]. وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، (إذا نسيت قول "إن شاء

5- المقصود بـ"الآية" هنا : هذا الوضع الفريد للكهف: فالشمس تشرق على بابه من جهة يمين الناظر إليه وتغرب على جهة يساره فهو، بالنسبة لمن في مكة، يقع في الشمال الشرقي من الكرة الأرضية، وبالتالي فأشعة الشمس تمر من يمين الباب مائلة غير عمودية من الصباح إلى المساء، والطقس داخل الكهف سيكون بذلك معتدلا، وهؤلاء الفتية كانوا داخله على مسافة (فجوة) من بابه. هذا الطقس المعتدل يهيئ "مرفقا" مريحا ومناسبا للنوم، فلا حر ولا برد يوقظ النائم.

6- قالوا في تفسير سبب الفزع منهم أن شعرهم وأظافرهم قد طالت فوق المعهود...

7- قيل: في هذا عتاب للنبي لأنه وعد قريشا، لما سألوه عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، قائلا : "سآتيكم بالجواب غدا"، دون أن يعلق ذلك بمشيئة الله.

الله" ثم تذكرت، فقلها) وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا (مما سئلت عنه) رَشَدًا[24]. وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا[25] (8). قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ! (لا أحد أبصر منه ولا أسمع منه) مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا[26].

3- اتبع ما ينزل عليك، ونضرب الأمثال لمصير الظالمين من قريش.

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا[27] (ملجأ)(9). وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (لا تطردهم كما يطلب منك المشركون ذلك). وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

8- اختلف المفسرون في تحديد معنى (ازدادوا تسعا) وقد هيمن على تفكيرهم ما نقل عن الإسرائيليات. وأقرب الأقوال إلى ظاهر النص أنهم ازدادوا تسع سنين بعد خروجهم من الكهف. غير أن الآية التالية مباشرة ("قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا") تبقي العدد الحقيقي مطلقا، لا يعلمه إلا الله، إذ يمكن أن يكون تسعة أيام أو شهور أو تسعة آلاف سنة!

9- يشرح الطبري هذه الآية مستقلة عما قبلها وما بعدها، والشيء نفسه فعل بالنسبة للتي تليها. أما القرطبي فيعتبرها "من تمام قصة أصحاب الكهف" ويفسرها بقوله: "اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف". وأما الرازي فيقول عن الآيات التالية لها، أعني قوله تعالى: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" الخ، يقول عنها: "وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل"، بينما يعتبر الزمخشري الآيتين منفصلتين، تجيب الأولى على ما كان مشركو مكة يطلبونه بقولهم للنبي "ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ" من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل"، وأما الثانية فترد على قول "قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله (ص): نحِّ هؤلاء الموالي، وهم: صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين"،"فنزلت: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ" واحبسها معهم وثبتها"... أقول (الجابري): جميع هؤلاء المفسرين -والآخرين تبع لهم- يقطعون الصلة بين ما ورد في القصة الخاصة بأصحاب الكهف، و ما جاء بعدها من حث الرسول على رفض طلب زعماء قريش طرد فقراء المسلمين والاتجاه بالعكس إلى رعايتهم والعطف عليهم والحذر من أن تغره زينة الدنيا التي يتمتع بها زعماء قريش الخ. أما نحن فنرى أن وحدة السياق في السورة يقتضي ربط قوله تعالى "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ" بقوله "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ"، واعتبار الآيتين بداية لفقرة توازن مقدمة السورة وبالخصوص منها قوله تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ (مهلك) نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ (بعدهم) إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ، أَسَفًا" الخ. وهكذا يكون السياق العام للسورة لحد الآن كما يلي: لا تحزن ولا تأسف لكون قريش يواصلون إعراضهم وتكذيبهم بالبعث، ولا تهتم بتحدياتهم. لقد أرادوا أن يحرجوك بفتوى اليهود الذين أملوا عليهم أن يختبروك بقصة أصحاب الكهف، وسنريهم كيف أن إحراجهم سيرتد عليهم (انظر ذلك في التعليق).

عَنْهُمْ (لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أصحاب المال والجاه) تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا، (أي لا تلب مطالب المشركين) وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا[28] (وبالغ في اتباع هواه). وَقُلْ : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (سورها)، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ (ماء غليظ ثقيل) يَشْوِي الْوُجُوهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا[29] (رفيقا). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا[30]. أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا[31] (متكئا).

أ–مزرعتان مزدهرتان: إحداهما بقيت، والأخرى خاوية على عروشها!

وَاضْرِبْ لَهُمْ (لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم على فقراء المسلمين) مَثَلًا : رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ (بستانين) مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا[32]. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا، وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا[33]. وَكَانَ لَهُ (لأحد الرجلين) ثَمَرٌ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا[34]. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ (تهلك) هَذِهِ أَبَدًا[35]. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا[36] (مرجعا). قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا[37]؟ لَكِنَّا (=لكن أنا) هُوَ اللَّهُ رَبِّي، وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا[38]. وَلَوْلَا (هلا) إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللَّهُ! لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا[39]، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا (على جنتك) حُسْبَانًا (صواعق) مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا[40] (أرضا ملساء فارغة من النبات)؛ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا[41]. وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ (فتلف وضاع)، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا[42]؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا[43]. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ (النصرة) لِلَّهِ الْحَقِّ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا[44] (عاقبة).

ب- الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ

وَاضْرِبْ لَهُمْ (لقومك يا محمد) مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ (فأنبت) فَأَصْبَحَ (نباته) هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ(10). وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا[45]. الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا[46]. وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ (تخلو منها الأرض) وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً، وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا[47]، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا (فيقول لهم): لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا[48]! وَوُضِعَ الْكِتَابُ (سجل الأعمال)، فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[49].

ج- أتتخذون إبليس وذريته أولياء؟! مصيركم ومصيرهم واحد: جهنم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (خرج عن طاعته)، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[50]! مَّا أَشْهَدتُّهُمْ (ما أحضرت إبليس وذريته لدى) خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ، وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ (إبليس وذريته) عَضُدًا[51] (حتى تقولوا إنهم لي شركاء). وَيَوْمَ يَقُولُ (الله): نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ! فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا[52] (واديا يهلكون فيه). وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ، فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا (واقعون فيها) وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا[53].

د- وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا[59].

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا[54]. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا، إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا (في انتظار) أَن تَأْتِيَهُمْ (منا) سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (هلاكهم في الدنيا) أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ (في الآخرة) قُبُلًا (عيانا)[55] (11). وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ:

10- شبه الدنيا بنبات جميل فيبس فتكسر ففرّقته الرياح، بمعنى لا شيء في الدنيا يدوم!

11- المعنى: لا شيء يمكن أن ينتظره المشركون بعد أن جاءهم القرآن إلا الهلاك في الدنيا كما كان حال عاد وثمود ... أو العذاب يوم القيامة حيث يرون العذاب عيانا.

وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا[56]. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ (فلأنهم اختاروا الضلالة على الهدى): إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (أغطية فلا يستطيعون) أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (صمما)، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا[57]. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ. بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (ملجأ)[58]. وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا[59].

4- موسى والخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى[12] لِفَتَاهُ (لخادمه) لَا أَبْرَحُ (لا أتوقف عن السير) حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ[13] أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا[60] (أمدا طويلا حتى أعثر على الرجل : الخضر). فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا (البحرين) نَسِيَا حُوتَهُمَا، فَاتَّخَذَ (الحوت) سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا[61] (مسلكا). فَلَمَّا جَاوَزَا (ذلك المكان) قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (تعبا)[62]. قَالَ (الفتى) أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ،

12- فتى موسى هو خادمه ومرافقه. وقد اختلف المهتمون بهذا الشأن منذ القديم حول من هو موسى المذكور في قصة الخضر، هل هو موسى رسول الله إلى فرعون أم غيره؟ وقد أورد كل من البخاري ومسلم حديثا عن ابن عباس يرد على من أنكروا أن يكون المعني في قصة الخضر هو موسى فرعون. وقد ورد في الحديث أن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لمْ يَردّ العلمَ إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدُنا خضِرٌ هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى: يا رب اجعل لي علماً أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتاً في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثمّ. ثم يورد الحديث بقية القصة كما هي في القرآن. ومهما يكن فقصة موسى والخضر يمكن النظر إليها على أنها تطرح مسألة الخير والشر (انظر التعليق).

13- اختلف المفسرون والرواة حول موقع مجمع البحرين هذا. ومن الأقوال القريبة إلى جغرافية عصرنا ما ذكره ياقوت في معجم البلدان من أنه "اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان". أما ابن عاشور الذي استند في استخلاص موقعه من أحداث القصة فيقول : "ومجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل، فإن موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلا، فعلمنا أنه لم يكن مكانا بعيدا جدا. وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له.

فإني نسيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيه إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ! وَاتَّخَذَ (الحوت) سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا[63] (يتعجب منه موسى وفتاه). قَالَ (موسى) ذَلِكَ (أي فقدنا للحوت) مَا كُنَّا نَبْغِ (لأننا بتتبع آثاره نصل إلى مطلبنا وهو العثور على الخضر)، فَارْتَدَّا (راجعين) عَلَى آثَارِهِمَا (يقصانها) قَصَصًا[64]. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا (هو الخضر)[(14)] آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا[65]. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا[66]؟ قَالَ (الخضر) إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا[67]! وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (خبرا)[68]؟ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا[69]. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ (لم تفهمه أو لم تستسغه) حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا[70] (أبين لك حقيقته بعد). فَانْطَلَقَا (على شاطئ البحر)، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا (اقتلع ألواحا من مقدمتها)! قَالَ (موسى) أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (منكرا)[71]! قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا[72]؟ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا[73]. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ! قَالَ : أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا[74]. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا[75]. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا[76]. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ (أصلحه)، قَالَ (موسى) لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا[77] (لطلبت أجرا من أهل القرية لأنهم لم يضيفونا). قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا[78]: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا[79]. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

14- اختلفوا حول الخضر من يكون؟ فقيل إنه لقب رجل من صلحاء أو أنبياء بني إسرائيل اسمه "بليا". وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقال بعضهم إن الخضر هو جرجس (مار جرجس) : وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب، وأنه ولد في فلسطين وعاش في القرن الثالث الميلادي، الشيء الذي يتناقض مع القول إنه كان في زمن موسى. وهناك قصص كثيرة عنه يكذب بعضها بعضا، خصوصا من الناحية التاريخية، وتتخللها الخرافة بقوة. والشائع أن قصة موسى مع الخضر يهودية الأصل، لكنها غير مذكورة في التوراة. وهذا ما يوهن من نسبتها إلى القصص الإسرائيلية مما أثار نزاعا بين علماء اليهود، بعضهم يعتبر موسى صاحب الخضر هو نفسه موسى فرعون وبعضهم يعتبره موسى آخر. أما في التراث الصوفي في الإسلامي فللخضر مقام كبير وقد نسجت حوله قصص وأخبار وكرامات الخ، لم نجد في القرآن الكريم ما يشهد لها بالصحة.

وَكُفْرًا[80]. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا[81]. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا[82].

5- ذو القرنين... وياجوج وماجوج.

وَيَسْأَلُونَكَ (السؤال الثاني بعد سؤالهم عن أهل الكهف) عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ[(15)]! قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا[83]. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا[84] (طريقا يوصله إلى مراده): فَأَتْبَعَ سَبَبًا[85] (سلك طريقا، في فتوحاته)، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ [(16)]، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا. قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ (هؤلاء بالقتل إن كانوا كافرين غير موحدين) وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا[86] (تأسرهم). قَالَ (ذو القرنين) أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا[87]. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا[88] (نأمره بما يسهل عليه القيام به). ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا[89] (طريقا أخرى)! حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا[90] (من لباس أو سقف بسبب طبيعة أرضهم). كَذَلِكَ (فعل الإسكندر في المشرق مثل ما صنع بأهل المغرب)؛ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ (من القوة) خُبْرًا[91] (علما). ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا[92]، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ (جبلين) وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا[93] (لغتهم مختلفة). قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ: إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ[(17)] مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ

---

15 - توجد فيما ذكره ابن إسحاق عن ذي القرنين عناصر تتطابق مع الإسكندر المقدوني: فقد نسبه إلى اليونان، وقال عنه إنه فتح مشارق الأرض ومغاربها. وأضاف ابن هشام: "واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه". وقد عرفه بعضهم -أعني ذي القرنين، بأنه "الملك اليوناني المقدوني". لكن ذلك مجرد تخمين! فما ذكرته عنه الآيات هنا لا ينطبق عليه تاريخيا.

16- اختلفوا في قراءة هذه الكلمة: بعضهم قرأها "حامية" (ابن مسعود وطلحة وابن عمر وابن عمرو والحسن). وقرأ ابن عباس: "حمئة". قالوا: "كان ابن عباس عند معاوية؛ فقرأ معاوية: حامية، فقال ابن عباس: حمئة. فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم توجه إلى كعب الأحبار؟ كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك تجده في التوراة" (أي حمئة).

17- "ياجوج وماجوج" عند جغرافيي العرب القدماء هم سكان ما بين اليابان والصين.

خرجا (ضريبة تأخذها منا) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا[94] (حاجزا يمنعهم من الوصول إلينا). قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا[95] (حاجزا حصينا). آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ (بقطع منه)؛ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبي الجبلين بالحطب والفحم) قَالَ انفُخُوا (لتشتعل النار فيها)، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا[96] (نحاسا مذابا). فَمَا اسْطَاعُوا (يأجوج ومأجوج) أَنْ يَظْهَرُوهُ (يصعدوا فوق السد لملاسته)، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا[97] (لصلابته). قَالَ (ذو القرنين) هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي (منع يأجوج ومأجوج من الخروج إليكم)، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (قيام الساعة) جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا[98] (البعث)– وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ (الخلائق) جَمْعًا[99]، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا[100]، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا[101]. (وتعود السورة إلى قريش لتخاطبهم): أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا (أنتم يا قريش) أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي (اليهود) مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ (يستعينون بهم)؟! إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا[102]. قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا[103]، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا[104]؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا[105]. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا[106]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا[107]، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا [108] (تحولا).

6– خاتمة: من كان يرجو لقاء ربه فليعمل صالحا ولا يشرك به أحدا

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي (لآياته وعجائب صنعه) لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ (ببحر آخر) مَدَدًا[109]. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا[110].

– تعليق

تشتمل هذه السورة على ست فقرات –حسب توزيعنا: مقدمة، وقصة أهل الكهف، والنهي عن الاستجابة لمطالب قريش وضرب الأمثال لهم، قصة موسى

والخضر، قصة ذو القرنين، خاتمة. فكيف نفهم هذه الفقرات كعناصر في سياق واحد تبرز من خلاله وحدة السورة.

لنقل أولا إن هذه السورة تقع ضمن المحور الذي تحدثت فيه السور الثلاث السابقة (الذاريات والغاشية والإنسان)، محور المعاد، وبالتحديد الوعيد لمشركي قريش، وبالتالي فسياق هذه السورة يقع على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية في إطار الظروف الصعبة التي عانى منها النبي (ص) من قريش أشد الأذى. وبما أنه عليه السلام لم يكن يلجأ، في الرد على هذا الأذى، إلى استعمال أي نوع من أنواع العنف المادي، والقرآن يدعوه باستمرار إلى الصبر، فقد كان من المناسب تماما أن يركز الخطاب القرآني هنا على جانب الوعيد الذي يتمثل في التأكيد على أن البعث واقع لا محالة، وأن جزاء الظالمين، وهم الملأ من قريش، هو جهنم خالدين فيها أبدا.

في هذا الإطار إذن يجب أن نقرأ فقرات هذه السورة بما فيها قصة أصحاب الكهف وقصة الخضر وقصة ذي القرنين. أما الفقرة الثالثة فهي تخاطب قريشا مباشرة بلغة الوعيد : بصيغة التهديد وضرب المثل.

في المقدمة تبدأ السورة بالتأكيد على المهمة التي كلف الله بها رسوله، فالقرآن الكريم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء صريح في التعبير عن هذه المهمة : لقد اختاره الله "لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا" ينزل بالمشركين، وإذن فلا موجب لأن يهلك الرسول نفسه أسفا على كونهم لم يؤمنوا بهذا القرآن، وعلى انهماكهم في متع الدنيا، ذلك لأن زينة الأرض إنما وضعها الله اختبارا لخلقه، ويوم القيامة تتحول إلى خواء، وحينها يجزى كل بعمله، فالذين عملوا صالحا في الجنة، والظالمون في النار.

من هذا المنظور تتصدى السورة للجواب عن أسئلة التحدي التي طرحتها عليه قريش، فتبدأ بقصة "الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب"، كما قال يهود "يثرب" الذي أمدوا قريشا بتلك الأسئلة. تنبه السورة أولا إلى أنه ليس ما حصل لهؤلاء الفتية هو وحده الأمر العجيب، فآيات الله كلها عجب. ولكن العجيب حقا في قصة هؤلاء الفتية هي أنها تقيم الدليل على أن الوعد بالبعث صادق. كانوا فتية مؤمنين بالله فاضطهدهم قومهم الذين يعبدون الأصنام فلجئوا إلى كهف ليختبئوا فيه، فناموا وأمد الله في نومهم فصار حالهم حال الموتى، سوى أن أجسامهم بقيت سليمة لم يصبها تفسخ ولا فساد، لأن موقع الكهف كان بحيث لا يتأثر بالبرد لأن الشمس كانت تمر عليه، ولا بحرارة الشمس لأن أشعتها كانت تمر مائلة لا تعطي من الدفء إلا ما يحفظ اعتدال الجو. هؤلاء بقوا في حالتهم تلك مدة طويلة، أزيد من ثلاثمائة سنة، انقرضت خلالها أجيال من قومهم، ثم أيقظهم

الله ويبعثهم من جديد على حالهم الأولى التي كانوا عليها. وعندما أرسلوا أحدهم ليأتيهم بالطعام من السوق، ووقع التعرف عليهم فاختلف الناس في أمرهم. أما قريش فيتساءلون: كم لبث هؤلاء الفتية في نومهم؟ وسيأخذ كل منهم في تقدير ذلك فتتباين تقديراتهم وكان ذلك فتنة لهم (تماما كما حكت السور السابقة عن تساؤل الكفار – حين يبعثون يوم القيامة– كم لبثوا في الدنيا؟).

وهكذا، فالقصة التي أراد منها مشركو قريش أن تظهر "كذب" محمد قد أقامت لهم "الدليل الملموس" على صدق الوعد بالبعث. فكما بعث الله أولئك الفتية سيبعث الناس وسيرى منكرو البعث والحساب ذلك بأنفسهم يوم القيامة. إذن فعلى الرسول أن لا يأسف على قومه لكونهم لم يستجيبوا له، ولا يغتر بما يعدونه من الاستجابة إذا هو طرد الفقراء من المسلمين من مجالسه، مدعين أنهم لا يمكن أن يجلسوا وراء مواليهم وعبيدهم أو جنبا إلى جنب معهم، كما أن على الرسول أن لا يعير اهتماما لما يتمتعون به من زينة الحياة الدنيا، بل عليه أن لا يفارق هؤلاء المؤمنين الفقراء وأن لا يفصلهم عنه ولا يضطرهم إلى اللجوء إلى البقاء في "كهوفهم" كما اضطر أولئك الفتية.

بعد هذا تضرب السورة أمثلة لقريش تبين لهم من خلالها أن لا شيء يدوم في الدنيا على حاله، وتدعوهم إلى تأمل حال رجلين لكل منهما مزرعة، كانتا في البداية على حال واحدة من الخصب وحسن المنظر الخ، غير أن أحدهما غلبه الزهو بمزرعته والاعتداد بنفسه فصار يمدح فيها ويرفع من شأنها مستصغرا مزرعة صاحبه مستعليا عليه، قائلا له: "أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا"[34]. "وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا[35]"، مضيفا "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا"[36] ناسيا أن الأحوال يمكن أن تنقلب ضده. أما صاحبه، وكان متواضعا، فرد عليه قائلا: لا تغتر فعسى أن يؤتيني ربي خيرا ويسلط على مزرعتك صاعقة تحرقها أو يغور الماء من بئرها ... وذلك ما حدث بالفعل فقد تلف ثمرها وأصبحت "خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا"، فندم صاحبها ولم يجد معينا ينقذه من المصيبة التي حلت به، فتمنى لو أنه لم يشرك بالله، ولكن بعد فوات الأوان.

ثم تنبه السورة قريشا إلى أن زينة الحياة الدنيا التي يتمتعون بها هي كزينة هذه المزرعة، هي كماء أنزل من السماء، فأنبتت الأرض به نباتا مخضرا مثمرا، وقد تأتي صاعقة –وكأنها على موعد معها– لتحول كل شيء فيها إلى هشيم تذروه الرياح. وهنا تذكرهم السورة بالموعد الذي قرره الله للبشر جميعا، يوم يعرضون على الله فيقول لهم: "لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا"[48]! حينها يكشف عن "الكتاب" الذي سجلت فيه أعمالهم ليطلعوا عليها وسيكون

رد فعلهم: "يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"[49]. لقد اتخذوا إبليس وليا لهم فأشركوا بالله، فاستنكر ذلك منهم وتبرأ، وقال لهم: نَادُوا شُرَكَائِي الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ! فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ". فألقوا جميعا في وادي جهنم...

ثم تتوجه السورة إلى النبي عليه السلام لتذكره بأنباء أهل القرى الذين قص القرآن مصائرهم. لقد أهلكوا جميعا لأنهم اختاروا الضلالة على الهدى وأصروا على ذلك حتى صار طبعا فيهم، فلم يكن لهم من مصير آخر.

هنا تنتقل السورة إلى قصة "موسى والخضر، لتبين للأول أنه ليس أعلم الناس (كما صرح بذلك في خطبة له) بل هناك من الناس من هو أعلم (كما ورد في الحديث... انظر الهامش رقم 11 أعلاه). وإذا كان ظاهر آيات القصة يفيد فعلا أن المسألة المطروحة هي مسألة "العلم" (الآيتان 65–66)، فإن وراء هذا الظاهر مغزى عميقا يطرح، لا العلم بكيفية عامة، بل يطرح مشكلة المعرفة على مستوى الخير والشر: أي الأشياء خير وأيهما شر؟ وهل ما نعتبره خيرا، أو شرا، هو كذلك بالفعل دائما؟

تنص الآيات السابقة، وآيات أخرى في غير هذه السورة، على أن ما يتمتع به المشركون فـ الدنيا من زينة الحياة هو شيء مؤقت، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة. وهذا قد يثير في ذهن المستضعفين الفقراء أسئلة من قبيل: وما الفائدة في أن نبقى نحن محرومين من زينة الدنيا، ونحن مؤمنون...؟ إن المسألة مسألة فلسفية تتعلق بمشكلة الشر في العالم. وفي نظرنا فإن قصة موسى والخضر جاءت في هذا المكان من السورة لتجيب عن هذا السؤال بالذات، بطريقة تمثيلية بيانية: نبي الله موسى، من أكبر الأنبياء والرسل، يقف مشدوها أمام أفعال مضرة ومحرمة يأتيها رجل، ثم يتبين لموسى أن وراء "الشرور" التي اقترفها هذا الرجل أمامه كان وراءها خير أكبر! فكيف نعرف الخير من الشر؟ وما الفائدة من وجود الشر في العالم؟

أما الفلاسفة فقد أجابوا عنها بلغتهم "البرهانية" كما يلي: إن ما يحدث من الشرور في العالم هو قليل بالنسبة للخير الكثير الحاصل فيه. وأن هذا الشر القليل ضروري للخير الكثير. فلو لم يكن هناك شر، لما كان هناك خير، لأن الخير إنما يعرف بالشر: "وبضدها تتميز الأشياء"... إن الخضر قد ارتكب أمام موسى أفعالا يصنفها الناس في خانة الشر، وذلك بناء على ما هي عليه في الظاهر: خرق سفينة مما يهدد ركابها بالغرق، قتل نفس بدون ذنب ارتكبته، عدم مطالبة المحسَن إليه (أو المسيء) بمقابل، أعني مجازاة سيئة بحسنة الخ . لكن لما شرح الخضر ما وراء تلك الأفعال السيئة في ظاهرها، بدا واضحا أن وراء الشر القليل خير كثير. فقصة موسى

والخضر، إذن، ليست دخيلة على السورة بل هي جزء من سياقها، إنها تسلية للفقراء والمستضعفين من أصحاب النبي (ص) الذين طالبته قريش بإبعادهم عنه. إن السورة تسليهم وتطيب خاطرهم بإفهامهم أن وجودهم كفقراء ضروري لوجود الأغنياء في هذه الدنيا، وأن الحال سينقلب رأسا على عقب يوم القيامة، حيث سيصبح وجود الكفار في النار ضروري لتمتع الفقراء المؤمنين في الجنة، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (الشورى 7-8)، وقوله : "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (هود 118-119)...

قصة موسى والخضر مثال يشرح مسألة وجود الشر في العالم، وهذا ما يفيده السياق الذي تنتمي إليه والذي تؤطره الآيتان التاليتان: قوله تعالى "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا7، وقوله: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا"28. أما ذكر خطبة موسى (النبي) ومحدودية علمه بالنسبة للامحدودية علم "الولي" الخضر. فلا أساس له هنا. وإنما يجد أساسه فيما يقول "العارفون" من المتصوفة، قبل الإسلام وبعده[(18)].

هذا، ولا تخرج قصة ذي القرنين عن السياق العام للسورة. لقد منحه الله حرية التصرف في أقوام غزاهم في جهة غروب الشمس فخيره بين أن يبيدهم وبين أن يبقي عليهم أحياء، وكذلك الشأن في أقوام غزاهم في جهة شروقها، فكان جواب ذي القرنين : "أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا"87. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا"88. ذلك يعني أن عقاب الظالم في الدنيا عقاب مؤقت، وليس نهائيا، بل سيبقى متبوعا بعقاب الآخرة، وكذلك ثواب المحسن في الدنيا ثواب مؤقت والثواب الدائم الكامل في الآخرة. هذا جانب من القصة. أما الجانب الآخر فهو اتجاه ذي القرنين شمالا ليطلب منه سكان إحدى المناطق أن يجعل حدا لقوم مفسدين بجوارهم يعتدون عليهم، فشيّد بين هؤلاء وأولئك سدا عظيما لا يستطيع المعتدون اختراقه، ولكنه لا يحميهم يوم تقوم الساعة، بل سيدك دكا وسيخرجون متدافعين ليوم الحساب وسيعرض الكافرون على النار عرضا ... هنا أيضا إشارة إلى أن "السدود" التي يقيمها الناس بينهم في الدنيا، لتفصل بعضهم عن بعض:

18- راجع في هذا الموضوع كتابنا : بنية العقل العربي، الفصل الرابع من قسم العرفـان : النبوة والولاية.

أغنياء/فقراء، أسياد/عبيد، مستكبرين/ مستضعفين الخ، جميع هذه السدود ستنهار يوم تقوم الساعة وستدك دكا، ليقف الجميع متساوين يوم الحساب!

وتأتي الخاتمة لتؤكد لقريش أن محاولتهم إحراج النبي بأسئلة وإثارة موضوعات كهذه لن تفيدهم في شيء، ذلك لأن الوحي يأتيه من خبير عليم لا حدود لعلمه: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا". وأكد لهم مرة أخرى أن محمدا لا يأتي بالقرآن من عنده حتى يعجزوه : "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".

71- سورة النحل

- تقديم

وردت حول بعض آيات هذه السورة جملة من الأخبار أكثرها لا يستقيم، إما لأنها تجزئ الآيات بصورة غير معقولة وإما لأنها تربطها بنوازل حدثت في المدينة.

من الأخبار التي تجزئ الآية الواحدة، بل العبارة الواحدة بعيدا عن المعقول، ما نسب إلى ابن عباس من أنه قال : "لما نزلت "أتى أمر الله" (أول عبارة في هذه السورة" وَغر أصحاب رسول الله (ص) (اغتاظوا)، حتى نزلت (بعدها مباشرة) "فلا تستعجلوه" فسكتوا". وفي رواية أخرى : "لما نزلت "أتى أمر الله"، قاموا، فنزلت "فلا تستعجلوه". وقال الزمخشري: "روي أنه لما نزلت "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ" (القمر: 1) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن! فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ" (الأنبياء: 1) فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به، فنزلت "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ" فوثب رسول اللــه صلى اللــه عليه وسلّم ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت "فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ" فاطمأنوا. وهذا الإخراج المسرحي لا يأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين السور الثلاث ولا ترتيبها. فسورة القمر رقم ترتيب نزولها 37، ووقت نزولها يقع حوالي السنة الخامسة/السادسة للنبوة. أما سورة الأنبياء وترتيبها 74 فقد نزلت بعد سورة النحل التي نحن ضيوف عليها ورتبتها 71، وهاتان السورتان نزلتا في أواخر السنة الحادية عشرة، أي بينهما وبين سورة القمر نحو ست سنين، فكيف يستقيم ما ذُكر في الرواية السابقة؟

هذا من جهة. ومن جهة أخرى نحن لا نتصور أن ينزل قوله تعالى "أتى أمر الله" منفردا، ثم يكون رد الفعل الذي تحدثت عنه الروايات، وهو رد فعل يستغرق وقتا، ثم ينزل قوله تعالى "فلا تستعجلوه" تسلية لهم وتهدئة! إن الأمر في نظرنا يتعلق بجملة واحدة: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ" بمعنى سيأتي، وقد استعمل الماضي لتأكيد مجيئه؛ وهذا النوع من التأكيد كثير في القرآن. وإذن فالمعنى: سيأتي أمر الله لا محالة، فلا تستعجلوه لأنه مقيد بأجل مسمى. (انظر هامش رقم 1 أدناه).

ومن الأخبار التي لا تفيد جديدا قول من قال: "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت إنه كذا وكذا.... فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت؟ فاقسم بالله جهد يمينه "لا يبعث الله من يموت" فنزلت الآية. والواقع أن هذه الآية نزلت بمعناها في سور سابقة. والبعث مدار الجدل في السور السابقة كما رأينا. يمكن أن تكون الحادثة قد وقعت فعلا، ومع ذلك فربطها بالآية كـ "سبب نزول" فيه تجاوز كبير.

ومن هذه الأخبار ما ذكر من "أن أعرابيا أتى النبي (ص) فسأله، فقرأ عليه: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا". قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه السلام: "وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم"، قال : نعم. ثم قرأ عليه ... وهو يقول نعم، حتى بلغ "كذلك يُتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون"، فولى الأعرابي. "فأنزل الله : "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون"، وهذا الخبر مفيد لا كسبب نزول بل من حيث إنه يشير إلى المخاطب، وهو "أعرابي"، وبالتالي يسمح بربط هذه الآيات بمرحلة الدعوة وسط الأسواق والقبائل.

ومن الأخبار التي وردت كـ "سبب نزول" لقوله تعالى: "وَإِذا بَدَّلنا آيَةً مَكان آيَةٍ" قول بعضهم : "قال المشركون: إن محمداً (ص) سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر، يقوله (أي القرآن) من تلقاء نفسه.. أما حول قوله تعالى: "وَلَقَد نَعلَمُ أَنَّهُم يَقولونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ"، فقدر رووا عن أحد الصحابة أنه قال: "كان لنا عبدان : أحدهما يقال له يسار والآخر جبر، وكانا صيقليين (يصقلان السيوف) فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما، وكان رسول الله (ص) يمر بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا : إنما يُعلَّم منهما"، فنزلت.

- نص السورة

1- مقدمة: أَتَى أَمرُ اللَّه فَلَا تَستَعجِلُوه..!

بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (الوحي من الله) (1) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[1]. يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ (جبريل) بِالرُّوحِ (بالوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ[2].

1- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية، وقد ذهب معظمهم إلى أن الآية عبارة عن تحذير بقرب قيام الساعة وهلاك المشركين، بينما ذهب آخرون إلى أن المقصود بـ"أمر الله" هو=

2- سخر لكم الأنعام، والخيل والبغال والحمير... والماء والشجر الخ

(والدليل على ذلك أنه هو الذي) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (بحيث لا يضطرب نظامها)، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[3]. (والذي) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ[4] (ينكر البعث ويجادل في وحدانية الله الخ)، وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[5]، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ (زينة) حِينَ تُرِيحُونَ (ترجعونها إلى مراحها بالعشي) وَحِينَ تَسْرَحُونَ[6] (تخرجون بها في النهار)، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ. إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[7]. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ (خلقها) لِتَرْكَبُوهَا، وَزِينَةً؛ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[8]. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (بيان الطريق المستقيم)، وَمِنْهَا جَائِرٌ (ومن الطرق ما هو غير مستقيم)، وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ[9] (إلى الطريق المستقيم). هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ، مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[10] (ترعون دوابكم). يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[11]. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[12]. وَمَا ذَرَأَ (خلق) لَكُمْ فِي الْأَرْضِ (من نبات) مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ،

"أوامر الله وأحكامه وفرائضه" الخ. وقد رد الطبري الذي ذهب مع الرأي الأول بأن أحدا لم يكن يستعجل فرائض الله وأحكامه، وقال آخرون إن الإشارة هنا إلى غزوة بدر، وهذا الرأي مثل الذي سبقه لا يستقيم لأن السورة مكية. ونحن نرى أن معنى هذه الآية تشرحه الآية التي بعدها مباشرة وهي قوله تعالى: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ (جبريل) بِالرُّوحِ (بالوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ: أَنْ أَنذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ[2]. والرابط بين عبارات الآيتين هو قوله تعالى بينهما "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، الشيء الذي يدل على أن موضوع الآيتين معا هو التوحيد وليس المعاد، والسورة كلها تدور حول التوحيد كما سنرى. وإذن فقوله "أتى أمر الله" معناه: سيأتي "أمر الله"، ينزل به جبريل على من يشاء من عباده، والمقصود هنا هو النبي عليه السلام. أما مضمون هذا الوحي "المعبر عنه هنا بـ"أمر الله" فيمكن استشفافه من ربط هذه الآية بظروف نزول هذه السورة، إذ يمكن القول إن له علاقة بلقاء الرسول عليه السلام في موسم السنة الحادية عشرة للنبوة بوفد من يثرب، أسلموا ووعدوه أن ينقلوا إلى قومهم رغبته في أن يكون الحليف الذي يبحثون عنه مقابل أن يتحالفوا معه ضد قريش، وضربوا معه موعدا في موسم العام القادم ليأتوه بالنتيجة، وقد وفوا بوعدهم فكانت بيعة العقبة الأولى (انظر التفاصيل في الاستهلال). ومن هنا يمكن قراءة الآية التي نحن بصددها على أنها نوع من البشارة بالحصول على حليف، مع الدعوة إلى الصبر. ولنا أن نتصور أن جميع السور التي ستنزل ابتداء من هذه السورة إلى آخر سورة نزلت بمكة، ستكون ذات علاقة بمسلسل التفاوض مع أهل يثرب وردود فعل قريش والاستعداد للهجرة للمدينة. إنه القسم من السيرة النبوية المتساوق مع مسار التنزيل في هذه المرحلة من تاريخ النبوة.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[13]. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا (سمكا)، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (لؤلؤا ومرجانا). وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ (تشق البحر بكم)، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (تسافرون بها بالتجارة)، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[14]. وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (كي لا تميل بكم)، وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا (طرقا)، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ[15]. وَعَلَامَاتٍ (تستدلون بها على الطريق)، وَبِالنَّجْمِ هُمْ (المسافرون) يَهْتَدُونَ[16] (إلى الاتجاه الذي يريدون). أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[17]. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[18]. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ[19].

3- الذين لا يؤمنون بالآخرة ينكرون نعم الله ويوم القيامة يخزيهم.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ (يدعوهم المشركون) مِنْ دُونِ اللَّهِ (أي الأصنام) لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ[20]، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ! وَمَا يَشْعُرُونَ (المشركون) أَيَّانَ يُبْعَثُونَ[21]! إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ[22]. لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ[23]. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[24]. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ (وهكذا يحملون ذنوبهم معهم) كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (يحملون كذلك)، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (يحملون)[25]. قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ (ضربها من أسسها بالزلازل وغيرها) فَخَرَّ (سقط) عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[26]. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ (تدافعون عنهم)؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ[27]، الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ (استسلموا)! (قالوا) مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ! (الجواب) : بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[28]؛ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَبِئْسَ مَثْوَى (مقام) الْمُتَكَبِّرِينَ[29]. وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا: (وعد أن) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ[30]. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ؛ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ[31]. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ (لهم): سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[32]. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ (بقيام القيامة)، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَمَا

ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[33]: فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[34]. وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ[2]! كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ! فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[35]؟ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (الأوثان)، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ[3]. فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ[36]. إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ[4] وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[37]. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (أن) لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ. (الجواب) بَلَى، (لقد صار البعث) وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[38]. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ (عند قيام القيامة) الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ[39]. إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ: أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ[40] (وكذلك البعث).

4- وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا (المقصود هنا الهجرة إلى الحبشة) فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[41]. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[42]. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ، (ولم

---

2 - الأشاعرة يقولون، إن ما صرح به هؤلاء، أعني قولهم "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ" الخ، إنما "قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين" بالقضاء والقدر، وبالتالي بالدين. وأما المعتزلة فيرون "أن هؤلاء كذبوا، وأنهم عبدوا غير الله بإرادتهم، وأن القرآن يرد عليهم بأن الله لم يجبرهم على ذلك بل استنكره وبعث الرسل تحذرهم منه".

3 - يفسر الزمخشري ذلك بقوله: "فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ" أي لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف. واللطف عند المعتزلة بمعنى التوفيق. فإذا كان الشخص لم يتخذ موقفا معاندا عن معرفة وإصرار فهو من أهل اللطف، أي يستحق أن يرشده الله إلى الهداية. أما إذا كان معاندا رافضا عن سابق معرفة وإصرار فهذا ليس من أهل اللطف ولا يستحق الهداية والتوفيق. فهو ممن حقت عليهم الضلالة.

4- "وأنه "لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ"، أي من اختار الضلالة. كان الرسول يحرص على أن يستميل إلى الإسلام كبراء قريش مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل الخ. طمعا في أنهم إن أسلموا تبعهم أهلوهم وأشياعهم. لكن هؤلاء كانوا رافضين الدعوة المحمدية عن "عقيدة"، إما بدافع من مصالحهم أو بدافع من الصراعات القبلية، فكان من المؤكد أنهم لن يؤمنوا. وبالتالي فلا فائدة من الطمع في هدايتهم. كما أنه من العبث مخاطبة من لا يسمع ولا يريد أن يسمع.

نرسل ملائكة كما تطلب قريش) فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (اليهود) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[43]! (أرسلنا الرسل) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (الكتب)، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ (القرآن) لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[44]. أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ[45]؟ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ (في أسفارهم للتجارة)؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ[46]، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ (متخوفين بسبب ما رأوه من هلاك الذين قبلهم)، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[47] (ومع ذلك لم يفعل فهو بفضل ترك الفرصة لهم كي يؤمنوا ويتجنبوا العذاب). أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (له ظل)، يَتَفَيَّأُ (ينشر) ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (صاغرون)[48]؟ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ، وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[49]. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[50]. وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ[51]. وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا (الطاعة دائما) أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ[52]. وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ[53] (ترفعون أصواتكم: تدعون). ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ: إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ[54]! لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ! فَتَمَتَّعُوا (يا هؤلاء) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[55]. وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ (أنها تضر ولا تنفع: الأصنام) نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ! تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ[56]! وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ[57] (يخصون أنفسهم بالذكور، لأنهم لا يحبون الإناث)! وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[58] (حزين محبط). يَتَوَارَى (يختفي) مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ (يتساءل مع نفسه: أيحتفظ بما بشر به: المولودة) عَلَى هُونٍ، أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (محتار بين أن يبقي عليه متحملا الهوان، وبين أن يدفنه حياً: يئده)؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[59]! لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ[(5)]، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[60]. وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ[61]. وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ، وَتَصِفُ (تقول) أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ: أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى. لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ[62] (متروكون فيها).

5- "صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ".

5- فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، فردوا إلى الفقراء حقهم ...

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا (رسلا) إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[63] (في الآخرة). وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ (من أمور الديانات) وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[64]. وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[65] (آية تدلهم على أنه كما أحيا الأرض بعد موتها يحييكم بعد موتكم). وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ (المأكول) وَدَمٍ، لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ[66]. وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[67] (6). وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ[68] (يبنون لك من أماكن)، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا (بسهولة): يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[69] (7). وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ (وأنتم في صحة جيدة)، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ (يمد في أجله) إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ (الشيخوخة المتقدمة) لِكَيْ لَا يَعْلَمَ (وهو في أرذل العمر) بَعْدَ عِلْمٍ (بعد أن كان ذا علم) شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ[70] (8). وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ(9)، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ. أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ[71] (10). وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (من نوعكم

6- معنى الآية: حياتكم متوقفة على ما خلقنا لكم مما تتغذون، أنتم عندما تجوعون تكونون قريبين من الموت، ثم تعود فيكم قوة الحياة عندما تأكلون، فكذلك شأن البعث!

7- المعنى: قد تمرضون فتشربون العسل فتشفون، والعسل من النحل الذي خلقه الله ويسر له سبيل إنتاج العسل... فكذلك البعث نهاية سلسلة من تدبير الله.

8- المعنى: أن الله يتوفاكم وأنتم قادرون على الحياة، ومنكم من يترك حيا وهو في أرذل العمر، غير قادر على الحياة، حياة عادية، يصاب بخرف الشيخوخة، فا يتذكر ولا يعرف...

9- يميزون بين المال والرزق. فالمال هو الثروة، استهلكها صاحبها أو ترك منها، أما الرزق فهو ما منه كان معاشه. وبالجملة فالرزق هو ما انتفع منه صاحبه من ماله أو ما أعطيه. ومنه عبارة "أرزاق الجند": أي ما يعطونه ليأكلوا، ويدخل فيها الميرة والدراهم.

10 - قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مواليكم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا، فضل ما رزقتموه، عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم. كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي (ص) يقول : "إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون".

الإنساني) أَزْوَاجًا (ذكورا وإناثا)، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ[72] وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ[73]! فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ[(11)]، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[74].

6- يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ[83].

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ (لا يملك شيئا)، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا (كالإنسان) فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[75]. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ (ثقيل) عَلَى مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ! هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[76]. وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[77]. وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[78]. أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ، مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[79]. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا (خياما) تَسْتَخِفُّونَهَا (خفيفة) يَوْمَ ظَعْنِكُمْ (سفركم) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ[80]. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا (مخابئ)، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ (قمصانا) تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ (دروعا)، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ[81]. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[82]. يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ[83].

7- وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ!

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (هو نبيها)، ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (بالاعتذار)، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[84] (لا نقاش معهم). وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ

11- قال الرازي: "يحتمل أن عبدة الأوثان كانوا يقولون: إن إله العالم أجل وأعظم من أن يعبده الواحد منا، بل نحن نعبد الكواكب أو الأصنام، وهي عبيد الإله الأكبر الأعظم. والدليل عليه العرف، فإن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فكذا ههنا. فعند هذا قال الله لهم: اتركوا عبادة هذا الأصنام والكواكب ولا تضربوا الله الأمثال التي ذكرتموها.

فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ، وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ[85] (يمهلون). وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ؛ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ (فردوا عليهم) إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ[86]. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ (استسلموا لحكمه) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ[87] (لم يجدوا ما كانوا يدعون من أن آلهتهم ستشفع لهم). الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ[88]. وَ(اذكر) يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (هو نبيهم). وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ! وَ(قد) نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[89].

8- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ...

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ (الزنا) وَالْمُنْكَرِ (ما هو غير مقبول دينا وعقلا) وَالْبَغْيِ (الظلم)، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[90]. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ (بقسمكم بالله) إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ (ما تعهدتم به بالقسم) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (حيث حلفتم به)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[91]. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا(12)، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (فسادا وخديعة) بَيْنَكُمْ (بسبب) أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ (قبيلة أو مجرد جماعة) هِيَ أَرْبَى (أقوى) مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[92]. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[93] (13). وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ (بصدودكم) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[94]. وَلَا تَشْتَرُوا

12- جمع نكث، من نكث العهد إذا لم يوف به. يقال: كانت بمكة امرأة تغزل في الصباح لزبون بسعر. فإذا جاءها بعده زبون بسعر أغلى نقضت عهدها ورمت بما غزلته وبدأت تغزل للزبون الجديد، وإذا جاء ثالث فعلت الشيء نفسه، وهكذا يكون عملها سلسلة من نكث العهد، بدون فائدة لها ولا لغيرها. وكانوا يفعلون مثل هذا يتحالفون مع جماعة فإذا جاءت أخرى أقوى نكثوا عهدهم مع الأولى وتحالفوا مع هذه. وهذا ينطبق أكثر على القبائل.

13 – قال بعضهم معنى : "يضل من يشاء" : يضل الله الشخص الذي شاء الضلال واختاره، مثل الذي اختار عبادة صنم معين. أما الزمخشري فيقول: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً"، حنيفة مسلمة، على طريق الإلجاء والاضطرار، طريق ممارسة القسر والقهر عليكم وهو قادر على ذلك، "وَلَـــكِن" بالحكمة اقتضت أن يُضل "مَن يَشَاءُ" وهو أن يخذل مَن علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه، "وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ" وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان.

بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، إِنَّمَا (إن ما) عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[95]. مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ[(14)]. وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[96]. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[97].

9 – وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ!

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[98] (المطرود). إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ (نفوذ) عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[99]. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ (يجعلونه وليا عليهم) وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ (بالله) مُشْرِكُونَ[100]. وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (حكما أو معجزة بدل أخرى، من نبي إلى آخر)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[101]. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ (جبريل) مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[102]. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ! لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهَذَا لِسَانٌ

14– قال الرازي في هذه الآية: "اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى (رقم 91) عن نقض العهود والإيمان على الإطلاق، حذر في هذه الآيات فقال: "وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ"، وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الإيمان، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، فلهذا المعنى قال المفسرون: المراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول الله (ص)عن نقض عهده، لأن هذا الوعيد هو قوله: "فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا" لا يليق بنقض عهده قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله (ص) على الإيمان به وشرائعه. وقوله: "فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا" مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية، فإن من نقض عهد الإسلام قد سقط عن الدرجات العالية ووقع في مثل هذه الضلالة، ويدل على هذا قوله تعالى: "وَتَذُوقُوا السُّوءَ" أي العذاب: "بِمَا صَدَدتُّمْ" أي بصدكم: "عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد. ثم أكد هذا التحذير فقال: "وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" يريد عرض الدنيا وإن كان كثيراً، إلا أن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون، يعني أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيراً من خيرات الدنيا، فلا تلتفتوا إليه. لأن الذي أعهد الله تعالى على البقاء على الإسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة". وأضاف الرازي "ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال:"مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ" الخ. قلت (الجابري): وهذا الذي يقوله الرازي ينتهي بأن المقصود هو طيبات الآخرة، وبالتالي فالمفكر فيه عنده كان خاليا من استحضار ظروف نزول هذه السورة. أما نحن فنرى أن الخطاب هنا يستحضر وعد وفد يثرب للرسول، وقد شرحناه أعلاه، ويحذرهم من أن ينكثوا بما تعهدوا به للنبي (ص) بتأثير الحملة التي كان يقوم بها كبار قريش، وكان فيها إغراء وتهديد.

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ[103]. (15) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[104]. إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ[105]. مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ(16)، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[106]. ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ[107]. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ[108]. لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ[109]. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا، مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[110] (17) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ[111].

---

15 – عن ابن عباس قال: كان رسول الله (ص) يعلّم قيناً بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله (ص) يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ" الآية. وعن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان: أحدهما يقال له: يسار، والآخر: جبر، وكانا صيقليين (يشحذان السيوف)، فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما، وكان رسول الله (ص) يمرُّ بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا: "إنما يتعلم منهما".

16 – قيل: إنّ ناساً من أهل مكة أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام تحت التعذيب، فأجروا كلمة الكفر على ألسنتهم وهم معتقدون للإيمان، منهم عمار، وأبواه ياسر وسمية وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجىء (أدخل) في قبلها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً. فقيل يا رسول الله، إن عماراً كفر، فقال: "كلا، إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه". فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل النبي (ص) يمسح عينيه وقال: "ما لك ! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت". ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا. ذكر القرطبي هذه الرواية عن ابن عباس وأضاف إليها روايات ليست ذات بال ثم خلص إلى النتيجة التالية. قال: "لما سمح الله عز وجل بالكفر به، وهو (نقض) أصل الشريعة، عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" (حديث). ثم أخذ هذا المبدأ بعد ذلك يطبق على حالات معينة...

17 – القرطبي: "قيل نزلت في ابن أبي سرّح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم... وهذا لا يستقيم إلا إذا قلنا إن هذه الآية نزلت في المدينة وبعد فتح مكة وهذا التاريخ لا يستقيم مع الطابع المكي للسورة. أما إذا احتفظنا لهذه الآية بموقعها في سورة النحل المكية فإن الإشارة هنا ستكون للمهاجرين إلى الحبشة، أو يكون معنى "هاجروا" هنا: أرغموا على ترك الإسلام، كما اضطر المهاجرون إلى الحبشة على ترك بيوتهم وأولادهم.=

10- إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

وضرب الله مثلا: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ (مثل أهل مكة)، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ[112] (عندما جاءهم القحط). وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ (القحط) وَهُمْ ظَالِمُونَ[113]. (هذا المثل ضرب لأهل البادية مرتادي الأسواق، والخطاب التالي لهم) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[114]. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[115]. وَلَا تَقُولُوا، لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ، الْكَذِبَ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ[(18)]. إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ[116]؛ (الكذب) مَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[117]. وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ[(19)]، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[118]. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ (كبدو العرب)، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا، لَغَفُورٌ رَحِيمٌ[119]. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ (جد العرب) كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ، حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[120]؛ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[121]. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ[122]. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ : أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[123]. إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[124] [(20)].

يؤيد هذا المعنى قوله: "مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا"، فالهجرة بعد الفتنة ثم الرجوع إلى الإسلام والجهاد والصبر على أذى المشركين أنسب هنا من قولهم إن فلانا ارتد ولحق بالمشركين. ويمكن أن يكون المقصود من هاجر من المسلمين قبل هجرة النبي كما سنرى.

18 - لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام في الأشياء التي تصفونها بهذين الوصفين من غير علم، تنسبون ذلك إلى الله، إنه افتراء منكم عليه. الخطاب للبدو من العرب.

19 - في سورة الأنعام، وهذا دليل على أنها كانت الأسبق نزولا.

20 - وجه اتصال هذه الآيات ببعضها واضح خصوصا إذا استحضرنا ما قلناه قبل من كون الخطاب هنا يندرج في إطار الدعوة وسط القبائل في الأسواق والمواسم. فبعد أن ضرب لهم مثلا بمشركي مكة وكفرهم بنعم الله عليهم (عائدات الحج والتجارة) التي أبرزها غير ما مرة إضافة إلى تكذيبهم رسول الله إليهم... اتجه (الخطاب) إلى أهل القبائل قائلا: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، حَلَالًا طَيِّبًا، وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"، ثم بين لهم الحلال من الحرام في الأكل، وأشار إلى ما حرم على بني إسرائيل وما فرض عليهم يوم السبت كان أشد وأثقل لأنهم ظلموا، وبعد أن أشار إلى أن من أكلوا المحرمات أو حرموا الحلال من العرب=

12- خاتمة: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم (في المواسم والأسواق والقبائل) بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[125]. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ[126]. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش لكونهم لا يؤمنون) وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ[127]. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ[128].

- تعليق

قد يلاحظ أن هذه السورة تكرر كثيرا مما سبق في السور السابقة... وإضافة إلى ما قلناه من قبل عن التكرار في القرآن عموما من حيث إن الأمر يتعلق بخطاب دعوة نزل مفرقا على مقتضى الأحوال خلال أزيد من عشرين سنة، فإنه من الضروري إبراز أن المخاطبين هنا ليسوا سكان مكة وحدهم، بل هم في الغالب أناس جدد، هم القبائل العربية التي ترتاد الأسواق في مكة وقريبا منها وكانت كثيرة، في وقت كان النبي عليه السلام قد استأنف الدعوة فيها. وكما بينا في التقديم الذي خصصناه للسورة السابقة (الكهف) فقد كان من نتائج اتجاه الرسول عليه السلام إلى القبائل أن عمدت قريش إلى الاستعانة بيهود يثرب فطلبت منهم وسيلة لإحراج النبي وإظهار ما يدعونه من أنه إنما يأتي بالقرآن من عنده وأنه ليس من الله، فكان أن أمدهم اليهود بأسئلة اختبارية، وقد جاء الجواب عنها عكس ما أرادته قريش، لقد جاء الجواب

قبل إسلامهم لن يؤاخذوا بذلك لأنهم فعلوا ذلك عن جهل، ذكرهم بإبراهيم عليه السلام جد العرب وأنه كان "أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ، حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، أي كان أصل هذا الدين، "شيخ الأنبياء" ملازما لعبادة الله موحدا لم يشرك بالله أحدا بل ثار على الأصنام ... وأن الله أوحى إلى محمد باتباع دين إبراهيم، وربما سألوه عن يوم السبت عند اليهود، فجاء الجواب: وأن "يوم السبت" جعل يوما دينيا خاصا باليهود كلفوا فيه بثقيل العبادة والأعمال، وهم مختلفون في تبرير ذلك وتحديده، والله سيحكم بينهم...

2- فسر معظم المفسرين هذه الآية بأحداث ومناسبات وقعت بعد الهجرة إلى المدينة والسورة مكية. وفي رأينا أنه ليس هناك ما يبرر هذا النوع من التفسير فالسورة مكية وسياق الآية منسجم مع ما قبلها وما بعدها والخطاب واقع تحت قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"... ثم إن احتمال حدوث نزاع بين المسلمين ومشركي مكة أو مرتادي المواسم والأسواق احتمال قائم.

عنها لفائدة الدعوة فكانت مادة لنشر الدعوة فضلا عن كونها أجابت اليهود بما يثبت نبوته.

كانت السورة السابقة إذن نوعا من "انقلاب السحر على الساحر"، وبالتعبير القرآني "يكيدون وأكيد كيدا". أما في هذه السورة فقد اتجه الخطاب، لا إلى قريش التي لم يعد الأمل في استجابتها للدعوة بعد أن أصرت سنين على الإعراض عنها وبات من الصعب جدا على رجالها التراجع والاعتراف بالهزيمة، بل اتجه الخطاب القرآني هنا في سورة "النحل" إلى من هم من عالم "تربية النحل"، إلى العرب سكان الأرياف والبادية. يتجلى ذلك واضحا من اتجاه الخطاب ومفرداته. فالشهادات التي تقدمها السورة في موضوع أركان العقيدة الإسلامية الثلاثة (النبوة والمعاد والتوحيد)، مأخوذة في الأغلب الأعم من عالم الأرياف والبادية : سخر لكم الأنعام، والخيل والبغال والحمير... والماء والشجر الخ، وقد تكررت في السورة مرارا.

ومما تجدر ملاحظته أن السورة التي نزلت مباشرة بعد سورة "الحجر" -التي جاءت بالأمر بالدعوة في أواسط القبائل ("اصدع بما تؤمر") قبل الحصار قد سميت بـــ "سورة *الأنعام*" (إشارة على عالم القبائل) وقد وردت فيها أحكام تتعلق بحياة القبائل: الحلال والحرام، الماشية، عادات العرب الخ. واليوم بعد أن استأنف الرسول الدعوة في الأسواق، بعد الحصار، تأتي هذه السورة التي بين يدينا وهي تحمل اسما يحيل إلى عالم الأرياف والبادية "النحل"، وتتضمن أحكاما مؤكدة ومكملة لما ورد في السورة السابقة (يتعلق الأمر بصفة خاصة بالعدل والإحسان، وتجنب الفحشاء والمنكر والبغي، والوفاء بعهد الله، وعدم نقض الأيمان أو التلاعب بها...)، كما ذكرت قضايا مطروحة في البادية خاصة، قضية المساواة في الرزق، الشيء الذي ليس من مجال الملأ من قريش الذي يكسبون ثروتهم من عائدات الحج والتجارة، وتسخير الموالي والعبيد. وأخيرا تتميز هذه السورة بخاتمتها التي تناسب الدعوة في البادية والأرياف: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[125]. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[126].

وهنا تستعيد الخاتمة مضمون المقدمة: إن قوله تعالى في الخاتمة: وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش)، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ[127]. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ[128]، يذكرنا بقوله في بداية السورة: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (بمعنى نصر الله باستجابة وفد يثرب) فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ". ولا بد من الإشارة إلى أن الدعوة إلى الصبر قد تكررت في هذه السورة خمس مرات: في الآيات 42، 96، 110، 127. هذا له مغزاه: هناك فرج آت فلا بد من الصبر...

72- سورة إبراهيم

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة شيء على مستوى مرويات أسباب النزول غير روايات ذكرها الطبري حول قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَى إلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ" (الآية 28). من هذه الروايات واحدة جاء فيها أن الخليفة عمر بن الخطاب سئل عن المقصود بهذه الآية فأجاب: "هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية. فأما بنو المغيرة فكُفيتمُوهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين". وقد ذكر الطبري رواية أخرى تقول إن علي بن أبي طالب سئل السؤال نفسه فأجاب: "بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمُتّعوا إلى حين". وقد أخذ بهذا التفسير اعتمادا على تلك الروايات - نقلا عن الطبري- بعض المفسرين مثل الزمخشري من المتقدين، والألوسي من المتأخرين.

وواضح أن هذا النوع من التفسير ذو بعد سياسي واضح، إنه والروايات التي اعتمدها ينطوي على قدح مغرض في بني أمية، وهو شيء غير مستقيم مع الآية وغير موضوعي. ذلك أن السورة التي وردت فيها هذه الآية مكية، أما غزوة بدر فقد وقعت في العهد المدني. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس من المستساغ أن يقدح عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في بني أمية وأن يساويا بينهم وبين بني مخزوم في وقت لم يكن فيه بنو أمية قد برزوا بعد كطرف في الفتنة التي حدثت عقب مقتل عثمان. أما قتلى بدر فأغلبهم أو على الأقل أهمهم كانوا فعلا من بني مخزوم أما بنو أمية فمعروف أن أبا سفيان عميدهم -والذي كان يرأس قافلة قريش التجارية، التي كانت عائدة من الشام ومستهدَفة من المسلمين بقيادة الرسول في بدر- لم يحضر غزوة بدر فقد تلافى اللقاء مع المسلمين وعاد إلى مكة من طريق أخرى. هناك عنصر آخر وهو أن موقف أبي سفيان وقومه من الدعوة المحمدية لم يكن في مستوى سوء موقف أبي جهل والمخزوميين. فقد سبق أن رأينا أبا سفيان يرد على أبي جهل في تعرضه واستهزائه بالرسول، مدافعا عن الرسول لكونه من بني عبد مناف القبيلة التي يلتقي عندها بنو هاشم وبنو أمية.

أما أن يقول عمر بن الخطاب في بني أمية ما تنسبه له الرواية السابقة، وهو خليفة، فهذا مما لا يستساغ ولا يستقيم، فقد كان عدد من الأمويين عمالا له، ومنهم معاوية الذي كان عاملا على الشام. وإذن فالرواية التي اعتمدها الطبري رواية موضوعة بدون شك، ولا بد أن تكون قد وضعت أثناء الصراع بين الأمويين والعباسيين، الصراع الذي تحالف فيه هؤلاء مع العلويين: فيكون الجمع بين عمر وعلي في رواية واحدة ضد الأمويين مفهوما زمن الطبري، العصر العباسي...

أما نحن فنرى أن ظروف نزول هذه السورة، ظروف الدعوة في القبائل والأسواق، تقتضي أن الخطاب الموجه إلى النبي عليه السلام في هذه الآية: "ألم تر..." موجه كذلك إلى أهل القبائل الذين كان يدعوهم النبي إلى الإسلام. فعندما كانت الدعوة المحمدية محصورة في مكة كان خطابها موجها إلى قريش يدعوهم إلى الاعتراف بما منحهم الله من نعم وما خص به مكة مسكنهم "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" (قريش 3-4). أما عندما رفضوا الدعوة وأصروا على محاربتها وكفروا بالنعم التي أنعم الله بها عليهم فإن "الأمن" من الجوع ومن الخوف أخذ ينقلب إلى سنوات من الجفاف وإلى وعيد. أضف إلى ذلك بدء انتشار الإسلام بين العرب مما أخذ يقلل من هيبة قريش وسطوتها، وهكذا "أحلوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ" (دار الكساد، لا نعمة فيها).

لقد توقفنا بعض الشيء مع الرواية التي وضعت للآية المذكور لننبه إلى أن التفسير والحديث قد تأثرا كثيرا بالصراعات السياسية. وأن "فهم القرآن" لم يكن مقلوبا بسبب اتباع المفسرين ترتيب المصحف دون ترتيب النزول فحسب، بل كان مقلوبا كذلك من حيث إن المفسرين كانوا يعتمدون -عن قصد أو عن غير قصد- روايات وتأويلات بعدية، متأثرة بالصراعات التي حدثت في ظروف بعيدة كل البعد عن العصر النبوي.

- نص السورة

1- مقدمة: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ(1) بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[1]: اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ

1- سنناقش هذه المسألة في التعليق.

مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ(2) فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.(3) وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

<u>2- قال الكفار لرسلهم سنخرجكم من أرضنا إن لم تعودوا [illegible]</u>

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ (بني إسرائيل) مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ(4) وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ (ما كان فيها من نعم ومحن)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ

2- "زعمت طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمداً رسول الله، لكنه مبعوث إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين: الأول: أن القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب، وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربيا لم يكن القرآن حجة عليه. الثاني: قالوا: إن قوله: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ" (إبراهيم: 4) المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط. وقد أجاب الرازي الذي أثار هذه المسألة بما يلي، قال: لم لا يجوز أن يكون المراد من "قَوْمِهِ": أهل دعوته، وليس أهل بلده. والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى: "قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً" (الأعراف: 158) بل إلى الثقلين، لأن التحدي كما وقع مع الإنس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى: "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً" (الإسراء: 88).

3- سبق أن شرحنا الخلاف في هذا الموضوع بين أهل السنة والأشاعرة من جهة، والمعتزلة من جهة أخرى. وبناء عليه قال الزمخشري في معنى هذه الآية: "لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن. ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان". أما نحن فنرى أن ظروف نزول الآية، ظروف الاتجاه بالدعوة إلى العرب في المواسم والأسواق يسمح بافتراض أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى هؤلاء العرب، أعني قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"، وبالتالي يكون المعنى "مَنْ يشاء الهداية من العرب" ومن يشاء الضلال منهم"، وذلك في مقابل قريش الذين قالت فيهم الآية السابقة لهذه: "الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ <u>وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ</u>".

4- مما تنبغي ملاحظته أن هذه أول مرة في القرآن المكي يتجه موسى إلى قومه بهذه الصيغة التي تماثل خطاب الرسول محمد عليه السلام إلى قومه. لقد كان خطاب موسى من قبل موجها إلى فرعون في إطار قصته معه كرسول من الله إليه، ولم يرد من قبل خطاب إلى موسى مستقل عن هذه القصة وموجها لبني قومه مباشرة. أما في القرآن المدني فالأمر يختلف كما سنرى. ومن هنا يمكن القول إن مناسبة نزول هذه الآية لها علاقة بانحياز اليهود في المدينة إلى قريش من خلال الأسئلة الثلاثة التي أوصوا قريشاً بطرحها على=

شَكُور[5]. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ (يستبقون) نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ[6]. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ (أعلمكم) لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ[7]. وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ[8]. أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ (ليعضوا عليها من شدة الغيظ)، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ[9]. قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ، فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؟ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[10]. قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ[11]. وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ[12]. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ[13]. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ[14]. وَاسْتَفْتَحُوا (استنصر الرسل بالله على خصومهم) وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[15]: مِنْ وَرَائِهِ (أمامه) جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ[16] (قيح ودم) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ (أمامه) عَذَابٌ غَلِيظٌ[17].

3- الَّذِينَ كَفَرُوا: أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ[18]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[19]؟ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ[20]. وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا (يوم القيامة) فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ (في الدنيا) تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا (هنا في الآخرة) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ[21] (ملجأ). وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ

النبي عليه السلام بغرض إحراجه، الأسئلة المتعلقة بأهل الكهف وذي القرنين (سورة الكهف) وحقيقة الروح.

لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ (بمغيثكم) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[22]. وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ[23].

4- أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ!

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ[24] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا! وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[25]. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ[26]. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ[27]. أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[28] (دار الكساد، لا نعمة فيها) (5): جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ[29]. وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا (قريش تضل الناس : العرب) عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ[30]. قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا (حديثا: من العرب) يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ[31] (ولا تبرع). اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ[32]، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[33]. وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[34].

5- إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ[35] (أبعدنا من عبادتها). رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[36] (6). رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي (من زوجته هاجر وإسماعيل) بِوَادٍ

5- مع أن هذه الآية يطبعها العموم فلا شيء يمنع من أن يكون كفار قريش من بين عناصر هذا العموم، أما جعلها خاصة بفريق من مشركي قريش، هم الذين سيقتلون في غزوة بدر فلا شيء يبرره لا على مستوى اللفظ ولا على مستوى السياق (انظر التقديم).

6- اختلف المفسرون في هذه الآية. قال الطبري: "ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنك غفور لذنوب المذنبين الخطائين بفضلك، رحيم بعبادك تعفو عمن تشاء=

غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (مكة) عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ (وفي مقدمتهم العرب القبائل) تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[37]. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ[38]. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ[39]. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ[40]. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ[41].

6- وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ...

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ (أهل مكة)، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ[42]. مُهْطِعِينَ (مسرعين) مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ[43]. وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا (مشركو مكة) رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ! (وجوابهم:) أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ[44](من الدنيا)؟ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ[(7)] الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ

منهم". وقال الزمخشري: "أغفرُ له ما سلف منه من عصياني إذا بدا لي فيه واستحدث الطاعة لي". وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك". وقال القرطبي: "وقيل: غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت". وقال الرازي: فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم". وقال ابن عاشور: "والمعنى ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى"... أما نحن (الجابري) فنرى أن السياق والظروف التي نزلت فيها الآية يسمحان بفهم قوله تعالى: "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"، على اعتبار أن "من تبعني" يعود على "بنيّ" في قوله (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ). أما قوله "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ" فهو خبر وليس داخلا في الدعاء. وبالتالي فالمعنى: "إن من لم يتبعني من بنيَّ وذريتي واتبع آخرين وعبد الأصنام تقليدا أو جهلا (مثل تبعية أهل القبائل من العرب لقريش أو لغيرهم) فإن باب مغفرتك ورحمتك مفتوح أمامهم إن هم آمنوا. وهذا موقف يغلب فيه الخصوص، فالخطاب ورد على لسان إبراهيم والمعنيّ به هم أهل القبائل العربية بوصفهم من ذرية إبراهيم. وبالتالي فالقصد هنا هو حث أهل القبائل على الاستجابة للدعوة. وهذا من باب الترغيب. وبالتالي فأقوال المفسرين المذكورة أعلاه تقع خارج السياق، لأن القرائن المرافقة للآية تدل كلها على الخصوص، فلا ضرورة بل ولا مجال لطرح مسألة مرتكبي الكبائر والشفاعة الخ.

7- جميع المفسرين يذهبون إلى أن معنى السكنى هنا الإقامة، والذين ظلموا هم قوم ثمود وعاد الذين كانت قريش تمر على مساكنهم في أسفارها إلى الشام واليمن. هذا في حين أن هذه المساكن كانت مجرد أطلال زمن العرب المخاطبين. ولتلافي هذا التناقض قال ابن عاشور إنهم كانوا ينزلون فيها كمحطات حين السفر. ونحن نرى أن السياق لا يزكي هذا=

كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ[45]. وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ (قريش مكرت وتآمرت) وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ[46] (8). فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ (بأنه يحفظهم من مكر خصومهم)، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ[47]: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا (يبرزون) لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[48]، وَتَرَى (يا محمد) الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ[49] (هم وقرناؤهم في القيود والأغلال) سَرَابِيلُهُمْ (قمصانهم) مِنْ قَطِرَانٍ (نحاس)، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ[50]، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[51].

7- خاتمة: هَذَا بَلَاغٌ لأهل القبائل، ولينذروا به ...

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ (المخاطب بـ"الناس" هنا هم أهل القبائل) وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ[52].

- تعليق

طرحت مقدمة هذه السورة ثلاثة أفكار:

الفكرة الأولى أن القرآن كتاب منزل من عند الله، والهدف منه إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

الفهم ولا ذاك. ذلك أن الخطاب هنا موجه للنبي عليه السلام "وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ"، والناس هنا هم قريش بالتحديد. والله يقول لهم، في الآخرة: "أَوَلَمْ تكونوا (يا قريش) أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ"، أي أنكرتم البعث واعتقدتم بخلودكم كبشر (من خلال تناسلكم الذي لا نهاية له) فقلتم "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا". ثم أضاف "وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ"، والمعنى في نظرنا: "سكنتم" من السكون، أي تمسكتم بموقف الذين ظلموا لأنهم ينكرون ليس البعث وحسب، بل ينكرون وجود الله فقالوا "وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ" (الجاثية 24)، لقد تمسكتم بهذا الموقف وجمدتم عليه، مع أننا بينا لكم "كيف فَعَلْنَا بِهِمْ"، إذ أهلكناهم بالصواعق فما عادوا يتناسلون، ثم "ضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ" حول حقيقة الدنيا. من هذه الأمثال: تشبيهها بالنبات الذي لا بد أن يأتي عليه يوم يصير هشيما فيرسل الله الأمطار فيبعث النبات من جديد كما كان."

8- المعنى: صنعوا مكرا عظيما في مستوى أن ترتعش منه الجبال. والمكر في القرآن ينصرف معناه إلى الحيلة وما أشبه... ويذكرون في هذا المجال خرافة قديمة من الموروث الفارسي مفادها أن نسورا ارتفعت بتابوت رجل وضع نفسه فيه وصعدت به إلى السماء بعيدا مما أذهل الجبال وأخذت ترتعد. والإشارة إلى هذه الخرافة التي كانت معروفة عند العرب تعني أن المكر الذي مكروه هو مؤامرة على قتل الرسول (ص)، المؤامرة التي لو تمت وتمكنوا من قتله لكان وقعها أشبه بوقع ذلك التابوت الذي حملته النسور بعيدا فوقها.

الثانية أن الذين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة "وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا"، وهم قريش، هم في "ضلال بعيد"، ولذلك فهم لا يريدون الخروج من الظلمات إلى النور لأن ذلك ليس من مصلحتهم كما يفهمونها.

الثالثة أن الله ما بعث من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم: "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ،" الضلال، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" الهداية.

وحول هذه الأفكار الثلاثة بوصفها تشكل بنية خِطابية واحدة يدور هذا التعليق.

لنكرر القول أولا إن هذه هي المرة الأولى -حسب ترتيب النزول الذي نتبعه- التي يخاطب الله رسوله الكريم فيها بهذه العبارة: *"لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"*. لقد ورد اللفظان (ظلمات ونور) مرات عديدة من قبل، منفصلين، وضمن سياقات واضحة لا تطرح أي إشكال. والغالب ما يتضح المعنى المقصود باللفظين بمجرد الرجوع إلى السياق الذي يصرفهما إلى المعنى اللغوي (ظلام الليل في مقابل ضوء النهار) أو إلى دلالة مجازية ترتبط بالشؤون المعنوية (مثل الجهل في مقابل العلم، والإيمان في مقابل الكفر الخ). هذا بصورة عامة. أما هنا، في السورة التي نحن ضيوف عليها، فالجديد فيها هو وصفها لمخاطبيها (الناس: وهم القبائل العربية تحديدا كما سيتضح بعد) بكونهم في وضعية "الظلمات"، وأن مهمة الكتاب/القرآن هو إخراجهم إلى وضعية النور. فكيف نفهم معنى "الظلمات" و"النور" في هذه الآية؟

كثيرا ما يكرر الناس أن القرآن يشرح بعضه بعضا، ونحن قد فعلنا الشيء نفسه، وأعلنا مرارا عن اتخاذنا لهذه المقولة، منهجا لطلب الفهم وأساسا للرؤية؟ فكيف يمكن أن نتعامل مع هذه الآية الكريمة على هذا الأساس؟ جميع المفسرين يشرحون "الظلمات" بـ "الكفر"، و"النور" بـ"الإيمان" في هذه الآية، ويلتمسون لهذا النوع من الشرح ما يزكيه من المعاني المجازية التي يستعمل فيها اللفظان في اللغة العربية، مع ربط مآل "الظلمات" بالضلال في الدنيا وبالعذاب في الآخرة، ومآل "النور" بالهداية في الدنيا والنعيم في الآخرة. وهذا صحيح على مستوى العموم، مستوى المبدأ العام الذي يقرره القرآن، كواحد من أركان العقيدة. غير أن منهج "القرآن يشرحه القرآن" لا يعني أنه منهج يقع على مستوى "العام" وحده، وإلا كانت هذه المقولة فارغة من المعنى، أي مجرد تكرار لفظ القرآن. القرآن يشرحه القرآن معناه أن القرآن أنواع من الأقاويل ينتظمها معنى كلي، منه تستقي الأجزاء ما فيها من المعنى الكلي، باعتبار أن في كل جزئي أو في كل خاص شيء من الكل أو العام (الشجرة مفهوم كلي، وهذه النخلة أحد أفراد هذا الكلي وفيها "معنى الشجرة" وليس معنى الزرافة مثلا) هذا جانب. لكن ثمة جانب آخر وهو أن في جميع الأقاويل -بما

فيها الخطاب القرآني- ما هو متشابه، وفي هذه الحالة فالمعنى الخاص في كل عبارة قد يعبر عنه خاص آخر يشبهه، وبالتالي فقولنا: "القرآن بشرحه القرآن" معناه أن بعض القرآن يجد معناه في بعض آخر منه. وهذا في الحقيقة هو معنى وصفه تعالى للقرآن بكونه "متشابها مثاني" (الزمر 23) : يشبه بعضه بعضا ويثنيه، أي يكون بعضه بمنزلة "الثاني" بالنسبة لبعض آخر منه يكون بمنزلة "الأول" له.

هذا المعنى (المتشابه المثاني") نجده في الآية التي نحن بصددها. فقوله تعالى: في الآية الأولى من هذه السورة *كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ*" يجد شبيهه المثني له في الآية الخامسة من السورة نفسها حيث نقرأ قوله تعالى: ""وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ". وواضح أن المقصود بـ"آياتنا" هنا هو تلك الآيات التسع "الخارقة للعادة" التي مكن الله موسى منها في صراعه مع فرعون. أما "الظلمات" فهي الوضعية التي كان عليها بنو إسرائيل تحت استبداد فرعون وطغيانه، وأما "النور" فهو إخراجهم من تلك الوضعية والذهاب بهم إلى فلسطين... يتعلق الأمر إذن بالانتقال من وضعية مادية (فقر، قهر، استبداد) إلى وضعية أخرى مادية وهي التحرر من طغيان فرعون والرجوع إلى "الوطن الموعود". إن المعنى الكلي أو "العام" حاضر في هذه الآية، ففرعون كان كافرا بالله كفر كينونة وكفر نعمة، لكن مهمة موسى لم تكن مقتصرة على دعوة فرعون إلى الإيمان بالله رب العالمين، لم تكن محصورة على هذا المستوى المعنوي (العقيدة)، بل كانت محددة بالخصوص في الجانب المادي، أي إخراج بني إسرائيل من مصر. فقد أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون: "فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ"(الشعراء" 16- 17).

هناك جانب آخر في الموضوع، وهو أن الصلة بين الفقرة الثانية من السورة (الآية الخامسة) ستبقى غير مفهومة بدون ربطها بكل من: أولا: الفقرة الأولى (الآية الأولى)، ثانيا: الفقرة الرابعة التي تبتدئ بقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" وبين ما قبلها وما بعدها، ثالثا: الفقرة الأخيرة التي سميناها "خاتمة" أعني قوله تعالى: "هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ"، وبين ما سبقها.

لنقل باختصار إن فهم السورة ككل يتوقف على فهم معنى ومغزى قوله تعالى: " كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". لقد سبق أن قلنا إن هذه هي المرة الأولى -حسب ترتيب النزول- التي ترد فيها هذه العبارة، فلا بد إذن أن يكون هناك ما يبرر نزولها في الوقت الذي نزلت فيه، وأوضحنا أن معناها يجب أن يفهم على ضوء شبيهتها و"ثانيتها" التي تذكر بالمهمة التي كلف الله بها موسى=

وهي إخراج بني إسرائيل من مصر حيث كانوا يعانون من طغيان فرعون وهامان وقارون، ثم أضفنا إلى ذلك عنصرا آخر وهو التذكير بإبراهيم جد العرب من ابنه إسماعيل ودعائه الذي قال فيه: "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ[35]. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[36]. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ (مكة) عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ[37]. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"[38]. وهكذا فاعتمادا على هذه المعطيات يتعين القول: إن الخطاب في هذه السورة -كما هو الحال في سور هذه المرحلة السادسة من مسار التنزيل في القرآن المكي – موجه إلى "العرب أهل القبائل" بوصفهم "الآخر" الذي تتحدد به "هوية قريش" في تلك المرحلة. لقد كان الخطاب قبل هذه المرحلة موجها لقريش، وبالتحديد إلى الملأ منهم الذين وصفتهم السورة بكونهم "يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا"، وقد كانوا فعلا يصدون الناس في المواسم والأسواق عن الاتصال بالرسول عليه السلام ويصرفونهم عنه. وهذا التوجه لـــ"العرب" بعد إصرار قريش على الإعراض عن الدعوة والإمعان في إيذاء النبي (ص) والمسلمين، هو الذي دفع النبي إلى الإعراض عنهم تلبية (لقوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" – الحجر 94–95)، والتوجه إلى "العرب"، أهل البادية" وسكان القرى المحيطة بمكة الذين كانوا واقعين تحت سلطة قريش دينيا واقتصاديا، مستغلين في ذاك مكانة مكة على المستويين الديني (الحج) والتجاري (الأسواق والمواسم)، مع أن باني الكعبة هو جد العرب جميعا، إبراهيم الذي أسكن فيها قسما من ذريته الخ، أقول إن التوجه إلى العرب، في إطار *"لتخرج الناس من الظلمات إلى النور"* هو من أجل إخراجهم من وضعيتهم القاسية على مستوى العيش الخ إلى وضعية أفضل، وبالتالي فإن الأمر يتعلق بحشد "العرب" من خارج مكة للقضاء على استبداد الملأ من قريش بالسلطة المزدوجة التي تشبه السلطة التي كانت تمارس في مصر على الناس (اليهود: وهم قسم آخر من ذرية إبراهيم) : سلطة "الصنم" الأكبر (=فرعون) مدعي الألوهية، وسلطة العسكر الذي يرأسه هامان (=أبو جهل) وسلطة المال التي كانت لأخيه "المغيرة، (=قارون).

73- سورة الأنبياء

- تقديم

ذكر الواحدي: "أن ابن عباس قال: آيةً لا يسألني الناس عنها لا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها! قيل: وما هي؟ قال: لما نزلت "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وَارِدونَ"، شق على قريش، فقالوا: أيشتم آلهتنا؟ فجاء ابن الزبعري فقال: ما لكم؟ قالوا يشتم آلهتنا! قال فما قال؟ قالوا قال: "إِنَّكُم وَما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَها وارِدونَ". قال: ادعوه لي! فلما دعي النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عُبد من دون الله؟ قال: بل لكل من عُبد من دون الله. فقال ابن الزبعري: خصمت ورب هذه البنية، يعني الكعبة! ألست تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح؟ وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام وهذه اليهود يعبدون عزيراً. قال: فصاح أهل مكة! فأنزل الله تعالى "إِنَّ الَّذينَ سَبَقَت لَهُم مِنّا الحُسنى أُولَئِكَ عَنها مُبعَدونَ". قلت (الجابري): هذا يقتضي أن تكون الآيات التي بعدها إلى الآية 105 جزءا من الرد. وهذا غير بين بنفسه.

- نص السورة

1- مقدمة: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ[1]! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ (متجدد) إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ[2]، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ.

2- قريش تشكك في صدق الدعوة المحمدية في الأسواق...

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (قريش قالوا لرواد الأسواق): هَلْ هَذَا (الرسول) إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ (تتبعونه) وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ[3]؟ قَالَ

(الرسول): رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[4]. بَلْ قَالُوا: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ[5]! (الجواب): مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا (بتكذيبها الرسل)، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ[6]؟ (1) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة) نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (أهل الكتاب عن أنبيائهم) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[7]: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ (الرسل) جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ (بل يأكلون)، وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ[8]، ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ[9]. لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ (يا قريش) كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ (خطاب إلهي إليكم) أَفَلَا تَعْقِلُونَ[10]؟ وَكَمْ قَصَمْنَا (أهلكنا) مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ[11]، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا (بالهلاك) إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ[12]! (قيل لهم) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ[13]؟ قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[14]! فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ[15]. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ[16]. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ[17]، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ (فيبطله) فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (مهزوم)، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ[18]. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ[19] (لا يتعبون)، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[20].

3- لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ...

أَمِ(2) (هل) اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ، (من الحجر) هُمْ يُنْشِرُونَ[21] (يحيون الموتى)؟ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ[22]. لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ (لأنه غير مخلوق لأحد ولا شريك له) وَهُمْ

1- معنى الآية: إنهم، أي قريش، لو أعطينا هم ما يطلبون لكانوا أنكث وأنكث" من الذين طلبوا من أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا أو خالفوا، فأهلكهم الله.

2- اختلفت آراء اللغويين حول "أم" في مثل هذا التعبير: منهم قال إنها "استفهام الجحد"، أي لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء. وقيل: هي بمعنى "هل" أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى؟ وقيل: "أم"، عطف على المعنى أي : أفخلقنا السماء والأرض لعبا، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة في الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة؟ وقيل: لا تكون "أم" هنا بمعنى "بل" لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر "أم" مع الاستفهام فتكون "أم" المنقطعة فيصح المعنى. والواضح أنها بمعنى "هل": استفهام الجحد.

يُسْأَلُونَ[23] (لأنهم مخلوقون من أجل اختبارهم). أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ! (أما أنا -محمد- فبرهاني هو:) هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ (القرآن كتاب المسلمين) وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي (التوراة والإنجيل وهي تشهد بأن الإله هو الله وحده)، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ[24]! وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ[25]. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (كانوا يقولون الملائكة بنات الله)! سُبْحَانَهُ. بَلْ (هم) عِبَادٌ مُكْرَمُونَ[26] لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ (لا يتخذون أية مبادرة من عندهم أنفسهم) وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ[27]. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى (الله) وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[28]. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ (من دون الله) فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ[29]. أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا (متصلتين كما تبدوان في الأفق) فَفَتَقْنَاهُمَا (فصلنا الواحدة عن الأخرى) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ[30]؟ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (جبالا اتقاء) أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا (مسالك) سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[31]. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (لا يسقط)، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا (كالشمس والقمر والنجوم وحركاتها) مُعْرِضُونَ[32]. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[33]. وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ[34]؟ (3) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[35].

4- سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.

وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ (=هم لا) يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (موضوع سخرية، يقول بعضهم لبعض) أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ (يتهجم على) آلِهَتَكُمْ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ[36]. خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ! سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ[37]. وَيَقُولُونَ : (قل لنا أنت وصحبك) مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[38]. لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (حالهم) حِينَ لَا يَكُفُّونَ (يدفعون) عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[39] (لما سألوا عن ذلك)، بَلْ تَأْتِيهِمْ (الساعة) بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

3- قال الزمخشري: "كانوا يقدّرون أنه سيموت فيشمتون بموته، فنفى اللـــه تعـــالى عنـــه الشماتة بهذا، أي: قضى اللـــه أن لا يخلد في الدنيا بشرا، فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت، فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟ وفي معناه قول القائل:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا".

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[40] (لا يمهلون). وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[41] (كانوا يستهزئون بالهلاك فجاءهم). قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ (من يحفظكم من عذاب الله) ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ[42] (لا يفكرون فيه لأنهم لا يؤمنون بالقرآن)! أَمْ (هل) لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟ (آلهتهم) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ (فينصرفوا)، وَلَا هُمْ (أي الكفار) مِنَّا يُصْحَبُونَ[43] (لا أحد يجيرهم ويمنعهم منا). بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ! أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ[44]؟ (4) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ. وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ[45]!. وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[46]. وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ[47].

5- كيف نصر الله رسله على أقوامهم المكذبين : بيان لأهل القبائل!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (التوراة) وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ[48]. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ[49]. وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ[50]!؟ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ (نضجه العقلي) مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ[51]. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ[52]؟ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ[53]. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[54]. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ[55] ؟ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ[56]، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ[57] فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا (كسّر أصنامهم حتى صارت فتاتا) إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ[58]! قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ[59]؟ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ[60]. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ[61]. قَالُوا: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ[62]؟ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ[63]. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا (بينهم وبين أنفسهم)

4- أي ننقص مساحة الشرك والكفر من أطراف الأرض، أي خارج مكة. هذه إشارة إلى بدء انتشار الإسلام خارج مكة بعد الاتجاه بالدعوة إلى المواسم والأسواق. ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الآية إشارة إلى اللقاء الأول مع وفد الخزرج الذي أسلم وحمل معه الدعوة إلى بلدهم. السنة الحادية عشرة للنبوة. راجع استهلال هذه المرحلة.

إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ[64]، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ (وقالوا يا إبراهيم:) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ[65] (أنت تعرف أنهم لا ينطقون). قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ[66] : أُفٍّ (قبحا) لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ (أليس لكم عقل تفكرون به؟) قَالُوا: حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ[68] (تريدون نصرتها). قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ[69]. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ[70] وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ[71] (5). وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ (ابنا) وَيَعْقُوبَ (حفيدا) نَافِلَةً (زيادة في المسؤولية) وَكُلًّا (أي الثلاثة) جَعَلْنَا صَالِحِينَ[72]، وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ[73]. وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا (حكمة ونبوة) وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ (يأتون الرجال دون النساء) إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ[74]. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ[75]. وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ[76]، وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ[77]. وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ (بين متقاضين) إِذْ نَفَشَتْ (أكلت) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ(6) وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ (لحكمهما) شَاهِدِينَ[78]. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا، وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ[79]، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ (الدروع تلبسونها حين

5- جرت حوادث هذه القصة في العراق حيث كان إبراهيم مقيما، وقد هاجر بعد ذلك إلى بلاد كنعان ومعه ابن أخيه لوط بن هاران. في التوراة: "وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، 2فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لِكَثِيرِينَ). 3وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». 4فَارْتَحَلَ أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ، وَرَافَقَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ فِي الْخَامِسَةِ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا غَادَرَ حَارَانَ. 5وَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ زَوْجَتَهُ وَلُوطاً ابْنَ أَخِيهِ وَكُلَّ مَا جَمَعَاهُ مِنْ مُقْتَنَيَاتٍ وَكُلَّ مَا امْتَلَكَاهُ مِنْ نُفُوسٍ فِي حَارَانَ، وَانْطَلَقُوا جَمِيعاً إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَنْ وَصَلُوهَا" (سفر التكوين 12).

6- قالوا: "دخل رجلان على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم. فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيئا، فقال داود عليه السلام: اذهب فإن الغنم لك. فخرجا فمرا على سليمان، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه: فقال: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا. فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال: كيف كنت تقضي بينهما؟ فقال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه".

القتال– والخطاب للقبائل) لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ[80]. وَلِسُلَيْمَانَ (سخرنا) الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (قيل: الشام، بما فيها فلسطين) وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ[81]، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ[82]. وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[83] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ (مرض وضائقة وعزلة) وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ[84]. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ[85]، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ[86]. وَذَا النُّونِ (يونس صاحب الحوت) إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ(7) (في بطن الحوت) أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ[87] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ[88]. وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا (بدون ولي وارث) وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ[89]. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ[90]. وَالَّتِي

7– مما فسروا به هذه الآية القصة التالية المنسوبة إلى ابن عباس، قال "كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا، وبقي سبطان ونصف. فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا فإني ألقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فقال له الملك: فمن ترى؟ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس بن متى: فإنه قوي أمين، فدعا الملك بيونس وأمره أن يخرج، فقال يونس: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال فهل سماني لك؟ قال: لا، قال فهھنا أنبياء غيري، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم (الأبيض المتوسط) فوجد قوما هيأوا سفينة فركب معهم فلما تلجلجت السفينة انكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ههنا رجل عاص أو عبد آبق لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاص، ومن رسمنا (قانوننا) أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام، فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة. فإني جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له: أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم. ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام". وهذه القصة نسجت على مثال قصة يونس في التوراة، وقد أوردناها سابقا (انظر هوامش سورتي القلم رقم 35 ويونس52. القسم الأول من الكتاب).

أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (مريم) فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ[91] (وقلنا لقومها) إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ[92]. وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ[93]: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ (لا بطلان لثواب عمله)، وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ[94] (عمله). وَحَرَامٌ عَلَى (أهل) قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ[95] (إلينا، بل يبعثون كالآخرين. حرمنا عليهم الرجوع والتوبة)، حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ (تهدم سدهم لصيحة القيامة)(8) وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ[96] (يجيئون)، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (وحالهم يقول) يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ[97]! (يقال لهم) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ[98] (مُلقون في جهنم كالحصباء). لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ[99] (لو كانوا آلهة لشفعت لهم كما يعتقدون! ولكن ليسوا آلهة! إذن هم وإياها خالدون في جهنم)، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ[100]. إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ[101]، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ[102]. لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (قائلين) هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ[103]، يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ!(9) كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ[104].

6- خاتمة: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ...

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ (كتاب داوود) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (توراة موسى) أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ[105]، إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ[106] (10). وَمَا

8- انظر قصة ذي القرنين في سورة الكهف رقم 71.

9- نظير قوله تعالى: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ" (الزمر 67)

10- رسالة واضحة ليهود المدينة: والمعنى: كتب الله في الزبور الذي أنزل على داوود الملك، والذي انقرض ملكه بعد ابنه سليمان، "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ". وإذن فالوعود التي أعطيت لموسى تحققت مع داوود وسليمان، وحل محلها وعد آخر هو "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"، والمقصود المسلمون. وإذن فعلى اليهود في "يثرب" أن يفهموا هذا فينضموا إلى الأنصار والمهاجرين –وهم عباد الله الصالحون– ويعترفوا بنبوة محمد وأن القرآن من عند الله، مثله مثل التوراة والزبور... وهذه الرسالة ستتكرر بصورة أوضح في القرآن المدني. وهذا المعنى غاب عن جميع المفسرين من الطبري الخ، فقد فسروا قوله تعالى "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" تفسيرا لا يستحضر ترتيب النزول

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[107]. قُلْ (يا محمد) إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ (أيها اليهود في يثرب) إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[108]؟ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ (بمعنى : قل لهم إني أخبركم بصراحة باني وإياكم سنكون في حالة حرب) وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُون[109] (هنا من الحرب) (11). إِنَّهُ (الله) يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ[110]. وَإِنْ أَدْرِي (ولا أعلم متى سيحصل هذا، فـــ) لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ (خبر يفتنكم أو) وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ[111]. قَالَ (الرسول): رَبِّ احْكُمْ (بيني وبين اليهود) بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ[112].

– تعليق

كل شيء في هذه السورة يشير إلى أنها من آخر من نزل في مكة. والشواهد الكثيرة التي ذكرناها في الشرح والهوامش تفيد أنها نزلت في الوقت الذي كان النبي عليه السلام منهمكا في التفاوض مع وفود القبائل، والأرجح أنها نزلت في الموسم الذي أسلم فيه وفد الخزرج وسمي إسلامهم "بيعة العقبة الأولى" (انظر الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة).

في السورة ست فقرات :

المقدمة وفيها تعلن عن اقتراب ساعة الحساب، والحساب المقصود هنا ليس حساب الآخرة كما يذهب إلى ذلك المفسرون بل هو الحساب الذي سيقوم به المؤمنون الذين كانوا يتجمعون في المدينة سواء من المهاجرين إليها من مكة أو الذين أسلموا فيها منذ أن بدأ الاتصال بين الرسول والوافدين إلى الحج وهو الاتصال الذي توج ببيعة العقبة الثانية ...

ولا من هو المخاطب هنا فقال معظمهم إن المقصود بـــ"الأرض" هنا "أرض الجنة"، قال الرازي : "فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد= وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية". قلت (الجابري) : وهذا لا يستقيم لأنه يسقط قوله تعالى "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ" ولا يعطيه أي معنى ولا أي دور في الخطاب. أما قوله تعالى: "إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ" فهو حسب السياق الذي أبرزناه خطاب لليهود. أما المفسرون فقد ذهبوا في تفسير الآية بما يصرفها إلى العبادات في الإسلام مثل للصلوات الخمس والزكاة الخ.

11- صرف المفسرون الخطاب في هذه الآية إلى قريش كما فعلوا في الآيات السابقة. وفي هذا الصدد ذكر القرطبي أنه قيل في معنى الآية "آذنتكم [يا قريش] بالحرب ولكنـــي لا أدري متى يؤذن لي في محاربتكم". ونحن نرى أن الأقرب إلى السياق ما قلناه أعلاه.

أما الفقرات الثانية والثالثة والرابعة فتعرض السورة فيها للحملة التي شنتها قريش لصد أهل المواسم والأسواق عن الرسول. فتذكر نماذج من دعاياتهم ضدد وتجيب عنها، وفي نفس الوقت تشجب عبادة الأصنام وتؤكد على الأركان الأساسية في الإسلام: النبوة والتوحيد والبعث؛ مؤكدة أن ما يوعدون به من قيام الساعة والحساب سيأتي وقته، وأن استعجالهم ليوم القيامة، كتحد منهم، دليل على أنهم غافلون: فالإسلام ينتشر خارج مكة، وأرض الشرك تتناقص، والمواجهة آتية.

وتأتي الفقرة الخامسة لتؤكد لهم وللذين يلتحقون بالإسلام أن النصر في هذه المواجهة سيكون للرسول والمؤمنين، وأن ذلك ما حدث للرسل السابقين في صراعهم مع أقوامهم بدءا من إبراهيم إلى مريم. لقد انتصر الرسل وانهزم المكذبون والظالمون في كل زمان ومكان، ويوم القيامة مأواهم جهنم.

أما الخاتمة فتستعيد المقدمة كالعادة، لترتفع بها إلى أعلى بعد أن أثبتت صحتها الفقرات الوسطى (التحليل والجدل والبرهان...). وهكذا لم يعد الأمر مقتصرا على الإعلان عن "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ"، بل لقد انتقلت الخاتمة بالسورة إلى بيان المقصود بـــ"الناس" وبيان النتيجة، وذلك من خلال التأكيد على أن الله قضى في الزبور، أي بعد داوود وسليمان، أن "الوعد بالأرض" لم يعد مقصورا على بني إسرائيل الذين انتهى ملكهم مع سليمان، بل إن ذلك الوعد التوراتي الموسوي صار وعدا لعباد الله الصالحين، وهم المسلمون في يثرب، وأن هذا الوعد ليس مجرد خبر من الأخبار بل هو "بلاغ لقوم عابدين" الله من اليهود والمسلمين، وعليه يجب إنذار يهود يثرب بذلك (حتى لا يقولوا خدعنا أو فوجئنا) : "قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[108]؟. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ (أعلمتكم بصراحة). انظر الهامشي الأخيرين: 10 و 11).

74- سورة المؤمنون

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة ما يستحق الذكر. وكل ما هناك أنهم يذكرون أن عمر بن الخطاب قال : وافقت ربي في أربع، قلت: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله تعالى "وَاتَّخِذوا مِن مَّقَامِ إِبراهيمَ مُصَلّى"، وقلت: يا رسول الله "لو اتخذت على نسائك حجاباً، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى "وَإذا سَأَلتُموهُنَّ مَتاعاً فاسأَلُوهُنَّ مِن وَراءِ حِجاب"، وقلت لأزواج النبي (ص) لتنتهن أو ليبدلنه الله سبحانه أزواجاً خيراً منكن فأنزلَ الله "عَسى رَبُّهُ إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزواجاً خَيراً مِّنكُنَّ" الآية، وهذه الآيات نزلت في المدينة فلا علاقة لها بهذه السورة. أما الآية الرابعة وهي قوله تعالى "وَلَقَد خَلَقنا الإنسانَ مِّن سُلالَةٍ مِّن طين" إلى قوله تعالى "ثُمَّ أَنشَأناهُ خَلقاً آخَرَ" فهي من السورة التي نحن ضيوف عليها، وفي الرواية المذكورة أن عمر لما نزلت تلك الآية قال: "فَتَبارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخالقينَ"، فنزلت هذه. وفي رواية أخرى أن شخصا آخر كان يكتب هذه السورة للرسول حين نزولها فلما انتهى إلى قوله تعالى: "خَلْقاً آخَرَ" عجب ذلك الشخص من ذلك وقال: "فَتَبارَكَ اللّهُ أَحسَنُ الخالقِينَ" فقال رسول الله (ص): "اكتب، فهكذا نزلت". فشك ذلك الكاتب وقال إن كان محمد صادقاً فيما يقول فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه، وإن كان كاذباً فلا خير في دينه". ونقطة الضعف في هذه الرواية هي قول الراوي "فهرب إلى مكة"، الشيء الذي يعني أن النازلة حدثت في المدينة، والسورة مكية.

- نص السورة

<u>1- مقدمة: خصال المؤمنين الذين سيدخلون الجنة خالدين فيها...</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ[1] الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ[2]، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ[3]، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ[4]، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ[5] إِلَّا

عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ[6] –فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ (زيادة على أزواجهم وما ملكت أيمانه) فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ[7] (المعتدون)– وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[8]، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[9]، أُولَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ[10]، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[11].(1)

2– خلقنا... وخلقنا لكم... ويوم القيامة تبعثون.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ[12]، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ[13] (في رحم المرأة)، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ[14]. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ[15]، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ[16]. وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ (سماوات)(2) وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ[17] (3)، وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ، فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ (آبارا وترعا)، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ[18]. فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[19]، وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ (هي شجرة الزيتون) تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ[20] (زيتون يؤكل مع الخبز). وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا

1– هذه الفقرة تشعر بأن جماعة المسلمين أخذت تنمو مما استوجب تشريعات أخلاقية تميز سلوك المؤمنين عن غيرهم. ولا بد من استحضار أن الخطاب في هذه السور موجه أساسا إلى البدو من العرب في المواسم أو الأسواق، ولذلك يستعيد ما سبق أن رأيناه في الخطاب الذي كان موجها من قبل إلى قريش. والاستعادة هنا ليست تكرارا حرفيا بل هي صيغة جديدة تركز في الغالب على دلائل وحجج من بيئة عالم الأرياف والبادية، كما هو واضح أعلاه.

2– قالوا: "أي سبع سموات" وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض. يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلا على نعل، وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبا فوق ثوب". هذا ومفهوم "السموات السبع" يطابق معهود العرب في ذلك الوقت الذي يرجع إلى الموروث "العلمي" القديم الذي كان يتمثل في النظام الفلكي الذي شيده بطليموس (عالم يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثاني للميلاد) وقوامه كواكب سبع سيارة والأرض في مركزها، وهذه السبع السيارة هي: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر. وقد بقيت نظرياته مهيمنة على علم الفلك إلى القرن السادس عشر.

3– عن الخلق: يعني المخلوقات: لم تكن غافلين عنها عند خلقنا السماوات فجعلناها لفائدتها: فالشمس والقمر الخ، والنجوم وحركاتها الخ، وما ينتج عنها من ضوء ومطر وفصول الخ، كلها أمور ضرورية لحياة المخلوقات الأرضية. والآية التالية تشير إلى هذا المعنى، فلا ضرورة لتأويلات بعيدة عن السياق كما فعل بعض المفسرين.

فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ[21]، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ[22].

3- سفينة نوح ... حياتهم كانت ابتلاء والمصير: الحساب والجزاء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ[23]؟ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (يترأس) عَلَيْكُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ[24]، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ (جنون) فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ[25]. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي[26] (أي لتكذيبهم إياي). فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (برعايتنا) وَوَحْيِنَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (صعد الماء على جوانب السفينة قلنا له) فَاسْلُكْ (ضع) فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (الذين لم يؤمنوا)، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ[27]. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[28]. وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ[29]، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ[30] (حياتهم كانت اختبارا لهم).

4- إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ...

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا (قوما) آخَرِينَ[31]، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ[32]. وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ[33]؛ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ[34]! أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ[35] (من قبوركم)، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ[36] (لا بعث)! إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا (نحيا ونموت) وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ[37]؛ إِنْ هُوَ (الرسول) إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ[38]. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي[39]. قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ[40]. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ، فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً (كنبات يابس)، فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[41]. ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا (أقواما) آخَرِينَ[42]، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ (ما من أمة تسبق) أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ[43]. ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

تَتْرَى ، كُلَّ مَا (كلما) جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ! فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (عن ماض، يتداولها الناس) فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ[44].

5- الرسل كيان واحد والمؤمنون أمة واحدة ...

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ[45] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ[46]. فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا (بنو إسرائيل) لَنَا عَابِدُونَ[47]؟ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ[48]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[49]، وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ (في الشام) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ [50] (الماء مستقر فيها). يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ (4) كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ[51]. وَإِنَّ هَذِهِ (أيها الرسل) أُمَّتُكُمْ

4- اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، وسبب الاختلاف: تعيين المخاطب. وقد أجمل الرازي ذلك فقال: "اعلم أن ظاهر قوله: "لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ" خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم، فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه: أحدها: أن المعنى الإعلام بأن كل رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به، ليعتقد السامع أن أمرا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه. وثانيها: أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل، وإنما ذكر على صيغة الجمع، كما يقال للواحد: أيها القوم كفوا عني أذاكم ومثله: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ" (آل عمران: 173) والمعني شخص واحد هو نعيم بن مسعود، كأنه سبحانه لما خاطب محمداً (ص) بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين لما خوطبوا إلا بذلك ليعلم رسولنا أن هذا التثقيل ليس عليه فقط، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: وهو قول محمد بن جرير الطبري أن المراد به عيسى عليه السلام لأنه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولأنه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه"، ويضيف الرازي: "والقول الأول أقرب لأنه أوفق للفظ الآية". قلت (الجابري): أما نحن فنرى أنه لا إشكال في هذا الخطاب إذا ما راعينا السياق ككل، والسياق هو إخبار العرب من أهل الأسواق بما ذكره القرآن مفصلا في سور سابقة عند مخاطبة قريش. فالخطاب يخص هنا تجارب الرسل مجتمعة بقطع النظر عن الزمان والمكان. ذلك أنه تعالى لما ذكر بتجارب هؤلاء الرسل، خاطبهم بوصفهم خاضوا تجربة واحدة وكانت دعوتهم دعوة واحدة، وهي دعوة الناس إلى الإيمان. فالموضوع الذي استهلت به السورة هو مدح المؤمنين، وما تلا ذلك هو بيان كيفية تكون المؤمنين في التاريخ، من نوح إلى محمد عليهما السلام. فذكر الرسل هنا جاء بوصفهم جنودا كلفوا عبر التاريخ بمهمة واحدة هي نشر التوحيد، والذين استجابوا لهم يشكلون جماعة أو أمة واحدة، هي جماعة المؤمنين عبر التاريخ. هذا بينما تفرق غير المؤمنين فلا يجمعهم جامع ولا يمكن إطلاق اسم "أمة" عليهم لأنهم لا شيء يجعل منهم جماعة لأنهم لا يجمعهم قصد واحد ولا إيمان بإله واحد.

أُمَّةً (ملة) وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي[52]؛ فَتَقَطَّعُوا (أقوام الرسل، ومن بينهم قريش قوم النبي محمد) أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا (تفرقوا فرقا)، كل حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[53]. فَذَرْهُمْ (اترك قريشا) فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ[54]. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ[55] نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! (كلا) بَل لَا يَشْعُرُونَ[56] (أن الأمر سينقلب عليهم بعد حين).

6- أما المؤمنون فهم يسارعون إلى العمل الصالح...

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[57]، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ[58]، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ[59]، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا (من الأعمال الصالحة) وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ (بسبب) أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[60]: أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ[(5)] (في الأعمال الصالحة) وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ[61] (يسابقون). وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (إلا بما تستطيع فعله من الأعمال الصالحة)، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ (بما فعله كل منهم) وَهُمْ[(6)] لَا يُظْلَمُونَ[62]، بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا (غير مشغولة بتعداد ما يفعلون من الخيرات)، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ (غير تلك التي يسابقون بها في الخيرات) هُمْ لَهَا عَامِلُونَ[63].

7- أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ؟!

حَتَّى[(7)] إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ (مترفي مكة) بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (يضجون)[64]. (يقال لهم) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ[65] (كما كنتم في

5- لاحظ الفرق بين قوله متحدثا عن الكفار: "أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ"، فهم يظنون، واهمين، أن الله هو الذي يمدهم بالخيرات متتابعة متسارعة، وبين قوله عن المؤمنين: "أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ". وهذا رد على الكفار بأن الخيرات يسارع المؤمن إليها، لا العكس. أما ما يعطى للكفار فهو، باصطلاح القرآن، ابتلاء واختبار. وبما أنهم لا يؤمنون فسيحاسبون عليه يوم القيامة ويمكن أن يسحب منهم في الدنيا.

6- اختلف المفسرون في من يعود إليه هذا الضمير (هم) والضمائر المماثلة التالية له: هل للمؤمنين أم للكفار؟ ونحن نرجح أنها تعود إلى الذين يسابقون في الخيرات. فبهذا يستقيم السياق.

7- الزمخشري: "حتى" هذه، هي التي يبتدئ بعدها الكلام، أي: الجملة الشرطية: "إذا أخذنا مترفيهم.

الدنيا تنصرون بأموالكم). قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ (يذكركم بها الرسول عندما يتلوها في المسجد) فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ[66] (لا تستجيبون للرسول)، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا (متسامرين في تجمعاتكم ونواديكم ليلا) تَهْجُرُونَ (ما تسمعون من القرآن)[67]. أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ (لا يفهمون القرآن؟) أَمْ (لأنه) جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ[68]؟ (جاءهم بالتوحيد الذي ينهى عن عبادة ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام)؟ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ؟[69]؟ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ (جنون)؟ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ (التوحيد)، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[70]؟ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ (بأن اعترف بتعدد الآلهة) لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ، بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ (بالكتاب الخاص بهم: القرآن) فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ[71]. أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا (هل يعتقدون أنك ستطلب منهم ثمنا إذا آمنوا)؟ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[72].

8- محاجة المشركين. ويوم القيامة موعدهم...

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[73]. وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (خارجون عنه)[74]. وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ (وآتيناهم بالمطر بعد قحط) لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ[75] (لتمادوا في ضلالهم). وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ (الجوع) فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ[76]، حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ (يوم القيامة) إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[77] (يائسون). وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ[78]، وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ (أنشأكم) فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[79]، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[80]؟ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ[81]: قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[82]؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[83]. قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[84]؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ! قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[85]؟! قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ[86]؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ؛ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ[87]؟! قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ[88]؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (تصرفون الناس عن الله)[89]؟ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[90]. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذًا (لو كان معه إله) لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ[91]. عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[92]. قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ[93] (إن كان ولابد أن تريني ما يوعدون من العذاب)، رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي (من جملة) الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[94] (الذين لهم ذلك العذاب). (الجواب:) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ (يا محمد) مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ[95]. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ (=أذاهم إياك)، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ[96]. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ (وسوسات) الشَّيَاطِينِ[97]، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي[98] (الشياطين). حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي[99]، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ! كَلَّا، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (لا فائدة له فيها)، وَمِنْ وَرَائِهِمْ (أمامهم: بعد موتهم) بَرْزَخٌ (حاجز يصدهم) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[100]. فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ (فلا علاقات قرابة) بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[101] (لا يسأل بعضهم عن بعض)، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[102]، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[103] : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ[104] (ملامحهم متقلصة). (يقال لهم) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ[105]. قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ[106]، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ[107]، قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي[108]. إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ[109]، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ[110]. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ[111]. قَالَ (الله) كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ (قبل البعث) عَدَدَ سِنِينَ[112]، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (الذي يحصون أعمال الخلق)[113]. قَالَ: (فعلا) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[114] (كم ستبقون في جهنم). أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ[115].

9- خاتمة : والذين لا يؤمنون حسابهم عند ربهم : لا يفلح الكافرون.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ، الْكَرِيمِ[116]. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ[117]. وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ[118].

- تعليق

كان المحور الذي دار حوله الخطاب في السورة السابقة هو تفنيد ادعاءات مشركي قريش في نجواهم مع القبائل في المواسم والأسواق لصدهم عن الاستجابة

للدعوة المحمدية، وقد اشتملت الردود القرآنية على استعادة ما أبطلت به هذه الدعوة الاعتراضات التي وجهها مشركو مكة إلى النبي عليه السلام في المراحل السابقة، عندما كانت الدعوة محصورة في مكة (قبل "اصدع بما تؤمر")، لتنتقل بعد ذلك إلى التأكيد على أن النصر للدعوة المحمدية مؤكد وقريب، مستشهدة من جهة بدروس من الماضي المقدس الذي يشهد بأن انتصار أنبياء الله هو ما انتهى إليه صراعهم مع أقوامهم، فقد خرجوا جميعا منتصرين، ومن جهة أخرى استدلت السورة على حتمية انتصار الدعوة المحمدية بما كان يشهد به حاضرها وهو أن الاستجابة لها بدأت تظهر خارج مكة الشيء الذي يقلص شيئا فشيئا من هيمنة قريش وسلطتهم الاقتصادية والمعنوية (الدينية القبلية) على القبائل العربية بحيث باتت أرض الشرك تنقص من أطرافها.

وفي هذه السورة ينتقل الخطاب القرآني إلى المحور التالي: جميع الرسل مبعوثون برسالة واحدة، رسالة التوحيد، ومع أن لغة خطابهم تختلف باختلاف ألسنة أقوامهم فإنهم والمؤمنون بهم يجمعهم شيء يعلو على "اللغة" بوصفها أداة وصل وتواصل، إنه الإيمان بنفس الرسالة، رسالة التوحيد والمسؤولية (البعث). وتريد هذه السورة أن تبين ما يجعل من المؤمنين في كل زمان "أمة واحدة"!

بدأت السورة في المقدمة بتعريف للمؤمن من خلال ذكر الخصال التي تفرق بين المؤمن وغير المؤمن، وذلك على مستويين: على مستوى العلاقة مع الله (العبادات : الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها)، ومستوى العلاقة مع الناس (الأخلاق: الإعراض عن اللغو، وإيتاء الصدقات، وتجنب الزنا، والحفاظ على الأمانة). بعد ذلك تأتي الفقرة الثانية لترتفع بالتعريف بالمؤمن إلى مستوى أعلى، إلى الإيمان بأن الله هو الخالق، خلق السماوات والأرض بصورة تخدم الإنسان (وهنا نلمح حضورا واضحا للبيئة البدوية مقابل حضور البيئة الدينية التجارية التي كانت بارزة في الخطاب إلى قريش (مثلا: لإيلاف قريش...).

ثم تنتقل السورة إلى الاستشهاد بالتاريخ المقدس فتختار قصة نوح، وتبرز فيها ما لم يكن بارزا عند الاستشهاد بها من قبل عندما كان الخطاب موجها إلى قريش. ذلك أن قوم نوح اعترضوا هذه المرة بقولهم: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (يتشرف: يترأس) عَلَيْكُمْ". وواضح أن الخطاب هنا قد صيغ على لسان قريش بطريقة تفهم منه القبائل أن غرض محمد هو أن يترأس عليهم. ويأتي الجواب: بأن هذا الذي قاله قوم نوح، كان دليلا على اختيارهم النهائي للضلال، فكان ذلك مما أوجب تدخل الإرادة الإلهية فكان هلاكهم بالطوفان.

وتوالت الرسل بعد نوح وتكررت مواقف التكذيب لهم من طرف أقوامهم فتكررت معها طرق إهلاكهم : "ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى (تتابع)، كُلَّ مَا (كلما) جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (لم يبق منهم إلا أخبارهم يتداولها الناس) فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ"[44]. والخطاب موجه هنا للقبائل العربية وللمؤمنين الجدد من خارج مكة وبكيفية خاصة في يثرب.

بعد الإشارة إلى نوح وعاد وثمود الخ، تأتي النتيجة: "وَإِنَّ هَذِهِ (أيها الرسل) أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي[52]". أما أقوامهم المكذبون: "فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"[53]، وهنا يتم الانتقال إلى قريش المكذبين لرسولهم: "فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ[54]. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ[55] نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! (كلا، هم خاطئون) بَل لَا يَشْعُرُونَ[56]".

بعد ذلك تعود السورة لخصال المؤمنين الذين يشكلون أمة واحدة (يؤمنون بإله واحد) في مقابل المشركين الذين تمزقت بهم السبل (لكل منهم صنم يعبده)، لتؤكد أن من شمائل المؤمنين أنهم "يسارعون في الخيرات"، وهذا خطاب للمؤمنين الجدد. أما قريش فقد ضلوا واستكبروا، والحساب يوم القيامة. ثم ترسم السورة مشهدا لحالهم في جهنم حين يحاسبون ويذكّرون بما كانوا يفعلون في الدنيا: بما كانوا يدعون وبما كان القرآن يرد به عليهم (والخطاب إخبار لأهل القبائل الخ): "فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: "رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ"[109]... ومن جملة ما أثير في هذا الخطاب مع أصحاب النار يوم القيامة، والمقصود هنا قريش، أنهم "قَالُوا (في الدنيا) مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ[81]، قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ[82]، لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ". لكن عندما سيُلقون في جهنم فسيقولون: "رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ[106]، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ"[107]...

وتأتي خاتمة السورة لتستعيد مقدمتها ولترتفع بها من مستوى الإشادة بخصال المؤمنين، كما فعلت في مقدمتها، إلى مستوى التأكيد على عقيدتهم. ذلك أن تلك الخصال وحدها لا تكفي إذ قد يأتيها المؤمن وغير المؤمن. وإذن فالعقيدة هي الأساس، وقد جاء التعبير عنها مركزا على التوحيد والمعاد، كما يلي: "فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ، الْكَرِيمِ[116]. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ"، والخطاب دائما لأهل القبائل.



75- سورة السجدة

- تقديم

وردت حول آيات من هذه السورة روايات "أسباب نزول" جلها لا يستقيم لا مع السياق ولا مع كون السورة مكية ولا مع الظروف التي نزلت فيها. ومع ذلك نذكر بعضها كعادتنا لما قد يكون فيها من فائدة على مستوى السيرة.

ذكر البخاري أن أحدهم قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة أنفار، كثيرٌ شحم بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم: قرشي وختناه ثقفيان، أو ثقفي وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقال بعضهم: أترون الله سمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفع لم يسمع. وقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله؟ قال: فذكرت ذلك للنبي (ص) فنزل عليه "وَما كُنتُم تَستَتِرونَ أَن يَشهَدَ عَلَيكُم سَمعُكُم وَلا أَبصارُكُم وَلا جُلودُكُم" إلى قوله تعالى "فَأَصبَحتُم مِنَ الخاسِرينَ".

وحول قوله تعالى "وَلَو بَسَطَ اللهُ الرِزقَ لِعِبادِهِ لَبَغوا في الأَرضِ" الآية، قالوا: نزل في قوم من أهل "الصُّفَّة" (وهم جماعة من الصحابة الفقراء أنزلهم النبي عليه السلام بعد الهجرة في مكان قرب مسجده بالمدينة يسمى الصفة)، منهم خباب بن الأرت الذي قال: "فينا نزلت هذه الآية وذلك أنا بطرنا إلى أموال (يهود) قريظة والنضير فتمنيناها فأنزل الله تبارك تعالى هذه الآية". وواضح أن هذا لا يستقيم فالآية والسورة مكيتان!

- نص السورة

<u>1- لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ!</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

الم[1]. تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[2]. أَمْ (هل) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ[3].

2- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ (يتولى مصالحكم) وَلَا شَفِيعٍ (ناصر) أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ[4]؟ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَعْرُجُ (الأمر) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ[5] [(1)]. ذَلِكَ، (وهو) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[6]. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ[7]، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[8] (ضعيف، النطفة)، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ[9].

3- إِنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ..!

وَقَالُوا (مشركو مكة) أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ (غبنا فيها وصرنا تراب) أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ[10] (يعني: حقيقة هذا السؤال أنهم كافرون بالبعث)، قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[11].

1- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية : فقال بعضهم: معناه: أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، وقدر ذلك ألف سنة مما تعدّون من أيام الدنيا: خمسمائة عام بين الأرض إلى السماء صعودا، ومثلها نزولا. وقال آخرون: " خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكل يوم من هذه كألف سنة مما تعدّون أنتم". وقال فريق آخر: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض بالملائكة يبعثهم إلى الأرض، ثم تعرج إليه الملائكة، في يَوْمٍ كَانَ مقداره ألف سنة من أيام الدنيا". بمعنى: "ما بين السماء والأرض مسيرة ألف سنة". يختار الطبري الذي أورد هذه الأقوال القول الأول لأنه في نظره " أظهر معانيه، وأشبهها بظاهر التنزيل". لكن هذا لا يستقيم مع قوله تعالى: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (المعارج: 4). ولتجاوز هذا الإشكال قال الرازي: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع، لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى: "فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ" يعني: "يُدَبِّرُ الأَمْرَ" في زمان، يوم منه ألف سنة، فكم يكون شهر منه، وكم تكون سنة منه، وكم يكون دهر منه؟ وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دوام نفاذ الأمر، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر". وقال الزمخشري: " وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله؛ أي يصير إليه ليحكم فيه "فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وهو يوم القيامة". ونحن نرى أن التدقيق في مثل هذه المسائل لا طائل من ورائه، فالأمر يتعلق بتقدير لا يقصد لذاته بل بما يفيده، وهو يفيد أن عالم الألوهية لا يقاس بعالم البشر. ومثل هذا نقول في قوله "ستة أيام". أما قوله "استوى على العرش"، فمفهوم منه الاستيلاء، ومن أسمائه تعالى "الملك"، و"المهيمن" الخ، أي نسبته إلى مخلوقاته كنسبة الملك إلى الرعية، والمعنى الاستيلاء والحكم والهيمنة...

وَلَوْ تَرَى (يا محمد يوم القيامة) إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يقولون): رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا، فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ[12]! (الجواب): وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا[2] وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[13] (الجن والإنس معا). فَذُوقُوا، بِمَا نَسِيتُمْ (بسبب نسيانكم) لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، إِنَّا نَسِينَاكُمْ؛ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[14]. إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[15]، تَتَجَافَى (ترتفع) جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ (عن الفراش لقيامهم الليل) يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[16]. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (ما تقر به أعينهم) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[17]. أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ[18]. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا (منزلا) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[19]، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمْ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ[20]. (وقبل ذلك) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ[3] لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[21].

---

2 – قال الزمخشري "لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا" على طريق الإلجاء والقسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء". وأضاف: ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله: "فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ" فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعني: إن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: "إِنَّا نَسِينَاكُمْ"، على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العاقبة، فتركناكم من الرحمة، وفي استئناف قوله إنا نسيناكم وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى فذوقوا هذا، أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة".

3– اختلف المفسرون في تفسير "العذاب الأدنى"، أما العذاب الأكبر فهم متفقون على أنه جهنم. وقد جمع القرطبي ما قيل في الموضوع فقال: " قوله تعالى: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ": قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأبيّ بن كعب وإبراهيم النخعيّ: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العباد حتى يتوبوا؛ وقاله ابن عباس. وعنه أيضا أنه الحدود. وقال ابن مسعود والحسين بن عليّ وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف؛ وقاله مجاهد. وعنه أيضا: العذاب الأدنى عذاب القبر؛ وقاله البراء بن عازب. قالوا: والأكبر عذاب يوم القيامة. قال القشيريّ: وقيل عذاب القبر. وفيه نظر (=يقول القرطبي)؛ لقوله: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"! (والحال أنهم لا يرجعون من القبر). قال (القرطبي–دائما): ومن حمل العذاب على القتل قال: "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" أي يرجع من بقي منهم. ولا=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ[22]. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ (في شك) مِنْ لِقَائِهِ (مع الله وأخذ الكتاب منه: ألواح التوراة)، وَجَعَلْنَاهُ (موسى أو الكتاب) هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ[23]. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ[24]. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[25]. أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ (يتبين لقريش) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأقوام) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ (في طريق تجارتهم إلى الشام)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ! أَفَلَا يَسْمَعُونَ[26]؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ (الأرض التي لا نبات فيها) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ[27] (وبالتالي ألا تستنتجون من ذلك أن البعث آت).

4- خاتمة: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ، إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ (نزول العقاب بهم)(4) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[28]؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ[29] (يمهلون). فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ[30].

- تعليق

أمران اثنان اختصت بهما هذه السورة ضمن الإطار العام الذي تتحرك فيه سور هذه المرحلة:

أولهما التأكيد على أن هناك عقابا، أقرب زمنا، ينتظر مشركي قريش إضافة إلى عقاب يوم القيامة. وكما كانوا من قبل يحاجون مرارا في عقاب الآخرة قائلين: "مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ها هم يقولون اليوم "مَتَى هَذَا الْفَتْحُ (نزول العذاب بهم في الدنيا) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وكان الجواب "وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ"؛ وهذا يعنى

خلاف أن العذاب الأكبر عذابُ جهنم". ونحن (الجابري) نرى أن استحضار ظروف نزول السورة يقتضي حمل الآية على ما كان يستعد له الرسول من الهجرة إلى المدينة من حيث سيقوم باعتراض قوافلهم والدخول معهم في صراع مسلح الخ. وهذا وفقا مع الآية التالية: "إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ"، وأيضا مع خاتمة السورة.

4- قال بعض المفسرين: الإشارة إلى فتح مكة. وقال آخرون : يعني يوم القيامة". قلت: والواقع أن المقصود هو ما عبر عنه قبل بـ "العذاب الأدنى". والتعبير بـ"الفتح" إشارة إلى أن المقصود هو النصر في الدنيا، وما كان منتظرا في ظروف نزول هذه الآية ليس فتح مكة فهذا بعيد، بل انتصار تحالف الرسول مع أهل يثرب ضد قريش.

أنهم كانوا على علم باتصالات النبي عليه السلام مع أهل المدينة، وليس من المستبعد أن تكون هذا السورة قد نزلت كسابقاتها (النحل، إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون) عقب بيعة العقبة الأولى (السنة الثانية عشرة).

أما الأمر الثاني فهو أن السورة ذكرت بني إسرائيل بما يفيد إرسال "رسالة سلام" إلى يهود المدينة الذين لا شك أنهم قد توجسوا من انتشار الإسلام في المدينة وقرب قدوم الرسول إليها. ذلك قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ (في شك) مِنْ لِقَائِهِ (مع الله الذي ضرب معه موعدين)، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ". وهذه الإشادة بموسى وبني إسرائيل يمكن أن تفهم على أن الإسلام الذي يدعو إليه الرسول (ص) يريد أن يعيش مع يهود المدينة في جو من التسامح والاعتراف المتبادل. وبهذا تكون هذه الرسالة مكملة لما ورد قبل في سورة الأنبياء التي أخبرتهم أن الوعود التي وعد الله بها موسى في التوراة قد تحققت، وأن الله قد قضى في الزبور (كتاب داوود) أن الأرض يرثها عباده الصالحون دون تمييز...



76- سورة الطور

- تقديم

أخرج الطبري عن ابن عباس أن قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة، فإنما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك "أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون".

وهذه الرواية جزء من رواية طويلة حكاها ابن اسحاق تتحدث عن اجتماع كبار قريش وقراراهم باغتيال النبي، ومحاولة تنفيذهم لهذا القرار وعلم الرسول بذلك في نفس الليلة التي ذهبوا فيها لاغتياله فلم يجدوه في مكان نومه، ووجدوا في على فراشه علي بن أبي طالب، وكان الرسول قد أوصاه بذلك، للإفلات منهم، وغادر مكة مهاجرا إلى المدينة. وقد نجا فعلا. وبناء على هذه الرواية تكون سورة "الطور"، التي وردت فيها الآية المذكورة، آخر ما نزل في مكة! وهذا لا يستقيم، لا باعتبار رتبة هذه السورة في لوائح ترتيب النزول ولا باعتبار مضمونها.

وما نراه هو أن الاجتماع الذي تحدثت عنه رواية ابن إسحق قد وقع بعد بيعة العقبة الثانية التي فتحت المجال لهجرة المسلمين إلى المدينة. أما قول تعالى : "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ"، فيعبر عن حيرة قريش وعدم قدرتهم على اتخاذ قرار نهائي في شأن اغتياله، وهو رد فعل يمكن أن يكون قد صدر عنهم في أي وقت.

- نص السورة

1- مقدمة: إن عذاب ربك لواقع.. ما له من دافع ...

بسم الله الرحمن الرحيم

والطُّور[1] (الجبل الذي كلم الله فيه موسى)، وكِتَابٍ مسْطُورٍ[2] (القرآن) ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ[3] ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ[4] (الكعبة)، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ[5] (السماء)، وَالْبَحْرِ

الْمَسْجُورِ[6] (الذي يغلي، في جهنم)، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ[7] مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ[8] (وهذا تفصيل ذلك):

2- مصير المكذبين ومصير المتقين...

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (تتحرك جيئة وذهابا)[9] وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا[10]، فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[11]، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ[12]، يَوْمَ يُدَعُّونَ (يدفعون بعنف) إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا[13]: (يقال لهم) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ[14]، أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ[15]؟ اصْلَوْهَا، فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[16]. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ[17]، فَاكِهِينَ (متمتعين) بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ. وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ[18]؛ كُلُوا وَاشْرَبُوا، هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[19]: (يقال لهم ذلك بينما كانوا) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ[20] (زوجاتهم متكئات معهم). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ(1)، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ (ما أنقصنا) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[21] (يجزى حسب عمله). وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ[22]. يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا (يتناولها بعضهم من بعض)، لَا لَغْوٌ فِيهَا (الجنة) وَلَا تَأْثِيمٌ[23] (لا كذب). وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ، كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ[24]. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ[25]: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ [26] (كنا في الدنيا محرومين خائفين)، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ[27] (ريح حارة)، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ (الله). إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ[28].

3- فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ، بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ...

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ، -بِنِعْمَةِ رَبِّكَ(2)-، بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ[29]. أَمْ (هل) يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ[30]؟ (حوادث الأيام) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ[31]، أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا؟ أَمْ (بل) هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[32]؟ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ[33]! فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ[34]. أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ[35]؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَل لَا يُوقِنُونَ[36]! أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ، أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ[37]؟

---

1 - يقول الزمخشري : "فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم".

2- قيل: "بنعمة ربك" : قسم. وقيل ليست بقسم وإنما هو بمثابة قولنا : "فما أنت، والحمد لله، بكاهن..."

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ (إلى السماء) يَسْتَمِعُونَ فِيهِ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[38]! أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ؟ وَلَكُمُ الْبَنُونَ[39]! أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ[40]! (يشعرون بثقل الأجر عليهم)، أَمْ عِنْدَهُمُ (علم) الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ! [41] (ذلك العلم، وأين هو)! أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا (يتآمرون عليك)؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ[42] (المكيد بهم). أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ[43]! وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا (قطعا كالحجر ونحوه مما أهلك به الأقدمون) يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ[44]! فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ[45]. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[46]. وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ (قبل ذلك)(3)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[47] (ما سينزل بهم بعد هجرة النبي إلى المدينة).

4- وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (تحت رعايتنا)، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ[48]، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ[49].

- تعليق

تتميز هذه السورة والسور السبع التالية لها بخصائص ثلاث: فمن جهة وردت متتابعة في معظم لوائح ترتيب النزول، ومن جهة ثانية هي ذات حجم قصير، مع بعض التفاوت، ومن جهة ثالثة هي ذات موضوع مركزي واحد هو البعث، والخطاب فيها موجه إلى قريش، في الغالب، وبأسلوب جدلي.

أما أن تكون رتبها في لوائح ترتيب النزول مطابقة لمسار التنزيل فهذا ما تشهد له بالصحة بعض الإشارات في هذه السور وسنبرزها في حينها (وقد سبق أن عرضنا للرواية التي ترتبط بقوله تعالى "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" والتي تحيل إلى أواخر العهد المكي). وأما ما يفسر وجود هذه السور في هذه الرتب، حاملة الخصائص المذكورة، فهذا ما ليس واضحا الآن بالقدر الكافي. كل ما يمكننا قوله هو أن السور التي نزلت بعدها جاءت من جنس التي نزلت قبلها مضمونا وشكلا، الشيء الذي جعل هذه السور الثماني تبدو وكأنها "جملة اعتراضية"، داخل نفس السياق.

3- واضح أنه هو نفسه العذاب المشار إليه في السورة السابقة بقوله تعالى: "الْعَذَابِ الْأَدْنَى" (الآية 21) أي ما سيشنه عليهم المسلمون من غزوات بعد الهجرة إلى المدينة التي كانوا قد بدؤوا فيها. وانطلاقا من حقيقة أن القرآن نزل مفرقا على مقتضى الأحوال فإنه يمكن القول إن "الحال" الذي نزلت هذه السور مناسبة له هو وضعية المسلمين في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة).

تؤكد هذه السورة عن طريق القسم أن مصير المشركين إلى جهنم أمر واقع ليس له من دافع. ثم ترسم مشهدا لقيام الساعة، وآخر لما يلاقيه الكفار من عذاب في جهنم من جهة، وما يتمتع به المتقون من أنواع النعم في الجنة من جهة أخرى. بعد هذا تنتقل إلى مخاطبة النبي عليه السلام طالبة منه الاستمرار في الدعوة وعدم الاهتمام بما يصفونه من الجنون وغيره، فاتحة جدلا مع قريش، ترد فيه على ما يتداولونه من مكايد للتخلص منه، من قول بعضهم، اتركوه للزمن وحوادث الأيام، وانتظروا فسيموت كما مات الشعراء السابقون له، ويأتي جواب القرآن، في نوع من التحدي، "قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ". وتستمر السورة في مجادلتهم إلى أن تعود إلى مخاطبة النبي عليه السلام: "فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ[45]. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ"[46]. ثم تضيف: " وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ (قبل ذلك)(4)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[47]، مشيرة إلى عذاب سيلاقونه في الدنيا قبل الآخرة، كناية عن قرب دخول الدعوة مرحلة الحرب معهم، بعد أن أصروا على التكذيب بها والتنكيل بالمسلمين. ثم تختم بدعوة الرسول إلى التزام الصبر، فإنه تحت رعاية الله وعنايته ولن ينالوا منه شيئا: "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (تحت رعايتنا)، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ[48]، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ[49]".

4- واضح أنه هو نفسه العذاب المشار إليه في السورة السابقة بقوله تعالى: "الْعَذَابِ الْأَدْنَى" (الآية 21) أي ما سيشنه عليهم المسلمون من غزوات بعد الهجرة إلى المدينة التي كانو قد بدؤوا فيها. وانطلاقا من حقيقة أن القرآن نزل مفرقا على مقتضى الأحوال فإنه يمكن القول إن "الحال" الذي نزلت هذه السور مناسبة له هو وضعية المسلمين في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة).

77- سورة الملك

- تقديم

لم يرد حول هذه السورة شيء يستحق الذكر سوى أنها مكية باتفاق وأن قوله تعالى في السورة: "وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"، نزل -حسب رواية عن عباس- في جماعة من قريش كانوا يناقشون أمر النبي عليه السلام وكيفية التخلص منه، فقال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمعنا إله محمد؟

- نص السورة

1- مقدمة: خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[1]، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ[2].

2- مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ، فَارْجِعْ الْبَصَرَ، هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ[3] (شقوق) ؟ ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ"[4] (لعدم رؤية أي خلل). وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (تضربها عندما تحاول استراق السمع) وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ[5].

3- وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[6]. إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ[7]. تَكَادُ تَمَيَّزُ (تتمزق) مِنْ الْغَيْظِ (غضبا على الكفار)، كُلَّمَا

أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ"[8]؟ قَالُوا بَلَى! قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ، فَكَذَّبْنَا (رسلنا) وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ[9]. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ[10]! فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ، فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ[11]. إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (1) لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ"[12]، وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ(2)، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[13]. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"[14].

4- أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الأَرْضَ؟

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا (سهلة) فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا (سبلها)، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (البعث)[15]. أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ"[16] (تتحرك تتزلزل)! أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، (ريحا ترميكم بالحجارة) فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ[17]. وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[18] (إنكاري عليهم)! أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (يطلقن أجنحتهن ويقبضنها)، مَا يُمْسِكُهُنَّ (من السقوط) إِلَّا الرَّحْمَانُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ"[19]. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ، يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ؟ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ[20]. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ (الرحمان) رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُّوا (تمادوا) فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ[21]! أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا (واقعا) عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؟[22].

5- وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ؟

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ[23]. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ (خلقكم) فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ[24]. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[25]؟ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ

1- سبق أن قلنا إن المقصود بـ"الغيب" هنا هو الإيمان بالله من دون طلب أدلة حسية كالمعجزات كما كانت تطلب قريش من النبي عليه السلام.

2- روي عن ابن عباس أنها نزلت في جماعة من قرش كانوا يناقشون أمر النبي عليه السلام وكيفية التخلص منه، فقال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمعنا إله محمد؟

مُبِينٍ[26]. فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً (عندما يرونه قريبا منهم)، سِيئَتْ (تغيرت واسودت) وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ[27] (أنكم لا تبعثون).

6- خاتمة: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ ... فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ ؟

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (لا مجير لهم)[28]؟ قُلْ (مجيرنا الذي يحمينا) هُوَ الرَّحْمَانُ، آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[29] (نحن أم أنتم)؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا (غار في الأرض)، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ[30].

- تعليق

واضح من مضمون هذه السورة أنها تندرج ضمن السياق العام الذي تتحرك فيه سور هذه المرحلة. فهي تتحدث عن البعث، عن عذاب النار ونعيم الجنة. ومع أن خطاب الوعيد فيها موجه إلى قريش فإن الأدلة التي تعرضها هي من بيئة العرب خارج مكة، الشيء الذي يعني أن خطاب الدعوة موجه إليهم : السماوات الطباق، والكواكب زينتها، الأرض الذلول، والمشي في مناكبها، الطيور الصافات تجري في السماء دون أن تسقط. أضف إلى ذلك إشارة السورة إلى انشغال قريش بأمر التخلص من الرسول والرد عليهم (التقديم والخاتمة).



78- سورة الحاقة

- تقديم

لم يرد في شأنها ما يستحق الذكر سوى اتفاقهم على أنها مكية، وتحديد رتبتها في لوائح ترتيب النزول ما بين الرتبتين 77و 78.

- نص السورة

1-مقدمة: الحاقة ما الحاقة ؟

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَاقَّةُ[1] (القيامة)، **مَا الْحَاقَّةُ**[2]! **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**[3]؟! (تهويل أمرها).

2- ثمود، عاد فرعون، لوط ، إشارات للتهديد والتخويف

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ[4] (القيامة)! **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ**[5] (الصيحة الطاغية)، **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**[6] (شديدة الصوت قوية)، **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** (متتابعات كتتابع الكي الذي يحسم فيما يشكو منه المكوي) **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**[7] (جذوع نخل لا جريد فوقها)! **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ**[8]؟! **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ، وَالْمُؤْتَفِكَاتُ** (أهل قرى لوط) **بِالْخَاطِئَةِ**[9]، **فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً** (زائدة في الشدة)[10]. **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ** (حدث الطوفان) **حَمَلْنَاكُمْ** (أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، أي الإنسان كنوع) **فِي الْجَارِيَةِ**[11] (في سفينة نوح). **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً** (عظة) **وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**[12].

3- مشهد قيام الساعة والحساب والجزاء : الجنة أو النار...

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ[13]، **وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**[14]، **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**[15]. **وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ**[16] **وَالْمَلَكُ**

عَلَى أَرْجَائِهَا، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ[17] (من الملائكة). يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ[18]. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ (خذوا)[(1)]، اقْرَءُوا كِتَابِيَه[19]. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه[20]. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ[21]، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ[22]، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ[23]، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ[24]، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه[25]، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه[26]، يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ[27]، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه[28]، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه[29] (سقطت عن حجتي). (قيل) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ[30] (اجمعوا يديه إلى عنقه)، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ[31] (ألقوه)، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا (قياسها) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ[32] (كتفوه). إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ[33]، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ[34]، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ[35]، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ[36] (شجر في جهنم)، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ[37] (أخطئوا في الدنيا طريق الرشاد).

4- خاتمة: إنه لقول رسول كريم

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ[38] وَمَا لَا تُبْصِرُونَ[39]: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ[40]، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ[41]! وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ[42]! تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ[43]. وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا (النبي محمد) بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ[44]، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ[45] (لعاقبناه عقابا شديدا). ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[46] (شريان القلب). فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ[47] (مانعين عنه العقاب). وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ[48]. وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ[49]، وَإِنَّهُ (القرآن) لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ[50] (عندما يرون تحقق ما يخبرهم به)، وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ[51] فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ[52].

- تعليق

تندرج هذه السورة ضمن سور هذه المرحلة من حيث تركيزها على البعث والحساب. وتتميز هذه السورة القصيرة بكونها تستعيد مضمونا وشكلا سورا أخرى نزلت في المرحلة الثانية تدور حول "البعث ومشاهد القيامة" (القسم الأول من هذا الكتاب). وكما قلنا في تعليق سابق فالتكرار الملاحظ في هذه السور يرجع إلى اختلاف المخاطَب. كان المخاطَب في المرحلة الثانية، خلال السنة الرابعة والخامسة للنبوة، هم مشركو قريش، خوطبوا بحديث البعث ومشاهد القيامة. أما هنا في

[1] - **هاؤم: للجمع المذكر، كما أن هاكن للجمع المؤنث، وهاك للمفرد الخ).**

المرحلة السادسة، التي استغرقت أربع سنوات (العاشرة - الرابعة عشرة) فالمخاطبون هم أهل القبائل والمسلمون الجدد في المدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية، فضلا عن أهل مكة. وقد سبق أن قلنا إنه أمام غياب وسائل النشر والاتصال، لم يكن هناك من سبيل لتبليغ الدعوة سوى إعادة التذكير بما سبق أن نزل. كان المسلمون الأوائل الذين عايشوا نزول القرآن في المرحلتين الأولى والثانية قد هاجروا إلى الحبشة ولم يبق مع النبي إلى أفراد من قدماء المسلمين (أبو بكر وعمر وعلي ...). فكان استئناف الدعوة بعد الخروج من الحصار يكتسي طابع الإعادة ــ خصوصا وأركان الدعوة بقيت هي هي : النبوة، التوحيد، البعث. أما القصص فالمناسب في هذه المرحلة هو ذلك الذي يشكل جزءا من موروث العرب - أهل القبائل خاصة- أعني قصص عاد وثمود وما يسمعونه عن فرعون مصر وهو ما تستعيده هذه السور وبشكل مركز ومناسب لمقتضى الأحوال.



79- سورة المعارج

- تقديم

كل ما ورد في شأن هذه السورة من "أسباب نزول" خبر ورد فيه أن قوله تعالى "سَأَلَ سائلٌ بِعَذابٍ واقِع" الآيات، نزل في النضر بن الحارث حين قال: "اللَّهُمَّ إن كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِن عِندِكَ" الآية، فدعا على نفسه وسأل العذاب. وهنك خبر آخر مؤداه أن قوله تعالى "أيَطمَعُ كُلُّ امرئ مِّنهُم أن يُدخَلَ جَنَّةَ نَعيمٍ كَلا..." (الآية 38) نزل ردا على المشركين الذين كانوا يرون النبي (ص) وحوله المستضعفون يستمعون القرآن يتحدث عن الجنة فقالوا: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وكما سبق أن قلنا غير ما مرة فإن معظم الآيات التي يقال عنها إنها نزلت بسبب "كذا" لا شيء يثبت أنها نزلت فعلا بسبب ذلك، فلم يكن هناك تسجيل بهذا المعنى، بل كل ما هناك هو أن المهتمين بتفسير القرآن في مراحل لا حقة كانوا يسألون الصحابة أو التابعين عن النوازل التي يمكن أن تكون لها علاقة بهذه الآية أو تلك. وهكذا فقولهم إن الآية الفلانية "نزلت بسبب كذا" لا يعني بالضرورة أن الأمر كذلك بالفعل، كل ما هناك هو أن الآية قد تجد ما يعين على فهمها في هذه الحادثة أو تلك، بناء على أن القرآن نزل منجما حسب مقتضى الأحوال. لكن القرآن كما نزل وجمع وكما نقرؤه في المصحف هو مجموعة سور، تتناول أكثر من موضوع، وذات خطاب مبني، أي عبارة عن آيات (أي مقاطع كلامية) ترتبط ببعضها داخل سياق معين. فالآيات، -أو بعض أجزائها- التي يقال عنها إنها نزلت بسبب النازلة الفلانية هي مندرجة في سياق معين، والغالب ما يصعب فصلها عن سياقها لكي تلبي مقتضيات ما اعتبر "سببا لنزولها". ولذلك كان الأساس في فهم القرآن هو السياق، أما ما يذكر من أسباب نزول ففائدته هو أنه يمدنا بعناصر تساعدنا على موضعة الآية في موقعها المحتمل على مستوى السيرة النبوية، أما على مستوى التنزيل فالاعتبار للسياق أولا وأخيرا([1]).

---

[1]- يصدق هذا على القرآن المكي خاصة. أما علاقة "أسباب النزول" بالقرآن المدني فسنتعرف عليها حين تعاملنا معه.

- نص السورة

1- مقدمة: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ[1] لِلْكَافِرِينَ، لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ[2]، (عذاب) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ[3] (السماوات، في السماء العليا، كناية عن علو المقام): تَعْرُجُ (تصعد) الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ (جبريل) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ[4] (كناية عن علو وسمو مقام الله). فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا[5] (على أذى قومك، وتكذيبهم بيوم القيامة فسيلاقون العذاب الذي عنه يسألون). إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ (العذاب يوم القيامة) بَعِيدًا[6]، وَنَرَاهُ قَرِيبًا[7].

2- يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ..

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (كالفتات)[8] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (الصوف المنفوش)[9]، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا[10] (ولا يطلب قريب قريبا) يُبَصَّرُونَهُمْ (يرشدونهم. حينذاك). يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ[11] وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ[12] وَفَصِيلَتِهِ (عشيرته) الَّتِي تُؤْوِيهِ[13]، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، ثُمَّ يُنْجِيهِ[14] (2). كَلَّا، إِنَّهَا لَظَى[15] (جهنم)، نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (تنزع جلد الرأس)[16]، تَدْعُو (تطلب وتمسك من جلد رأسه) مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى[17]، وَجَمَعَ (المال) فَأَوْعَى[18] (حفظه في وعاء).

3- خصال المؤمن ... ومشهد القيامة

إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا[19] (شديد الفزع)، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا[20] (تراه خائفا)، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا[21] (بخيلا)، إِلَّا الْمُصَلِّينَ[22] الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ[23]، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ[24] لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ[25] (3). وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ[26]، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[27] إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ[28] (4). وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ[29]، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

2- المعنى: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي عذاب جهنم بجميع من ذكرتهم الآية.

3- مدح للمؤمنين الذين يجعلون في أموالهم حقا للسائل والمحروم.

4- بمعنى أنهم يخشون عذاب ربهم باستمرار لأن القيام بما ذكر لا يمنعهم بصفة نهائية من العقاب، ولذلك يحترزون من اقتراف ذنوب أخرى بعد أن يكونوا قد قاموا بما تقدم.

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ[30]، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ[31] (المعتدون). وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[32] (لا يخلفون)، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ[33] (يؤدون شهادة الحق)، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[34]. أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ[35].

4- أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ[36] (مركزين أنظارهم فيك)، عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عِزِينَ[37] (متحلقين حولك)، أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ[38]؟ كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ[39] (من نطفة، متساوون، والجنة يتوقف الدخول إليها على العمل لها). فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ [(5)] إِنَّا لَقَادِرُونَ[40] عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ[41] (بعاجزين).

5- خاتمة: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ ...

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ[42]، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنْ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا (من القبور مسرعين إلى المحشر) كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ (رايات وما أشبه) يُوفِضُونَ[43] (يسارعون)، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ، تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ. ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ[44].

تعليق

كان خصوم الدعوة المحمدية من مشركي مكة يعترضون على عقيدتها التي تقوم على المبادئ الثلاثة الرئيسية: النبوة، والتوحيد والبعث:

كان اعتراضهم على نبوة محمد مبنيا على عدة حجج : منها أنه بشر مثلهم يأكل الطعام، وأنه لم يأت بمعجزة كما فعل أنبياء سابقون مثل موسى وعيسى الخ، وهذه الحجج كانت ضعيفة أمام دعوة القرآن لهم إلى استعمال عقولهم والنظر في نظام الكون وفي أنفسهم. وأمام إصرارهم واتهامهم النبي بافتراء القرآن تحداهم أن يأتوا بسور أو حتى بسورة واحدة مثله، فعجزوا.

5- تشرق الشمس وتغرب كل يوم في نقطة خاصة من الأفق، متحركة حركتها الظاهرة من المشرق إلى المغرب. والقسم هنا برب المشارق والمغارب يناسب الموضوع وهو أن قدرته تعالى على إعادة خلق البشر، كقدرته على جعل الشمس تشرق وتغرب ثم تعود فتشرق ...

وكان اعتراضهم على التوحيد، بمعنى نفي الشريك عن الله، بإبداء عجبهم من كون محمد عليه السلام جعل الآلهة إلها واحدا! وهنا أيضا كان رد القرآن عليهم حاسما، فلم يجدوا ما يردون به إلا القول بأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون.

أما اعتراضهم على المبدأ الثالث، أعني، البعث والجزاء، فقد بنوه على حجتين: الأولى قولهم باستحالة إحياء العظام "وهي رميم". ومعلوم أن القول باستحالة وجود شيء، لا يقوم حجة إلا إذا كانت هناك تجربة أو تناقض منطقي. أما الحجة الثانية فهي نوع من مطالبة الخصم بإثبات دعواه بالإتيان بما يدعيه. وفي الجدل العقلي لا يصح هذا، ذلك لأن على صاحب الدعوى أن يثبت عقليا إمكانية حدوث ما يدعيه، لا أن يأتي به مشخصا، وعلى خصومه أن يردوا على حججه بما يفسدها أو يوهنها. ولما لم يكن في إمكان قريش القيام بمثل هذا الرد عمدوا إلى التمسك بسؤال يعرفون مسبقا أنه لا أحد يستطيع الجواب عنه: متى تقوم القيامة ويكون البعث؟ وأحيانا يتحول السؤال إلى تحد باستعجال قيامها! هذا في حين أن البعث ليس مجرد حادثة، بل هو حساب وجزاء، وبالتالي تحميل الإنسان مسؤوليته، والذين ينكرون البعث إنما يتهربون من تحمل مسؤولية سيئات أعمالهم، ومسؤولية تقصيرهم في تحصيل الحسنات التي يذهبن السيئات.

من هنا كان الجدل حول البعث حاميا بينهم وبين الدعوة المحمدية، فالقضية ليست مجرد مسألة ما ورائية، بل هي مسألة تخص الدنيا قبل الآخرة. وإلى هذا الصنف من الجدل ينتمي الخطاب القرآني في هذه المجموعة من السور القصيرة نسبيا التي نزلت في هذه المرحلة الأخيرة من مسار التنزيل في مكة.

لنقرأ السورة التي نحن ضيوف عليها من هذا المنظور:

1- تنطلق السورة من التأكيد على أن العذاب الذي وعد الله به المشركين واقع لا محالة يوم القيامة. أما استعجالهم له، أي لقيام القيامة وفناء العالم، فهو ناتج عن اعتقادهم أو توهمهم بأن فناء العالم أي انتهاء زمان الدنيا يمكن قياسه بمقاييس البشر. وتضرب السورة لذلك مثلا بمَلِك يصدر أوامره لحكام أقاليم مملكته فإذا كانت هذه المملكة واسعة جدا فإن حاملي تلك الأوامر إلى أولئك الحكام سيحتاجون إلى زمن طويل (بقياس وسائل الاتصال آنذاك). وإذا شبهنا مهمة الملائكة بمهمة حاملي أوامر الملك إلى الأقاليم البعيدة في مملكته، فإنه سيكون على الملائكة أن يصعدوا إلى الله في إطار زمن كل يوم فيه يعادل خمسين ألف سنة من أيام البشر. ومن هذا المثل يتبين أن الوعد الإلهي بقيام الساعة ومعاقبة المكذبين يحتاج تنفيذه من طرف الملائكة إلى زمن طويل جدا. وإذن فعلى الرسول أن لا يخضع لمنطق قريش حين يطلبون منه تحديد "تاريخ" قيام القيامة. إن عليه أن يصبر كما صبر الرسل من قبل،

بدون قلق ولا فقدان ثقة في النفس، إنه الصبر الجميل المطلوب منه. خصوم الدعوة المحمدية يقيسون المسافة التي تفصلهم عن يوم القيامة بزمنهم البشري فيرونه بعيدا جدا، يرونه حدثا ضائعا في أفق لا حد له، تماما كما يبدو لهم "تاريخ" بداية خلق الكون ضائعا في الأفق المقابل.

2- يوم القيامة هو يوم "البعث" بعد فناء العالم بما فيه الزمان. ومن مشاهد هذا الفناء: أن السماء تفقد تماسكها فتصير فتاتا، والجبال تفقد صلابتها فتصير منفوشة كالصوف. أما البشر فيصيبهم الذهول: فلا يسأل قريب عن قريب يقوده أو يرشده. لا يهتم المجرم الذي ينتظره العذاب بالبحث عن أقارب أو أصدقاء، بل هو مستعد -إن أمكنه ذلك- أن يقدم بنيه وزوجته وأقاربه "ومن فالأرض جميعا" ثمنا لنجاته من العذاب، ولكن هيهات! إن نار جهنم تخطفه إليها، تمسك إليها بجلد رأس كل من أعرض عن الدعوة المحمدية وانقطع لجمع المال وخزنه.

3- ذلك هو طبع الإنسان الذي طبعه الله عليه: إذا مسه الشر فزع وخاف، وإذا مسه الخير بخل به على الضعفاء والمحتاجين. ذلك هو سلوك المشركين. أما المؤمنين الذي يداومون على عبادة الله، ويتصدقون على المحتاجين، ليس من موقع المراءاة والتفاخر أو المن على الضعفاء، بل هم يفعلون ذلك من موقع شعورهم بأن في أموالهم حق للسائل والمحروم، وإيمانهم باليوم الآخر، يوم الحساب، وخوفهم على أنفسهم من عذاب ربهم، وإشفاقهم على أنفسهم من أن يقصروا فيصيبهم نصيب المقصر من العذاب. ليس هذا فحسب، بل إن من خصال هؤلاء الؤمنين أنهم لا يزنون ولا ينكثون العهد ولا يضيعون الأمانة ولا يتهربون من أداء شهادة الحق، ولا يسهون عن صلاتهم. هؤلاء مصيرهم الجنة، يقيمون فيها مكرمين.

4- لماذا يجلس الذين كفروا في حلقات من حولك ويركزون أن"ارهم فيك وأنت تقرأ هذا الذي يوحى إليك؟ هل يطمع كل منهم في الجنة؟ كيف؟ وبأي حق؟ هل يمكن إشراكهم مع المؤمنين لمجرد أنهم خلقوا من نطفة؟ هل يعتبرون أنفسهم أرفع أصلا ومنزلة من المؤمنين؟ ليس الأمر كذلك! المصير إلى الجنة يتوقف على العمل الصالح. هل يتعقدون أن وجودهم ضروري لبقاء الدنيا كما هي؟ لا! إن وجودهم غير ضروري في الدنيا حتى يطمعوا في الجنة بدون عمل. إن الله قادر إلى أن يبدلهم خيرا منهم؟

5- هؤلاء مغرورون مفتونون بالدنيا، فلتتركهم يلهون ويلعبون حتى يفاجئهم اليوم الذي يوعدون، يوم البعث، اليوم الذي سيخرجون فيه من قبورهم، مسرعين إلى المحشر، يسابق بعضهم بعضا من شدة الفزع، أبصارهم خاشعة وعلى وجههم مذلة. ذلك هو اليوم الذي يوعدون.



80- سورة النبأ

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة سوى أنها مكية وأن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تقع بين الرتبتين: 72 و 80. أما الأخبار التي تعود بنزول هذه السورة والسور المجاورة لها هنا إلى السنوات الأولى من البعثة، فلا شيء يزكيها سوى تشابه مضمونها مع تلك السور، وقد سبق أن بينا أن هذا التشابه يجب أن لا يخفي عنا ما بينهما من اختلاف يرجع إلى نوع المخاطب. من تلك الأخبار أن ابن عباس قال: "كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به" فنزلت: "عم يتساءلون". والقول إن كون قريش كانت تجتمع وتتساءل الخ، لا يصح دليلا على أن هذه السورة نزلت لهذا السبب، فقد كان تداول قريش في أمر محمد عليه السلام شغلها الشاغل منذ نبوته إلى انتهاء أمر قريش بفتح مكة...

- نص السورة

1- مقدمة: يتَسَاءَلُونَ، عَنْ النبأ الْعَظِيمِ!

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ[1]؟ عَنْ النبأ الْعَظِيمِ[2] (قيام القيام)[1] الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ! كَلَّا سَيَعْلَمُونَ[4]، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ[5].

1- بعض المفسرين فسروا النبأ العظيم بالنبوة: بمعنى أن قريشا كانوا يتساءلون عن حقيقة نبوة محمد (ص). والواضح أن السياق يدل على أن موضوع السؤال هو "البعث". فالوعيد "كلا سيعلمون..." يدل عليه: كلا سيعلمون ما يسألون عنه يوم حدوثه: يوم تقوم الساعة. أما كونهم مختلفين فيه فلأن بعضهم ينكره إنكارا وبعضهم متردد، وبعضهم يشك الخ. وقد سبقت الإشارة إلى حيرة قريش في هذا الأمر. ثم هناك الآية التالية بعد، التي تتحدث عن يوم الفصل بوصفه ميقاتا أي موعدا محددا.

2- أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا...

أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ مِهَادًا (فراشا)[6]، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا[7]، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا[8]، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (راحة)[9]، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا[10]، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا[11] (لطلب المعاش)، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا[12] (سماوات لا يؤثر فيها الزمن)، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا[13] (الشمس)، وَأَنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ (السحاب) مَاءً ثَجَّاجًا[14] (صبابا)، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا[15]، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا[16] (بساتين ملتفة كثيفة الأشجار)؟ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا[17] (موقوتا. وهذا جواب الاستفهام : ألم نجعل...).

3- عذاب جهنم ونعيم الجنة ...

يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ (قرن) فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا[18]، وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا[19]، وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا[20] (سريعة كالسراب)، (في ذلك اليوم :) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا[21]، لِلْطَّاغِينَ مَآبًا[22]، لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا[23]، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا[24]، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا[25] (ماء حارا وصديدا)، جَزَاءً وِفَاقًا[26]. إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا[27]، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا[28]، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا[29]، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا[30]. إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا[31]، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا[32]، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا[33]، وَكَأْسًا دِهَاقًا[34]، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا[35]، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا[36]. رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا: الرَّحْمَانِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا[37] (لا يجرؤ أحد أن يكلمه)، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا[38].

4- خاتمة: إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ...

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا[39]. إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا، يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا[40].

- تعليق

1- موضوع السورة كما أفصحت عنه مقدمتها هو البعث. لقد أجابت السورة السابقة الذين كانوا ينكرون البعث باستعجال حدوثه، وبينت مصير المكذبين ومصير المؤمنين، وما يتطلبه الدخول إلى الجنة من خصال الخ، وتأتي هذه السورة لتبين للذين

ينكرون البعث من زاوية أنه غير ممكن، أن فعل الله وخلقه وصنعه الذي يرون في الدنيا دليل على إمكانيته:

2- إن أجزاء الكون من أرض وسماء وليل ونهار وسحاب ومطر الخ، كل ذلك خلقه الله في نظام وترابط ولغاية، فلماذا تقرون بهذا ولا تسلمون أن الله جعل لهذا العالم ميقاتا لفنائه ثم إحيائه من جديد، عالما آخر يتم فيه الفصل والحكم بين المؤمن والمشرك، والظالم والمظلوم، يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا. فبدون هذا اليوم الفصل تبقى الحياة بدون معنى: الحق فيها والباطل سيان!

3- يوم الفصل، ينفخ في الصور، فتقوم القيامة، ويفنى العالم، تنشق الأرض فتخرجون من قبوركم أفواجا، تنشق السماء فتتعدد فيها الفتحات والأبواب، وتسير الجبال (ومنها المحيطة بمكة) فتصبح سرابا. وحينها تفتح جهنم أبوابها لمن كانت تنتظره من الطغاة ليجازوا عما عملوا، كما تفتح الجنة أبوابها لمن أعدت لهم من المتقين، ثوابا لهم. كل في المكان الذي يستحقه في الجنة أو في النار، ولا أحد يحتج، بل الكل صامت! الله لا يقدر أحد على أن يكلمه : في هذا المشهد يقف جبريل والملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وكان كلامه صوابا.

4- ذلك هو النبأ العظيم الذي ينذر به القرآن، فمن شاء منهم جعل مآبه إلى الله، أما الكفار المعرضون المكذبون فسيندمون عندما يحاسبون على ما قدمت أديهم، وحينئذ يتمنون أن لو كانوا في الدنيا مجرد تراب...

81- سورة النازعات

- تقديم

من الأخبار التي وردت حول آيات من هذه السورة الخبر التالي، قالوا: لما نزل قوله تعالى "أإنا لمردودون في الحافرة" (الآية 10)، قال كفار قريش : لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت "قالوا تلك إذا كرة خاسرة" (الآية 12) . وفي خبر آخر أن النبي (ص) كان يُسأل عن الساعة فنزلت : "يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها". هذا وقد رتبت هذه السورة في لوائح النزول بين الرتبة 72 والرتبة 81، فهي من أواخر ما نزل، وهي مكية باتفاق.

- نص السورة

1- مشهد قيام الساعة: النفخة الأولى والنفخة الثانية...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا[1] (النجوم تجري في السماء من جهة إلى جهة حتى تغرق في الأفق)، **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا**[2] (الكواكب السيارة دائمة الحركة)، **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا**[3] (النجوم تسبح في السماء)، **فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا**[4] (السابقات من السابحات)، **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**[5] (شروقا وأفولا وما يرتبط بذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول الخ)(1)، **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**[6] (النفخة الأولى في الصُور: فناء

---

1 - ذكر معظم المفسرين احتمال أن يكون المقصود من "النازعات" الخ، النجوم كما أثبتنا، ولكنهم مالوا إلى ترجيح أن يكون المقصود بهذه الموصوفات هم الملائكة، وذلك في ارتباط مع مقتضيات العقيدة الإسلامية. أما نحن فقد فضلنا الاحتمال الأول باعتبار أن الآيات تخاطب المشركين من قريش بما هو من المشاهد عندهم، أي من معهودهم. وقد رأينا كيف أقسم الله بالظواهر الطبيعية، كالشمس والليل والفجر والضحى وغيرها من عناصر الكون التي يعرفها الناس كلهم ويشهدون بصحة ما يصبغ عليها القرآن من أوصاف. فالهدف ليس تقرير العقيدة بقدر ما هو الاحتكام إلى ما لا ينازع فيه الخصم، وهذا من قبيل الاستدلال بالشاهد على الغائب.

العالم) **تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**[7] (النفخة الثانية للبعث، للخروج من القبور والجملة: يوم... جواب القسم في رأينا)[(2)].

2- يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ (قلوب المشركين وقت الرجفة الثانية) **وَاجِفَةٌ**[8] (قلقة خائفة)، **أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**[9] (ذليلة): **يَقُولُونَ** (المشركون) **أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ**[10] (في حفرة جهنم؟) [(3)]! **أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً**[11] (أسيحدث ذلك بعد أن كنا عظاما منخورة)؟! **قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ** (رجوعهم إلى الحياة بعد الموت) **خَاسِرَةٌ**[12]. (وهكذا) **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ** (نفخة ثانية) **وَاحِدَةٌ**[13]، **فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ**[14] (بوجه الأرض، العارية، أحياء بعد أن كانوا أمواتا في القبور).

3- فرعون كذب وعصى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى

هَلْ (قد) **أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى**[15]، **إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**[16] (اسم الوادي حيث خاطبه الله فيه وقال)، **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**[17]، **فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى**[18]، **وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى**[19]؟ **فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى**[20] (عصا موسى)، **فَكَذَّبَ وَعَصَى**[21]، **ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى**[22]، **فَحَشَرَ** (جمع السحرة) **فَنَادَى**[23] (في

---

2 - اختلف المفسرون والنحاة في جواب القسم، وقد عرض الطبري جملة من الآراء، وانتهى إلى القول : "والصواب من القول في ذلك عندنا: أن جواب القسم في هذا الموضع، مما استغني عنه بدلالة الكلام، فترك ذكره"، بمعنى أنه يفهم من السياق، وترك الباب مفتوحا. ونحن نرى أن الجواب مذكور وهو الجملة : "يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة". والمعنى : أقسم بـــ"النازعات غرقا" وغيرها من ظواهر انهيار العالم وفنائه أنه بعد أن ترجف الراجفة وقيام الساعة ويفنى العالم ستتبعها رجفة ثانية هي البعث للحساب، فالقسم من أجل تأكيد البعث.

3 - شرح المفسرون "الحافرة" بــ"الحياة" ونُسب هذا النوع من الشرح لابن عباس وغيره، وذلك على معنى : "يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم (اليوم وهم أحياء): إنكم مبعوثون من بعد الموت: أئنا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات، فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا، وقبل مماتنا؟ وهو من قولهم: رجع فلان على حافرته: إذا رجع من حيث جاء". هذا بينما يدل السياق بوضوح على أن قول المشركين المذكور هو رد فعلهم، وقلوبهم واجفة، يرتعدون، من المشهد الذي وجدوا أنفسهم إزاءه وقد خرجوا من قبورهم على أثر الراجفة الثانية. وإذن فسؤالهم ليس سؤال إنكار أو استهزاء بل هو سؤال يعبر عن كونهم فوجئوا بكون البعث حصل، وأنهم سيُلقى بهم في الحافرة (بمعنى محفورة)، أي في النار: سيردون إلى حفرة أخرى، قبر آخر ليس كالقبر الأول بل هو قبر من النار. وفي التوراة استعمل لفظ "الحفرة" بهذا المعنى كناية عن جهنم.

قومه)، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى[24]. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ (عقاب) الْآخِرَةِ (على قوله : أنا ربكم الأعلى) وَالْأُولَى[25] (على تكذيبه موسى). إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى[25].

4- أَأَنْتُمْ (يا أهل مكة) أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ، بَنَاهَا ...

أَأَنْتُمْ (يا مشركي مكة) أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ؟ : بَنَاهَا[27]، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا[28]، وَأَغْطَشَ (أظلم) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا[29]، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا[30]، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا[31]، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا[32]، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[33] (كل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم) .

5- الحساب: الجحيم أو الجنة

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (النفخة الثانية)[34]، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى[35] (حين الحساب)، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى[36]: فَأَمَّا مَنْ طَغَى[37] وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا[38] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى[39]. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى[40] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[41].

6- خاتمة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا.. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا!

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا[42] (متى وقوعها)! فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا[43] (ليس من شأنك علمها)؟ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا[44] (علمها عند الله). إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا[45]. كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا (يخيل إليهم أنهم) لَمْ يَلْبَثُوا (في الدنيا أو في قبورهم) إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا[46].

- تعليق

دأب مشركو مكة على إنكار البعث، وقد سبق أن بينا أن مضمون البعث في العقيدة الإسلامية مبني على فكرة المسؤولية : بمعنى أن الناس سيحاسبون في الآخرة على ما فعلوه في الدنيا. وهذا كابح ديني أخلاقي ملزم، الغرض منه صد الناس عن الظلم وما في معناه، وحثهم على فعل الخير. وهذا ما لم يكن يستسيغه الملأ من قريش : أصحاب سلطة القبيلة وسلطة المال. ومن أجل الحفاظ على سلطتهم المزدوجة تلك، كذبوا بالبعث وكانت حجتهم التي يكررونها هي أن الإنسان عندما يموت تصير عظامه "نخرة" ويتحول جسمه كله إلى تراب الخ. وفي الرد على القائلين

بهذا (وقد وجد منهم قبل الإسلام وبعده) كتب الرازي في تفسيره تعليقا اعتمد في بعض جوانبه على محاولة تحديد معنى "الإنسان" عندما يقال عنه إنه سيبعث يوم القيامة، ننقله للقارئ ليطلع على رأي متكلم فيلسوف أشعري في الموضوع. قال:

"اعلم أن حاصل هذه الشبهة (احتجاج منكري البعث بتحول الإنسان بعد الموت إلى "عظام نخرة") أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله: "أنا" هو هذا الجسم المبني بهذه البنية المخصوصة. فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته، لوجوه:

– أحدها أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى، وذلك قول بإعادة عين ما عدم أولاً، وهذا محال لأن الذي عدم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أن يقال بأن العائد هو عين ما فني أولاً.

– وثانيها: أن تلك الأجزاء تصير تراباً وتتفرق وتختلط بأجزاء كل الأرض.

– وثالثها: أن الأجزاء الترابية باردة يابسة [4] قشفة (رثة متحللة)، فتولد الإنسان، الذي لا بد وأن يكون حاراً رطباً في مزاجه، عنها محال. هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم: "أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً".

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه أولها: وهو الأقوى: لا نسلم أن المشار إليه لكل أحد بقوله: أنا هو هذا الهيكل (الجسد)، ثم إن الذي يدل على فساده وجهان:

– الأول: أن أجزاء هذا الهيكل في الذوبان والتبدل، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله "أنا" ليس في التبدل، والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل.

والثاني: أن الإنسان قد يعرف أنه هو، حال كونه غافلاً عن أعضائه الظاهرة والباطنة. والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به، وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله: "أنا" ليس هو هذا الهيكل (الجسد بل هو النفس). ثم ههنا ثلاث احتمالات :

أحدها أن يكون ذلك الشيء (=النفس) موجوداً قائماً بنفسه، ليس بجسم ولا بجسماني، على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين[5].

وثانيها: أن يكون جسماً مخالفاً بالماهية لهذه الأجسام القابلة للانحلال والفساد، "كأن يكون روحا" سارية فيه سريان النار في الفحم، وسريان الدهن في

4- اليبوسة البرودة والرطوبة والحرارة (في الفكر العلمي القديم) من خصائص العناصر الأربعة التي تتكون منها الأجسام: التراب، الماء، الهواء، والنار.

5- والقائلون بهذا يقولون إن البعث للنفوس وليس للأجساد وأن الله خاطب العرب حسب فهمهم لـ" الإنسان" بكونه هذا الجسم المشار إليه بالاسم الذي أعطي له : زيد أو عمرو.

السمسم، وسريان ماء الورد/في جرم الورد. فإذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الأجزاء (أجزاء ذلك الجسم الروحي) وبقيت حية مدركة عاقلة، إما في الشقاوة أو في السعادة.

وثالثها: أن يقال: إنه جسم مساو لهذه الأجسام في الماهية، إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكوّن شخص في الوجود إلى آخر عمره، وأما سائر الأجزاء المتبدلة تارة بالزيادة، وأخرى بالنقصان، فهي غير داخلة في المشار إليه بقوله "أنا". فعند الموت تنفصل تلك الأجزاء وتبقى حية، إما في السعادة أو في الشقاوة.

وإذا ظهرت هذه الاحتمالات ثبت أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ما هو الإنسان حقيقة. وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكري البعث. وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير في دفع الحشر والنشر البتة".

واضح أن رأي الرازي الأشعري مما قرره أعلاه هو أن البعث للأرواح لا للأجساد. وهذا هو نفسه الرأي الذي سبق لأستاذه الغزالي الأشعري أن نسبه للفلاسفة (ابن سينا خاصة) فكفرهم بسببه في كتابه "تهافت الفلاسفة".

هناك مسألة أخرى تثار بمناسبة قوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ[6] (النفخة الأولى في الصور: فناء العالم) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ[7] (النفخة الثانية : الخروج من القبور: البعث.)، فهذه الآية لا تترك مجالا للقول بـ"عذاب القبر". كل ما هناك نفختان : النفخة الأولى التي يفنى بها العالم، بما فيه الإنسان، ثم النفخة الثانية التي يكون بها البعث. أما الأخبار والأحاديث التي تروى حول تفاصيل "السؤال" و"عذاب القبر" فليس في القرآن ما يشهد لها بالصحة وكل ما ذكر في الموضوع تأويلات بعيدة. والعلماء يجعلون العذاب يوم القيامة للأرواح وليس للأجسام، كما ذكر الرازي أعلاه.

هذا وقد ذكر ابن حزم في فصل طويل[(6)] كلاما عن "عذاب القبر" يستفاد منه ما يلي، قال: أنكر بعض المعتزلة والخوارج وغيرهم وجود عذاب القبر إذ لم يرد عنه في القرآن نص صريح، وكل من قال إن في القرآن ما يدل على عذاب القبر إنما هو متأول. والظاهر أن من حجج من أنكروا عذاب القبر -بحجة العقل- اعتراضهم بمن يأكله السبع أو يغرق في البحر ويأكله الحوت أو من مات بسبب نار أحرقت جسمه الخ. ويرد ابن حزم بأن العذاب بعد الموت لا يتعلق بالأجسام بل بالأرواح. فالعذاب في الآخرة هو عذاب الأرواح وليس عذاب الأجسام التي تفقد الإحساس بالموت، وما الموت إلا خروج الروح من الجسد الذي يبقى جثة هامدة ثم تتحلل الخ. وقد ذكر ابن

6- ابن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل ج1 : الكلام في الشفاعة والميزان والحوض وعذاب القبر والكتبة. مكرر في ج3

حزم روايات عديدة عن الصحابة تؤكد أن العذاب بعد الموت هو عذاب الأرواح لا الأجسام. أما أين تكون الأرواح بعد فراقها الأجسام فذلك أمر مختلف فيه. لمزيد بيان أنظر الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية. القسم الأول. وأيضا "التعليق: سورة نوح.

82- سورة الانفطار

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة سوى أنها مكية باتفاق، وقد رتبت بين 72 و 84 في لوائح ترتيب النزول.

- نص السورة

1- مقدمة: قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ[1] (انشقت)، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ[2]، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ[3]، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ[4]، (جواب القسم: حدث البعث و) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ[5].

2- البعث والحساب والجنة والنار...

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ[6] (فلم تهتم بأوامره وهو)(1) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ[7] (جعلك معتدل الخلقة)، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ[8]؟!(2) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ[9] (بالبعث والحساب)، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ[10] (ملائكة يسجلون

1- والمعنى ما الذي جعلك تتساهل وتتهاون في الاستجابة لربك؟ قيل، قال عليه السلام: "غرَّه جهله".

2- بعض المفسرين يجعلون "ما" زائدة، والكلام في صيغة الإثبات، والمعنى ركبك في أيِّ صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلقة في الحسن والقبح ..." (الزمخشري). وبعضهم قال: "ما" يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير" (القرطبي).

أعمالكم)، كِرَامًا كَاتِبِينَ[11]، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ[12]. (وبناء عليها تحاسبون): إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ[13]؛ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ[14]. يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ[15]، وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ[16]. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ[17]! ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ[18] (صيغة تأكيد وتهويل)! يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ[19].

– تعليق

من المفسرين من "يتكلم" في نظم القرآن على طريقة المتكلمين، فيفترض ويحتج ويجادل الخ. وقد رأينا ذلك فيما نقلناه من قبل عن الرازي، وهذا مثال آخر. يقول الرازي، المتكلم والفيلسوف الأشعري بصدد الآية السادسة من هذه السورة ("يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) : "اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآيات (الخمس) الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين:

الأول، أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم؟

الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها، إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثاً، وهو غير جائز على الحكيم، وإن خلقها لحكمة، فتلك الحكمة، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد؟ والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع، فتعين الثاني، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا؟ والأول باطل، لأن الدنيا دار بلاء وامتحان، لا دار الانتفاع والجزاء. ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر. وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" إلى أن قال: "فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ" (التين: 7-4).

ويضيف الرازي: "وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرّين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضاً مع من ينفي الابتداء (يعنيك الخلق ابتداء) والإعادة (البعث: إعادة الخلق) معاً، لأن الخلق المعدل (=الأول) يدل على الصانع، وبواسطته (=الصانع) يدل على صحة القول بالحشر والنشر. فإن قيل: بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال: "أَلَيْسَ

اللَهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" (التين: 8)، فكان يجب أن يقول في هذه السورة: ما غرك بربك الحكيم؟ (بدل الكريم) الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيماً، لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيراً لا كرماً. أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرماً. إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناد، أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم". يقصد نظم الخطاب : علاقة بعضه ببعض كبيان يتوخى البرهان. قلت: في هذا "الكلام" غير قليل من سفسطة "المتكلمين".

ذلك أن قوله تعالى في سورة التين "أليس الله بأحكم الحاكمين؟" ورد في سياق الرد على المكذبين بالحساب والثواب والعقاب، حيث اعتمد الرد هناك على : أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد الغافلين عن كرمه إلى أسفل سافلين، وجعل مصير المؤمنين جنة النعيم، والسؤال: أليس الله بأحكم الحاكمين مناسب لأن الأمر يتعلق بالجزاء، بإصدار حكم، على فريقين من الناس: فريق كذب ولم يؤمن، متجاهلا نعمة الله عليه إذ خلقه في أحسن تقويم. وفريق آمن واعترف بنعمة الله: حكم على الأول بالعقاب وعلى الثاني بالثواب، فهذا حكم عادل ليس فيه ظلم، فهو صادر من "أحكم الحاكمين" أي من أكثر الحاكمين حكمة وعدلا.

أما قوله في السورة التي بين أيدينا: "يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ"، ولم يقل "الحكيم" فهو مبرر تماما لأن المطروح هنا هو "كرم الله" : "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ[7] (جعلك معتدل الخلقة)، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ[8]"، وهذا الكرم واضح من مقارنة صورة الإنسان بالكائنات الأخرى: الجماد النبات الحيوان، فهو أفضل هذه المخلوقات وصورة.



83- سورة الانشقاق

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة شيء يذكر سوى أنها مكية باتفاق، وأن رتبتها في لوائح ترتيب النزول تتحرك بين 79 و84. أما بعض آيتها فقد وردت عنها أخبار سندرجها في الهوامش، وبعضها يفيد أن هذه السورة نزلت أثناء هجرة المسلمين إلى المدينة، الشيء الذي يؤكد مصداقية رتبتها هنا.

- نص السورة

1- مقدمة: قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ[1]، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا (استجابت لأمر ربها) وَحُقَّتْ[2] (واستجابتها حق)! وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ[3] (سطحت بفعل زلزلة القيامة)، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ[4] (أخرجت المدفونين فيها وتخلت عنهم، كأنها كانت تخبئهم)، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[5] (استجابت لربها ومن حقها أن تفعل. وجواب القسم مفهوم من السياق: فذلك يوم القيامة).

2- الحساب، كتب باليمين، وكتب وراء الظهر!

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (سائر) إِلَى رَبِّكَ (يوم القيامة) كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ[6]: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ[7] فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا[8] (تعرض عليه أعماله وليس فيها ما يستوجب العقاب فيمر سريعا)، وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا[9] (1). وَأَمَّا مَنْ

1- "يقال إنها نزلت في عبد الله بن عبد الأسد أبي سلمة، أول من هاجر من مكة إلى المدينة" (القرطبي، السيرة الحلبية). وهذا تأكيد لمصداقية رتبتها.

أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ[10] ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا[11] (يقول: واثُبُراه، واويلاه)، وَيَصْلَى سَعِيرًا[12] (جهنم). إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ (في الدنيا) مَسْرُورًا[13] (2). إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ[14] (لن يبعث)، بَلَى! إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا[15] (عالما). فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ[16] (حمرة الأفق عند مغيب الشمس)، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ[17] (وما ضم وأخفى)، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ[18] (كملت استدارته)، لَتَرْكَبُنَّ (3) طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ[19] (لتمرُّون بأحوال: ضراء فسراء، مقام فهجرة الخ).

3- فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ!

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ[20] ؟ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ[21]!(4) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ[22]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ[23] (يضمرون). فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[24]، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[25] (5).

- تعليق واستطراد

موضوع هذه السورة كأخواتها السبعة السابقة هو الحشر والنشر، ويظهر مما ما ورد في هذه السورة من أخبار أن آيات منها نزلت في أشخاص من مشركي مكة ممن كانوا يؤذون المسلمين بصورة شرسة عندما عرفوا أن الإسلام أخذ ينتشر خصوصا في يثرب. وكما سبق أن بينا فإن الوعيد والترهيب وذكر الحشر والنشر والجزاء الخ، كان سلاح الدعوة المحمدية التي التزمت عدم الرد على العنف بالعنف كيفما كان الحال، بل كان الأمر بالصبر والوعد بالنصر للمؤمنين هو البديل عن عنف مشركي مكة. وبما أن الوعيد للمشركين كان يتكرر مقرونا في كثير من الأحيان بمشاهد من جهنم فلقد عمد هؤلاء إلى نوع من التحدي الذي يصدر عن الخائف الذي يجتهد في إخفاء خوفه وذلك بالإكثار من هذا السؤال بصيغة الاستهزاء المصطنع: و"متى قيام هذه

2- قيل نزلت في الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وهو أخو أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المذكور في الهامش السابق. قيل: كان رجلا شرسا، سيء الخلق، شديد العداوة لرسول الله "وجاء أنه أول من يعطى كتابه بشماله، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه بيمينه كما تقدم "(السيرة الحلبية).

3- قرئ بالفتح وعن ابن عباس: "أي لتركَبَنَّ يا محمد حالا بعد حال".

4- قيل: "قرأ رسول الله (ص) ذات يوم "وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت".

5- قال بعض أهل اللغة إن قوله «إلا الذين آمنوا وعملوا الصلحات» ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا (القرطبي)، وذلك لأن المستثنى منه غير بين.

الساعة"؟ لقد رفضوا الإقرار باليوم الآخر وحاجوا في هذه المسألة حتى إنهم طلبوا بعث آبائهم ليتأكدوا منه. وقد رد عليهم القرآن في أماكن عديدة كما رأينا في كثير من السور.

وبهذه المناسبة، مناسبة التعليق على آخر سورة من هذه السور الثماني (الطور –الانشقاق) التي انحصر موضوعها كلها تقريبا، في الوعيد بالحشر والنشر، نورد استطرادا نجمل فيه آراء المتكلمين والمفسرين في مسألة الحشر والنشر والخلود و"حشر البهائم" الخ.

1– مسألة الخلود في الجنة والنار

من المسائل التي أثارها المتكلمون حول البعث مسألة ما إذا كانت الجنة والنار مخلوقتين أم أنهما قديمتان. قال أبو الهذيل العلاف منظر مذهب المعتزلة: إن حركات أهل الخالدين (في الجنة والنار) تنقطع وإنهم يصيرون إلى سكون دائم خموداً، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار". يقول الشهرستاني: وإنما التزم أبو الهذيل هذا المذهب لأنه لما أُلزم في مسألة حدوث العالم: "أن الحوادث التي لا أول لها (أي القديمة)، كالحوادث التي لا آخر لها (الخالدة) إذ كل واحدة لا تتناهى [6] قال: إني لا أقول بحركات لا تتناهى آخراً، كما لا أقول بحركات لا تتناهى أولاً، بل يصيرون (أصحاب الجنة والنار) إلى سكون دائم". وعلق الشهرستاني على ذلك قائلا: "وكأنه ظن أن ما لزمه في الحركة لا يلزمه في السكون"، بمعنى أن القول بالسكون الدائم كالقول بالحركة الدائمة. فلانهائية السكون كلانهائية الحركة. أما الجهم بن صفوان أحد كبار المتكلمين الذي يقترب مذهبه في بعض المسائل من مذهب المعتزلة فرأيه : "أن حركات أهل الخالدين (في الجنة أو النار) تنقطع، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بحميمها، إذ لا تتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا تتصور حركات لا تتناهى أولاً. وحمل قوله تعالى: خالدين فيها على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة في التخليد، كما يقول: خلد الله ملك فلان واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى: "خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك". فالآية اشتملت على شريطة (وجود السماوات والأرض) واستثناء (حتى مع

6– المسألة متعلقة في الأصل بالنزاع حول حدوث العالم وقدمه. يقول منكرو حدوث العالم، أي الذين يقولون لا بداية له: إذا كنا نقول إن الجنة والنار توصفان بالخلود وأصحابهما خالدين فيها، أي أن حركتهم لا نهاية لها، فلماذا لا نقول الشيء نفسه في حركة العالم بمعنى أنها حركة لا بداية لها؟ فالحركات التي لا آخر لها يجب أن تكون لا بداية لها. ولكي يخرج أبو الهذيل المدافع عن الإسلام، الذي من قواعده الإيمانية القول بخلق الله للعالم، قال ما هو مذكور أعلاه.

وجودها). والخلود والتأبيد لا شرط فيه ولا استثناء. ويذكر الشهرستاني أن أحد المحسوبين على المعتزلة وهو أبو بكر الأصم: قال: إن الجنة والنار ليستا مخلوقتين الآن، إذ لا فائدة في وجودهما وهما جميعاً خاليتان ممن ينتفع ويتضرر بهما!

2- الخلود لمن؟

- وجهة نظر المعتزلة

يقوم مذهب المعتزلة على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويهما هنا رأيهم في الوعد والوعيد، أعني رأيهم في الجنة والنار والخلود فيهما. قالوا بناء على أصلهم في "العدل" والمقصود عندهم العدل الإلهي: إن "الإيمان عبارة عن التصديق، ومن ارتكب كبيرة ومات عليها من غير توبة عوقب على ذلك، ويجب أن يخرج من النار بعد العقوبة، فليس من العدل التسوية بينه وبين الكفار في الخلود". وقال بعضهم "إذا مات المسلم من غير توبة عن كبيرة ارتكبها، استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار". وينسب للجاحظ، وهو معتزلي له آراء خاصة، أنه قال: "إن الله لا يدخل النار أحدا، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها، ثم تمسكهم في نفسها على الخلود" (الشهرستاني).

وتنسب إلى إبراهيم بن سيار النَّظَّام، المعتزلي، المعروف بآرائه المتطرفة، أنه قال "الجاهل بأحكام الدين كافر، والمتعمد للخلاف بلا حجة منافق كافر، أو فاسق فاجر وكلاهما من أهل النار على الخلود". ويدخل في عداد هؤلاء الصحابة الذين شاركوا في الفتنة زمن عثمان وعلى ومعاوية...

- وجهة نظر أهل السنة : الخلود وعذاب القبر...

أما أهل السنة فقد "قالوا بان الخلود في النار لا يكون إلا للكفرة، خلاف قول القدرية (المعتزلة) والخوارج القائلين بتخليد كل من دخل النار فيها". ولكنهم أدخلوا القدرية والخوارج في زمرة الكفار وقالوا "يخلدون في النار ولا يخرجون منها، وكيف يغفر الله تعالى لمن يقول ليس لله أن يغفر ويخرج من النار من دخلها"؟!. وقال أهل السنة بإثبات السؤال في القبر وبعذاب القبر لأهل العذاب وقطعوا بان المنكرين لعذاب القبر يعذبون في القبر. وقالوا بالحوض والصراط والميزان ومن أنكر ذلك حرم الشرب من الحوض ودحضت قدمه من الصراط إلى نار جهنم. وقالوا بإثبات الشفاعة من النبي ومن صلحاء أمته للمذنبين من المسلمين ولمن كان في قلبه ذرة من الإيمان، والمنكرون للشفاعة يحرمون الشفاعة.

وهذه المسائل موضوع خلاف: فسؤال القبر وعذاب القبر لم يرد في القرآن

عنهما شيء (انظر التعليق في سورة الناعات)، مع أنه ذكر تفاصيل وافية عن حال أهل الجنة وأصحاب النار، ولم يرد في القرآن إلا حساب واحد هو الذي يكون بعد الرجفة الثانية، رجفة البعث، وخص الرجفة الأولى بمظاهر انهيار الكون كانشقاق السماء الخ.

3- الحشر والنشر عموما

اهتم الرازي بهذه المسألة في تفسيره فكتب يقول انطلاقا من قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام 38) [7]: "اعلم أن مسألة الحشر والنشر من المسائل المعتبرة في صحة الدين، والبحث عن هذه المسألة إما أن يقع عن إمكانها أو عن وقوعها. أما الإمكان فيجوز إثباته تارة بالعقل، وبالنقل أخرى. وأما الوقوع فلا سبيل إليه إلا بالنقل. وإن الله ذكر هاتين المسألتين في كتابه وبين الحق فيهما من وجوه.

الوجه الأول: أن كثيراً ما حكى عن إنكار الحشر والنشر، ثم إنه تعالى حكم بأنه واقع كائن من غير ذكر الدليل فيه، وإنما جاز ذلك لأن كل ما لا يتوقف عليه صحة نبوة الرسول (ص) أمكن إثباته بالدليل النقلي (القرآن والحديث)[8] وهذه المسألة كذلك، فجاز إثباتها بالنقل: مثاله ما حكم (الله) ههنا بالنار للكفار، والجنة للأبرار، وما أقام عليه دليلاً بل اكتفى بالدعوى. وأما في إثبات الصانع وإثبات النبوة فلم يكتف فيه بالدعوى بل ذكر فيه الدليل. وسبب الفرق ما ذكرناه. وقال في سورة النحل: "وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ! بَلَى، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ" (النحل: 38) وقال في سورة التغابن: "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن لَن يُبْعَثُواْ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ" (التغابن: 7).

الوجه الثاني أنه تعالى أثبت إمكان الحشر والنشر بناءً على أنه تعالى قادر على أمور تشبه الحشر والنشر (...) ثم إنه تعالى احتج على إمكانه بأمور" (...) نذكر منها:

- قوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الْخَالِقُونَ" (الواقعة: 58). وجه الاستدلال بذلك : أن المني إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع[9] وهو كالطل (قطرات المطر الخفيف) المنبث في آفاق أطراف الأعضاء، ولهذا تشترك الأعضاء في

7- عرض لهذه المسألة عند شرحه للآية 25 من سورة البقرة، لأنه كغيره اتبع ترتيب المصحف في تفسيره، والبقرة هي أولى السور فيه بعد الفاتحة.

8- بمعنى: إذا ثبتت صحة نبوة الرسول فيجب أن يكون صحيحا كل ما جاء به، أي القرآن والحديث وهما المقصود بالنقل.

9- كان علم الطب القديم يقرر أن عملية هضم المأكولات تمر بأربع مراحل: هضم في المعدة، وهضم في الكبد، وهضم للعروق في الدم، وهضم خاص بكل واحد من الأعضاء.

الالتذاذ بالوقاع (الجماع) بحصول الانحلال عنها كلها. ثم إن الله تعالى سلط قوة الشهوة على البقية حتى أنها تجمع تلك الأجزاء الطلية[10]. فالحاصل أن تلك الأجزاء كانت متفرقة جداً، أولاً في أطراف العالم، ثم إنه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان، ثم إنها كانت متفرقة في أطراف بدن ذلك الحيوان فجمعها الله سبحانه وتعالى في أوعية المني، ثم إنه تعالى أخرجها ماء دافقاً إلى قرار الرحم. فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكوّن منها ذلك الشخص، فإذا افترقت بالموت، مرة أخرى، فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى؟ فهذا تقرير هذه الحجة، وإن الله تعالى ذكرها في مواضع من كتابه[11]، منها في سورة الحج: "يأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ" إلى قوله: "وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً" [12]، ثم قال: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ" (الحج: 6، 7)...

– وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ..." إلى قوله: "بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ" (الواقعة: 67). وجه الاستدلال به أن الحب وأقسامه، من مطول مشقوق وغير مشقوق، كالأرز والشعير، ومدور ومثلث ومربع، وغير ذلك على اختلاف أشكاله

10– يوظف الرازي هنا معطيات من "الفكر العلمي" كما كان في عصره. وكما أن هذا التوظيف يبدو اليوم غير ذي موضوع ولا فائدة فيه، فكذلك الشأن في العلم المعاصر الذي سيصبح متجاوزا. فتفسير القرآن بالعلوم الكونية تشويش محض، وقد فعلت الإسماعيلية ذلك من قبل لأغراضهم السياسية والإيديولوجية. أما الطنطاوي جوهري فقد فعل ذلك في وقت كان فيه بعض الفقهاء يحرمون العلوم ما عدا علوم الدين، وهدف الطنطاوي كان إثبات أن العلوم الطبيعية لا تتناقض مع القرآن.

11– ليس في القرآن ما حكاه من تفاصيل ميتة لم تعد لها قيمة علمية. فليس في القرآن أن الله سيجمع ذرات المني الذي خلق منه الإنسان. وهذا الافتراض يتناقض تماما مع ما قرره الرازي نفسه في أماكن أخرى من أن البعث سيكون للأرواح وليس للأجساد (انظر التعليق في سورة النازعات). ومن هنا يمكن القول إن ما يسمى بـ"التفسير العلمي للقرآن" هو تقول على القرآن، فإن بدا وكأنه متفق مع العلم في مرحلة "راهنة" فإن تطور العلم يكشف أنه مجرد تقول على القرآن. القرآن نزل ليفهمه جميع الناس حسب ما يظهر لهم بأعينهم وحواسهم من أشياء الكون. ولو قيل للناس زمن النبوة ما ذكره الرازي لما صدقوا قائله، لأن ذلك ليس من معهودهم المعرفي.

12– نص الآية كاملا كما يلي: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (الحج 5). وواضح أنه ليس في هذه الآية ما يحتمل ما ذكره الرازي عن الهضم وتكون المني الخ. فالله خلق= الإنسان من تراب والمقصود آدم، وخلق أفراد البشر بامتزاج مني الرجل مع بويضة المرأة وهذا ينتمي إلى عملية الخلق بالتلاقح، في النبات والحيوان. والمثال الأقرب إلى تفهيم الناس إمكان البعث هو تشبيهه بالنبات: يخضر ثم يذبل ثم يتلاشى في الأرض ثم ينبت من جديد. وقد استعمل القرآن مرات عديدة هذا المثال لتقريب معنى البعث كما في الآية أعلاه.

إذا وقع في الأرض الندية واستولى عليه الماء والتراب، فالنظر العقلي (؟) يقتضي أن يتعفن ويفسد، لأن أحدهما يكفي في حصول العفونة (؟)، ففيهما جميعاً أولى (؟)، ثم إنه لا يفسد بل يبقى محفوظاً، ثم إذا ازدادت الرطوبة تنفلق الحبة فلقتين فيخرج منها ورقتان، وأما المطول فيظهر في رأسه ثقب وتظهر الورقة الطويلة كما في الزرع، وأما النوى، فما فيه من الصلابة العظيمة التي بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس، إذا وقع في الأرض الندية ينفلق بإذن الله. ونواة التمر تنفلق من نقرة على ظهرها ويصير مجموع النواة من نصفين يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد، ومن الثاني الجزء الهابط، أما الصاعد فيصعد، وأما الهابط فيغوص في أعماق الأرض. والحاصل أنه يخرج من النواة الصغيرة شجرتان (؟): إحداهما: خفيف صاعد، والأخرى ثقيل هابط مع اتحاد العنصر واتحاد طبع النواة والماء والهواء والتربة؟! أفلا يدل ذلك على قدرة كاملة وحكمة شاملة؟[13]. فهذا القادر كيف يعجز عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء؟ ونظيره قوله تعالى في سورة الحج: "وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ" (الحج: 5).

– وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ" (الواقعة: 68–69). وتقديره أن الماء جسم ثقيل بالطبع وإصعاد الثقيل أمر على خلاف الطبع، فلا بدّ من قادر قاهر يقهر الطبع"[14] ...

وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ". وجه الاستدلال أن النار صاعدة والشجرة هابطة، وأيضاً النار لطيفة، والشجرة كثيفة. وأيضاً النار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة والشجرة

13– المؤمن في كل زمان سيقول : هو قادر، بدون هذه التفاصيل المشوشة، والآية وحدها أوضح. أما قوله إن نواة التمرة تخرج منها شجرتان واحدة إلى أعلى وثانية إلى أسفل فهذا ما يكذبه الواقع، فليس هناك غير النخلة المتجهة إلى أعلى، وجذورها المتجهة إلى أسفل وهي غير عميقة!

14– لا مكان هنا لـــ "الصعود" فالماء ينزل من السحاب الذي يتكون بفعل الضغط الجوي والرطوبة التي تصعد من البحار الخ. والغريب أنه يلجأ هنا إلى استعمال مفهوم "الطبع" وهو من المفاهيم التي كان يقوم عليها "العلم" القديم، وقد قاوم المتكلمون المسلمون (معتزلة وأشاعرة) هذا المفهوم لأنه في نظرهم لا يترك مكانا لخرق العادة ولا لتدخل الإرادة الإلهية. هم لا يقولون "إن من طبع النار أن تحرق" بل= يقولون لقد اعتدنا أن نرى النار تشتعل عندما تلتقي بالقطن، فيحترق هذا الأخير، والاحتراق ليس من فعل النار بل هو فعل من الله الذي لا فاعل سواه. وبهذه الطريقة يعتقدون أنهم يفسحون المجال للمعجزة، مثل معجزة إبراهيم عليه السلام الذي ألقاه قومه في النار ولم يحترق، وكان الأولى أن يكتفوا بالقول بتدخل الإرادة الإلهية (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ : الأنبياء 69) . والرازي يتجاوز هنا أصول مذهبه الكلامي الأشعري. يعترف بالطبائع ليعود فيقول إنه لا بد من قاهر يقهره! وفي هذه الحالة يمكن أن يسأل: ومن خلق هذه الطبائع حتى يلجأ القاهر إلى قهرها. سنرى بعد قليل أنه ينكر الطبع كغيره من الأشاعرة.

باردة رطبة، فإذا أمسك الله تعالى في داخل تلك الشجرة الأجزاء النورانية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه الأشياء المتنافرة[15]، فإذا لم يعجز عن ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها؟ والله تعالى ذكر هذه الدلالة في سورة يس فقال: "الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً"[16] (يس: 58). قلت (الجابري) واضح أن الأقوى من تلك التفاصيل المتقادمة المتناقضة قوله تعالى في آيات عديدة ما معناه: إن مشركي قريش يعترفون بأن الله خلق ذلك أول مرة، فلماذا ينكرون أن يستطيع إعادة خلقه؟

كان ذلك مجمل "الأدلة" التي استقاها الرازي من علم عصره للبرهنة على إمكان وقوع الحشر والنشر، وهو في ذلك يخرج عن إطار المذهب الأشعري الذي ينتمي إليه، ذلك أن مؤسس هذا المذهب، أبا الحسن الأشعري، قد حدد موقفه بكل وضوح من هذه الأمور المغيبة كما يلي، قال: "وما ورد به السمع (القرآن والحديث) من الأخبار عن الأمور الغائبة مثل: القلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار فيجب إجراؤها على ظاهرها والإيمان بها كما جاءت إذ لا استحالة في إثباته " (الشهرستاني، الملل والنحل). وهكذا فكل ما يمكن للعقل أن يقوله في مثل هذه المسائل هو التالي: إنه كما لا يمكن البرهنة على أنها مستحيلة الوقوع فكذلك لا يمكن البرهنة على أنها ممكنة، والنتيجة هي إما "التوقف"، وإما الإيمان.

4- البعث للبهائم؟

قال الرازي بأن الحيوانات تحشر يوم القيامة بناء على قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام 38)". وأخذ في تفسير هذه الآية يعرض إشكالات في الموضوع كعادة المتكلمين:

من ذلك قوله: "الحيوان إما أن يكون بحيث يدب أو يكون بحيث يطير فجميع ما خلق الله تعالى من الحيوانات، فإنه لا يخلو عن هاتين الصفتين، إما أن يدب، وإما أن يطير. وفي الآية سؤالات:

15- هذه التصنيفات إلى رطب ويابس، وحار وبارد، الخ من أساسيات العلم القديم. أما قوله إن الشجرة (أو الخشب) فيها أجزاء نارية نورانية فهذا ما قال به قديما أصحاب نظرية الكمون، وهي نظرية تفترض أن أشياء العالم كلها كامن بعضها في بعض وهي تتعارض مع فكرة الخلق.

16- الآية تتحدث عن أمر واقع كما يراه الناس، وكما هو في معهودهم، وهو أن الخشب (أو الشجر) يشتعل إذا مسته النار. والقرآن يبني استدلالاته على العلاقة بين ظاهر الموجودات وليس على "ماهية" تلك الموجودات.

السؤال الأول: من الحيوان ما لا يدخل في هذين القسمين مثل حيتان البحر، وسائر ما يسبح في الماء ويعيش فيه؟ والجواب: لا يبعد أن يوصف بأنها دابة من حيث إنها تدب في الماء أو هي كالطير، لأنها تسبح في الماء، كما أن الطير يسبح في الهواء، إلا أن وصفها بالدبيب أقرب إلى اللغة من وصفها بالطيران.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تقييد الدابة بكونها في الأرض؟ والجواب من وجهين: الأول: أنه خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجاً بالأظهر لأن ما في السماء وإن كان مخلوقاً مثلنا فغير ظاهر، والثاني: أن المقصود من ذكر هذا الكلام أن عناية الله تعالى لما كانت حاصلة في هذه الحيوانات فلو كان إظهار المعجزات القاهرة مصلحة لما منع الله من إظهارها. وهذا المقصود إنما يتم بذكر من كان أدون مرتبة من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالاً منه، فلهذا المعنى قيد الدابة بكونها في الأرض.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله "يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ" مع أن كل طائر إنما يطير بجناحيه؟ والجواب فيه من وجوه: الأول: أن هذا الوصف إنما ذكر للتأكيد كقوله نعجة أنثى وكما يقال: كلمته بفِيَّ، ومشيت إليه برجلي. الثاني: أنه قد يقول الرجل لعبده "طِرْ في حاجتي" والمراد الإسراع. وعلى هذا التقدير: فقد يحصل الطيران لا بالجناح... والثالث: أنه تعالى قال في صفة الملائكة "جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ" (فاطر: 1) فذكر ههنا قوله "وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ" ليخرج عنه الملائكة فإنا بينا أن المقصود من هذا الكلام إنما يتم بذكر مَن كان أدون حالاً من الإنسان لا بذكر من كان أعلى حالاً منه.

السؤال الرابع: كيف قال: "إِلاَّ أُمَمٌ" مع إفراد الدابة والطائر؟ والجواب: لما كان قوله "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ" دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقول: وما من دواب ولا طيور لا جرم حمل قوله "إِلاَّ أُمَمٌ" على المعنى.

السؤال الخامس: قوله "إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ" قال الفرّاء: يقال إن كل صنف من البهائم أمة[17] وجاء في الحديث: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» فجعل الكلاب أمة.

وإذا ثبت هذا فنقول: (على سبيل الاعتراض): الآية دلت على أن هذه الدواب والطيور أمثالنا، وليس فيها ما يدل على أن هذه المماثلة حصلت في أي الأحوال والأمور فبينوا ذلك؟ والجواب: اختلف الناس في تعيين الأمر الذي حكم الله تعالى فيه بالمماثلة بين البشر وبين الدواب والطيور وذكروا فيه أقوالاً:

القول الأول: نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يريد، يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني. وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسرين، وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه

---

[17]– الأمة هنا بمعنى النوع، أو كما قال : صنف. وقوله تعالى " أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ"، يفيد أن نوع الإنسان أمة.

بقوله تعالى: "وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ" (الإسراء: 44)، وبقوله في صفة الحيوانات "كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ" (النور: 41). وبما أنه تعالى خاطب النمل وخاطب الهدهد... وعن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيؤ كل واحد منهما لصاحبه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من خشاش الأرض».

والقول الثاني، المراد: إلا أمم أمثالكم في كونها أمماً وجماعات وكونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً، ويأنس بعضها ببعض، ويتوالد بعضها من بعض كالإنس؛ إلا أن للسائل أن يقول حمل الآية على هذا الوجه لا يفيد فائدة معتبرة لأن كون الحيوانات بهذه الصفة أمر معلوم لكل أحد فلا فائدة في الإخبار عنها.

القول الثالث: المراد أنها أمثالنا في أن دبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها وهذا يقرب من القول الثاني في أنه يجري مجرى الإخبار عما علم حصوله بالضرورة.

القول الرابع: أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «يقص للجماء من القرناء».

القول السادس (الخامس؟) ما اخترناه في نظم الآية، وهو أن الكفار طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلّم الإتيان بالمعجزات القاهرة الظاهرة، فبين تعالى أن عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان. ومن بلغت رحمته وفضله إلى حيث لا يبخل به على البهائم كان بأن لا يبخل به على الإنسان أولى، فدل منع الله من إظهار تلك المعجزات القاهرة على أنه لا مصلحة لأولئك السائلين في إظهارها، وأن إظهارها على وفق سؤالهم واقتراحهم يوجب عود الضرر العظيم إليهم.

القول السابع: ما رواه أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة، أنه لما قرأ هذه الآية قال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاوس، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه، وإذا قام الرجل عن رجيعه ولغ فيه. فكذلك نجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه. ثم قال: فاعلم يا أخي إنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذار والاحتراز، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضع. قلت (الجابري): ونحن ما ذكرنا هذه الأقوال إلا لنقدم مثالا عن أن الخروج بعملية "فهم القرآن" إلى توظيف "علم" وقت من الأوقات لا يختلف عن توظيف نظريات الباطنية من إسماعيلية ومتصوفة وغيرها. إنه "الفهم" القائم على التضمين، تضمين

المفسر للمعاني التي يريدها، في النص الذي يتعامل معه.

وهذا النزوع من جانب الرازي إلى تضمين "العلم"، كما كان في عصره، في فهمه للقرآن، ظنا منه أن ذلك يخدم قضية القرآن، قد جعله يغفل أو يتغافل عن رأي جماعة من المفسرين هو أقرب إلى منهج القرآن، منهج التمثيل أعني ضرب المثل. قال القرطبي في سياق شرحه للآية التي نحن بصددها (حشر الدواب) : "وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية ("وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام 38) أن هذا الحشر يرجع إلى الكفار (بمعنى أن الضمير في "يحشرون" يعود إلى الكفار وليس إلى "ما من دابة")، وما تخلَّل كلامٌ معترضٌ وإقامة حُجج[18]. وأما الحديث (الذي روي في الموضوع) فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه، حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه"، وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فأضاف الراوي إلى الحديث السابق الذي ورد فيه "حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء من القَرْناء" ما يلي: "وللحجر لما رَكِب على الحجر، وللعود لما خدَش العود": قالوا: فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يُعقَل خطابها ولا ثوابُها ولا عقابُها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء؛ قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا"[19].

5- القائلون بالتناسخ

ثم ذكر الرازي رأي القائلين بالتناسخ (وهو مذهب يقع خارج الإسلام)، فقال: ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى تبقى مخالطة لعالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى أبدان الحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقاً للعذاب نقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعباً، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا: صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالنا، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في

---

18 – بمعنى أن اعتبار السياق يقضي بأن الضمير في "يحشرون" يعود إلى الكفار أما ما بين بداية السياق و"يحشرون" (أي ما بين عارضتين أسفله) فهو كلام تخلل السياق على سبيل الاعتراض والإدلاء بحجج. والسياق يبدأ مع الآية السابقة لهذه أي من قوله : "وَقَالُوا (أي الكفار) لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً –وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ– ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام 37-38).

19- انظر فهمنا للآية في موقعها: آية 38 سورة الأنعام رقم 54

جميع الصفات الذاتية أما الصفات العرضية المفارقة، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة. ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه، وقالوا: قد ثبت من هذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة، وأن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم. ثم إنه تعالى قال: "وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ" (فاطر: 24) وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أرسله الله إليها. ثم أكدوا ذلك بقصة الهدهد، وقصة النمل، وسائر القصص المذكورة في القرآن.

84- سورة المزمل

- تقديم

هناك أقوال كثيرة حول تاريخ نزول هذه السورة. منهم من جعلها مكية كلها، ومنهم من جعلها مدنية كلها، وهناك من جعل الآية الأخيرة منها هي وحدها مدنية. ومن هؤلاء من جعل الفرق الزمني بين نزول هذه الآية وبين نزول ما سبقها مدة سنة ومنهم من جعله سنتين، وهناك رواية رفعت المدة إلى عشر سنين، وجعلت الآية الأخيرة منها مدنية.

ومن الحجج التي يستند عليها القائلون بكونها مدنية ما روي عن عائشة زوج النبي عليه السلام من أنها قالت: "إن الثوب الذي كان الرسول متزملا به حين خاطبته السورة (يأيها المزمل) كان عبارة عن "مرطٍ (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلي". ويعلق القرطبي على هذا القول من عائشة أنه "دليل على أن السورة نزلت في المدينة لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة". وفي رأينا أن هذا ليس حجة، لأن الرسول عقد عقده عليها قبل الهجرة بثلاث سنوات، أما تأخير دخوله عليها إلى ما بعد الهجرة فلا يعني أنه لم يكن ينام بجنبها قبل ذلك.

هناك روايات أخرى تؤكد نزولها في أواخر العهد المكي: من ذلك ما روي عن سعيد بن جبير من أنه قال: "مكث النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين، "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ" (المزمل الآية 20) فخفّف الله عنهم". ومعنى ذلك أن هذه الآية نزلت قبل الهجرة بنحو سنة. ونحن على هذا الرأي[1].

أما إذا رجعنا إلى السورة نفسها فإننا سنجد فيها ما يرجح هذا الذي ذهبنا إليه: من ذلك الآية الخامسة "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا". لقد ذكر المفسرون في بيان

1- انظر التقديم الذي صدرنا به سورة المدثر رقم 2 : القسم الأول من هذا الكتاب. راجع أيضا: التعريف بالقرآن الفصل العاشر: ثانيا، فقرة 4، 2/أ.

المقصود بـ"ثقيل" أقوالا كثيرة لا شيء يسندها سوى أنها محتملة. منهم من قال: "ثقيلا بفرض الصلاة"، ومنهم من قال "ثقيلا بالحلال والحرام"، إلى غير ذلك من الأحكام والأوامر والنواهي التي زمانها في المدينة؛ ومنهم من أجمل فقال المقصود هو القرآن نفسه الخ. أما نحن فنرى أن نزول سورة المزمل في أواخر العهد المكي يقتضي أن يكون "القول الثقيل" الذي سيلقى على النبي عليه السلام من الأمور التي لم ينزل فيها شيء من قبل. والجديد الذي سيحدث على صعيد مسيرة نزول القرآن ومسار الدعوة المحمدية معا هو الأمر بالهجرة والإذن بالقتال، وهذا هو الأمر "الثقيل" حقا. وقد أشارت إليه السورة في آية أخرى بالقول: "عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (المزمل 20). وبناء عليه وضعناها في هذه الرتبة لأن بعض السور السابقة لها وكذا السور الآتية بعدها نزلت كلها في السنة الأولى أو الثانية قبل الهجرة. أي الثانية عشرة/الثالثة عشرة للنبوة.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ[1] (الملتف بثيابه) : قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا[2] : نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ (من النصف) قَلِيلًا[3]، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ[2]، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا[4]. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا[5] (3). إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (أوله) هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا (ثباتا) وَأَقْوَمُ قِيلًا[6] (أنسب لقراءة القرآن والدعاء والصلاة). إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا[7] (مجالا لشؤونك). وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا[8] (اخلص إليه) : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا[9]. وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا[10] (أعرض عنهم ولا تهتم بهم).

2- ذرني والمكذبين أولي النعمة... سيكون مصيرهم كمصير فرعون!

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا[11]. إِنَّ لَدَيْنَا (عقابا لهم يوم القيامة) أَنْكَالًا (قيودا وعذابا) وَجَحِيمًا[12] وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا[13]. يَوْمَ

2- ليس هناك تحديد لمدة القيام، هناك خيار : زد عليه أو انقص منه.

3- انظر التقديم أعلاه.

تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا[14] (سائلا). (يقال لهم) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ (أيها المكذبون) رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا[15]، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا[16]. فَكَيْفَ تَتَّقُونَ، إِنْ كَفَرْتُمْ، يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا[17]؟ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ (متقطعة) بِهِ! كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا[18] (الوعد بهذا اليوم سينفذ حتما). إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا[19].

3- ... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ (لن تطيقوه) فَتَابَ عَلَيْكُمْ (فخفف عنكم). فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ.

4- خاتمة: سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (يسافرون للتجارة)، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (بعد الهجرة)! فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقوا في سبيل الله)، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[20].

- تعليق

في الفقرة الأولى، وهي المقدمة، تدعو السورة النبي عليه السلام إلى قيام الليل، أو جزء منه، والانقطاع فيه للصلاة والدعاء، بهدف الاستعداد المعنوي لأمر جلل سيأتيه قريبا: الترخيص بالهجرة والإذن بالقتال. أما الملأ من قريش فتدعوه السورة إلى الصبر على ما يقولون وعدم الانشغال بهم.

وفي الفقرة الثانية تأكيد على ضرورة الإعراض عن المكذبين، وتأكيد كذلك لما سيكون عليه مصيرهم: سيكون مصيرهم مثل مصير فرعون: هزيمة وغرق في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة.

وفي الفقرة الثالثة تعود السورة إلى مسألة قيام الليل فتؤكد أن الله يعلم أنه وجماعة من أصحابه يقومون الليل أو معظمه. وبما أن مهمة صعبة تنتظرهم فهو يخفف عنهم: فتلاوة ما تيسر من القرآن تكفي.

وتأتي الفقرة الرابعة، وهي الخاتمة، لتخبرهم بمجمل القول الثقيل، أو المهمة الصعبة التي سيكلفون بها : سيهاجرون وسيكون منهم مرضى، وآخرون يعملون لكسب عيشهم بالتجارة أو غيرها، وآخرون جنود يقاتلون في سبيل الله...

وهكذا، فبعد السور الثماني (الطور-الانشقاق) التي ركزت على سلاح الدعوة: الوعد والوعيد وعرض مشاهد للقيامة والحساب والجنة والنار، والتي قلنا إنها من المرجح أن تكون قد نزلت حين كان النبي يعرض نفسه على القبائل وقبل اتفاق العقبة الأولى، تأتي هذه السورة، في الغالب بعد هذا الاتفاق الأولي، لتوجه أنظار النبي وصحبه إلى المستقبل، إلى نتيجة المفاوضات مع أهل يثرب وما سيكون لها من نتائج، أولاها الهجرة إلى يثرب والانتقال إلى نمط جديد من الحياة.

وعليه يمكن القول: إن نداء "أيها المزمل" يستعيد خطاب "أيها المدثر" ولكن في صورة جديدة: وهكذا فمن "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (المدثر 1-3) إلى "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا... إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" (المزمل 1-5)، تكون الدعوة المحمدية بمكة قد اقتربت من إنجاز مهمتها، وعليها الآن أن تستعد للمرحلة المقبلة في المدينة، مرحلة تحول الدعوة إلى دولة. والسور التالية تتحدث بصورة أو أخرى عن الاستعداد للهجرة.

85- سورة الرعد

- تقديم

اختلفوا في هذه السورة هل هي مكية أم مدنية؟ عن ابن عباس روايتان إحداهما تؤكد مكيتها. وروي أن سعيد بن جبير سئل عن قوله تعالى: "ومن عنده علم الكتاب" (الآية الأخيرة في السورة): أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورة مكية (وعبد الله بن سلام يهودي أسلم في المدينة). وقال القرطبي سورة الرعد مكية في قول الحسن وعِكرِمة وعطاء وجابر. أما صاحب الإتقان فيختم كلامه حول الموضوع بالقول: "والذي يُجمَع به بين الاختلاف أنها (سورة الرعد) مكية إلا آيات منها".

هذا عن السورة ككل، أما عما روي في شأن آيات منها فقد ذكر الواحدي عن أنس وغيره أن قوله تعالى في هذه السورة: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى" إلى قوله: "وهو شديد المحال" (الآية 13) نزل في قصة أربد بن قيس وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم". الشيء الذي يعني أن بقية السورة نزل في مكة. أما قصة عامر بن الطفيل، وقد ذكرتها مصادر متعددة، فقد أوردها الواحدي كما يلي: "قال ابن عباس... نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هذا عامر بن طفيل قد أقبل نحوك. فقال: دعه، فإن يرد الله به خيراً يهدِه. فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال: تجعل لي الأمر بعدك؟ قال لا، ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء. قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر. قال: لا. قال: فماذا تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها. قال: أوليس ذلك إليَّ اليوم"؟ وتقول الرواية إن عامر بن الطفيل قد أوصى رفيقه أربد بن ربيعة قائلا: "إذا رأيتني أكلمه فدُر من خلفه واضربه بالسيف". لكن المؤامرة فشلت. وكان عامر بن الطفيل على رأس قبيلة بني عامر وكانت تسكن في نجد هي وبني سليم. وكان قد قدم على الرسول عليه السلام في المدينة في خبر يطول ذكره. المهم أن الآيات المذكورة قبل والتي قيل إنها نزلت في عامر بن الطفيل هي التي استند عليها القائلون بأن هذه

السورة مدنية وهم أقلية. أما نحن فنرى أن تلك الآيات يمكن أن تكون قد نزلت بمناسبة مؤامرة حاكتها قريش في مكة لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن جهة أخرى ذكروا أن أهل مكة قالوا للرسول عليه السلام: "لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحي الموتى لقومه، فأنزل الله "ولو أن قرآنا" (الآية 31). وقالوا: قالت قريش حين أنزل "وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله" (الآية 38): وما نراك يا محمد تملك من شيء، لقد فرغ من الأمر. فأنزل الله "يمحو الله ما يشاء ويثبت"[1] (الآية. 40). واعتمادا على هذه الروايات وما سنذكره في الشرح رجحنا مكية هذه السورة، وقد وضعناها في هذه الرتبة اعتبارا لمضمونها كما سيتبين خلال الشرح والتعليق.

- نص السورة

1- وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

بسم الله الرحمن الرحيم

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ[2]؛ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (هو) الْحَقُّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ[1].

2- يقولون: لولا نُزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مِنْ رَبِّه! إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، يُفَصِّلُ الآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ[2]. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا؛ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (صنفين: حلو وحامض، رطب ويابس)؛ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[3]. وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ (بقاع: ج. بقعة من الأرض، بعضها صالح للمرعى وبعضها غير صالح) وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ (نخلة نابتة أو أكثر ملتصقة بأخرى) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ،

1- واضح أن معنى "الآية" هنا هي المعجزة، من جنس ما طلبته قريش. وبالتالي فقوله تعالى "يمحو الله ما يشاء ويثبت" ينصرف معناه إلى الآيات بهذا المعنى، أي المعجزات.

2- المعنى: ما سيرد في هذه السورة من أن الله هو الذي "رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" الخ، هي الدلائل والمعجزات، لا ما يطلبه منك مشركو مكة.

يُسقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[4]. وَإِنْ تَعْجَبْ (يا محمد من موقفهم إزاءك) فَعَجَبٌ (أكبر) قَوْلُهُمْ: أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[5]. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ (يستعجلون الساعة والعذاب الخ) قَبْلَ الْحَسَنَةِ (ولا يطلبون المغفرة ومن ثم التوبة والجنة) وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ (قصص الأقوام الذين كذبوا مثلهم فكان مصيرهم الهلاك)! وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ (من أسلم من أهل القبائل) عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ[6] (لمن أصر على الشرك). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ (وليس صانع خوارق)، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ[7] (و أنت منذر العرب وهاديهم).

3- "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ".

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ (ما تسقط قبل تسعة أشهر)، وَمَا تَزْدَادُ (على ذلك). وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ[8]. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ[9]: سَوَاءٌ مِنْكُمْ (يستوي في علم الله) مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ (التآمر على النبي) وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ (غير مستخف) بِالنَّهَارِ[10]. لَهُ(3) (للرسول) مُعَقِّبَاتٌ (ملائكة تتعاقب وتتناوب ليل نهار) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (من كل جهة) يَحْفَظُونَهُ (يحفظون النبي)، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (تطبيقا لما أمرهم الله به). إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ (من الإنعام عليهم إلى الانتقام منهم، والمقصود: قريش) حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (بأن يطغوا ويفسدوا)(4).

4- فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ (استئناف)، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ[11]: (من أمثلة ذلك) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ

3- اختلف المفسرون في من تعود عليه الضمائر في قوله "بين يديه ومن خلفه ويحفظونه": منهم من جعلها تعود إلى "مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ ..." على العموم، ومنهم من خص المعنى بالولاة والأمراء، الشيء الذي يعني "أن الله يحفظهم مما يدبر ضدهم في السر أو العلن! ونحن نرى أن الفقرة كلها تتحدث عن النبي (ص) فالآيات السابقة واللاحقة في هذه الفقرة تتحدث عن النبي عليه السلام، ولذلك رجحنا قول من قال إن الضمير في "من بين يديه ومن خلفه يحفظونه" يعود إلى النبي (ص)؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه والمتآمرين عليه.

4- المراد : "لا يغير الله ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام، إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد".

الثِّقَالَ[12]، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ. وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ[13] (حججه قوية). لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ (تدعوهم قريش) مِنْ دُونِهِ (كالأصنام) لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ. وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[14]. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَظِلَالُهُمْ (وكذا ظلالهم تسجد معهم لله. قالوا وسجودها ميلها مع حركة الشمس) بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[15] (5). قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ: اللَّهُ. قُلْ: أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا! قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ (هل) جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ؟ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ! قُلْ: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[16]. أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ (حمل السيل معه) زَبَدًا رَابِيًا (طافيا يلقيه على جوانب النهر). وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (كالمعادن من فضة وذهب وغيرهما) ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ، زَبَدٌ مِثْلُهُ (مثل زبد سيل المطر). كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (يضرب مثلا للحق والباطل وهو) : فَأَمَّا الزَّبَدُ (مثل للباطل) فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ (مثل للحق) فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ[17]. لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (لهم) الْحُسْنَى (ثواب)، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ؛ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ[18].

5- إنما يذكر أولو الألباب...

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا (أن ما) أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (هو) الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ[19]. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ[20] (يعني أهل يثرب) (6)، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

5- الزمخشري : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا،: "ينقادون لإحداث ما أراده فيهم من أفعاله، شاءوا أو أبوا. لا يقدرون أن يمتنعوا عليه، وينقادون له أيضاً حيث يتصرفون على مشيئته في الامتداد والتقلص"، وهذا قريب من معنى "سنة الله" التي جعل الكون عليها.

6- القرطبي: "يحتمل أن يريد به جنس المواثيق، أي إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه". قال قتادة: تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية. ويحتمل أن يشير إلى الميثاق الذي أخذه على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم=

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ[21]. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ[22] (العقبى المحمودة في الدار الآخرة): جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ[23]. (يقولون لهم) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ[24]. وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، (أي الذين قد يفعلون ذلك من أهل يثرب الذين بايعوا الرسول في العقبة) وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[25]. اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ. وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ (وما في الدنيا بالنسبة لما في الآخرة) إِلَّا مَتَاعٌ[26] (قليل). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ[27]. الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[28]. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ[29].

6- أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا..

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ، لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ! قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ[30]. وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا (غير هذا مما أنزل على الرسل السابقين) سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا (لكان ذلك القرآن وما حدث به من تسيير الجبال الخ من فعل الله). أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا (7). وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ (مثل الجفاف الذي حل بهم)، أَوْ (مثل التي) تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ (إشارة

آدم. وقال القفال: المقصود بالميثاق هنا : "ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات". أما نحن (الجابري) فنرى أنه بما أن سياق الآية هنا هو "المدح"، مدح "الذين يوفون بعهدهم"= الخ، فإن الأرجح أن يكون المقصود هنا هم أهل يثرب الذين تربطهم مع الرسول بيعة العقبة الأولى. خصوصا والسورة نزلت في هذه الظروف.

7- اختلف المفسرون في تفسير هذا الجزء من الآية، فذهب معظمهم إلى أن معنى "ييأس" هو "يتبين". وذكر بعضهم أن ابن عباس سئل عن معنى "ييأس" هنا "فقال: أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس، أنه كان في الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقرئ ييأس. ونحن نرى أن معنى الآية كما يلي: أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا (من انتظار استجابة قريش للدعوة المحمدية، وهم يعلمون) أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا" ولكن اقتضت حكمته أن لا يفعل، كما بين ذلك في مواطن أخرى"!

إلى تحالف أهل يثرب على المحاربة معه) حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ (بالنصر التام عليهم). إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ[31]. وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَمْلَيْتُ (أمهلت) لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ[32]. أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (وهو الله الذي يراقبها)، وَجَعَلُوا لِلَّهِ (كمن جعلوا له) شُرَكَاءَ؟ قُلْ سَمُّوهُمْ (له من هم؟)، أَمْ (أنكم) تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ؟!، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ (تنطقون به وهو باطل)؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ. وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[33]. لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ[34]. مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا (كذلك)! تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ[35]. وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ (جماعات من النصارى بالشام والحبشة زاروا النبي) يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ (أحزاب النصارى القائلين بالتثليث) مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ[36]. وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا (حكمة وإرشادا باللغة العربية وعلى معهود العرب)، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ (قريش) بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ[37]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً(8) (فهم بشر مثلك لا ملائكة). وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ (بمعجزة) إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ[38]. يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ (من آياته، كعصا موسى) وَيُثْبِتُ (أخرى مثل التي خص بها عيسى)"، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ[39] (الذي فيه كل شيء). وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (قريشا) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ[40]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ: نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (إشارة إلى انتشار الإسلام خارج مكة)(9)، وَاللَّهُ يَحْكُمُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ[41].

7- خاتمة- وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ...

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (على رسلهم مثلما تفعل قريش)، فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا (والله عالم بهم وبجميع خططهم): يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ

8- ذكروا أن هذه الآية نزلت عندما "عيرت اليهود رسول الله (ص) وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء". وحسب هذه الرواية تكون هذه الآية مدنية، لأن الرسول لم يكن له في مكة بعد وفاة خديجة سوى زوجة واحدة، وخطيبة هي عائشة ولم يكن قد دخل عليها بعد. وفي رأينا أن السياق لا يحتمل هذه الرواية.

9- هذه الآية سبقت مثيلاتها ويستفاد منها أنها نزلت عندما بدأ الإسلام في الانتشار خارج مكة.

لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ[42] (لمن ستكون الغلبة). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ[43] (أي أهل الكتاب المذكور عندهم النبي الأمي...).

- تعليق

يتضح من عرضنا لهذه السورة أنها مكية شكلا وموضوعا، وقد رتبناها هنا مع أواخر سور العهد المكي لوجود إشارات تفيد ذلك، مثل الآيتين 40-41 والخاتمة. ومثل ما ورد فيها من آيات حول خصال المسلم وخصال غير المسلم (الفقرة الثالثة)، وهذا الجانب الأخلاقي قد ركزت عليه عدة سور مكية، بعضها من أواخر ما نزل.

هناك آية أثارت التباسا عند المفسرين وهي قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، - وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ"، فرأوا في ذلك تناقضا بين القسم الأول من الآية الذي يثبت الإرادة والاختيار للإنسان والقسم الثاني منها رأوا فيه العكس. والواقع أن السبب في هذا النوع من الفهم هو عدم الأخذ بالسياق. فمن جهة: هذه الآية تبدأ قبل ذلك، ونصها كاملا كما يلي: "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (بأن يطغوا ويفسدوا). يلي ذلك استئناف : وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ"، وبيانه الآيات التالية بعد هذه، والتي يفهم منها أن معنى الآية يحيل إلى السنة التي أجرى الله عليها الكون : مثل قوله "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ" (غافر 85).

وهكذا فبعد المقدمة التي خاطبت الرسول لتؤكد له أن "الذي أنزل إليك هو الحق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون"، جاءت الفقرة الثانية لتشرح كيف أن هؤلاء لا يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول هو الحق: ذلك أنهم لا ينظرون إلى خلق الله للسماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين الخ، الخ. وهذه المخلوقات والظواهر تدل كلها على أن بعد الممات حياة أخرى، فيها حساب وجزاء: جنة ونار. فعجبا لقريش الذين يعترضون بقولهم "أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد": ناسين أو متناسين تلك الآيات التي تدل كلها على أن بعد الموت حياة أخرى، وفاقا مع مخلوقات الله التي جعل من كل شيء فيها زوجين، ليل ونهار، ثمر حلو وآخر مر ... وأيضا: موت فحياة.

والعجب كل العجب من كونهم يستعجلون الساعة التي سيكون فيها حسابهم وعقابهم، بدلا من التوبة والدخول في الإسلام والحصول على المغفرة كما وعد الله، الشيء الذي سيجنبهم شديد عقابه. إنهم يطلبون معجزات، مواصلين تكذيبهم

وتحدياتهم، فلا تنشغل بهم، فليس عليك فرض الإسلام عليهم. إنما أنت منذر، مهمتك كمهمة الرسل جميعا هي الهداية والإقناع بالحجة. هم يتآمرون للتخلص منـك، والله يعلم ما يكيدون، يعلم ما خفي في الأرحام وفي الصدور وما خرج منها وصار ظاهرا. هو يعلم الغيب والشهادة، يطلع على ما يخططون له ضدك سـواء فـي اجتماعـاتهم السرية في الليل، أو العلنية في النهار. إنهم لن ينالوا منك شيئا فقد جعلنا لك ملائكـة يتتبعونك ويتعقبون أثرك، يحفظونك من أذاهم. وإذا حدث أن مسوك بسوء فـسيكون عقابهم شديدا. إن الله لا يريد أن يبادرهم بالعقاب. ذلك كان شأنه مع الأقوام الماضية التي عصت رسلهم وسيكون ذلك مع قومك الذين يكذبونك ويتآمرون لإيذائك: فـالله لا يغير ما بقوم (قريش) من حال الراحة والسلامة والنعيم إلى حال الشدة والعذاب حتى يغيروا هم ما بأنفسهم. ذلك أن الأصل هو أن الله خلق الإنسان فـي أحـسن صـورة وأحسن حال وسخر له الكون كله اختبارا وامتحانا، فإذا جنح إلـى الظلـم والفـساد استوجب العقاب. وحينئذ، ولأنهم اختاروا الفساد والضلال، يأتيهم الـسوء مـن الله، وفي هذه الحالة لن يكون لهم والٍ ولا مناصرٌ يقف إلى جانبهم أمام عقاب الله.

86- سورة الإسراء

- تقديم

هناك عدة روايات حول "الإسراء" لعل أشهرها رواية أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب. قال محمد بن إسحاق إنها كانت تقول: "ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي : نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبّنا (أيقظنا) رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: "يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي (شعب أبي طالب)، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين"، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية (ثياب من الكتاب مطوية)، فقلت له: يا نبي الله: لا تحدث بهذا للناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: والله لأحدثّنّهُمُوه". وقال ابن سعد في طبقاته "عن بن عباس وغيره: "قالوا: أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة" (أي في الثالثة عشرة للنبوة)، قيل: وبه "جزم ابن حزم، وادعى فيه الإجماع". وهناك روايات تقدم تاريخ الإسراء إلى السنة الرابعة أو الخامسة للنبوة (أو قبلهما). وبناء على هذا التقدير الأخير رتبت هذه السورة بين رتبة 47 والرتبة 50 في لوائح ترتيب النزول. ونحن قد رتبناها هنا اعتمادا على الروايات السابقة وعلى ما ورد فيها من إشارات ترجح نزولها في هذه المرحلة، مرحلة ما بعد الحصار. هذا ولم تتحدث هذه السورة عن الإسراء إلا في آية واحدة، ولم يذكر فيها المعراج. ومن جهة أخرى سميت هذه السورة أيضا بسورة بني إسرائيل لكونها تحدثت عنهم طويلا.

ولعل أهم ما ورد حول بعض آياتها ما روي عن ابن عباس قال: "كان النبي (ص) بمكة ثم أُمر بالهجرة، فنزلت عليه "وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا" (الإسراء 80)، وهذا يزكي القول بأن السورة نزلت قبل الهجرة بسنة. وعن ابن عباس كذلك أن جماعة من كبراء قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، اجتمعوا مع النبي عليه السلام فقالوا : "يا محمد ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك: لقد سببت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك؛

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك -بما يأتيك- رئيا (جنيا) تراه قد غلب. بذلنا أموالنا في طلب العلم (الطب) حتى نبرئك منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون، ولكنه الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم مبشرا ونذيرا. قالوا: فإن كنت غير قابل ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا، ولا أقل مالا وأشد عيشا منا، فلتسأل لنا ربك الذي بعثك فليُسيِّر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليُبسط لنا بلادنا وليُجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من قد مضى من آبائنا؛ فإن لم تفعل فسل ربك ملكا يصدقك بما تقول، وأن يجعل لنا جنانا وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة، نعينك بها على ما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش؛ فإن لم تفعل فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل! فقام رسول الله (ص) عنهم. وقام معه عبد الله بن أبي أمية فقال: يا محمد: عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب! فوا لله لا أومن حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقي فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة فيشهدوا لك أنك كما تقول! فانصرف رسول الله (ص) حزينا فأنزل عليه في هذه السورة ما قاله عبد الله بن أبي أمية: "وقالوا لن نؤمن لك -إلى قوله - بشرا رسولا". ومن غير المستبعد أن يكون هذا اللقاء هو آخر محاولة لقريش مع النبي عليه السلام، قبل أن يقرروا اغتياله؟ كما سنرى.

- نص السورة

1- مقدمة : الإسراء ...

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ (مُنَزَّهٌ الله) الَّذِي أَسْرَى (سار) بِعَبْدِهِ (محمد) لَيْلًا، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (مكة) إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (القدس) الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ[1]، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا. إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]. وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَلَّا

1- ذكر الطبري أن هذا الإسراء كان رؤيا وأنه عليه السلام ما فقد جسده وإنما أسري بروحه وقد روي ذلك عن عائشة ومعاوية ...

تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا[2]، (هم) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ (موسى) كَانَ عَبْدًا شَكُورًا[3] (2).

2- رسالة إلى يهود المدينة: وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا...

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ (أخبرناهم في التوراة) لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ (الشام وفلسطين) مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا[4] (3) (تبغون بغيا عظيما وتعانون من الهزيمة). فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا(4) بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ (دخلوا دياركم وقتلوا منكم) وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا[5]؛ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا[6]. إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ (بعثناهم من جديد) لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ (يمعنوا في القتل والسبي) وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا (يهلكوا) مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا[7]، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ(5). وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا[8].

2-المعنى: الله أسرى بالنبي محمد عليه السلام"، ليريه من آياته، بعد أن نزل عليه القرآن، كما سبق أن خص موسى بلقاء في طور سينا فأراه آياته وأعطاه التوراة ...

3- يتعلق الأمر بتاريخ بني إسرائيل وهجوم البابليين عليهم وتحطيم مملكتهم بفلسطين وأسرهم ونقل عدد كبير منهم كأسرى إلى بابل، ثم حدثت حرب بن بابل والفرس مال فيها اليهود مع الفرس فانهزم البابليون وحرر ملك الفرس أسرى بني إسرائيل فعادوا إلى فلسطين مرة أخرى. والغزو البابلي عليهم كان عقابا من الله على انقسامهم في الأرض ومخالفتهم لتعاليم التوراة. واليوم والرسول محمد عليه السلام يتهيأ للهجرة إلى المدينة التي أسلم أهلها يجب أن يستفيد اليهود من تاريخهم. فإن أفسدوا اليوم فسيعاقبون كما عوقبوا بالأمس، وهذا معنى قوله "وإن عدتم عدنا" كما سنرى...

4- هجم الأشوريين سنة **722** ق.م على مملكة إسرائيل في الشمال فدمروها. وبعد ذلك بنحو قرن ونصف أي في سنة **586** ق.م زحف الجيش البابلي بقيادة بختنصر على مملكة يهوذا في الجنوب وقضى عليها وأخذ بني إسرائيل أسرى (التوراة. سفر الملوك الثاني). بقي بنو إسرائيل في أسر البابليين إلى أن قامت حرب بين هؤلاء وبين ملوك الفرس على عهد الملك كورش الذي انتصر على البابليين. وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، في عهد داريوس تم للفرس فتح بابل سنة **568** قبل الميلاد وقد مال الأسرى اليهود إليه وساعدوه فسمح لهم عام **530** قبل الميلاد بالعودة إلى أورشليم. (سفر أشعيا **10-12**، وسفر إرميا **25-29**).

5- لأول مرة ترد هذه الإشارات إلى هذا الجانب من تاريخ بني إسرائيل. تماما كما هو الشأن في الإشارات الواردة في سورة السجدة الآيات **23-25** (انظر التعليق هناك). وما قلناه هناك ينطبق على هذه الآيات أيضا، أعني هنا رسائل لها علاقة باستعداد النبي (ص) للهجرة إلى المدينة.

3- مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا[9]، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (ومنهم مشركو قريش) أَعْتَدْنَا (أعددنا) لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا[10]. وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ (قريش تستعجل يوم القيامة تحديا) دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ (كما تطلب من الرسول أن يوسع الله عليهم أرضهم ويحول الصفا والمروة ذهبا الخ تحديا كذلك) وَكَانَ الْإِنسَانُ (قريش) عَجُولًا[11] (يستعجل الاستجابة، ولو استجاب الله لطلبهم الأول وقامت القيام ولهلكوا وانتهى الأمر)(6). وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً(7) لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا[12]. وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ (عمله يحمله) فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا[13]. (يقال له) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا[14]. مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا[15]. وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا(8) مُتْرَفِيهَا

6- يقول الطبري في تفسير هذه الآية، وقد تبعه في ذلك جل المفسرين: "ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرّ، فيقول: اللهمّ أهلكه والعنه عند ضجره وغضبه. كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده. يقول: فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرّ كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك" (الطبري). ونحن نرى أن هذا التأويل لا يستقيم مع السياق، ففي الآية السابقة : "يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا". ونحن نرى أن مراعاة السياق يقتضي ربط تلك بهذه كما فعلنا. وقوله بعدهما "وجعلنا الليل والنهار آيتين" الخ يزكي ما ذهبنا إليه: انظر الهامش أدناه.

7- وهذه الآية متصلة هي الأخرى بما قبلها: الله وعد المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار، كما جعل الحياة ليلا ونهارا، فلوا أنه استجاب لطلب قريش "استجابة الليل" لهلكوا ولم يبق للحياة معنى وللاختبار والابتلاء مجال ولذلك اقتضت حكمته أن يمحو ظلام الليل بضياء النهار ليفسح المجال للإنسان كي يمارس الحياة، وعند قيام القيامة سيقدم له سجل أفعاله ليقرأه بنفسه وسيجزى على ما فعل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. كل يتحمل مسؤولية أفعاله، "ولا تزر وازرة وزر أخرى".

8- وردت قراءات عديدة منها "أمرنا" بتخفيف الميم (من الأمر)، ومنها بتشديدها (من الإمارة)، أي جعلناهم حكاما عليها. ففي القرطبي: قرأ أبو عثمان النهْدِيّ وأبو رَجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن «أمَّرْنا» بالتشديد، وهي قراءة عليّ رضي الله عنه؛ أي سلّطنا شرارها فعصوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهديّ «أمّرنا»=

(أغنياءها) فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا[16]. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا[17]. مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا[18] (مطرودا). وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا[19]. كُلًّا نُمِدُّ، هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ؛ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا[20]. انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا[21]. لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا[22].

4- بالوالدين إحسانا، وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ: الوصايا العشر.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا[23]. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا[24]. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ: إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا[25]. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا[26]. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا[27]. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ (ذوي القربى بسبب فراغ يدك، وذهابك لـ) ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا (رزقا) فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا[28] (طمئنهم بأنك سيكون عندك ما تعطيهم)، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً (مشدودة) إِلَى عُنُقِكَ (= بخيلا) وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ (بحيث لا يبقى لديك ما تعطي) فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا[29] (لا شيء عندك)، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يُضيِّقه) إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا[30]. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ (الفقر)، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا (إثما) كَبِيرًا[31]. وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[32]. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ(9)، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا

بتشديد الميم، جعلناهم أمراء مسلّطين؛ وقاله ابن عزيز: وتأمّر عليهم تسلط عليهم ... وهذه الآية متصلة، هي وما بعدها، بما قبلها: فالخطاب إلى قريش متصل كما هو واضح.

9- قالوا: "وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قود نفس، وإن كانت كافرة لم يتقدّم كفرها إسلام، فأن لا يكون تقدم قتلها لها عهد وأمان". (الطبري). وواضح أن هذا الفهم للآية لا يستقيم إذا راعينا زمن نزولها. فهي نزلت في مكة، حيث لم يكن قد تحدد بعد حكم الزنا (وقد اقتصرت الآية السابقة على وصفه بالفاحشة وسوء السبيل). كما لم يكن هناك "عهد أمان" يعطيه المسلمون للكفار، ولأن هذه الأحكام التي فسر بها الطبري وغيره هذه الآية لا تنطبق على العهد المكي، ربطها بعضهم بوضعية المسلمين=

(أي حق قتل القاتل، فإذا أراد استعمال هذا الحق)، فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ (لا يقتل غير القاتل ولا يمثل به) إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا[33] (قد أخذ بذلك الحق للمقتول). وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا[34]. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا[35]. وَلَا تَقْفُ (تتبع) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا[36]. وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا[37]. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا[38] (10).

في مكة فذكروا أنه "كان المشركون يقتالون أصحاب النبيّ (ص)، فقال الله تبارك وتعالى: من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم عن أن تقتلوا له أبا أو أخا أو أحدا من عشيرته، وإن كانوا مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم". قلت: وهذا المعنى أقرب.

10- الرازي: إن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال، فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار. وعن ابن عباس: أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام: أولها: "وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ" قال تعالى: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ" (الأعراف: 145). (الجابري، قلت): هذه إشارة إلى الوصايا العشر التي في التوراة وقد ورد فيها ما نصه: "2أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عُبُودِيَّتِكَ. 3لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. 4لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقٍ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ. 5لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهَكَ، إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ آثَامَ الآبَاءِ فِي الْبَنِينَ حَتَّى الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنْ مُبْغِضِيَّ، 6وَأُبْدِي إِحْسَاناً نَحْوَ أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ الَّذِينَ يُطِيعُونَ وَصَايَايَ. 7لاَ تَنْطِقِ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً. 8اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ، 9سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَقُومُ بِجَمِيعِ مَشَاغِلِكَ، 10أَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَتَجْعَلُهُ سَبْتاً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَلاَ تَقُمْ فِيهِ بِأَيِّ عَمَلٍ أَنْتَ أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوْ عَبْدُكَ أَوْ أَمَتُكَ أَوْ بَهِيمَتُكَ أَوِ النَّزِيلُ الْمُقِيمُ دَاخِلَ أَبْوَابِكَ. 11لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ صَنَعَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ. لِهذَا بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَجَعَلَهُ مُقَدَّساً. 12أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ يَطُولَ عُمْرُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي يَهَبُكَ إِيَّاهَا الرَّبُّ إِلهُكَ. 13لاَ تَقْتُلْ. 14لاَ تَزْنِ. 15لاَ تَسْرِقْ. 16لاَ تَشْهَدْ زُوراً عَلَى جَارِكَ. 17لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ جَارِكَ، وَلاَ زَوْجَتَهُ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لَهُ». (سفر الخروج 20). ونزول هذه الوصايا في هذه السورة يمكن ربطه بأمرين: فهي من جهة "قانون" أخلاقي يجب أن يتبعه المسلمون في مكة وخارجها، وكانوا قد تكاثروا في المدينة التي بدأ المسلمون يهاجرون إليها بأمر من الرسول قبيل هجرته حتى يكون هو آخر من يهاجر. والأمر الثاني تنظيم للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين خاصة بين المسلمين في المدينة وسكانها اليهود. وقد جاءت هذه الوصايا الأخلاقية القرآنية متناغمة مع الوصايا العشر التوراتية كرسالة سلمية أخرى إلى اليهود في المدينة، تخبرهم أن الدين الجديد يصدق ما في التوراة وهو نفسه دين الجد المشترك : إبراهيم عليه السلام.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ[11]، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا"[39]. أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ (هل خصكم يا قريش) بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا[40]! وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (بيّنا) فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا[41]. قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا[42] (ليقاتلوه)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا[43]. تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ. إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا[44]. وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا[45]، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (أغطية) أَنْ يَفْقَهُوهُ (فلا يفهمونه) وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (صمما)، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ، فِي الْقُرْآنِ، وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا[46]، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ (يستمعون له) إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى (يتسارون) إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا"[47](12). انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ (بقولهم عنك : رجل مسحور) فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا[48]. وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا"[49]. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا[50] أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ! فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ (يحركون) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا[51]، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا[52]. وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ (يفسد) بَيْنَهُمْ (بين عرب القبائل)، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا[53]. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا[54]. وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا[55]. قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا[56]، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ (يعبدون الملائكة ليقربوهم من الله، فهؤلاء الملائكة هم أنفسهم)

11- الحكمة هنا هي التصرف وفق الأوامر والنواهي السابقة. قارن حكمة لقمان. أي وفق السلوك الأخلاقي، السلوك الحسن، العمل بالمعروف واجتناب المنكر.

12- قيل "نزلت حين دعا عليٌّ رضي الله عنه أشراف قريش إلى طعام اتّخذه لهم، ودخل عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله سبحانه، وهم يقولون فيما بينهم متناجين: هو ساحرٌ، وهو مسحورٌ، فأنزل الله تعالى: "نحن أعلم بما يستمعون به" أيْ: يسمعه بعضهم من بعض: يقول بعضهم لبعض.

يَبْتَغُونَ (يلتمسون) إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ (الوسيلة الأقرب منه)، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا[57]. وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (كما أهلكنا قرية عاد وثمود) أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا (وذلك ما سنفعل بمشركي قريش: مكة، وذلك بقتال أهلهم وهزمهم)؛ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا[58]. وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ (المعجزات التي طلبها المشركون) إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ: وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً (آية بينة) فَظَلَمُوا بِهَا. وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ (المعجزات) إِلَّا تَخْوِيفًا[59] (للناس كي يؤمنوا). وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ (علما وقدرة)، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ (الإسراء) إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (شجرة الزقوم) (13) وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا[60].

6- قضية إبليس : قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ..

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا[61] (من طين)؟ قَالَ أَرَأَيْتَكَ (أخبرني:) هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ (لأستأصلن) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا[62]. قَالَ: اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا[63]، وَاسْتَفْزِزْ (غرِّر بـ) مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا[64]. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا[65]. رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي (يجري) لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا[66]. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا[67]، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

13- العبارة فيها تأخير وتقديم كما يلي: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ. اختلف المفسرون في المقصود بالرؤيا فقال معظمهم الإسراء، واختلفوا هل هي رؤية بصرية أم رؤية قلبية، هل حدث الإسراء وهو نائم فيكون رؤيا بمعنى حلم، أم أنه حدث وهو مستيقظ. ولكل أحاديث وآثار يحتج بها. أما معاصرو النبي عليه السلام من المشركين فقد استهزءوا بذلك، كما لم يستسغها بعض الذين كانوا قد أسلموا حديثا فارتدوا فكانت "فتنة". أما الشجرة بـ "الملعونة" فهي شجرة الزقوم "تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ" (62-67). وقد اعترض المشركون على ذلك بالقول: النار تحرق الشجر فكيف تنبته؟. فكان ذلك فتنة لهم، أي أمرا محيرا.

(يرميكم بالحصباء) ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا[68]؟ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا[69]؟ (محاسبا).

7- تكريم الإنسان. عتاب: كادوا يفتنونه، جدال مع قريش.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا[70]. يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ (بنبيهم) فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[71]. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ (الدنيا) أَعْمَى (ضالا) فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا[72]. وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ (ينحرفون بك) عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا[73]. وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا[74] (14). إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ (عذاب) الْحَيَاةِ وَضِعْفَ (عذاب) الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا[75]. وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ (مكة) لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ (بعدك) إِلَّا قَلِيلًا[76] (15): سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا[77]. أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ (غروبها) إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ؛ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا[78]. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ (يقيمك) رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا[79]. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا[80] (انظر التقديم). وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا[81]. وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ (بيان واطمئنان) وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا[82]. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا[83]. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى

---

14 – ذكروا في هذا الشأن أشياء كثيرة مختلفة الزمان والمكان، والمقصود أن قريش ساومت الرسول بشيء ما ليتسامح مع آلهتهم، حتى يؤمنوا، وأن النبي ربما سولت له نفسه قبول الصفقة، ثم عدل ذلك. ومن جملة ما ذكروا: أن "وفد ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: متِّعنا باللات سنةً، وحرِّمْ وادينا كما حرَّمت مكة؛ فإنّا نحبُّ أن تعرف العربُ فضلنا عليهم، فإنْ خشيت أن تقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا فقل: الله أمرني بذلك، وأقبلوا يلحّون على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وقد همّ أنْ يعطيهم ذلك"، فنزلت. (انظر التقديم أيضا).

15 – قيل إن أهل مكة قرروا إخراج النبي منها (قبل الهجرة) ولكن لم يفعلوا، وتقول الآية: لو فعلوا ذلك لما طال بهم المقام فيها فإن الله كان سيهلكهم فيها، كما أهلك أمثالهم من قبل.

سَبِيلًا[84]. وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ! قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْـمِ إِلَّـا قَلِيلًا[85] (انظر التعليق).

8- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ.

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (أي محونا القرآن) ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِـهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا[86] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا[87]. قُـلْ لَـئِنْ اجْتَمَعَـتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[88] (معينا)(16). وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (بيّنا) لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَـلٍ، فَـأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا[89]. وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا[90]، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا[91]، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا (أجساما)، أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا[92] (عيانا)، أَوْ يَكُونَ لَـكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ! وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَـا كِتَابًـا نَقْرَؤُهُ! قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي! هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا[93]. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُـوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا[94]؟ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَـةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا[95]. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا[96]. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا[97]. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَـالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا[98]؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّـذِي خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيـهِ فَـأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا[99]. قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْـسَكْتُمْ خَـشْيَةَ (نفاذها بـ) الْإِنفَاقِ، وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا[100] (بخيلا). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَـاتٍ بَيِّنَاتٍ(17)، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـا مُوسَـى مَسْحُورًا[101]. قَالَ (موسى) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَـاءِ (الآيات) إِلَّـا رَبُّ الـسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ (عبرا) وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَـوْنُ مَثْبُـورًا[102] (هالكـا). فَـأَرَادَ أَنْ

16- يمكن أن تفهم الصلة بين هذه الفقرة والتي قبلها على أساس أن هذه رد على قـريش في محاولة إحراجهم النبي (ص) وتحديه بسؤالهم عن "الروح".

17 - قيل هي: اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم أو الطمس والسنين ونقص الثمرات" وهي تدخل في معجزات موسى.

يَسْتَفِزَّهُمْ(18) مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا[103]. وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ (الموعودة لما نجوا ووصلوا إليها)، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا[104] (جميعا أنتم وفرعون مختلطين، كل يحاسب حسب عمله).

9- خاتمة: وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ (القرآن) وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا[105]. وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا[106]. قُلْ (لمشركي مكة) آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ (النصارى) إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا[107] (19). وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا[108]. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا[109]. قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ، أَيًّا

18- معظم المفسرين شرحوا "يَسْتَفِزَّهُمْ" بـ "يخرجهم". وهذا لا يستقيم لأن إخراج بني إسرائيل من مصر هو ما جاء من أجله موسى، وقد امتنع فرعون عن السماح لهم بذلك. وعليه فالمعنى حسب القصة هو أن موسى خرج ومعه بنو إسرائيل فلحق فرعون بهم ليقتلهم ويتخلص منهم فأغرق الله جيشه. فالاستفزاز هنا معناه التخلص، ويكون بمعنى التخويف والإخراج المادي بمعنى النفي، والمعنوي بمعنى جعل الإنسان يفقد صواب عقله الخ. والملاحظ أن الآية استعملت هنا "فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا"، وفي آية أخرى أن فرعون بقي حيا، فيكون معنى أغرقناه هنا: أنه صار في عداد المغرقين الذين فقدوا كل قوتهم الخ.

19- ارتبك المفسرون في تحديد المعنيين هنا، قال بعضهم "هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيَّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود، ووافقه القرطبي وقال: وهو أظهر لقوله «مِنْ قَبْلِهِ». قلت (الجابري) واضح أن الإشارة هنا إلى وفد من نصارى الحبشة قال عنه ابن إسحاق في السيرة: "ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركبا أحمق منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم : سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا". قيل : هذا الوفد من نصارى الشام.

مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا[110] (20). وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ (يحميه) مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا[111].

- تعليق

قسمنا هذه السورة إلى ثماني فقرات وقد تحدثنا في الهوامش عن الصلة بينها وعن الموضوعات التي طرحتها، فضلا عن شروح داخل كل فقرة عبرنا فيها عن وجهة نظرنا في فهم عبارات الآيات. وتجنبا للتكرار قررنا أن نخصص هذا التعليق لمسألة الروح التي وردت في قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ! قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". لقد سبق أن أشرنا في سورة الكهف إلى ما ذكره الرواة من أن يهود المدينة نصحوا قريش، لما سألوهم ما به يمكن أن يمتحنوا حقيقية نبوة الرسول عليه السلام، أن يطرحوا عليه ثلاثة أسئلة: واحد حول أهل الكهف، وآخر عن ذي القرنين، وثالث عن حقيقة الروح. وقد أجابهم الرسول في سورة الكهف (رقم 70) عن السؤالين الأول والثاني، ولم تأت السورة على ذكر جواب السؤال الثالث الخاص بـ"الروح".

ولما وجد المفسرون والمؤلفون في "أسباب النزول" أن مسألة الروح قد طرحت في سورة الإسراء قالوا : ههنا الجواب عن السؤال الثالث. ولكن لما كان تاريخ الإسراء مختلف فيه وكان المنطق يقتضي نزول سورة الإسراء، بعد الإسراء لا قبله، وكانوا يرتبون سورة الإسراء في الرتبة 50 من ترتيب النزول، أي قبل سورة الكهف بنحو عشرين سورة وقعوا في اضطراب كبير. ومع أن روايات عديدة ومعتبرة (ذكرناها في المدخل) أفادت أن الإسراء وقع قبل الهجرة بسنة وبالتالي ستكون سورة الإسراء من أواخر ما نزل في مكة فإنهم فضلوا عن قصد، أو عن عدم انتباه، "الكلام" في الرواية التي تخص أسئلة اليهود علهم يجدون مخرجا من المشكلة التي يطرحها عدم ورود الجواب عن "الروح" في سورة الكهف. وهكذا ظهرت روايات أخرى تقول إن اليهود قالوا لمبعوثي قريش: فإن أجابكم محمد عن الروح فليس بنبي، وإن لم يجبكم فهو نبي! وهناك

20- سبق أن قلنا إن مناسبة نزول هذه الآية راجعة إلى أن النبي (ص) كان يدعو في سجوده: "يا رحمان يا رحيم"، فسمعته قريش وقال بعضهم : كان محمد يدعو الله واليوم يدعو رحمان اليمامة، فجاءت الآية لترد عليهم بأن الله هو نفسه الرحمان، ولتطلب من النبي أن لا يرفع صوته عند الدعاء الخ، لأن خصوم الدعوة من قريش كانوا إذا سمعوه أخذوا في سبه وسب إلهه.

من قال إن أسئلة اليهود كانت في الأصل سؤالين وليس ثلاثة. وآخرون قالوا إن سؤال النبي عن الروح لم يكن ضمن الأسئلة التي اقترحوها على قريش بل كان سؤالا مستقلا طرحته اليهود على النبي عليه السلام فيما بعد، فكان الجواب هو ما ورد في هذه السورة. وواضح أنه لم يكن في إمكان أي أحد أن يشك في كون السؤال نفسه قد طرح على النبي لأن الآية الخاصة به واضحة : "ويسألونك عن الروح".

بعد هذا العرض التاريخي الموجز للمسألة، نقول:

إن قوله تعالى "ويسألونك عن الروح" واقع في سياق ذكر اعتراضات قريش والرد عليها، وهو السياق العام للسورة، ومع ذلك فإننا لا نعتقد أن سؤال "الروح" كان مما يدخل في مجال "المفكر فيه" لدى قريش، ذلك أن الجانب الإشكالي في هذا السؤال ينتمي أساسا إلى الفكر اليهودي. ومن هنا يغلب على ظننا أن السؤال طرحته اليهود إما مع سؤال "أهل الكيف" و"ذي القرنين" أو بصورة مستقلة. وسنرى ما يحملنا على القول بهذا لاحقا... المهم هنا هو الجواب: "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي"! فكيف نفهم هذا الجواب؟

قبل الإجابة يحسن بنا استحضار العبارات والمعاني التي ورد فيها لفظ "الروح" في القرآن ككل، عملا بمنهج "القرآن يشرح بعضه بعضا".

أولا : الروح في القرآن

لقد ورد لفظ "الروح" في القرآن، ضمن عدة عبارات، في الآيات التالية :

1- روح الله: ورد هذا في آدم: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72ص، والأعراف 72، السجدة 9)، وقد ورد في مريم: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17مريم)، وأيضا: "وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء 91، التغابن 12). وأيضا: " إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" (النساء 171). وقوله: "وَأَيَّدَهُمْ (المؤمنين) بِرُوحٍ مِنْهُ" (الحجرات: 22)

3- الروح من أمر الله : وردت هذه العبارة في قوله تعالى: "يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (غافر 15). وقوله: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (النحل 2)، وقوله: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء85) وقوله: " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى 16)

3- روح القدس : ورد هذا التعبير مرتين: في قوله : "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل 102) وقوله: وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة 87) وأيضا: "وأيضا "إِذْ أَيَّدْتُكَ (عيسى) بِرُوحِ الْقُدُسِ (المائدة 111). ومثله

"الروح الأمين فقد ورد في المعنى نفسه يقول تعالى : "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء 193- 195)

4- الملائكة والروح : ورد في قوله تعالى: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (المعارج 4)، وقوله: "يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (النبأ 38)، وقوله: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر 4).

ومما تجدر ملاحظته ابتداء الأمور التالية:

1- غياب استعمال الروح منسوبة للإنسان، الشيء الذي يسمح باستبعاد أن يكون السؤال والجواب في آية الإسراء، يتعلق بـ "روح الإنسان".

2- روح القدس والروح الأمين" هو جبريل بدليل قوله تعالى عن القرآن: " قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"، و"نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" (رقم 3 أعلاه).

3- أما "الروح" في قوله "الروح والملائكة" فهو أيضا جبريل أو أحد الملائكة، للجمع بينه وبينهم.

4- عبارة "نفخت فيه من روحي" (روحنا) تطرح العلاقة بين الروح والريح والنفَس (بفتح الفاء). وبالتالي النفس (بسكون الفاء)، ومن هنا يمكن القول إن الأمر يتعلق بشيء غير مادي، مثل الريح والنفَس الخ. وكما هو معلوم فالنفْس لها علاقة بالنفس والتنفس؛ وعدم التنفس (الاختناق) يؤدي إلى الموت، ويعبر عنه بزهوق النفس. وخروج الروح من البدن. ولما كان النفخ هو إصدار قوة، مثل الريح والنفَس، فإن معنى "نفخت فيه من روحي" هو نقلت إليه القدرة على التنفس التي هي علامة على وجود الروح فيه.

5- روح الله، من روحه، المقصود به جبريل: روحنا بمعنى رسولنا.

6- الروح من أمر الله: "أمر الله" يوازن "كلمة الله"، لقوله تعالى عن عيسى : هو "كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ"، أي أمر منه بأن يكون فكان. وفاقا مع قوله : "إِنَّمَا أَمْرُهُ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" (يس 82)، بمعنى: إذا أراد الله شيئا أن يكون، أن يوجد، أمَرَهُ أن يكون (قال له كن) فيكون.

7- ومما تقدم يتبين أن "الروح" المسؤول عنها في قوله تعالى: ""وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا") (الإسراء85)، هو الروح القدس جبريل. وذلك لقوله تعالى : "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل 102). وهناك قرينة من السياق تزكي هذا الذي ذهبنا إليه وهي الآية التي جاءت مباشرة بعد السؤال وجوابه: قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ! قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا[85]، وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (أي محونا القرآن)

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا[86] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا"[87]. قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[88]. إذن فالسياق يدل على أن مدار القول هو القرآن: فكأنهم قالوا : من يأتيك بالقرآن؟ فأجاب بقوله تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"، وعندما سألوه وما الروح: قال: "الروح من أمر ربي".

بعد هذا البيان الذي اقتصرنا فيه على القرآن من حيث كونه "يشرح بعضه بعضا" نلقي نظرة على ما ورد في معاجم اللغة قبل الإطلالة على المسألة كما طرحت في التوراة والإنجيل.

ثانيا الروح في المعاجم العربية

قال في مقاييس اللغة: الرُّوح والرَّوْح في الأصل واحد، وجعل الرُّوح اسما للنفْس، وذلك لكون النفس بعض الروح، كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان. وجعل اسما للجزء الذي به تحصل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار... ثم يستشهد بالآيات السابقة وكأن الروح فيها بهذا المعنى. ويضيف "والروح التنفس، وقد أراح الإنسان إذا تنفس. وفي لسان العرب: "الرُّوحُ ، بالضم في كلام العرب: النَّفخُ، سمي رُوحاً لأنه رِيحٌ يخرج من الرُّوحِ؟

ثالثا: في التوراة والإنجيل

يبدو أن لفظ "روح" مشترك بين اللغات السامية أو على الأقل بين العربية والعبرانية، ففي التوراة وردت الكلمة هكذا "روح" ruah في بداية التوراة، في الفقرة الأولى من سفر التكوين في قوله: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، 2وَإِذْ كَانَتِ الأَرْضُ مُشَوَّشَةً وَمُقْفِرَةً وَتَكْتَنِفُ الظُّلْمَةُ وَجْهَ الْمِيَاهِ، وَإِذْ كَانَ رُوحُ اللهِ يُرَفْرِفُ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ، 3أَمَرَ اللهُ : «لِيَكُنْ نُورٌ». فَصَارَ نُورٌ".

ثم توالى ورود هذه الكلمة بكثرة وفي معاني متقاربة : وهكذا فبعد أن تكاثر الناس بعد الطوفان وغلبت عليهم شهواتهم، "قَالَ الرَّبُّ: لَنْ يَمْكُثَ رُوحِي مُجَاهِداً فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ. هُوَ بَشَرِيٌّ زَائِغٌ". وفي سياق إطراء فرعون على يوسف "قال لعبيده: هَلْ نَجِدُ نَظِيرَ هَذَا (يوسف) رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ"؟. "وَجَمَعَ سَبْعِينَ رَجُلاً مِنْ رُؤَسَائِهِمْ وَأَوْقَفَهُمْ حَوْلَ الْخَيْمَةِ. فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَخَاطَبَهُ، وَأَخَذَ مِنَ الرُّوحِ الْحَالِّ عَلَيْهِ وَوَضَعَهُ عَلَى السَّبْعِينَ رَئِيساً. فَلَمَّا حَلَّ عَلَيْهِمِ الرُّوحُ تَنَبَّؤُوا لِفَتْرَةٍ وَتَوَقَّفُوا".

وَكَانَ يَشُوعُ بْنُ نُونٍ قَدِ امْتَلأَ رُوحَ حِكْمَةٍ بَعْدَ أَنْ وَضَعَ مُوسَى يَدَيْهِ عَلَيْهِ 10فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ وَصَارَ قَاضِياً لإِسْرَائِيلَ"... "فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ فَقَبَضَ عَلَى الأَسَدِ...".

وفي مقابل "روح الرب" الرحيمة الخيرة هذه هناك روح رديئة. وهكذا نقرأ: "وَفَارَقَ رُوحُ الرَّبِّ شَاوُلَ وَهَاجَمَهُ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ رُوحٌ رَدِيءٌ يُعَذِّبُهُ. قَالَ لَهُ رِجَالُهُ: «إِنَّ رُوحاً رَدِيئاً يُعَذِّبُكَ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ".

ثم يأتي الكلام عن "الرُّوحَ الَّذِي فِي الإِنْسَانِ، وَنَسَمَةَ الْقَدِيرِ، تُعْطِي الإِنْسَانَ فَهْماً". ويقول شاب "لَيْسَ الْمُسِنُّونَ وَحْدَهُمْ هُمُ الْحُكَمَاءَ، وَلاَ الشُّيُوخُ فَقَطْ يُدْرِكُونَ الْحَقَّ. سَأُجِيبُ أَنَا أَيْضاً وَأُبْدِي رَأْيِي، لأَنِّي أَفِيضُ كَلاَماً، وَالرُّوحُ فِي دَاخِلِي يُحَفِّزُنِي... رُوحُ اللهِ هُوَ الَّذِي كَوَّنَنِي، وَنَسَمَةُ الْقَدِيرِ أَحْيَتْنِي". "قَلْباً نَقِيّاً اخْلُقْ فِيَّ يَا اللهُ، وَرُوحاً مُسْتَقِيماً جَدِّدْ فِي دَاخِلِي. لاَ تَطْرُدْنِي مِنْ حَضْرَتِكَ، وَلاَ تَنْزِعْ مِنِّي رُوحَكَ الْقُدُّوسَ"... "تَقْبِضُ أَرْوَاحَهَا فَتَمُوتُ، وَإِلَى تُرَابِهَا تَعُودُ. تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ ثَانِيَةً وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ.

هذا في التوراة ... أما في الأناجيل فنقرأ :"أَمَّا يَسُوعُ الْمَسِيحُ فَقَدْ تَمَّتْ وِلاَدَتُهُ هكَذَا: كَانَتْ أُمُّهُ مَرْيَمُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ؛ وَقَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا مَعاً، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ..."، فَلَمَّا تَعَمَّدَ يَسُوعُ، صَعِدَ مِنَ الْمَاءِ فِي الْحَالِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدِ انْفَتَحَتْ لَهُ وَرَأَى رُوحَ اللهِ هَابِطاً وَنَازِلاً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ حَمَامَةٌ" ... "فَلَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ، بَلْ رُوحُ أَبِيكُمْ هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ".

وعندما حصل التداخل بين الفكر المسيحي والفلسفة اليونانية استعمل اللفظ الإغريقي pneuma (نفس، فكر) في الترجمات اليونانية للتوراة لأداء معنى اللفظ العبراني "روح" ruah. وبالإضافة إلى تعدد معاني اللفظ الإغريقي المذكور pneuma ، إذ يستعمل في معنى "الريح" و"الهواء"، والتأوه والتنفس، كما يستعمل في معنى "النفس" و"الحياة"، و"القلب" و"الروح"، بالإضافة إلى ذلك يستعمل في معنى هام وهو "روح يهوه" أو "نفسه". والمقصود : الفعل الإلهي في العالم الطبيعي وفي التاريخ. إنه بمثابة قوة روحية صادرة عن الله. وتقدم التوراة هذا الفعل الإلهي على صورة إلهام وتوجيه من الله، هو قوة حالة في الإنسان تنفذ إرادة الله، وهي إرادة تتماهى مع الله نفسه.

هكذا بدأ تصور العهد الجديد (الأناجيل) للعلاقة بين "روح الله" والقوة الإلهية التي تقدم رسالة عيسى كرسالة متعالية، فوق طبيعية. ويبدأ الكلام عن "روح" مطلق بنفسه، الشيء الذي سيفتح الباب أما فكرة التجسد. وهكذا يقدم لنا يوحنا الحواري المسيح على أن الذي نزل عليه الروح من السماء خلال تعميده ليبقى فيه على الدوام. بعد ذلك سيظهر مفهوم "الروح المقدس" Saint-Esprit الذي سيترسّم في مجمع نيقية عام 325 للميلاد بوصفه ثالث ثلاثة: الأب، الابن، والروح القدس.

87- سورة الروم

- تقديم

تعددت الروايات والأقوال، قديما وحديثا، حول هذه السورة، خصوصا الآيات الأولى منها التي تتحدث عن معركة من المعارك التي دارت رحاها زمن البعثة المحمدية بين الفرس والروم البيزنطيين. والموضوعات التي كانت مثار جدل هي التالية:

1- في إحدى جولات الحرب الطاحنة، التي جرت بين الفرس والروم البيزنطيين قبل البعثة المحمدية، غلبت الفرس الروم في مكان حددته السورة التي نحن ضيوف عليها بكونه يقع "في أدنى الأرض" وقد فسره جميع المفسرين تقريبا بمعنى أقرب البلدان شمالا إلى مكة وهي بُصرى وأذرعات من أراضي جنوب الشام. وتقول أشهر الروايات، وقد ذكرتها معظم كتب التفسير: بلغ ذلك النبي (ص) وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم: وتضيف الرواية: "وكان النبي (ص) يكره أن يظهر الأمّيون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم. وقد فرح كفار مكة وشمتوا في أصحاب النبي (ص) فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر (انتصر) إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى: "الَمَ غُلِبَتِ الرُوَمُ في أدنى الأَرضِ" إلى آخر الآيات. وما يلفت الانتباه هنا ما ورد على لسان المتحدث باسم قريش حين قال: "وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم"! فإذا كان هذا الذي نسب إليه صحيحا، فذلك يعني أن قريش كانت تدخل في حسابها أن "الحرب ستقوم بينها وبين المسلمين". وهذا لم يكن من المفكر فيه قبل المعاهدة التي عقدها النبي عليه السلام مع ممثلي يثرب في بيعة العقبة الثانية، وبالتالي فتاريخ نزول هذه السورة يتحدد بهذه البيعة التي تمت في السنة الثالثة عشرة للنبوة، الشيء الذي يعني أنها نزلت قبل الهجرة، بنحو سنة.

2- وتضيف الرواية المذكورة : "قال ناس من قريش لأبي بكر: زعم صاحبكم أن الروم ستغلِب فارسَ في بضع سنين (كما في السورة)، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى! واتفقوا على تحديد عدد السنين في قوله "بضع سنين" بست. (على اعتبار أن لفظ "بضع" يفيد ما بين الثلاثة إلى التسعة)، فمضت ست سنين قبل أن

يغلب الروم الفرس فأخذ المشركون رهن أبي بكر". وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أُبيّ بنُ خلف (وذلك قبل تحريم الرهان)، وأنهما جعلا الرهان خمس قلائص (إناث الإبل، الشابة). وفي رواية أنهما بعد أن جعلوا الأجَل ستة أعوام غيروه فجعلوه تسعة أعوام[1] وازدادوا في عدد القلائص، وأن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به أُبي بن خلف وقال له: أعطني كفيلاً بالخطر (الرهن) إن غُلِبْتَ، فكفل به ابنه عبد الرحمان. فلما غَلَب الروم بعد سبع سنين أخذ أبو بكر الخطَر من ورثة أبي بن خلف. واتفقت الروايات على أن غلب الروم للفرس -الذي وعد به القرآن- وقع بعد مضي سبع سنين من غلب الفرس على الروم الذي نزلت عنده هذه السورة.

3- حاول كثير من الباحثين والكتاب المعاصرين تحديد تاريخ انهزام الفرس المشار إليه في الآية وتاريخ "بضع سنين" التي حددتها الآية لانتصار المغلوب على الغالب أي الروم على فارس، ويكادون يجمعون على أن المعركة المشار إليها في الآية والتي انتصر فيها الفرس وقعت عام 615 ميلادية، وأن المعركة التي انتصر فيها الروم على الفرس هي تلك التي وقعت سنة 624-625 ميلادية، سنة غزوة بدر، وفي هذه الحالة ستكون "بضع سنين" تساوي تسع سنوات. على أن هناك من يرى أن غلبة الروم على الفرس التي بشرت بها الآية هي انتصار الروم سنة 627-628 ميلادية، وهذا يتوافق مع صلح الحديبية. وعلى هذا تكون "بضع سنين" تساوي سبع سنوات ويكون تحديدها بتسع سنين من خطأ الناسخ كما في الرواية المنسوبة لابن عباس... ونحن نرجح هذا التقدير الأخير لأنه أنسب لسنة نزول السورة أي لسنة الأولى الهجرة، الموافقة للسنة621 ميلادية.

فإذا نحن أخذنا بهذا الترجيح اتضح أن تاريخ انتصار الروم على فارس سيكون في السنة السادسة للهجرة أي متزامنا مع بيعة الرضوان وصلح الحديبية (الموافق 627-628 ميلادية). ونحن نرجح هذا التاريخ لثلاثة أسباب :

- الأول هو أن جعل تاريخ انهزام الروم المقصود في الآية والحاصل عام 615 ميلادية الموافق للسنة الخامسة للنبوة، سنة الهجرة الأولى للحبشة، يجعل نزول هذه السورة متقدما على رتبتها المنصوص عليها في لوائح ترتيب النزول

1- يقول بعض المفسرين والمهتمين بهذا الموضوع إن عدد السنين لابد أن يكون "سبعا" وأن الناسخ ارتكب خطأ، فزاد "سنة" في السين (وكانت الحروف لا تنقط) فقرئت تسع، بدل "سبع". وهذا التصحيح من أجل أن يتوافق تاريخ انتصار الروم الذي بشرت به السورة مع تاريخ غزوة بدر، وذلك بناء على رواية عن أبي سعيد الخدري ورد فيها : "لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس".

والتي تؤكدها الإشارات الواردة في هذه السورة والتي تجعل تاريخ نزولها في السنة الأولى قبل الهجرة كما سنرى.

– الثاني أن تخصيص السورة للآيات السبع الأولى منها للحديث عن هذا الموضوع، ثم الانتقال مباشرة إلى موضوع لم يكن يستوجب التقديم له بالحديث عن هزيمة الروم، لابد أنه يكون لغرض ومقصد. إذا فرضنا أن هزيمة الروم المشار إليها هي التي وقعت سنة 615 ميلادية فما الذي يبرر الحديث عنها في مقدمة هذه السورة، أي بعد نحو ثماني سنوات؟

– الثالث أن الصراع بين الروم والفرس دام قرونا قبل البعثة المحمدية كانت الحرب بينهما سجالا، وقد جرت بين الإمبراطوريتين عدة معارك منذ بداية نبوة الرسول عليه السلام حتى نزول سورة الروم في السنة الثالثة عشرة للنبوة، ولم يشر القرآن إلى أي منها بشيء! نعم القرآن ليس كتاب تاريخ، ولا يهتم بالحوادث في تسلسلها عبر الزمن البشري، فزمان القرآن زمان خاص، والحقيقة التاريخية التي يتحدث عنها -مثل قصص الأنبياء- هي حقيقة قرآنية وليست حقيقة تاريخية بالمعنى الزماني المكاني للحوادث. وإذن فتفكيرنا يجب أن يتجه إلى التماس ما عبرنا عنه بالحقيقة القرآنية وليس إلى شيء آخر. والحقيقة القرآنية التي تؤكدها الآيات التي أشارت إلى انهزام الروم وبشرت بانتصارهم بعد بضع سنين تعبر عنها الآيات التي تلت تلك الإشارة وهي قوله تعالى: "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ، يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[5]. وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ". كان المسلمون مغلوبين على أمرهم طيلة السنوات التي مرت من الدعوة المحمدية، اضطهدوا وعذبوا واضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة وحوصر النبي وأهله في شعب أبي طالب الخ الخ. واليوم وقد تحالف النبي (ص) مع أهل يثرب وتمت بيعة العقبة الثانية التي سماها بعض المؤرخين ببيعة "الحرب" وأخذ المسلمون يغادرون مكة إلى المدينة أرسالا أرسالا، ولم يبق إلا الإذن للنبي عليه السلام بالهجرة والقتال، يأتي انهزام الروم في معركة من معاركهم مع الفرس فرصة للتذكير بأن الحياة كما رتب الله أمورها قائمة على الدورية، أرض وسماء، ليل ونهار، هزيمة وانتصار.. و"لله الأمر من قبل ومن بعد". لقد قرب وقت الهجرة إلى المدينة، وسيقوم المسلمون الذين أخرجوا من ديارهم قهرا وعسفا برد الظالم عن ظلمه وسينتصرون كما سينتصر الروم في جولة قادمة، لأن الحياة أزواج، ومن كل شيء زوجين، ولا يمكن أن يكون النصر للفرس مرتين متتاليتين. سينتصر الروم وسينتصر المسلون وسيفرح المؤمنون من هؤلاء وهؤلاء بنصر الله: "وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

– نص السورة

1- مقدمة: غلبة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

الم[1]. غُلِبَتِ الرُّومُ[2] (البيزنطيون في حربهم مع فارس)، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (قريبا من المدينة)، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ (سقوطهم مغلوبين) سَيَغْلِبُونَ[3] فِي بِضْعِ سِنِينَ. لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ[4] بِنَصْرِ اللَّهِ (2)، يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ[5]. (ذلك) وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ[6]. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[7].

2- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا (قريش) (3) فِي أَنفُسِهِمْ (ألم يفكروا بعقولهم أنه) مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (بنظام) وَأَجَلٍ مُسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ[8]. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا (أهل مكة)، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[9]. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى (مؤنث الأسوء) أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ[10]. اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[11]. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ[12] (يصمتوا بعد أن كانوا يكذبون بوقوعها)، وَلَمْ يَكُن لَّهُم (يوم القيامة) مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ[13]. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ: يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ[14] (المبعوثون)، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ[15] (في سرور)، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ[16].

2- حسب ما ورد في التقديم (انظر تفاصيل أوفى في التعليق)

3- عن وجه الصلة بين هذه الفقرة والمقدمة. انظر التعليق.

3- فَسُبْحَانَ اللَّه حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ... من آياته....

فَسُبْحَانَ اللَّهِ (نزهوه) حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ[17]، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ[18] (4). يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ[19] (يوم البعث). وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ[20]! وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[21]. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ[22]. وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ[23]. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[24]. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (وبدون عمد ولا تتصادم)، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ[25] (من قبوركم). وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[26] (مطيعون). وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ. وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[27]. ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ (وهو): هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (عبيدكم) مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ (في أموالكم) فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (وإياهم) تَخَافُونَهُمْ (تعظمونهم)

4- من المعلوم أنه لم ينزل نص قرآني ظاهر واضح في شأن عدد الصلوات الواجبة في اليوم. في العهد المكي كانت الصلاة ركعتان في الصباح وفي المساء. أما في المدينة فقد صارت خمسا بناء على السنة النبوية. وقد حاول المفسرون التماس آية من القرآن تقرر الصلوات الخمس. وأشهر تلك الآيات هاتين: قال الطبري في تفسيره: اختلف المفسرون في ربط هاتين الآيتين (17-18) بعدد الصلوات: فعن ابن عباس "جمعت هاتان الآيتان مواقيت الصلاة : فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ قال: المغرب والعشاء. وَحِينَ تُصْبِحُونَ: الفجر. وَعَشِيًّا : العصر. وَحِينَ تُظْهِرُونَ: الظهر". وعن قتادة: "فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ لصلاة المغرب، وَحِينَ تُصْبِحُونَ لصلاة الصبح، وَعَشِيًّا لصلاة العصر، وَحِينَ تُظْهِرُونَ صلاة الظهر، أربع صلوات". (لم يذكر صلاة العشاء، أما ابن عباس فقد أدمجها في "حين تمسون مع صلاة المغرب). وعن ابن زيد : "حين تمسون: صلاة المغرب، وحين تصبحون صلاة الصبح، وعشيا صلاة العصر، وحين تظهرون: صلاة الظهر" (لم يذكر صلاة العشاء). أما الرازي فقال: "وقال بعضهم أراد به (بالتسبيح) التنزيه، أي نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال"، وأضاف "وهذا أقوى والمصير إليه أولى"، أي أنه مع هذا الرأي، الذي يفهم من التسبيح في هذا المكان معنى التنزيه، وليس الصلوات.

كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ؟ (5) كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[28] (فكذلك وضعكم مع الله). بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[29].

4- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا،

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (قاصدا إياه): (ذلك الدين) فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا(6)، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (المستقيم)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[30]. (كونوا) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ[31]، (وهم) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (لكل صنم) وَكَانُوا شِيَعًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[32]. وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (راجعين)، ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ[33] لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ! فَتَمَتَّعُوا، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[34]. أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا (من السماء) فَهُوَ يَتَكَلَّمُ (إليهم) بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ[35]. وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ[36]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يقبض)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[37].

5- فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ..

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ، وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[38]. وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا (ينمو) فِي أَمْوَالِ النَّاسِ (كأن تعطوا اليوم واحدا وتقبضوا مقابله غدا اثنين أو أكثر) فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ (صدقة على الفقراء) تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ[39] (الذين يُضاعَف لهم أضعافا). اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ (الذين تشركونهم مع الله) مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[40]. ظَهَرَ الْفَسَادُ (آثار القرى المهدمة) فِي

5- قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "هل ترضون لأنفسكم ـ وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد ـ أن يشارككم بعضهم "فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ" من الأموال وغيرها ما تكونون (=لستم) أنتم وهم فيه على السواء، من غير تفضلة بين حرّ وعبد: فتهابون أن تستبدوا بالتصرف (في تلك الأموال) دونهم ... كما يهاب بعضكم بعضا من الأحرار. فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء"؟

6- دين الفطرة: دين البساطة، الاتجاه إلى الله مباشرة بدون وسائط.

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (عقاباً للأقوام التي كذبت رسلها) لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (من ظلم وطغيان. وهذا الفساد الذي قاموا به بقيت آثاره واضحة في القرى المهدمة وقد تركناها ماثلة أمام أنظار قريش ومن مثلهم) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ[41] (لعل مشركي مكة بمشاهدة تلك الآثار يرجعون عن كفرهم)[7]. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ[42]. فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ[43] (يتفرق الناس: بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار). مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ[44] (يهيئون منازل لهم في الجنة)، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ[45].

6- وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ (بالمطر)، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[46]. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ[47]. اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا، فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا (قطعا)، فَتَرَى الْوَدْقَ (المطر) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ. فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[48]. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ[49] (يائسين). فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[50]؟ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ (الزرع) مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ[51]. فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ[52]. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ[53]. اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ[54]. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ

7- اختلف المفسرون في المقصود بالبحر هنا فقال معظمهم : البر هو الأرض اليابسة الفسيحة كالبادية، والبحر هي الأمصار التي تكون عادة بجانب الأنهار والبحار. كما اختلفوا في تحديد معنى "الفساد" في هذه الآية اختلافا كبيرا، وما قالوه في هذا وذاك لا تبرز منه الصلة بين هذه الآية مع التي قبلها والتي بعدها، وبالتالي فلا سياق يجمع بينها. أما نحن فنرى أن السياق يقتضي الفهم الذي أثبتناه أعلاه.

مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ[55] (يحلفون). وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ، فِي كِتَابِ اللَّهِ[(8)]، إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[56]. فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[57].

7- خاتمة: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ[58] (تأتون بالباطل). كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[59]. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ[60] (حذار أن يؤثروا فيك فتسرع إلى ما لم تقرره بعد. وكان آنذاك على أهبة الهجرة إلى المدينة).

- تعليق

ميزنا في هذه السورة بين سبع فقرات. الأولى : مقدمة تعرضت لهزيمة الروم في معركتهم مع الفرس لتبشر بأنهم -أي الروم- سينتصرون بعد بضع سنين، وحين ذاك سيفرح المؤمنون بنصر الله. وكما ذكرت الروايات فقد كان مشركو مكة يتعاطفون مع الفرس لأنهم مثلهم من غير أهل الكتاب، بينما نصارى الروم والمسلمون أصحاب كتاب.

غير أن ما أغفل المفسرون والرواة ذكره هو أن تعاطف القرآن في هذه الآيات يتجاوز بكثير مجرد التعاطف المفترض بين الفرس ومشركي مكة. ذلك أن من النصارى التابعين للإمبراطورية البيزنطية من كان يتعاطف مع الدعوة المحمدية. فوفد نصارى الشام الذين جاؤوا الرسول عليه السلام ليستمعوا إليه ويتعرفوا على حقيقة دعوته، أظهروا من التعاطف ما أشاد به القرآن؛ ويجب أن لا ننسى النجاشي (ملك الحبشة وهو مع الروم) الذي كان يأوي المسلمين بتوصية من الرسول والذي رفض بقوة تدخل قريش لديه، رغم ما قدموه له من هدايا، من أجل أن يلبي طلبهم طرد المسلمين من بلاده. وهكذا فليس تعاطف السورة مع الروم راجع فقط إلى أنهم "أهل كتاب" بينما الفرس ليسوا كذلك، بل إن هذا التعاطف الذي بلغ درجة اعتبرت فيها السورة انتصار الروم هو أيضا انتصار للمؤمنين المسلمين يرجع إلى ما ذكرناه من الموقف الإيجابي لنصارى الشام وملك الحبشة وكانوا جميعا منضوين تحت

8- أي حسب ما هو مذكور في كتاب الله.

إمبراطورية الروم البيزنطيين. ويجب أن نتذكر كذلك الموقف الإيجابي الذي وقفه لاحقا كل من هرقل الروم ومقوقس الإسكندرية والنجاشي، من رسائل النبي (ص) إليهم إثر صلح الحديبية[9].

جميع هذه المعطيات يجب استحضارها لنفهم الأبعاد العميقة لمقدمة هذه السورة، التي تتسم بطابع مستقل. فهي ليس من المقدمات التي تطرح بصيغة أو أخرى الموضوع المركزي الذي ستتناوله السورة، بل هي من المقدمات المقصودة لذاتها. ولذلك فالعلاقة بينها وبين الفقرات التالية لها عبارة عن خيط رقيق يحتاج من المتدبر لها إلى الإمساك به بقوة وتتبعه بطول نفسه كي يقوده إلى المضمون الذي عبرت عنه المقدمة من خلال الوعد بانتصار الروم في الجولة القادمة. هذا المضمون يقدم نفسه واضحا بينا في الخاتمة. وكما سبق أن قلنا فالخاتمة في سور الذكر الحكيم تستعيد مضمون المقدمة لترتفع به إلى مستوى أعلى. وهكذا نقرأ في الخاتمة: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ58 (تأتون بالباطل). كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ59. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ60 (حذار أن يؤثروا فيك فتسرع إلى ما لم تقرره بعد. وكان آنذاك على أهبة الهجرة إلى المدينة).

وهكذا فالأمثال التي ضربها الله في هذه السورة للمشركين كثيرة، منها بل على رأسها المثل الأول الذي أخبر بهزيمة الروم وفي نفس الوقت بشّر بانتصارهم في جولة أخرى بعد بضع سنين. ونحن نرى أن هذا المثل موجه للمسلمين كذلك فهو يعدهم "بعد العسر يسرا": بعد الشدة التي يعانون منها من قريش التي تطاردهم في كل مكان لتمنعهم من الالتحاق بإخوانهم "الأنصار" في يثرب، سيأتي وعد الله الحق، وهو الانتصار على قريش بعد بضع سنين... ثم تتوجه السورة في آخر الخاتمة إلى النبي عليه السلام لتوصيه بعدم التأثر بضغوط قريش وأن لا يستعجل في الهجرة إلى المدينة قبل الوقت المناسب : "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ".

ذلك عن مقدمة السورة وخاتمتها، أما عن الفقرات الأخرى فيمكن التقاط الخيط الرابط بين المقدمة والفقرة الثانية من قوله تعالى، تعليقا على وعده بالنصر للروم بعد بضع سنين : "يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ5. (ذلك) وَعْدَ اللَّهِ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ6. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ7". ذلك أن المنتظر أن تُكذِّب قريش "وعد

9- الجامع بينهم هم انحدارهم جميعا من الأريوسية. راجع التعريف بالقرآن، الفصل الثاني.

الله" هذا، كما كذبت من قبل ما أتى به القرآن. وبما أن القرآن يهتم بالكليات، كليات العقيدية، ويمر مرا سريعا بالجزئيات، مكتفيا بالتلميح فقط، إلى هو مؤقت، كالحوادث السياسية، فهو يرد على قريش من خلال الكلي، أي العقيدة، وليس من خلال الجزئي الذي هو فرحها لانتصار الفرس أو تكذيبها لحتمية انتصار الروم. وهكذا جاء موقف القرآن بصيغة الكلي : "لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ[6]. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[7]". ذلك يعني أن قريش عندما تكذب أو تفرح أو تحزن الخ إنما تبني ذلك على ظاهر الأمور: ظاهر الحياة الدنيا التي هي ميدان "الشاهد"، وبالتالي تتجاهل ميدان "الغائب"، والغائب الأكبر في حياة البشر هو "المستقبل" : وهو في القرآن قسمان، قسم في الدنيا، والقسم الآخر هو يوم الحساب!".

هكذا تعود السورة من السياسة إلى العقيدة، فالسياسة هنا أعني "التبشير بانتصار الروم في بضع سنين" ليست من أجل ذاتها، ليست من أجل الاستجابة لتحدي قريش للرسول بالإتيان بالمعجزة والإخبار بالغيب. إن هذه المسألة قد حسمها القرآن في آيات عديدة: ليس من شأن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أن يأتي بمعجزات... كما طالبته بذلك قريش مرارا... القرآن وحده يكفي. والقرآن يدعو المكذبين إلى النظر في الكون ونظامه وبديع صنعه وأطوار حركته ليفهموا ويتأكدوا من صحة العقيدة التي ينشرها: عقيدة التوحيد والحساب. وهي عقيدة أخلاقية: التوحيد من أجل الاطمئنان إلى أن الكون لن يختل نظامه لأنه من تدبير إله واحد لا شريك له ولا منازع، والحساب الذي يؤكد مسؤولية الإنسان على أفعاله ليجازى عليها. والدرس الأكبر الذي تقرر السورة ما بين المقدمة والخاتمة، والذي لا تعيه قريش، لأنها معنية فقط بظاهر الحياة ومتعها، هو أن الله جعل مخلوقاته كلها مبينة على الدورة الزوجية كما سبق أن بينا: سماء وأرض، ليل ونهار، صيف وشتاء، عسر ويسر، حياة فممات، موت فبعث الخ.

في إطار هذه الدورة الزوجية الكبرى تندرج آيات ملازمة لحياة الإنسان الفردية والجماعية ولكن المشركين عنها غافلون : خلقكم من تراب جامد ساكن، ثم ها أنتم بشر تتحركون وتنتشرون. خلق لكم من أنفسكم (من ماء الرجل وماء المرأة) أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة، ميولا عاطفية غريزية للتناسل، ورحمة : محبة الزوجين بعضهم لبعض وللأولاد رحمة لهم. وجعلكم من ألوان وألسنة مختلفة. وجعل منامكم بالليل، أما النهار فهو للعمل والكسب. يريكم البرق ليخوفكم من الصواعق وليجعلكم تطمعون في الغيث. يحي الأرض بعد يبسها. يحييكم ويميتكم. يبدأ الخلق ويعيده وهو أهون عليه، وإذا دعاكم وأمركم بالخروج من قبوركم يوم القيامة

تخرجون. ويضرب لكم الأمثال لعلكم تفقهون: الله مالككم وأنتم عبيده فهل تقبلون أن يشاركم عبيدكم في أموالكم؟ أكيد أنكم لا تقبلون فكيف تستسيغ عقولكم ما تعبدون من شركاء هم من خلق الله: ملائكة وأصناما وشياطين ...

ذلك مجمل خطاب السورة إلى مشركي قريش، وأيضا إلى الذين لم يؤمنوا بعد من أهل القبائل. أما المؤمنون، وقد أصبحوا جماعات وليس مجرد أفراد كما كانوا من قبل، فالخطاب إليهم سيتجاوز تثبيت القلوب على الإيمان والحث على الصبر، كما كان الشأن من قبل، إلى بيان الأسس التي يجب أن تقوم عليها حياتهم الجماعية. والأساس الأول هو الدورة الزوجية الكبرى: الدنيا والآخرة. الدنيا مجال العمل، والآخرة مجال الجزاء. وإذا كان المفسرون وغيرهم من علماء الإسلام يرددون أن الدنيا هي مجدر مطية للآخرة، فهذا في الحقيقة ليس إلا "وجها واحدا من العملة" - كما يقال. هناك وجه آخر، لا يقل أهمية عن الأول، وهو أن الآخرة هي من أجل الدنيا أيضا، من أجل حمل الناس على العمل الصالح، خوفا أو طمعا. ليست الآخرة هي الغاية في نهاية الأمر بل الغاية هي العمل الصالح في الدنيا. ومن هنا اقتران العمل الصالح بالإيمان في الإسلام ("الذين آمنوا وعملوا الصالحات").

في هذا الإطار تندرج الأوامر الأخلاقية التي تقررها السورة في الفقرتين الرابعة والخامسة كما فعلت سور سابقة لها، (التزام الدين الحنيف القيم دين الفطرة، إقامة الصلاة، تجنب التفرقة في الدين، إيتاء ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل، تجنب الربا الخ).



88- سورة العنكبوت

- تقديم

رتبت هذه السورة في لوائح ترتيب النزول بين الرتبتين 77 و85. اختلفوا في مكان نزولها: فهي "مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن مَن كان من المسلمين بمكة" (القرطبي). والآيات التي جعلت بعضهم يقول بأنها مدنية ترجع كلها إلى الآية الأولى منها وهي قوله تعالى: "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ". قال بعضهم يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ فكتب إليهم إخوانهم المهاجرون إلى المدينة يحثونهم على الهجرة ويخبرونهم أن الآية المذكورة نزلت فيهم، وهذا يعني أنها نزلت بالمدينة. والذين قالوا بمكية هذه الآية قالوا إنها نزلت في أناس في مكة "كانت صدورهم تضيق" لما كانوا يلاقونه من كفار قريش من أذى، "وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفار من المؤمنين، قالوا فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة". ونحن نرجح هذا القول لأن الآيتين (10-11) تشهدان له بالصحة وتصف هؤلاء "المتضايقين من أذى قريش" بـ"المنافقين" [1] أي عبارة عن مسلمين جددا. هذا من جهة ومن أخرى يتفق المفسرون على أن هذه السورة تنتمي إلى أواخر ما نزل في مكة. ونحن نرجح أنها نزلت بعد بيعة العقبة الثانية، أي قبل هجرة النبي بأسابيع محدودة.

ومن الأخبار التي وردت حول بعض آياتها أن قريشا قالوا : "يا محمد! ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا، والأعراب أكثر منا، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختُطِفنا فكنا أكلة رأس، فأنزل الله "أولم يروا أنا

1- وهذه أول مرة يستعمل فيها هذا اللفظ في القرآن -حسب ترتيب النزول. وسيتحدد هذا المفهوم في المدينة بأنهم الذين كانوا يظهرون إسلامهم ويتعاونون مع أعداء الإسلام خفية. ونحن نعتقد أن هذا المفهوم لا ينطبق على من تعنيهم الآية هنا. انظر الهامش الآتي رقم 4

جعلنا حرما آمنا" (الآية 67). والظاهر من السياق أن هذه الآية متصلة بما قبلها وأن إقحام هذه الرواية هنا لا موجب له.

- نص السورة

1- مقدمة: أناس من المسلمين فتنوا ..."

بسم الله الرحمن الرحيم

1- الم[1]. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟[2] (2) ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ[3]. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا (يعجزون الله)؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[4]! مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ (من كان لا يخاف الموت) فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[5].

2- وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ...

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ (من صبر على ما يلاقيه من أذى بسبب إيمانه برسالة محمد، فثواب ذلك يعود إليه وحده) إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ[6] (غير مفتقر في وجوده وكماله إلى عبادة العابد أو غيرها). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ (نغطيها عنهم بالمغفرة) وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ[7]. وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا: وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[8] (3). وَالَّذِينَ

---

2 - انظر التقديم.

3 - روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: كنت باراً بأمي فأسلمتُ، فقالت: لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّرُ بي، ويقال يا قاتل أمه! وبقيت يوماً ويوماً، فقلت: يا أماهْ لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت". ونحن نشك في أن تكون هذه الآية مرتبطة بإسلام سعد بن أبي وقاص الذي تم قبل نزول هذه السورة بما لا يقل عن عشر سنين. وهناك رواية ثانية تختصر السابقة ونصها: عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبر، والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر، فنزلت "ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي" الآية. وهناك رواية ثالثة أقرب إلى ظروف نزول هذه السورة وإلى سياق هذه الآية، هذه الرواية تقول: "نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر. قالت أمه: والله لا يُظلني بيت حتى يرجع، فأنزل الله في ذلك أن يُحسن إليهما، ولا يطيعهما

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ[9]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ (أذى الناس له في الدنيا) كَعَذَابِ اللَّهِ. وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ[10]. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ[11] (4). وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ(5). وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[12]. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ (ذنوبهم) وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ (وذنوب الذين ظلموهم)، وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ[13].

3- مثال من صبر نوح ... وكفاح إبراهيم...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا (6) إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ[14]. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ[15]. وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ[16]، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (كذبا)، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[17]. وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى

فـي الشرك" (الطبري). وكان سعد من أوائل الصحابة الذين أمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة قبل التحاقه بهم.

4- هذا المعنى الذي تعطيه هذه الآيات لمفهوم "المنافق" يزكي ما قلناه في الهامش السابق رقم 1. أما معناه الاصطلاحي فلم يظهر إلا في المدينة. قيل في النفاق: "النفاق هو الدخول في الشرع من باب، والخروج عنه من باب"، الراغب الأصفهاني. أو "أن يظهر المرء الإسلام، ويخفي شيئا آخر". وفي الحديث: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان". وبما أن ظاهرة "المنافقين" قد انتشرت بالمدينة، فقد قالوا، هذه الآية نزلت بالمدينة، وهذا ليس بحجة. فلا شيء يمنع أن تظهر الظاهرة بالمعنى الذي تفيده الآية في أواخر العهد المكي حينما كثر الدخول في الإسلام وفتح باب الهجرة إلى المدينة، قبل هجرة الرسول.

5 - هذه الآية تزكي القول بأن الآية السابقة نزلت هي ومثيلاتها في مكة، وأن السورة مكية كلها.

6 - وجه الصلة بين الفقرة السابقة وهذه الفقرة وما يليها هو أنه تعالى لما أخبر أن: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ"، أراد أن يثبِّت الرسول والذين آمنوا معه بتذكيرهم بما حصل للأنبياء من قبلهم، وكيف أنهم هم والمؤمنون بهم صبروا سنين طويلة على أذى المكذبين، فكان النصر حليفهم في النهاية، والهلاك لخصومهم...

الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ[18]. أَوَلَمْ يَرَوْا (قوم إبراهيم) كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (للبعث)؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[19]. (قال الله لإبراهيم) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ، ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[20]. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ (7)، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ[21]. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (الله) فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ[22]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[23]. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ (إبراهيم) إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[24]. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[25]. فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[26]. وَوَهَبْنَا لَهُ (لإبراهيم) إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ[27].

4- ومثال آخر من لوط وقومه...

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ، مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ[28]. أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[29]. قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ[30]. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (ميلاد

7- يقول الزمخشري: "يُعَذِّبُ مَن يَشَاء" تعذيبه "وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء" رحمته، ومتعلق المشيئتين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو ما يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا. بمعنى "يعذب من يشاء من الناس أن يعذبه الله، لأنه اختار الكفر بدل الإيمان. وهو في ذلك يشير إلى آيات من مثل قوله تعالى : "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ".(الكهف 29). أما القرطبي فيقول: "يعذب من يشاء بعدله، ويرحم من يشاء بفضله". فالعذاب عدل من الله لأن المعذب يستحقه. أما الرحمة فهي فضل منه تعالى ينزلها على من يشاء. والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في هذه المسألة -وقد سبق أن بينا ذلك- يرجع إلى اختلاف الأصل الذي ينطلق منه كل من الطرفين في هذا الشأن. المعتزلة يقولون: الله لا يفعل القبيح، حرم على نفسه الظلم، ولا يفعل إلا الصلاح من جهة، ومن جهة أخرى: الله وعد المؤمنين بالجنة وأوعد الكافرين بالعذاب، والله لا يخلف وعده كما قال: "وعد الله، لا يخلف الله وعده" (الروم 6). ولا "وعيده"... أما الأشاعرة فيقولون إن الله حر في أن يفعل ما يشاء، أن يعاقب المذنب أو لا يعاقبه...

ابن له سماه يحي)، قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ (قرية لوط) إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ[31]. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا (وهو ابن أخيه ونبي رسول)! قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا! لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[32] (متواطئة مع السابقين). وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ (حزن بسببهم) وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (خوفا عليهم من قومه اللواطين)، وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ، إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ[33]. إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا (عذابا) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ[34]. وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[35].

5- وأمثال من أنبياء آخرين ... وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ...

وَإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ، وَلَا تَعْثَوْا (تفسدوا) فِي الْأَرْضِ (فتكونوا) مُفْسِدِينَ[36]. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الزلزلة الشديدة) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[37]. وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ (إهلاكنا لهم) مِنْ مَسَاكِنِهِمْ (مسكن ثمود الحجر، ومسكن عاد بحضرموت)، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ[38] (يعرفون الحق من الباطل). وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ[39] (أي سبقهم إلى الاستكبار آخرون). فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (ريحا تحمل الحجارة كقوم لوط)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (كقوم ثمود)، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (كقارون)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا (كقوم نوح)، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[40]. مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[41]. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (يعبدون) مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ[42]. وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[43]، خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ[44]. اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ[45].(8)

8- وجه ارتباط هذه الآية بما سبق كما يلي: إن كنت حزينا على إصرار قومك على تكذيبك، "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ" ففي قصص الأنبياء مع أقوامهم تثبيت لفؤادك وتسلية لك. أما وجه ارتباطها بالفقرة التالية فهو أن ما تقدم في الفقرات السابقة يخص المشركين من أقوام

6- وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[46] (9)؛ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (أي وبهذا أنزلنا عليك القرآن) فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) يُؤْمِنُونَ بِهِ (أي بوحدة الإله: إلهنا وإلهكم واحد)، وَمِنْ هَؤُلَاءِ (اليهود والنصارى) مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ (بالكتاب/القرآن)، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا (التي تدل على وجود الله ووحدانيته وعلى البعث الخ) إِلَّا الْكَافِرُونَ[47] (المكذبون من قريش الذين يتهمونك بافتراء القرآن وأخذه ممن يدعون أنهم يعلمونك من الموالي في مكة) (10). (والرد على هؤلاء المكذبين هو:) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ (القرآن) مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ[48] (لو كنت ممن عُرِف عنهم أنهم يقرؤون التوراة وينسخون منها لشك المبطلون من أهل الكتاب". بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (من اليهود والنصارى) وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ[49] (11).

الأنبياء أما "أهل الكتاب" أي اليهود والنصارى الذين يؤمنون بالله فأمرهم يختلف. وبالتالي ينبغي مجادلتهم بالتي هي أحسن، قبل الهجرة وبعدها، "إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ". والعلاقة مع هؤلاء ستتحدد حسب مواقفهم من المسلمين في المدينة (وبيانه في القرآن المدني).

9 – ليس من الضروري أن تكون هذه الآية قد نزلت في المدينة كما يقول بعضهم، إذ من الجائز أن تكون قد نزلت في مكة بعد اتصاله عليه السلام بوفود من المدينة كانوا دعاة للإسلام فيها قبل الهجرة، ولا يستبعد أن يكونوا قد طلبوا من الرسول أن يبين لهم كيف التعامل مع اليهود هناك، فنزلت.. .

10- اختلف المفسرون في شرح هذه الآية، وجلهم يفسر قوله تعالى "ومن هؤلاء" بكونه عبد الله بن سلام ومن كان معه ممن يسمون بمسلمة اليهود. وإسلام هؤلاء حدث في المدينة والسورة مكية. فهذا التأويل لا يستقيم. وقد حاول الرازي أن يتجاوز ذلك فقال، بعد أن ذكر ما قيل في هذه الآية من آراء: "وههنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل... وهو أن نقول : المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء ... لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء، فإن الله ما آتى الكتاب إلا للأنبياء، ونحن (الجابري) نرى أن هذا اللجوء إلى التعميم بهذا الشكل يفقد الآية مضمونها كما أنه يقطع السياق الذي يربطها بما قبلها وما بعدها. والرأي عندنا ما قلناه داخل النص.

11- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية: منهم من جعل الضمير في قوله "بَلْ هُوَ آيَاتٌ" يعود إلى النبي عليه السلام وبالتالي يكون المعنى: "أنزل الله شأن محمد في التوراة والإنجيل لأهل العلم، فهو آية بينة في صدور الذين أوتوا العلم" من اليهود والنصارى. ومنهم من جعل الضمير يعود إلى القرآن، والمعنى: "بل هذا القرآن آيات بينات في صدور=

7- وقالت قريش :"لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ".

وَقَالُوا (قريش) لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ (معجزات) مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ[50]. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[51]. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[52]. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ! وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ[53]. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ(12) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[54]. يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ (الملاك الموكل بالعذاب) ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[55].

8- خاتمة: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي[56] (13). كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[57]. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[58]،

الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد" (الطبري). أما نحن فنرى أن الضمير يعود إلى القرآن فهو أقرب مذكور، وهو الذي وصف مرارا وتكرارا بأنه "آيات بينات". أما "الذين أوتوا العلم" فهم في نظرنا أهل الكتاب، ذلك أنهم لا يجحدون أن القرآن آيات بينات، بناء على ما عليه السياق من قوله تعالى قبل ذلك: "فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ".

12- هنا تكرار قوله "يستعجلونك" فكيف نفهمه؟ المفسرون يجعلون "العذاب" في الآيتين واحدا هو عذاب جهنم ثم يلتمسون طريق للتمييز بينهما. أما نحن فنرى أن المقصود بـ "العذاب" في الآية الأولى هو ما ينتظرونه من حرب المسلمين لهم بعد الهجرة إلى المدينة، والذي أشار إليه تعالى في آخر السورة السابقة بقوله "وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (الروم60)، وأشار إليه في الآية أعلاه بقوله "وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ (الأجل المسمى) بَغْتَةً".

13- إشارة إلى انتشار الإسلام خارج مكة، في يثرب وفي القبائل. وهي أيضا إشارة إلى الهجرة إلى المدينة وقد ورد مثلها في سورة الزمر عندما هاجر المسلون إلى الحبشة : "قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر 10). ذكر القرطبي أن هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، في قول مقاتل والكلبي، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب. بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[59]. وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[60] (14). وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ (مشركي قريش الذين كانوا يخوفون المسلمين العازمين على الهجرة إلي المدينة من عاقبة الذهاب إلى بلد لا أهل لم فيها) مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ[61] (يهربون). اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[62]. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[63]. وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ (الحياة الدائمة)(15)، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ[64]. فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ[65]! لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[66]. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا (بلدهم مكة) حَرَمًا آمِنًا، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (وفي خارجها يسبي بعضهم بعضا)، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ[67]؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ. أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مسكنا) لِلْكَافِرِينَ[68] (يستحقونه) ؟ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (في سبيل الله) لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[69].

- تعليق

تناولت هذه السورة ثلاث موضوعات تتعلق كلها بالمرحلة الأخيرة من العهد المكي، وربما بالشهور الأخيرة منه:

الموضوع الأول يتعلق بشكوى بعض المسلمين من المضايقات التي كانت تمارسها عليهم قريش لصدهم عن الهجرة إلى المدينة، ويبدو أن الأمر يتعلق

14- في هذه الآية وفي التي قبلها خطاب ضمني إلى المسلمين الذين كانوا يستعدون للهجرة. إنها تشير إلى مسألة المعاش في المدينة وهم ليسوا من أهلها وليس لهم فيها ممتلكات. ومعلوم أن قريشا كانت تمنع المسلمين من الهجرة إلى المدينة، يؤذون الضعفاء منهم ويحاولون إقناع الآخرين بما سيترتب على مغادرتهم مكة من صعوبات أولها صعوبة العيش في بلد أجنبي لا أهل لهم فيه. وليس من المستبعد أن تكون هذه الآية والتي بعدها ترد عليهم. وقيل: "لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة قالوا كيف نقدم بلدا ليست لنا فيه معيشة" فنزلت الآية فيهم".

15- قالوا: لفظ "الحيوان" هنا : "أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة".

بمسلمين جدد "كانت صدورهم تضيق" لما كانوا يلاقونه من كفار قريش من أذى، "وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفار من المؤمنين" الخ، كما ورد في التقديم. وقد عبرت مقدمة السورة عن هذا الأمر بالفتنة، وجاءت الفقرة الثانية لترد على هذه الفتنة بقوة حينما خاطبت الجميع بقوله تعالى: "وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ"[6]، مع وعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن الله سيكفر عن سيئاتهم ويجزيهم بما قاموا به من أعمال صالحة. وفي هذا الإطار جعلت السورة حدا لتدخل الوالدين أو غيرهم في منع المؤمنين عن الهجرة، وكشفت عن نوع جديد من الناس يستحبون الإسلام ولكنهم لا يتحملون ما يترتب عليه من تبعات ومسؤوليات، هذا الصنف الذين أطلق القرآن عليهم اسم "المنافقين" لأول مرة، لأن ظهورهم في هذا الوقت كان لأول مرة. بعد ذلك تأتي الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة لتعيد على أسماع هؤلاء المسلمين الجدد ما سبق أن قصته من قبل سور أخرى من صبر الأنبياء والرسل وكيف أنهم والمؤمنين بهم تحملوا من الأذى ما يفوق ما لقيه أولئك المنافقون، ومع ذلك صبروا حتى جاء النصر. لقد نصر الله رسله وأهلك المكذبين العتاة من أقوامهم.

أما الموضوع الثاني فيتعلق بالكيفية التي يجب أن يتعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب الذين يسكنون المدينة التي أسلم أهلها من غير اليهود ويتوافد عليهم المسلمون للإقامة ونشر الدعوة. وهنا أوضحت السورة أن العلاقة مع أهل الكتاب يجب أن تكون سلمية، علاقة حوار ونقاش، أساسه أن المسلمين يؤمنون بالتوراة والإنجيل وجميع الكتب السماوية وأنها من عند الله تماما كما هو شأن القرآن، وأن ما يجمع بين الرسالات السماوية كلها هو الإيمان بإله واحد : "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ". وبناء عليه فلا يشكك في الذي أنزل على محمد بن عبد الله غير المكذبين للكتب المنزلة كلها. هؤلاء وجد منهم في مكة من كان يواجه النبي عليه السلام بكونه إنما يعلمه أشخاص من أهل الكتاب فأجابتهم السورة بأن هذا افتراء لأن محمدا لم يسبق له أن نقل أو تلقى الكتاب من أحد من هؤلاء، ولو كان يفعل ذلك لعلمه خصوم دعوته الذين لم يقصروا في البحث عما يطعنون به في نبوته، إلا أن قالوا "لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ (معجزات) مِنْ رَبِّهِ"، وقد رد القرآن عليهم مرارا وتكرارا، والآن يرد عليهم بأن القرآن الذي مر على تنزيله الآن أزيد من عشر سنوات كاف للفصل في هذه المسألة: إنه المعجزة، لقد عجزوا عن الإتيان بمثله عندما تحداهم بذلك في سور سابقة: وذلك حين قال: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (يونس

38)، وأيضا: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (هود 13). والآن لم يبق لهم سوى أن يستعجلوه بالعذاب الذي وعدهم به. وهو صنفان: الوعيد بالهزيمة في الدنيا، والوعيد بالمصير إلى جهنم في الآخرة. وتقرر السورة أن عذاب الدنيا (أي انتصار المسلمين عليهم) آت لا محالة، له أجل، وربما سيأتيهم بغتة. والمقصود مفاجأتهم بغزوات بعد الهجرة مباشرة. أما عذاب الآخرة وهو المصير إلى جهنم فهو ليس خاصا بهم بل يشمل الكافرين في كل زمان ومكان، وهي محيطة بهم كمصير لا أحد منهم يفلت منها: "وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ" إحاطة أبدية.

بعد ذلك تأتي الخاتمة لتستعيد المقدمة، فتخاطب الذين اشتكوا من مضايقات مشركي قريش، وترد على محاولة زعماء قريش تثبيط همم الذين كانوا يستعدون للهجرة إلى المدينة. وهذا هو الموضوع الثالث. هنا تؤكد السورة للذين اشتكوا من مضايقات قريش أن باب الهجرة مفتوح وأن أرض الله واسعة، وأنه لا معنى للخوف من ملاحقات قريش، وإذا حدث أن تمكنت من بعض المهاجرين فقتلتهم، فـ"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ" والموت معناه الرجوع إلى الله لنيل الجزاء. "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ[58]، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[59] . أما ما يهدد به مشركو قريش المهاجرين من الجوع في بلد ليس لهم فيه أهل، والمقصود المدينة، فهو تهديد باطل: "وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ". وقريش يعلمون ذلك جيدا: هم يعترفون بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر لمصلحة الإنسان، ويعلمون أن "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ". هم يعرفون أن الله هو الذي ينزل المطر يحي به "الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا" فتعطيهم الثمار والغلل الخ... وهم يعرفون أن الله هو الذي جعل بلدهم مكة "حَرَمًا آمِنًا" لا ينتهك حرمته أحد بينما "يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ"... يعلمون ذلك وأكثر ولكنهم "بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ"[67]؟ ولذلك كانت جهنم مثوى لهم. أما "الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (في سبيل الله) لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[69].

89- سورة المطففين

- تقديم

وهذه سورة أخرى اختلفوا فيها: بعضهم قال مكية نزلت قبيل الهجرة وآخرون قالوا إنها مدنية. والذين قالوا بمكيتها اعتمدوا على رواية تقول: "إن مشركي قريش كانوا "إذا قدمت العير مكة يأتي أحد من المسلمين السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقتاته، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم في السلعة على قيمتها أضعافاً حتى يرجع الواحد منهم إلى أطفاله وهم يتضوعون من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به، فيغدو التجار على أبي لهب فيربحهم". وأما الذين قالوا إنها مدنية فقد اعتمدوا خبرا جاء فيه: "لما قدم النبي (ص) المدينة كان أهلها من أبخس الناس كيلا، فأنزل الله، "ويل للمطففين" فأحسنوا الكيل بعد ذلك". وفي رواية أخرى: "قدم رسول الله (ص) المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآية". ونحن نرجح مكيتها لأن موضوعاتها مكية كلها بما في ذلك مقدمتها التي وردت في المطففين، والتي يرتبط الجزاء فيها بيوم القيامة، أي بالبعث الذي هو المحور المركزي في السور المكية الأخيرة. هذا فضلا عن أن الرواية الأولى التي تؤكد مكيتها أعلاه. أما لوائح ترتيب النزول فقد اعتبرتها آخر ما نزل من القرآن المكي.

- نص السورة

1- مقدمة: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ... أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ!

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ[1] الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ (اشتروا منهم) يَسْتَوْفُونَ (يطلبون الزيادة)[2]، وَإِذَا كَالُوهُمْ (باعوا لهم) أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (ينقصون)[3].

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ[4] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ[5]، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ (من قبورهم) لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[6] (للحساب والجزاء).

2- كتاب الفجار... وكتاب الأبرار.. وشراب الجنة!

كَلَّا، إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ (سجل أعمالهم) لَفِي سِجِّينٍ (كتاب جامع لأعمال المذنبين)[7]. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ[8]! كِتَابٌ مَرْقُومٌ[9] (مختوم). وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[10] الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ[11]، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ[12]؛ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ[13]. كَلَّا، بَلْ رَانَ (غلب) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ[14] (من الذنوب). كَلَّا، إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ (يوم القيامة) لَمَحْجُوبُونَ[15] (بينه وبينهم حجاب). ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا (ملقون في) الْجَحِيمِ[16]. ثُمَّ يُقَالُ (لهم) هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ[17]. كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ (المؤمنين الصادقين) لَفِي عِلِّيِّينَ[18]. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ[19]! كِتَابٌ مَرْقُومٌ[20]، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ[21] (من الملائكة). إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ[22]، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[23]: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ[24]، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ (خمر طاهرة) مَخْتُومٍ[25]، خِتَامُهُ مِسْكٌ (آخر شربة منه يفوح منها المسك)، -وَفِي ذَلِكَ (من أجل الحصول على هذا النعيم) فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ[26]- وَمِزَاجُهُ (ذلك الرحيق) مِنْ (عين) تَسْنِيمٍ[27](تصب من أعلى: من سنم الشيء أعلاه) عَيْنًا يَشْرَبُ (يلتذ) بِهَا الْمُقَرَّبُونَ[28].

3- المؤمنون والكفار في الدنيا وفي الآخرة

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا (في الدنيا) مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ[29]. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ[30] (عليهم)، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ[31] (ضاحكين)، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ (المؤمنين) لَضَالُّونَ[32]. وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ[33] (مراقبين لهم حتى يحكموا عليهم بالضلال)! فَالْيَوْمَ (يوم القيامة)، الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ[34]، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[35]: هَلْ ثُوِّبَ (جوزي) الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[36].

- تعليق

لعل أهم قضية عقائدية تكلم فيها المفسرون في هذه السورة قضية "الحجاب" في قوله تعالى عن المشركين يوم القيامة : "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ"[15]،

فقد اختلفوا في معنى الحجاب، واتخذ الخلاف في هذه المسألة طابعا مذهبيا بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم. يتعلق الأمر بمسألة من أهم مسائل علم الكلام في الإسلام، مسألة الرؤية. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الخلاف في القسم الأول من هذا الكتاب (انظر سورة القيامة، التعليق)، كما عرجنا عليها في سورة الشورى (التعليق) في هذا القسم من الكتاب ضمن قضايا كلامية أخرى، ومن أجل إحاطة أوسع بالموضوع ننقل هنا ما كتبه الرازي حول رأي كل من أصحابه الأشاعرة وخصومهم المعتزلة. قال: "احتج الأصحاب (أصحابه وهم الأشاعرة، احتجوا ضدا على المعتزلة) على أن المؤمنين يرونه سبحانه (في الآخرة)، قالوا: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة (أي تخصيص المشركين بكونهم محجوبين). وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى ذكر هذا الحجاب في معرض الوعيد والتهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمن.

ويضيف الرازي: "أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه أحدها: قال الجبائي: المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون أي ممنوعون، كما يقال في الفرائض (في الميراث): الإخوة يحجبون الأم على الثلث؛ ومن ذلك يقال لمن يَمنَع عن الدخول، هو حاجب، لأنه يمنع من رؤيته. وثانيها: قال أبو مسلم: "مَحْجُوبُونَ" أي غير مقربين، والحجاب الرد، وهو ضد القبول. والمعنى: هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله وهو المراد من قوله تعالى: " وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (آل عمران 77). وثالثها: قال القاضي: الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية، فإنه قد يقال: حجب فلان عن الأمير، وإن كان قد رآه من البعد، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن وجدان رحمته تعالى. ورابعها: قال صاحب «الكشاف» (الزمخشري): كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم.

"والجواب (على ما نسبه الرازي إلى المعتزلة أن يقال من وجهة نظر الأشاعرة): لا شك أن من منع من رؤية شيء يقال: إنه حجب عنه، وأيضاً من منع من الدخول على الأمير يقال: إنه حجب عنه، وأيضاً يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة في مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعاً للاشتراك في اللفظ، وذلك هو المنع. ففي الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية، وفي الثانية حصل المنع من الوصول إلى قربه، وفي الثالثة: حصل المنع من استحقاق الثلث، فيصير تقدير الآية: كلا إنهم عن ربهم يومئذ لممنوعون،

والمنع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبُت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى، وهو إما العلم وإما الرؤية، ولا يمكن حمله على العلم، لأنه ثابت بالاتفاق الكفار، فوجب حمله على الرؤية. أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، وكذا ما قاله صاحب «الكشاف» (هو) ترك للظاهر من غير دليل! ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين، قال مقاتل: معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب، لا يرون ربهم، والمؤمنون يرون ربهم. وقال الكلبي: يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه. وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية، فقال: لما حَجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه. وعن الشافعي لما حَجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا".

قلت (الجابري): والذي جعل المعتزلة يقولون بعدم إمكانية رؤية الله يوم القيامة هو تمسكهم بأصلهم في "التوحيد"، بمعنى تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته، ومخلوقاته البشرية إنما يرون ما هو جسماني ومحسوس، والله منزله عن هذا، ولذلك وجب عندهم تأويل كل ما يرد في القرآن عن الله ويفيد التشبيه والتجسيم، كما فعلوا هنا بالنسبة لقوله تعالى عن كون المشركين سيكونون محجوبين عن الله. فبمقتضى أصلهم أن الله ليس بجسم، وإذن فليس موضوعا لرؤية أحد من البشر، مؤمنا كان أو غير مؤمن، وفاقا مع قوله تعالى: "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" (الأنعام 103)، وعلى هذا الأساس صرف المعتزلة لفظ "مَحجوبون"، أي الكفار، إلى رحمة الله وما في معنى هذا، فقالوا: "هم محجوبون وممنوعون ومردودون عن رحمة الله ولطفه".

90- سورة الحج

- تقديم

هذه السورة موضوع اختلاف كبير: هل هي مكية أم مدنية؟ والقائلون إنها مكية استثنوا منها آيات قالوا إنها نزلت بمناسبة وقائع حدثت في المدينة، وهكذا عد فيها بعضهم أربع آيات مدنية وبعضهم جعلها خمسا، بينما قلب آخرون الوضع تماما فقالوا إن السورة مدنية كلها ما عدا أربع آيات ...؟ والذين يجنحون عادة إلى الجمع بين الروايات يقولون هي مكية/مدنية بلا تعيين، ونحن قد رجحنا مكيتها -أو الجانب المكي فيها- لورود آيات "الإذن بالهجرة والقتال" فيها، وهذا لا يستقيم إلا إذا قلنا بمكيتها، وسنرى أنه ليس فيها ما ينافي كونها كذلك. أما وقت نزولها فالغالب أنه كان في ظروف الحج أي في أول السنة الرابعة عشرة للنبوة، الأولى للهجرة، باعتبار أن هجرة النبي عليه السلام كانت في صفر أو أول ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة للنبوة وهي الأولى للهجرة، فيكون بينها وبين الهجرة بضعة أسابيع فقط. وهناك من قال إنها نزلت أثناء هجرته عليه السلام، أي في الطريق من مكة إلى المدينة. وبذلك يصير من المحتمل جدا أن تكون هذه السورة آخر ما نزل، وسنلاحظ في بعض آياتها ما يزكي هذا الاحتمال. هذا ولا علاقة بين اسم هذه السورة وكونها تتحدث عن الحج وبين فريضة الحج (على من "استطاع إليه سبيلا") بوصفها ركنا من أركان الإسلام، ذلك أن الحج إنما فرض في المدينة (سورة البقرة سورة آل عمران). ومعلوم أن الحج كان يمارس قبل ظهور الإسلام بأحقاب، والآية 27 من هذه السورة تجعل بدايته منذ إبراهيم عليه السلام).

- نص السورة

1- إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ (قيام) السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ[1]، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ[2].

2- السَّاعَةَ آتِيَةٌ ... ومخطئ من يظن أن الله لن ينصر محمدا.

أ- وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ[7]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ (فيشكك في البعث) وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ[3]. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ (من تولى الشيطان) فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ[4]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ (فدليل وقوعه أنكم لم تكونوا موجودين فخلقكم:) فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ (كلكم من أب واحد هو آدم خلقناه) مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ (مني) ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ (دم جامد) ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ (لحمة صغيرة قدر ما يمضغ) مُخَلَّقَةٍ (قد بدأ تصويرها) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (لم تصور بعد)، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ (أطوار خلقنا لكم في الأرحام)، وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ (ذكرا أو أنثى) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (وقت ميلاده)، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ (الشيخوخة) لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا. (ومن أدلة وقوع البعث:) وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً (يابسة)، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ (تحركت) وَرَبَتْ (نمت) وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ[5] (كما ينبت النبات من جديد يبعثكم من جديد). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[6]، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ[7].

ب- من الناس من يجادل في الله، ومنهم من يعبد الله على حرف...

وَمِنَ النَّاسِ [(1)] مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ[8]، ثَانِيَ عِطْفِهِ (مشمر عن ساعده) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ[9]، (يقال له حينئذ:) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[10]. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ (على وجه واحد): فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ[2]. خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[11]. يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ[12]. يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ! لَبِئْسَ الْمَوْلَى

1- ذكر أنه عُني بهذه الآية والتي بعدها النضر بن الحارث من بني عبد الدار". وقد ذكرناه مرارا وكان من ألد خصوم الدعوة المحمدية، يناقضها بأساطير من أدبيات الفرس، ويقوم بدعوة مضادة للعقيدة الإسلامية في الأسواق.

2- هذا ينطبق على من ذكرتهم سورة العنكبوت وسمتهم بالمنافقين: الآيتان 10-11.

وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ[13] (المعاشر). إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ[14].

<u>ج- من كان يظن أن الله لن ينصر محمدا فظنه باطل تماما...</u>

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ (يعني محمدا) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ (بحبل يصعد به) إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ (النصر الموعود)، فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ[15] (ما يغيظه ويقلقه).

<u>3- تعدد الأديان واقع دنيوي: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...</u>

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ (القرآن) آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ[16]. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا (اليهود)، وَالصَّابِئِينَ (يتخذون النجوم وسائط إلى الله)، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ (القائلين بمبدأين: النار والظلمة)، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (مشركي مكة)، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[17]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ (3)، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ (يعبدونه فمصيرهم في الجنة)، وَكَثِيرٌ (لا يعبدونه وقد) حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ[18]. هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا (وهم الخصم الأول) قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ[19]، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ[20]، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ[21] (كالتي في لجام الفرس الجموح): كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ[22]. إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (وهم الخصم المقابل

3- الطبري: "وسجود ذلك: ظلاله حين تطلع عليه الشمس وحين تزول إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده". قلت (الجابري) والمقصود من هذا إبراز كون تعدد الديانات (إسلام، يهودية نصرانية صابئة، مجوس، وثنية (الشرك) ظاهرة طبيعية، كل يطلب الله على طريقة خاصة، كل يدعي أنه على حق: "إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". وهذا اعتراف بهذه الديانات كواقع، أما مسألة الصحة والخطأ، فمتروكة لله. أما التعامل مع هذه الديانات والاعتراف بها فسيتم الفصل فيه في آية أخرى. سيكون ذلك في المدينة حيث سنقرأ في سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة 62) وسيستمر هذا الموقف وسيتأكد في آخر سورة نزلت "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (التوبة 69). وهكذا سيكون الاعتراف بالديانات الأخرى مشروطا ليس بالإيمان بالله فحسب، بل وبالعمل الصالح أيضا...

للأول) جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ[23]. وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ[24].

4- الحج وشعائره منذ إبراهيم ...

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (4) الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ، سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ (المقيم) وَالْبَادِ (القادم من خارج)، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ (بشرك) نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ[25]. و(اذكر) إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ (جعلناه له مكانا يرجع إليه للعبادة) : أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[26]. وَأَذِّنْ (يا إبراهيم) فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (راجلين)، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ (من الإبل) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[27](مكان بعيد)، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (التجارة) وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ، عَلَى (ذبح) مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ[28]. ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ (5) وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ (ما نذروه من أعمل الخير) وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[29] (الكعبة). ذَلِكَ (6)، وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ (شعائر الحج) فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأُحِلَّتْ لَكُمْ (للمسلمين) الْأَنْعَامُ (أن تأكلوها) إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ (ما حرم عليكم في القرآن مما ذكر في سور أخرى)[7] فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ (الأصنام)

---

4 - هذا دليل على أن السورة مكية، لأن الخطاب موجه هنا إلى قريش ويتوعدها إن هي استمرت في احتكار بيت الله الحرام الذي يجب أن يبقى مفتوحا دائما في وجه المقيم في مكة والقادم من خارجها، والمقصود هنا هم المسلمون من أهل القبائل وأهل يثرب الخ. ولا شيء في الآية يشير إلى ما يقوله بعض المفسرين من أن المقصود هو صد قريش للنبي عندما ذهب من المدينة قاصدا مكة للعمرة، الشيء الذي انتهى بمعاهدة الحديبية، بل إن صياغة المضارع "يصدون" تدل على استمرار الحال. يؤيد هذا المعنى ذكره للعاكف فيه والبادي، هذا فضلا عن السياق ككل وما سيأتي مباشرة من التذكير بأن الكعبة هي خاصة بذرية إبراهيم الذين سماهم مسلمين، أما المشركون فغير مسموح لهم ممارسة الشرك فيها، أي عبادة الأصنام، وسينالون العقاب الأليم... ومن القرائن التي تؤكد ذلك التذكير بخطاب الله إلى إبراهيم : "وَأَذِّنْ (يا إبراهيم)(4) فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (راجلين)، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ (من الإبل) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[27] (مكان بعيد)، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (التجارة) وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ" ...

5 - التفث: حلق الرأس، ونتف الإبط، وقصّ الأظفار... ، ورمي الجمار وهي من شعائر الحج.

6- قال الزمخشري: "ذلك" : خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، كما يقدّم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا، وقد كان كذا". وعلى هذا فما تقدم كان خطابا لإبراهيم أو في معنى الخطاب له. أما ما سيأتي فهو بيان علم للمسلمين في كل زمان.

7- وقع التنصيص من قبل على محرمات من الطعام والشراب خاصة في سورتي الأنعام والنحل، وسيرد ذكر أخرى في القرآن المدني.

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ[30]، حُنَفَاءَ (مستقيمين) لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ (سقط) مِنَ السَّمَاءِ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ[31]. ذَلِكَ، وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ (المتعلقة بالذبائح في الحج) فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ[32]، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ (كالركوب) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (حين تنحر ويتصدق بلحمها)، ثُمَّ مَحِلُّهَا (المكان الذي يحل فيه نحرها) إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ[33]. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا (ذبائح، قرابين) لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَلَهُ أَسْلِمُوا، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ[34](المطيعين)، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[35]. وَالْبُدْنَ (ج. بدنة. ناقة أو بقرة تُنْحَرُ بمكة تستحسن وتستسمن) جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، صَوَافَّ (تذبح قائمة على ثلاث، معقولة اليد الرجل اليسرى)، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا (سقطت إلى الأرض ميتة بعد نحرها) فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ (بما يعطى له) وَالْمُعْتَرَّ (الذي يسأل الزيادة). كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[36]. لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا، وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ. كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ. وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ[37].

5- أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ...

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ (غادر) كَفُورٍ[38] (يقتل غدرا) (8). أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (أن يقاتلوا) بِأَنَّهُمْ (بسبب أنهم) ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[39] (9). الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ(10)! وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

8- قال مقاتل في معنى هذه الآية: إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة، هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي (ص) في قتلهم سرا فنهاهم. وقال الطبري: "إن الله يدفع غائلة المشركين عن الذين آمنوا بالله وبرسوله، إن الله لا يحبّ كل خوان: يخون الله فيخالف أمره ونهيه ويعصيه ويطيع الشيطان. "كفور": جَحود لنعمه عنده، لا يعرف لمنعمها حقه فيشكره عليها". وأضاف: "وقيل: إنه عني بذلك دفع الله كفار قريش عمن كان بين أظهرهم من المؤمنين قبل هجرتهم". والسياق يؤيد هذا المعنى خصوصا قوله بعد هذه الآية: " الَّذِينَ (أخرجوا من ديارهم) إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ"، وهذا قبل هجرة النبي (ص) وتأسيسه الدولة. انظر التعليق.

9 - هذه أول آية ورد فيها الترخيص بالقتال "بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية" (الزمخشري).

10- كان جل من أسلم قد هاجروا إلى المدينة ولم يبق في مكة إلا الرسول وبضعة أفراد.

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا (11)؛ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ"[40]. (هؤلاء) الَّذِينَ (أخرجوا من ديارهم) إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ (في المدينة) أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ[41].

6- وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ...

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ (12) فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ[42]، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ[43]، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ (أخرت عنهم العقوبة)، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ (فعاقبتهم) فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[44]. فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ، فَهِيَ (اليوم) خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وَقَصْرٍ مَشِيدٍ.[45] (إشارة إلى آثار عاد وثمود: الحجر). أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ (عقول) يَعْقِلُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[46]. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ(13)، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ[47] (فاصبروا ولا تقنطوا). وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا (أخرت عقابها) وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا (فعاقبتها)، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ[48].

7- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ...

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ"[49]، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"[50]، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ[51]. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (14) إِلَّا إِذَا تَمَنَّى

---

11 – دفع الله بعض الناس ببعض: بمعنى الترخيص برد الفعل والدفاع عن النفس بكل الوسائل، الذي لولا هذا الترخيص لهدمت صوامع وبيع ومساجد الخ لعدم توقع حصول ردود الفعل. والصيغة على العموم. ويفهم من هذا أن الأصل هو منع رد الفعل بالقتل إلا إذا كانت هناك رخصة من قبيل ما ذكر يضاف إليه الدفاع عن الوطن وحماية الثغور الخ.

12 – والمعنى: وإن يكذبوا في وعد الله لك بالنصر فقد كذبت أمم رسلهم فنصر الله رسله، وإذن فلا تتأثر باستعجالهم إياك بالعذاب لهم والنصر لك، فتهاجر، ادع المؤمنين إلى الإسراع بالهجرة وانتظر أنت.

13– العذاب هنا ليس عذاب الآخرة وحده، بل عذاب الدنيا أيضا عند قتال المسلمين لهم. والتنكير في الآية التالية بقرى أهلك الله أهلها في الدنيا يشير إلى ذلك.

14 – اختلفوا في الفرق بين الرسول والنبي. وساد القول: "الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل عليه السلام إليه عيانا. والنبيّ الذي تكون نبوته إلهاما أو مناما؛ فكل رسول نبيٌ وليس كل نبيّ= رسولا". لكن هذه الآية "وَمَآ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ" تفيد أن الأنبياء مرسلون أيضا. قال بعضهم : "إن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين". وذهب آخرون "إلى أنه لا

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"[52] [(15)]. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ[53]. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ (تخشع)، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[54]. وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ (شك) مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ[55]. الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ[56]. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ"[57]. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا. وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ[58]؛ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ"[59]. ذَلِكَ، وَمَنْ عَاقَبَ (جازى) بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ (اعتدي عليه به) ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ (ثانية) لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ (بمعنى ليصبر حتى يأتي نصر الله). إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ"[60] (وأيضا يجب العفو من المؤمنين). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ"[61] [(16)]. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ"[62]. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ"[63]. لَهُ

يجوز أن يقال نبيّ حتى يكون مرسلاً. ولن معنى نبي: "أنبأ عن الله عز وجل ومعنى أنبأ عن الله عز وجل الإرسال بعينه".

15- ربط بعض المفسرين هذه الآية بقصة الغرانيق، ونحن على خلاف مع هذا الرأي. انظر رأينا في التعليق الذي كتبناه في سورة النجم رقم 22 . القسم الأول من هذا الكتاب. هذا وقد يكفي أن يربط المرء هذه الآية بالتي قبلها التي تتحدث عن "الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ"، ليتبين أن موضوع التمني لا علاقة له بقصة الغرانيق. انظر التعليق في آخر هذه السورة.

16- وذلك وفاقا مع قوله تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" (الشورى: 40). تشير الآية أعلاه إلى أناس كانوا بصدد الهجرة إلى المدينة قبيل هجرة النبي عليه السلام، فاعترضتهم قريش واعتدت عليهم، فردوا عليهم بمثل ما اعتدي بهم عليهم، ثم زادت قريش فبغت عليهم. والمطلوب منهم في هذه الحالة أن ينصرفوا إلى مقصودهم (المدينة)، لأن الرد على بغي قريش مرة ثانية سيدخل المؤمنين في مسلسل الثأر والثأر للثأر، فيشغلهم ذلك عن هدفهم وهو الهجرة إلى المدينة للاستعداد لمقاتلة قريش مقاتلة الند للند. ولكن ذلك لا يعني أن الله لن يقتص منهم، بل سيمكن المسلمين منهم بعد الهجرة: فما نقص من حق المسلمين في مكة سيعوضون عنه في المدينة، تماما كما قال الطبري في معنى الآية : يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار، فما نقص من هذا زاد في هذا: والعكس بالعكس. "وبالقدرة التي يفعل ذلك ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم". والمعنى: إن حساب الربح والخسارة في الصراع مع قريش يجب أن يكون بنظرة شمولية، فما نقص من حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم في مكة سيضاف إلى ما سيحصلون عليه من النصر في المدينة.

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ[64]. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ[65]. وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ[66] (17).

8- لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا (أي طريقة ومنهاجا) (18) هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعُنَّكَ (أي قريش) فِي الْأَمْرِ (في شرعتك ومنهاجا)(19)، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ[67]. وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ[68]. اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ[69]. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[70]. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ[71]. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ (الإنكار والغيظ)، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا. قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ: النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ[72]. يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ. ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ[73]. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ[74]. اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا، وَمِنْ النَّاسِ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[75]. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ[76]. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[77].

9- خاتمة: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ...

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ (بأفعال الخير) هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.

17- كل هذا يصدق عليه قول الطبري أعلاه

18- في لسان العرب: "المَنسَكُ: شِرْعَةُ النسك. نَسَكَ الرجلُ إلى طريقة جميلة أي داوم عليها".

19 - روي أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة، فكان ما قتلَ الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم.

فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[78].

– تعليق

لاشك أن القارئ قد لاحظ معنا أن هذه السورة تشتمل على عدد من العلامات التي تؤكد مكيتها، وأن الآيات التي يصنفها بعض المفسرين مع القرآن المدني تقبل الانضواء تحت راية القرآن المكي خصوصا مع آخر مراحله.

الموضوعات التي تناولتها هذه السورة هي التالية:

1– تناولت الفقرة الأولى (المقدمة) والثانية مسألة البعث، وهي المحور المركزي الذي ظل حاضرا في جميع سور هذه المرحلة. تنطلق السورة من الإشارة إلى هول قيام الساعة، "يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"[2]. بعد الإعلان عن هذا المشهد المهول الذي يخاطب الخيال تنتقل السورة إلى البرهنة بخطاب عقلي على دفع شك المجادلين في حدوثه، فتأخذ في تفصيل أهم مظهر من مظاهر المشهد الذي قدمته: فالمرضعة التي تذهل عما أرضعت، كالحامل التي تسقط حملها تحت وقع صرخة القيامة، تمثلان طورا من الأطوار التي حددها الله لحياة الإنسان: والذين يشكون في البعث يجب عليهم أن لا ينظروا إليه كواقعة منفصلة لا أصل لها ولا فصل، بل يجب النظر إليه كحلقة في سلسلة: سلسلة ابتدأها الله بخلق آدم من تراب، ومن آدم وزوجه تسلسل خلق ذريته من نطفة ذكر تمنى في فرج امرأة، فتتحول النطفة إلى دم جامد يعلق برحمها فهو علقة، ويزداد حجم العلقة فيصير بقدر مضغة، ثم تأخذ هذه المضغة صورة إنسان، فيجعله الله ذكرا أو أنثى، وبعد مضي أجل معين، تضع الحامل حملها وترضعه، فيصير طِفْلًا، ثُمَّ شابا فشيخا،" مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ". ومثل هذه الأطوار مثل الأرض ترونها يابسة هامدة لا حركة فيها فإذا أنزل الله المطر عَلَيْهَا "اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[5]. فعلام يدل ذلك كله: إنه يدل على أن الخالق الحق هو الله، وأنه "يُحْيِ الْمَوْتَى" عند البعث "وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا" لأنها حلقة في نفس السلسلة؛ والبعث معناه : الحساب والجزاء.

هناك من الناس من يجادل ويشكك في وجود الله أو في قدرته على بعث الموتى مجندا نفسه لصد الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر، هذا الصنف من الناس سيكون جزاؤه خزي في الدنيا وعذاب بالنار يوم القيامة. وهناك صنف آخر من الناس "يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ": على وجه واحد. "فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ[20] (راجعا إلى ما كان يعبد من قبل) "يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ". هؤلاء وألئك خسروا الدنيا والآخرة فجزاؤهم جهنم. أما الذي آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات فجزاؤهم الجنة. وإذا كان بعض الناس يظنون أن محمدا سيفشل وسينهزم وأن وعد الله له بالنصر لن يتحقق فليعلموا أن نصر الله له أمر حتمي، وأنه مكتوب في السماء. فإذا أرادوا منع هذا النصر فليبحثوا عن وسيلة أو حيلة تمكنهم من الصعود إلى السماء ليقطعوا حبل النصر عنه، ولينظروا هل سيريحهم ذلك مما يغيظهم!

بعد أن تحدثت السورة عن موقف صنف من الناس (قريش) من الإيمان بالله واليوم الآخر وأكدت أن النصر عليهم مكتوب له عليه السلام انتقلت إلى تصنيف البشر جميعا حسب دياناتهم. وهكذا فبعد أن أكدت أن القرآن جاء بآيات بينات تخاطب الناس جميعا وأن الله يهدي به من يريد (الهداية) انتقلت إلى بيان أصناف البشر من زاوية الدين: الذين آمنوا بالقرآن، واليهود، والصابئين، والنصارى، والمجوس، والمشركين [21]، فأخبرت بأن الله يفصل بينهم يوم القيامة. وبعد أن أكدت السورة "أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"، كل حسب خلقته وطريقته، عادت إلى أصحاب الديانات لتميز فيهم بين خصمين "اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" : فَالَّذِينَ كَفَرُوا به مصيرهم جهنم، أما الذين آمنوا به وعملوا الصالحات فموعدهم الجنة.

وتأتي الفقرة التالية (الرابعة) لتوضح المقصود بهذين الخصمين في الظرف الذي نزلت فيه السورة: فالذين كفروا هم الذين "يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" ويمنعون المؤمنين من أداء شعائر دينهم في "الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" الذي جعله الله قبلة للناس للعبادة، سواء منهم المقيم في مكة أو القادم إليها. أما من يريد ممارسة الشرك فيه، كعبادة الأصنام، فعقابه العذاب الأليم. ذلك أن هذا البيت قد جعله الله في الأصل لإبراهيم مكانا خاصا بعبادة الله لا يمارس فيه الشرك، يأتيه الناس لهذا الغرض من كل مكان. ثم تعرض السورة لشعائر الحج كما توارثها العرب منذ جدهم إبراهيم.

وتأتي الفقرة الخامسة لتأذن للذين آمنوا بالدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الخصم الذي يصدهم عن دينهم ويمارس عليهم صنوفا من المضايقات، ليس منعهم من أداء شعائرهم في المسجد الحرام إلا مظهرا واحدا منها. إنهم يعتدون عليهم ويطاردونهم

20- هذا ينطبق على من ذكرتهم سورة العنكبوت وسمتهم بالمنافقين: الآيتان 10-11.

21- واضح أن هذا التصنيف يضم الديانات التي كانت في الجزيرة العربية وحدها أو في علاقة مباشرة معها كالمجوس في فارس الذين كانت إمرة الحيرة تحت نفوذهم. أما الديانات الأخرى مثل البوذية والكونفوشية وغيرهما فلم تأت الآية على ذكرها، لأنها لم تكن تدخل في أية علاقة مع الإسلام، وإن كان كثير من هذه الديانات يمكن إدخالها مع صنف المشركين.

ويصدونهم عن الالتحاق بإخوانهم المهاجرين إلى المدينة. من قبل كان الله يدافع عنهم (عن الذين آمنوا) بالقرآن ويحثهم على الصبر ويعدهم بالنصر، ولأنهم كانوا أقلية، ولم يكن في إمكانهم قتال الكفار وجها لوجها فقد منعهم من الرد بأساليب غير مشروعة كالاغتيالات وغيرها "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ (غادر) كَفُورٍ[38] (يقتل غدرا). أما الآن وقد كثر عدد المؤمنين وأصبح لهم أنصار في يثرب واتسعت الأرض أمام الإسلام فإن الله يأذن لهم في القتال، مدافعين عن النفس، محاربين واضحين لخصم واضح : "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ (أن يقاتلوا) بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[39] . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ "! [(22)] . بعد تأكيد نصر الله للمسلمين المهاجرين عندما يحين الدفاع عن أنفسهم بالقتال والمواجهة الصريحة، تطلب السورة من الرسول أن لا يتأثر باستهزاء قريش وتحديهم له أن يبادر فيريهم الهزيمة التي سيُلحقها بهم والعذاب الذي يعدهم به: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ"[47]. لا تستعجل بالهجرة ولا تقس زمان الوعد الإلهي بالزمان البشري. اصبر حتى يأتيك الأمر بالهجرة، وتقوم بما يلزم من الإعداد للحرب بينك وبين مشركي مكة، وما يقتضيه الأمر من مواصلة الحرب حتى يكتمل لك النصر، ليس فقط في بدر بل بفتح مكة. لأن الصراع الذي تتحدث عنه هذه الآيات ليس من أجل نصر في معركة بل من أجل النصر النهائي الذي ضربت له مثلا بتجارب الأنبياء السابقين.

نأتي الآن إلى الفقرة السابعة، إلى آية ذهب جميع المفسرين في تفسيرها مذاهب تبتعد عن سياق الآيات السابقة تماما، لتعود إلى قصة مشكوك فيها يؤرخون لها بالسنة الخامسة للنبوة، وهي المعروفة بقصة "الغرانيق". ونحن نرى أن موضوع السورة وسياقها العام والسياقات الخاصة فيها لا تسمح بهذه القفزة إلى الوراء. إن سورة النجم التي نزلت حوالي السنة الخامسة للهجرة والتي ذكرت فيها "اللات

---

22 – قال القرطبي: رُوي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل مَن أمكنه من الكفار ويغتال ويَغْدِر ويحتال؛ فنزلت هذه الآيةَ إلى قوله «كفور». فوعد فيها سبحانه بالمدافعة ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر. وسيأتي في «الأنفال» التشديد في الغدر؛ وأنه: «يُنصب للغادر لواء عند أسته بقدر غَدْرته يقال هذه غدْرة فلان». ونحن نرى أنه ليس من الضروري ربط مضمون الآية بقلة المؤمنين بعد الهجرة إلى الحبشة، فقد مر على تلك الهجرة سبع سنوات، فنحن الآن في زمن هجرة المسلمين إلى المدينة ومحاولة قريش صدهم عنها، فلا ضرورة للجمع بين الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة كانت من أجل النجاة، كانت لجوءا، أما الهجرة إلى المدينة فقد كانت من أجل الإعداد للمعركة الفاصلة، من أجل تنفيذ ما تم النص عليه في بيعة العقبة التي كانت كما قدمنا "بيعة الحرب". وهكذا فما قاله القرطبي أعلاه يجب أن يصرف إلى "الحاضر والمستقبل، إلى الهجرة إلى المدينة، وليس إلى الماضي: الهجرة إلى الحبشة.

والعزى ومناة" والتي يحتمل سياقها الظاهري ما ذكروه من وصفها بكون "شفاعتهم لترتجى..."، إن سورة النجم هذه قد ردت هي نفسها على كون قريش كانت ترتجي شفاعتها وأكثر من ذلك وصفت اللات والعزى ومناة بكونها مجرد أسماء ورثتها قريش عن آبائهم وأنها مجرد تماثيل لا تسمع ولا ترى ولاتشفع الخ [23].

أقول لا معنى للقفز من سياق السورة التي نحن ضيوف عليها ومن ظروف نزولها والمجال الذي تتحرك فيه، إلى قصة الغرانيق المزعومة. إن "آية التمني" [24] في هذه السورة تقع في فقرة تبدأ بمخاطبة العرب، أهل القبائل، وليس قريش وحدها: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ". ثم تميز الذين استجابوا وآمنوا وعملوا الصالحات وسيكون جزاؤهم "مغفرة ورزق كريم"، في الدنيا والآخرة، من الذين رفضوا الاستجابة وتحدوا الرسول بمطالبته بمعجزات من جنس معجزات الرسل السابقين (موسى وعيسى...)، هؤلاء هم "أَصْحَابُ الْجَحِيمِ". وقد واجه هؤلاء الرسل من قبل مثل هذه التحدي والتعجيز، وجميع الرسل والأنبياء قد حدث لهم ما يحدث للبشر فوقعوا تحت ضغط مثل هذه المطالب التعجيزية من أقوامهم، وقد يحدث أن يتمنوا معجزات أو أن يطلبوا من الله قسر أقوامهم على الإيمان، أو يَعِدوا بذلك أنصارهم فتتأخر الاستجابة كما حدث للرسول محمد عليه السلام حين سألته قريش عن أهل الكهف وذي القرنين (انظر سورة الكهف).

لقد ذهب المفسرون في شأن هذه الآية مذاهب شتى فابتعدوا عن السياق كعادتهم في مثل هذه المشكلات. والسياق يبدأ من أول الفقرة الثانية وبالخصوص قوله تعالى: "وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"51 أي الذين تحدوا الرسول أن يأتي بآيات معجزات كمعجزات موسى وعيسى أو يحول صخرة الصفا ذهبا، أو يدفع الجبال لتتسع أرض مكة الخ، إن هذا التحدي الذي تعرض لمثله الأنبياء والرسل جميعا، قد يحدث أن يحمل الرسول أو النبي على أن يتمنى مثل هذه المعجزات تحت تأثير الرغبة في إسكات الخصم أو بفعل الهوى وهو وسوسة الشيطان فيدعي ما وسوس له به فتتدخل الإرادة الإلهية لمنع ذلك ونسخه، وتبقى الآيات المحكمات، أي المعجزات، التي هي من عند الله فعلا. ونحن نعتقد أن في هذا إشارة إلى ما نسب إلى الرسول عليه السلام من معجزات لا أساس لها من القرآن، فالقرآن لا يشير إلا إلى شيء واحد يمكن أن يعتبر معجزة للنبي عليه السلام وهو القرآن نفسه، أما غير ذاك فلا أصل له. قال الرازي بعد أن استعرض جل ما قيل في هذه الآية من تأويلات: "يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن

23- انظر سورة النجم، القسم الأول من الكتاب.

24- "الآيات الشيطانية" في قصة سلمان رشدي.

الرسل الذين أرسلهم الله تعالى، وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم. فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان، بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر، فالواجب أن لا يُتّبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم". قلت (الجابري): ومما ينبغي التدبر فيه في هذا المجال ما ورد في جميع التفاسير عن وقعة بدر، قالوا: "أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم (جيش قريش) وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم وقال: "شاهت الوُجُوهُ" فانهزموا"، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: "وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رمى"، أي أن هزيمة قريش يوم بدر لم تكن معجزة لك من خلال ما رميت من الحصى، بل كانت هزيمتهم بتدخل الإرادة الإلهية.

وإذا كان لابد من ربط هذه الآية بما يناسبها من روايات فأقرب رواية تصلح لذلك ما رواه ابن سعد عن عائشة قالت: " لما صدر (غادر) السبعون "الذين بايعوا الرسول في العقبة الثانية" من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوما: أهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون (=المشركين) من الخروج (حدوث الهجرة) فضيقوا على أصحابه، وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة، فقال قد أريت دار هجرتكم: أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي. ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها" فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك". في مثل هذا الجو يمكن أن يكون قد حدث ما ينطبق مع مضمون الآية ككل. وفي هذا الإطار يجب أن نستحضر قوله تعالى :" قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (الأحقاف 9).

لنتجاوز الفقرة الثامنة فهي مشروحة في النص ولا إشكال فيها ولننتقل إلى الخاتمة، التي جاءت بمثابة "وصية وداع" للمسلمين الذين كانوا يقصدون المدينة. قال تعالى: وجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ[78].

ما يثير الانتباه في هذه الآيات هو قوله تعالى "مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُو سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ"، وهذه هي المرة الثانية التي يشار فيها بصراحة -في القرآن

المكي– إلى إبراهيم بوصفه جد العرب. لقد ذكر إبراهيم من قبل عشرات المرات وكان ذلك في سياق تاريخ بني إسرائيل ومحاربته لعبادة الأصنام. ولم يذكر (في القرآن المكي) بصفته جد العرب إلا في سورة "إبراهيم" (رقم 73 آيات 35–41) وفي هذه السورة.

في سورة إبراهيم كان الخطاب موجها إلى العرب أهل القبائل، يذكرهم بأنهم من ذرية إبراهيم الذي اختار مكة مقرا، وطلب من الله أن يجعله بلدا آمنا، وبنى فيه الكعبة الخ، الشيء الذي يعني أن مكة والبيت الخ تراث مشترك للعرب جميعا وبالتالي فليس لقريش ولا لغيرها احتكاره... أما في هذه السورة فالخطاب إلى المسلمين المهاجرين إلى يثرب، المكيين منهم وأهل القبائل، يطلب منهم أن يعوا أن هويتهم لا تتحدد فقط بكونهم من نسل إبراهيم (فاليهود كذلك من نسله) ولكن تتحدد أكثر بكون إبراهيم هو الذي سماهم مسلمين. فالعرب إذن يجب أن يكونوا مسلمين : يجري فيهم دم النسب الإبراهيمي وفي نفس الوقت يتبعون ملته، فعليهم إذن أن يقوموا بشعائر هذا الدين الذي هو الدين القيم، دين الفطرة، كما أن عليهم أن يحافظوا على وحدة الأصل الذي يجمعهم إلى إبراهيم، والسبيل إلى ذلك هو التمسك بدين إبراهيم متحدين لا متفرقين: "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"[78].

على هذا الأساس تتحدد هوية العرب/المسلمين ، وسنرى في القرآن المدني عناصر أخرى سيكون لها دورها في قيام دولة الرسول في المدينة.

استطراد

الهجرة إلى المدينة

تؤكد مصادرنا أنه لما علمت قريش ببيعة العقبة الثانية، التي بايع فيها ممثلو "يثرب" الرسول عليه السلام على أن يهاجر إليهم هو وصحبه، وأن ينصروه ويحاربوا معه ويحارب معهم، "ضيقوا على أصحابه ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد". فشكوا إليه عليه السلام، واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن لهم، ثم قال لهم: "أُريتُ دارَ هجرتكم"، ولم يحدد لهم الجهة التي سيهاجرون إليها... "ثم خرج إليهم مرة أخرى مسروراً، فقال: قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فأذن لهم، وقال: من أراد أن يخرج فليخرج إليها فخرجوا إليها أرسالاً (متتابعين) يخفون ذلك".

وروى بعضهم أنه قام عليه السلام بمؤاخاة أصحابه "على الحق والمواساة" قبل أن يبدؤوا في الهجرة إلى المدينة ـ"فآخى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبادة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، وبين عليّ ونفسه". وقد فسر بعضهم الهدف من هذه المؤاخاة بكون "بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، وليستعين الأعلى بالأدنى".

وفي رواية: "ثم قدم أصحاب رسول الله، أرسالاً بعد العقبة الثانية -إلى المدينة- فنزلوا على الأنصار في دورهم فآووهم وواسوهم، ثم قدم المدينة عمر بن الخطاب ... وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكباً. وكان هشام بن العاص واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه وقال: تجدني أو أجدك عند محل كذا، فتفطن بهشام

قومه فحبسوه عن الهجرة. وعن عليّ بن أبي طالب أنه قال: "ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد بسيفه وتنكب قوسه وانتضى في يديه أسهماً واختصر عنزته (الحربة الصغيرة، علقها عند خاصرته) ومضى قِبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحِلَق (جماعات قريش) واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (أي الأنوف)! من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي! قال عليّ: فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه". وقيل "لما أراد صهيب الهجرة إلى المدينة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثر مالك عندنا ثم تريد أن تخرج بمالك؟ لا والله لا يكون ذلك! فقال لهم صهيب، أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا نعم، قال: فإني جعلته لكم. فبلغ ذلك رسول الله ، فقال "ربح صهيب".

وتضيف مصادرنا أن النبي عليه السلام أقام بمكةَ بعدَ أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤْذَن له في الهجرة، ولم يتخلفْ معه بمكة إلا من حُبس أو فُتِن، إضافة إلى على بن أبي طالب وأبي بكر الصديق. قالوا: وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن الرسول في الهجرة، فيقول له: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونَه".

ولما علمت قريش بقرب هجرة الرسول عليه السلام تداولوا الأمر بينهم في اجتماع عقدوه في دار الندوة فأدلى كل منهم برأيه، وكانت المشكلة الرئيسية التي اعترضتهم هي : كيف يقتلونه دون أن يكون لذلك رد فعل من الهاشميين وحلفائهم، فاتفقوا في النهاية على اقتراح لأبي جهل قال فيه: "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يَعْمِدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف [1] على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل (بالدية)، فعقلناه لهم". اتفق زعماء قريش على ذلك. ويقال إنه في خبر هذه المؤامرة نزل قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال مدنية– 30).

لما علم الرسول عليه السلام بتفاصيل المؤامرة قرر الهجرة، فاتجه إلى أبي بكر وأخبره بذلك واتفقا على أن يهاجرا معا. وقام أبو بكر بالاستعداد للرحلة فجهز راحلتين، واستأجر رجلا كان على معرفة بالمسالك من مكة إلى المدينة واتفق معه

1- كان لعبد مناف أربعة أولاد: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل. وُلد لهاشم عبد المطلب الذي كان له أربعة أولاد: العباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله والد النبي محمد عليه السلام. أما عبد شمس فكان من أبنائه أمية بن عبد شمس وإليه ينتسب بنو أمية.

على اللقاء في "غار ثور بعد ثلاث ليال "[2]. وهكذا تواعد الرسول وأبو بكر على اللقاء ليلاً خارج مكة، وكانت تلك الليلة هي الليلة التي قررت فيها قريش تنفيذ عملية قتل النبي (ص) كما اقترح أبو جهل. وكان عليه السلام قد أمر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه أثناء الليل، فلما جاءت الجماعة المكلفة باغتياله أخذوا ينظرون من شقوق الباب فرأوا شخصا نائما فحسبوه النبي ذاته. وقبل تنفيذهم لخطتهم خرج إليهم علي فأسقط في أيديهم. أما قريش فقد صدموا وتجندوا للبحث عن الرسول (ص) ولما وصل فريق منهم إلى "غار ثور"، حيث كان النبي وأبو بكر مختفيين، لم يلحظوا أثر أقدام فلم يفتشوا الغار! ويقال إن راعيا كان قد مر على الغار ومعه غنمه فمحت الغنم أي أثر لأقدام إنسان.

أقام النبي وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام وكان أبو بكر قلقا من تهتدي قريش إلى مكانهما وقيل إلى هذا يشير قوله تعالى: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة 40)[3].

بعد انقضاء الأيام الثلاثة جاءهما الدليل الذي اتفقوا معه بالراحلتين فاتجها إلى يثرب على طريق الساحل. وعندما وصل النبي (ص) يثرب في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق 20 سبتمبر سنة 622م، أقام بضعة ليال بقرية بضواحي المدينة تدعى"قباء" أسّس فيها "مسجد قباء"، ثم اتجه نحو المدينة يحيط به الأنصار والمهاجرون متقلدين لسيوفهم، والنساء والأطفال يهتفون: "طلع البَدرُ علينا من ثَنيَاتِ الوداع، وجب الشكر علينا ما دعا لله داع، أيُّها المبعوث فينا جئت بالأمرِ المُطاع". "وكان الناس يسيرون وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته، كلّ يريد أن يكون نزيله". هذا ويقدر بعضهم المدة الفاصلة بين ابتداء هجرة المسلمين إلى يثرب وبين هجرته عليه السلام بشهرين ونصف شهر. وبوصوله عليه السلام إلى المدينة تبدأ مرحلة جديدة تماما سواء على

---

2 – تخاطب هذه الآية جماعة من المسلمين تقاعسوا عن تلبية طلب الرسول بالتجنيد لغزو تبوك في آخر العهد المدني وفي آخر سورة نزلت قبل وفاه عليه السلام.
في الجبال المحيطة بمكة عدد من الغيران، منها واحد اسمه "غار ثور"، قريبا من مكة في الطريق إلى المدينة.

3 – تخاطب هذه الآية جماعة من المسلمين تقاعسوا عن تلبية طلب الرسول بالتجنيد لغزو الروم في تبوك. والآية من سورة براءة (التوبة)، وهي آخر سورة نزلت من القرآن، قبيل وفاة عليه السلام. وسنشرح ذلك في القسم الثالث من الكتاب.

مستوى السيرة أو مستوى مسار التنزيل وسيتم التأريخ بالهجرة لحوادث الـــزمن[4]، الشيء الذي سنفتتح بالكلام عنه القسمَ الثالث من هذا الكتاب.

4- تجمع الروايات على أن أول من أرخ بالـــهجرة الخليفة عمر بن الخطاب وكان ذلك في ربيع الأول سنة 16 هجرية، وبما أول السنة القمرية عند العرب كان فاتح محرم فقد جعلوا التأريخ الهجري يبدأ قبل الـــهجرة بشهرين، لأن هجرة النبي كانت في ربيع الأول. وكان سبب ذلك -فيما ذكروا- أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر أنه "يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها يعمل". قد قرأنا صـــكا منه محلـــه شعبان، فما ندري أي الشعبانين الماضي أم الآتي، فعمل عمر رضي اللـــه عنه على كتابة التاريخ، وأراد أن يجعل أولــــه شهر رمضان، فرأى أن الأشهر الحُرُم تقع حينئذ في سنتين، فجعلـــه من المُحرم وهو آخرها، فصيره أولا لتجتمع في سنة واحدة". وتقول الأخبار إن العرب كانوا يؤرخون "من موت كعب بن لؤي"، وهو الثامن في سلسلة نسب النبي (ص) قالوا : "وقد كان يجمع قومه يوم العروبة - أي: يوم الرحمة، وهو يوم الجمعة - فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وينبـــئهم بأنه من ولده". فلما كان علم الفيل أرخت العرب منه".

خلاصات : منهج ونتائج ...

الآن، بعد أن أنجزنا مهمتنا على مستوى القرآن المكي، قرآن الدعوة الذي يشكل القسم الأكبر من الذكر الحكيم، وقبل الانتقال إلى القرآن المدني قرآن الدولة، نرى أن من المفيد أن نلقي نظرة عامة على هذا الذي أجزناه: على المنهج الذي سلكناه والرؤية التي سرنا على هداها والنتائج التي حصلنا عليها. ومن أجل هذا الغرض سنجعل هذه الخاتمة مرحلتين: الأولى في الجديد الذي نعتبر أنه يسم عملنا في هذين القسمين من الكتاب، سواء على صعيد المنهج أو على مستوى المضمون، والثانية في الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي : قرآن الدعوة.

لبدأ أولا بمسألة المنهج.

أولا: الجديد على صعيد المنهج !

يمكن القول، بدون فخر زائد ولا تواضع زائف، إنه لأول مرة أصبح ممكنا عرض القرآن ومحاولة فهمه بكلام متصل مسترسل يشد بعضه بعضا، كلام يلخص مسار التنزيل ومسيرة الدعوة في تسلسل يرضي النزوع المنطقي في العقل البشري. وقد أمكن ذلك باعتماد خطوات منهجية لم يسبق أن طبقت في أي نوع من أنواع التفاسير السابقة، وهذه الخطوات هي:

أ- اعتبار التساوق بين مسار التنزيل وبين مسيرة الدعوة.

يتعلق الأمر بمصاحبة كل من الذكر الحكيم ومسيرة الدعوة مصاحبة مباشرة، منذ ابتداء نزول الوحي وطوال مراحل "تكوين" القرآن/الكتاب في العهد المكي، وقد استغرق تنزيله في هذا العهد ثلاث عشرة سنة. لقد اعتمدنا في رسم معالم تنزيله على لوائح ترتيب النزول المتوفرة،. ولكن، بدلا من إخضاع "فهم القرآن" ككل لهذه اللائحة أو تلك تعاملنا بمرونة مع جميع اللوائح، واستحضرنا كل ما أمكن الوقوف عليه من المرويات التي تصنف ضمن "أسباب

النزول"، وحرصنا الحرص كله على أن تكون الكلمة الفصل للسياق، سياق الآيات... وبهذا النوع من المرونة تمكنا من إدخال تعديلات على رتب بعض السور، فنقلنا السور التي رتبت مع السور المدنية -وهي مكية باتفاق أو شبه اتفاق- إلى المكان الذي رجحناه في لائحة السور المكية؛ كما عملنا على إبراز الطابع المكي في الآيات التي قيل عنها في روايات "أسباب النزول" إنها نزلت في المدينة، معتمدين في ذلك معطيات السيرة ووحدة السياق، وبذلك تم تجاوز "الاستشكالات" التي شغلت المفسرين والمؤلفين في "علوم القرآن"، والناتجة عن الاعتقاد في وجود آيات مدنية في السور المكية[1]. وهكذا تصرفنا على أساس وحدة السورة، وليس على ما يفترض لها أو لآيات منها من "سبب نزول"، إلا ما كان متوافقا مع السياق ولم ينسب إلى المدينة.

ب- اعتبار وحدة السورة :

هذا النوع من التعامل مع القرآن، أعني اعتبار وحدة السورة، وليس ما تتحدث عنه الروايات المختلفة المتضاربة المتناقضة حول "أسباب النزول"، قد مكننا من الحديث عن كل سورة بوصفها وحدة خِطابية مستقلة مكتملة: تبدأ بمقدمة تطرح الموضوع الذي تعالجه السورة وتنتهي بخاتمة تستعيد المقدمة وترتفع بها إلى مستوى أرقى. وقد أبرزنا ذلك في كل سورة، باستثناء السور القصيرة، التي تشكل آياتها سياقا واحدا لا يتجزأ، والتي تغلب فيها وحدة الموضوع ووحدة المخاطَب؛ يتعلق الأمر بسور من المرحلة الأولى التي موضوعها النبوة والربوبية والألوهية، ومن المرحلة الثانية الخاصة بالبعث. أما فيما عدا هذه السور، وهي معدودة، فنادرا ما تخلو السورة من التقسيم الثلاثي: المقدمة، العرض، الخاتمة.

وهكذا فمع أن القرآن نزل منجما مفرقا حسب مقتضى الأحوال فسوره المكية -على الأقل- تحتفظ بنوع من النظام والترتيب ووحدة السياقات تذكر المرء ليس بـ" وحدة القصيدة" في الشعر العربي القديم وعلى رأسه "المعلقات" فحسب، بل أيضا تذكر المتتبع لـ "النظم" القرآني بنظم الكلام في المؤلفات البلاغية ذات الطابع المنطقي! ومن هنا إلحاح كثير من البلاغيين القدماء على أن إعجاز القرآن يتمثل في نظمه: البلاغي والمنطقي (الباقلاني، الجرجاني الخ.

1- . رأينا في "التقديم" الذي صدرنا به كل سورة أمثلة عن تناقض المرويات في هذا الشأن.

كيف نفهم هذه الخاصية في الذكر الحكيم؟

يجب التذكير هنا بما هو مقرر عند جميع المفسرين والمؤلفين في "علوم القرآن": من أن ترتيب الآيات داخل السور "ترتيب توقيفي"، أي أنه مأخوذ عن النبي من جهة، وأنه عليه السلام كان يراجع القرآن باستمرار مع جبريل. ففي البخاري عن ابن عباس أن الرسول كان يلقاه جبريل "في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن"، و"عن أبي هريرة وفاطمة عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن جبريل كان يعارضه القرآن" من المعارضة وهي المقابلة، أي يراجع معه جميع ما نزل من القرآن، وبالتالي فترتيب آيات سوره كان من عندهما. ومعنى هذا أن كل سورة من سوره تشكل وحدة قائمة بنفسها، أما ترتيب السور كما هي في المصحف فقد بناه الذين قاموا بجمع القرآن في عهد الخليفة عثمان على معيار الطول والقصر، وهو معيار لا علاقة له بترتيب النزول. وبما أن هذا الترتيب، أعني ترتيب المصحف، قد وضع بعد وفاة النبي عليه السلام، فلا يعقل أن يقال إن مراجعة النبي للقرآن كانت مبنية عليه، خصوصا وهو يبدأ بالقرآن المدني. إن الأقرب إلى المعقول هو أن تكون مراجعة النبي للقرآن قد تمت على أساس ترتيب النزول، خصوصا وقد كانت مستمرة طوال مسار التنزيل، كما ورد في الحديث أعلاه.

ومع أننا لا نملك أي أثر يشير إلى المرجع الذي اعتمده من تُنسب إليهم لوائح ترتيب النزول التي بين أيدينا فإنه من المحتمل جدا أن تكون كلها صدرت عن ابن عباس والمحيطين به. أما مرجع ابن عباس فغير معروف بالتدقيق... على أن ما يزكي لوائح ترتيب النزول التي اعتمدناها ليس مصدرها بل كونها تتطابق، في الأغلب الأعم، مع ما عبرنا عنه بـ "مسار التنزيل"؛ وبعبارة أخرى هناك "منطق داخلي" يربط السور بعضها ببعض لا يكشف عن نفسه إلا في ترتيب النزول، وقد اعتمدنا هذا "المنطق الداخلي" في التعديلات التي أجريناها على تلك اللوائح.

ج- القرآن المكي ... قسمان!

وهكذا، فبمراعاة مساوَقة مسار التنزيل لمسيرة الدعوة، والنظر إلى كل سورة كوحدة مستقلة مكتملة ميزنا في القرآن المكي بين ست مراحل، بررنا كلا منها عند بداية الحديث عنها، وقد تتبعها معنا القارئ. ويبقى السؤال الذي لا بد أن يكونٍ قد طرحه كثير من القراء وهو: لماذا وضعنا القرآن المكي

في قسمين من الكتاب وليس في قسم واحد، أو في أكثر من اثنين؟ لقد بررنـا هذا التقسيم من قبل بالناحية "المادية" : حجم الكتاب وبالتالي سعره. إن كتابـا من حجم 800 صفحة من الحجم الكبير سيكون مكلفا من حيث سعره، وأهم من ذلك سيكون صعب التناول، وسيتعرض للتمزق إذا استعمل بكثرة. إن كتابا فـي "فهم القرآن"، أو تفسيره، ليس من الكتب التي تقرأ مرة واحدة وتوضع علـى الرف، بل قد يحتاج كثير من القراء إلى قراءته عدة مرات لاستيعاب محتـواه، فضلا عن الحاجة إلى الرجوع إليه من حين لآخر.

لكن هذا التبرير المادي/العملي لا يجيب عن جميع مضامين السؤال السابق! إن مسألة التقسيم، أو التبويب، مهما كانت، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بكتاب، تتطلب تبرير اختيار البداية والنهاية لكل قسم أو باب. لقد كان ممكنا التغاضي عن تلك الاعتبارات المادية"/العملية وجعل القرآن المكي كله في كتاب واحد لكونه وحدة متراصة؛ كما كان ممكنا اعتبار عدد الصفحات وجعل كل قسم في نحو 400 صفحة. أو تجزئته إلى أكثر من قسمين، أو تخصيص كل مرحلة من المراحل الست بكتاب! ولكن جميع هذه القسمات الممكنة لن نجد لها ما يؤسسها، لا على مستوى مسار التنزيل ولا على مستوى مسيرة الدعوة. ومن وجهة نظرنا فإن التقسيم الذي اعتمدناه هو وحده الذي يفرض نفسه على المستويين معا، كما سنرى في الفقرة التالية:

ثانيا- الجديد على صعيد المضمون.

أ- مرحل الكون والتكوين في القرآن المكي:

يتمثل الجديد على صعيد المضمون، في هذا العمل الذي قمنا به، ليس في التمييز في القرآن المكي، جملة، بين مراحل ستة فحسب، بناء على ترتيب النزول ووقائع السيرة، بل يتمثل كذلك في الانتباه إلى وجود نوع من علامـة الفصل والوصل (/) بين المراحل الثلاثة الأُول والمراحل الثلاثة التالية لهـا، وبالتالي التمييز في القرآن المكي ككل بين قسمين متصلين، ولكن متمايزين.

كان التنزيل في المراحل الثلاثة الأولى يتحرك حول ثلاثة محاور رئيسية تشكل أركان العقيدة الإسلامية، هي: النبوة، التوحيد، المعاد. وكان الخطاب في هذه المراحل موجها إلى مشركي مكة وعلى رأسهم "الملأ من قريش": أغنياؤها ومترفوها وأعيانها ... أما في المراحل الثلاثة التالية، وابتداء من سورة الحجر (ورتبها 53)، فقد تغير المخاطب. لقد نجح

المسلمون في الهجرة إلى الحبشة،في غفلة من الملأ من قريش وباءت محاولة هؤلاء لإقناع ملك الحبشة –النجاشي– بإعادتهم إلى مكة، فشددوا الخناق على الدعوة وضربوا الحصار على الشباب في قبائلهم ولم يعد من الممكن مواصلة الدعوة فيها ولو بشكل سري، فصدر الأمر الإلهي إلى الرسول بالاتجاه بالدعوة إلى وفود القبائل في المواسم والأسواق : "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ؛ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" (الحجر95-96). لقد فصّـلنا القول من قبل في هاتين الآيتين، فبينا كيف أن هذا الأمر للرسول بالإعراض عن مشركي مكة، والصدع بالدعوة خارجها، يعني الانتقال بها من مرحلة الاتصالات الفردية وإقناع الأقارب والأصحاب في مكة الخ، إلى المجاهرة بها وسط جموع الناس في المواسم والأسواق ...

ب- من "قم فأنذر"...إلى "فاصدع بما تؤمر" : اكتمل خطاب العقيدة...

والسؤال الذي طرحناه أعلاه يتعلق بهذه النقطة بالذات! ذلك، لأن القرآن المكي قد استوفي أغراضه العقدية الأساسية وهو يخاطب قريشا في مكة. لقد أثبت النبوة والربوبية والألوهية، وشجب الشرك وعبادة الأصنام، وطرح مسألة البعث والجزاء، وهي المحاور الثلاثة التي تؤسس للعقيدة الإسلامية. لقد بينها القرآن وأكدها بأدلة عقلية متنوعة مأخوذة من معهود العرب وزكاها بقصص الأنبياء. وإذن، لقد استوفى القرآن المكي أغراضه كما قلنا، لأنه لم يكن قد تجاوز مرحلة "الدعوة" إلى ما بعدها (الدولة) حين نزل قوله تعالى: "اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين"؟ فكيف سيكون "الصدع" بخطاب، وجه أصلا إلى الملأ من قريش، والتوجه به إلى أقوام آخرين يجهلون عنه كل شيء، إلا ما قد يكون قد وصل إليهم من أخبار مختزلة عن قيام نبي في مكة رفضه قومه الخ! كيف سينقُلُ هذا "الصدع" الجديد ما سبق أن أنذَر به الرسول "أم القرى ومن حولها" (قريش) إلى الناس كافة في المواسم والأسواق؟ وبعبارة أخرى هل سيكون هناك جديد في الدعوة بعد أن بينت رسالتها وأقرت النبوة والتوحيد والمعاد وجادلت على ذلك بخطاب عربي مبين؟

ج- قصة يوسف من منظور آخر !

هذه الأسئلة وما سنجيب به عنها هو ما يبرر جعل القسم الأول من هذا الكتاب ينتهي مع سورة يوسف، التي ختمت بها سلسلة من السور ركزت على قصص الأنبياء فأكدت من خلال "كتاب التاريخ المقدس" صدق ما قررته سور

أخرى اعتمدت "كتاب الطبيعة" كما يقرأ داخل معهود العرب. لقد أنكر بعض المتطرفين من الخوارج أن تكون قصة يوسف من القرآن وكأنهم لم يقرؤوا منها إلا قوله تعالى: "وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ..." (يوسف 24)! والواقع أن استحضار قصة يوسف، كاملة مفصلة، في هذه المرحلة من مسار التنزيل يحمل معنى خاصا يتجاوز مضمون القصة كما يتحدد في إطار تاريخ بني إسرائيل. لقد ختمت هذه السورة قصص الأنبياء بخاتمة تشعر بقرب تحول الدعوة المحمدية من العسر إلى اليسر: من حال "الطفل يوسف" (الذي حسده إخوته على مكانته من أبيهم-فتآمروا عليه وألقوه في البئر للتخلص منه، ولما نجا باعوه عبدا لتجار رقيق باعوه بدورهم في مصر الخ) إلى حال يوسف الصدّيق الأمين الذي نال ثقة "عزيز مصر" (ملكها) فعينه في منصب الحاكم التنفيذي فيها نيابة عنه، فاستدعى يوسف أباه وإخوته ليعيشوا معه أسيادا مكرمين. هذا التحول من حال العسر إلى حال اليسر هو المغزى الذي أبرزته سورة يوسف في خاتمتها، التي نقرأ فيها قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة)، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى!(...) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا[2] جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ". وبعد هذه الخاتمة مباشرة تأتي سورة الحجر لتقرر أنه: لم يعد في إمكان قريش أن يسلموا؛ لقد اختاروا الكفر وأصروا عليه ولم يعد في إمكانهم التراجع!

فما العمل إذن؟ هل "ستأخذهم "الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"؟ كما حصل مع أمم سابقة وبالتالي يتخلى النبي الأمي، الرسول الأمين، عن تبليغ رسالته ويستسلم...؟ كلا! إن لديه -علاوة على "القرآن العظيم" الذي فيه إثبات النبوة والتوحيد والمعاد- هذه السور "السبع المثاني" التي شرحت له الموقف مبينا مكررا سبع مرات! وها هي المثناة السابعة، سورة الحجر (أما الأولى فهي سورة الشعراء: القسم الأول من الكتاب) تحمل إليه، بُشرى بداية "أسبوع جديد"، بُشرى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". يتعلق الأمر، بالتوجه إلى العرب جميعا، في المواسم والأسواق؛ يجب الانفتاح على العالم كي ينفتح العالم للدعوة!

2- المعنى : "استيأس الرسل من نصر قومهم، وظنّ قوم الرُسُل أن الرسُل قد كـذبوهم". (بالعامية: كذبوا عليهم).

من هنا كان من المبرر تماما في نظرنا وضع علامة "الفصل والوصل" (العمود المائل: /) بين ما قبل سورة الحجر وما بعدها. يبقى بعد هذا أن نبرز الطريقة التي سلكها الخطاب القرآني في تقرير أركان العقيدة الإسلامية (النبوة، التوحيد، المعاد) مرة ثانية، وهو يخاطب أهل المواسم والأسواق بنفس ما سبق أن خاطب به مشركي مكة مدة تزيد عن خمس سنوات!

د- لا تكرار .. وإنما خطاب واحد في وضعيات مختلفة ومخاطبين جدد.

إن من ينظر إلى ما نزل من القرآن المكي بعد سورة يوسف -وابتداء من سورة الحجر- نظرة سطحية، سيحكم بالتكرار على جملته، تكرار ما سبق أن نزل قبل هذه السورة، سواء على مستوى تأكيد نبوة الرسول عليه السلام، أو على مستوى الاستدلال على وجود الله ونفي الشريك عنه، أو على مستوى الحجاج على إمكانية البعث، لكن الناظر بعين فاحصة إلى ما نزل بعد سورة يوسف سيسجل ثلاثة مستجدات على مستوى مسار التنزيل كما على مستوى مسيرة الدعوة:

1- في المدة الفاصلة بين السنة الخامسة ونيف إلى مستهل السنة السابعة للنبوة قام الرسول عليه السلام بالصدع بالأمر في جموع رواد المواسم والأسواق، وتتميز السور النازلة في هذه الفترة بكون الخطاب فيها، إذ يستعيد المضمون العقائدي التي تم تقريره في مكة، يستعمل مفردات من بيئة عالم البدو. لقد تغير المخاطب فكان لابد أن يستحضر الخطاب معهوده، ويبني الأدلة على عناصر من بيئته. وقد أبرزنا ذلك خلال تعاملنا مع السور التي نزلت في هذه المرحلة (الأنعام، لقمان، الصافات، سبأ).

2- أما في المدة التي قضاها عليه السلام في الحصار، بشعب أبي طالب، من مستهل السنة السابعة إلى مستهل العاشرة للنبوة، حيث لم يكن هناك مخاطب مباشر -لأن بقية المسلمين كانوا قد التحقوا بإخوانهم بالحبشة ولم يبق معه سوى أهل بيته عليه السلام- فقد تميزت السور النازلة في هذه المرحلة، وهي (الحواميم السبع: الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الغاشية، الأحقاف) بطابع خاص سواء على صعيد المضمون أو على مستوى بنية الخطاب: طابع التذكير -مع نوع من الاختصار وتنوع في الصياغة- بما واجه به القرآن مشركي مكة، مع النزوع من حين لآخر إلى تثبيت فؤاد النبي عليه السلام وتسليته وحثه على الصبر، مع التأكيد على أن النصر له في نهاية المطاف.

3- أما بعد خروجه عليه السلام من الحصار وتجاوز حالة "الحزن" التي خيمت عليه بسبب وفاة كل من زوجته خديجة وعمه أبي طالب، مانعه وحاميه من عتاة قريش، فقد اتجه إلى أهل المواسم والأسواق، لا ليخاطب الجمهور كما فعل قبل الحصار، بل ليُجري اتصالات مع رؤساء وفود القبائل بحثا عن قبيلة يتحالف معها على أن تنصره وتدافعه عنه الخ، وكانت النتيجة استجابة وفود يثرب وأهلها وإبرام معاهدة العقبة، "معاهدة الدفاع المشترك"، ومن ثم الاستعداد للهجرة. وقد تميز الخطاب القرآن بالتنوع في هذه المرحلة:

- التركيز في البداية على محور المعاد (الترغيب والترهيب) لموجهة الضغوط القاسية التي مارسها عليه مشركو مكة بمجرد خروجه من الحصار، وأيضا لمواجهة لجوئهم إلى صد الناس عنه في الأسواق وتحذيرهم منه، وفي نفس الوقت العمل على بيان تهافت منطق مشركي قريش وفساد معتقداتهم.

- التوجه بنوع من الخطاب جديد إلى جماعات المسلمين الذين أخذوا في التكاثر بين القبائل العربية "في أطراف الأرض" (خارج مكة)، خطاب تشريعي أخلاقي يشرح ما ينبغي أن يكون عليه سلوك "عباد الرحمان" : ما يجب أن يتحلوا به، وما ينبغي أن يجتنبوه في سلوكهم الفردي والاجتماعي الخ. لقد "أفلح المؤمنون" وأخذوا يكونون جماعات هنا وهناك، وقد حان الوقت للتأكيد لهم أن السلوك الأخلاقي (إتيان الفضائل وتجنب الرذائل) ليس ثمرة للعقيدة فحسب، بل هو أساس لها وغاية.

ثالثا- الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي؟

إذا كان "الإيمان" هو المدخل الأول في كل عقيدة، فإن الإيمان في الإسلام ليس مجرد تسليم أو تقليد بل هو مرتبط بما يجعله سلوكا أخلاقيا في الدرجة الأولى. وهكذا فإذا نحن حاولنا استقصاء الأماكن التي ذكر فيها الإيمان في القرآن لوجدناه مقرونا دوما، صراحة أو ضمنا، بالعمل الصالح (إتيان الفضائل) أو بالتقوى (تجنب الرذائل)، وذلك في كل مرة يذكر في سياق استحقاق الثواب في الدنيا كما في الآخرة. من ذلك قوله تعالى، في موضوع استحقاق الثواب في الدنيا: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" (الأعراف 96)، وقوله في موضوع استحقاق الثواب في الآخرة : "إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (لقمان 8-9). وقد جعل القرآن

استحقاق القرب من الله مشروطا، أو على الأقل مقرونا، بالتقوى والإحسان : "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" (نوح 128)، ونبّه إلى أن هؤلاء قليل عددهم، "وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ" (ص 24). أمّا وكثير من الناس في عداد البغاة؛ فهل يعقل أن يساوي الله بين الفريقين : "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص 28)؟

هذا كمبدأ عام يتكرر في القرآن المكي والمدني على السوء. وفي إطار هذا المبدأ العام يمكن التمييز، من زوايا مختلفة، بين مراحل في دعوة القرآن إلى التحلي بالفضائل الأخلاقية وتجنب الرذائل. وذلك لما أبرزناه من كون القرآن نزل مفرقا حسب مقتضى الأحوال وفي مقدمتها الظروف التي عاشها النبي والمسلمون خلال مرحلة الدعوة في مكة، حيث كانت الأوامر الأخلاقية تقوم مقام شريعة الدولة، (أي ما نسميه اليوم بـ "القانون")، وبالتالي لم يكن هناك فصل بين العقيدة والأخلاق، بين الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا كانت المراحل التي ميزنا بينها في القرآن المكي على مستوى خطاب العقيدة يندرج فيها هي نفسها خطاب الأخلاق. ومع أننا قد نبهنا إلى الجانب الأخلاقي في هذا الخطاب ونوهنا به خلال جميع مراحل مسيرتنا، فقد ينبغي، هاهنا، القيام بعرض إجمالي مستقل للقيم الأخلاقية التي نوه بها القرآن المكي جملة، مركزين هذه المرة على نوعية المخاطَب. وسيتضح للقارئ كيف أن هذه القيم الأخلاقية إنما تجد مضمونها وأسباب كونها من خلال ربطها بمسيرة الدعوة.

ثلاثة أطراف يتجه إليها الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي: النبي وصحبه (أوائل المسلمين)، الملأ من قريش، أهل المواسم والأسواق (والمجتمع الإسلامي الذي بدأ في التكون).

1- الأخلاق في الخطاب الموجه إلى النبي وصحبه.

أ- الحث على الصبر...

يتجه الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي، أول ما يتجه، إلى النبي وصحبه يدعوهم إلى التحلي بجملة من الصفات الخلقية التي تقتضيها مستلزمات الدعوة في كل مرحلة. وأول قيمة يركز عليها هي "الصبر". فعلا، لقد ورد التنويه بـ"الصبر"، في القرآن المكي، بوصفه القيمة الأخلاقية الأولى على أربعة أوجه: الأول دعوة النبي عليه السلام إلى الصبر على ردود أفعال

المكذبين لنبوته، والثاني: دعوة المؤمنين (أعني الأوائل منهم الذين استجابوا للدعوة)، إلى التحلي به إزاء ضغوط الملأ من قريش وعسفهم، والثالث: الإشارة إلى مواقف الصبر لدى الأنبياء السابقين إزاء المكذبين لهم من أقوامهم بهدف استخلاص العبرة، والرابع : امتداح الصبر بوصفه خصلة من خصال المؤمنين بوصفهم يشقون طريقهم إلى تكوين مجتمع إسلامي.

- دعوة النبي إلى الصبر.

وردت أول آية تدعو النبي إلى الصبر في سورة المدثر وهي الثانية في ترتيب النزول، وهي قوله تعالى : "وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (2 المدثر7)[3] وذلك عندما دعاه ربه إلى القيام بتبليغ الدعوة بعد انقطاع الوحي عنه مدة، ("يأيها المدثر قم فأنذر...")، وكان قد لقي متاعب ومشاق وتعرض للاستهزاء والتكذيب عند الإعلان عن نبوته. وعندما استؤنف الوحي وشقت الدعوة طريقها وتكاثرت اتهامات مشركي قريش له بالجنون والسحر وافتراء القرآن الخ، نزلت آيات تدعوه إلى الصبر "على ما يقولون"، منها قوله تعالى "فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب (33 ق 39)، و"اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (38 ص17)، و"فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا..." (45 طه 130)[4]. وفي هذا الإطار نفسه، وكرد على المكذبين الذين اتهموه بافتراء القرآن من عنده، وبعد أن جاءه الوحي بأخبار صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم وقص عليه وعلى قومه تفصيل ذلك، خاطبه تعالى بقوله: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (50 يونس 109)، وأيضا : "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (51 هود 49)، وقد تكرر امتداح الصبر في آية لاحقة من هذه السورة في قوله تعالى "وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (51 هود 115)، كما في آيات من سور أخرى مثل قوله تعالى : "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (52 يوسف 90).

---

3 - الرقم السابق لاسم السورة يشير إلى موقعها على صعيد ترتيب النزول الذي عملنا به، وأما الرقم الذي بعدها فهو رقم الآية.

4- المقصود بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: الصلاة كما كانت في العهد المكي: ركعتان في الصبح وركعتان في المساء.

وعندما صدر إليه الأمر بـ"الصدع" بالدعوة في الأسواق والمواسم، ولم يكن قد لقي استجابة تذكر في المرحلة الأولى، نزلت آيات تدعوه إلى الصبر كما صبر الرسل من قبله. قال تعالى: "وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ" (54 الأنعام 34)، وقال على لسان لقمان: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (56 لقمان 17). وفي المدة التي فرض عليه الملأ من قريش العزلة والإقامة الإجبارية في شعب أبي طالب (الحصار)، نزلت في بدايتها آيات تدعوه إلى الصبر وتؤكد له أن مشركي قريش سينالون جزاءهم حتما، إما قبل وفاته أو بعدها: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ" (59 غافر77)، أما عندما أشرف الحصار على التفكك والانحلال فقد جاءته الدعوة إلى الصبر مرفوقة بما يوحي بأن الحصار في طريقه إلى الانهيار: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (لمشركي قريش) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ (من هزيمة، أو عذاب) لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. بَلَاغٌ! فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ" (65 الأحقاف 35).

وعندما خرج عليه السلام من الحصار واشتد عليه أذى الملأ من قريش، بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة، خاطبه تعالى بقوله : "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا" (69 الإنسان، 24). وكانت قريش قد بعث إلى اليهود بيثرب تطلب منهم أسئلة يختبرون بها صدق نبوته عليه السلام فأجابتهم بأن يطلبوا منه خبر "الفتية" المعروفين بـ "أصحاب الكهف"، وهم فتية كانوا من الموحدين فروا من ضغوط قومهم فدخلوا كهفا وناموا فيه أزيد من ثلاثمائة سنة الخ، فنزلت سورة الكهف تقص أخبارهم ثم ختمت بلفت نظر النبي عليه السلام إلى ضعفاء المسلمين، الذين كان كبراء قريش يشترطون عليه طردهم للجلوس معه والاستماع إليه. قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" (70 الكهف 28)، وقوله: "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ" (76 الطور 48). وتكررت عبارة "صبر جميل" في القرآن، ومنها هذه الآية التي تخاطب النبي عليه السلام: "فَاصْبِرْ

صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا" (79 المعارج 5-7). والمقصود بـ"الصبر الجميل" هنا عدم الاستعجال، والاطمئنان إلى أن وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، وهو أقرب مما يظن المستعجلون؛ ولكن عليهم أن لا يقيسوا "الزمن" الإلهي بالزمن البشري. ويقول: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا" (84 المزمل 10)، والمعنى "انشغل بما أنت فيه ولا تهتم بهم" وكان عليه السلام يستعد للهجرة إلى المدينة. وفي هذا السياق نزل قوله تعالى: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" (87 الروم 60) والمعنى احترس من الوقوع تحت تأثيرهم فتهاجر قبل الأوان انسياقا مع استعجالهم إياك".

- دعوة المؤمنين إلى الصبر.

أما دعوة المؤمنين إلى الصبر في القرآن المكي، فقد وردت هي الأخرى في عدة صيغ لعل أهمها: التواصي بالصبر؛ وقد ورد هذا أول مرة في سورة العصر: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (10 العصر 1-3). ثم في سورة البلد التي حُدِّدت فيها الخصال التي تمكن الإنسان من "اقتحام العقبة" (تجنب المصير إلى النار) مع اشتراط أن يكون الراغب في ذلك "مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" (34 البلد 17). وحينئذ يكون جزاؤه الإقامة في الطابق الأعلى وفاقا مع قوله تعالى: "أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا" (43 فاطر 75)، وقوله: "إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ" (51 هود 11)، وقوله: "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (60 فصلت 35)، وقوله: "وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (61 الشورى 43).

كما ورد في قصص الأنبياء ما يقدم المثل على أهمية التحلي الصبر. من ذلك قوله تعالى على لسان سحرة فرعون لما آمنوا بموسى وهددهم فرعون بالقتل: "قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ" (39 الأعراف 125-126)، وقوله: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (39 الأعراف 128)، وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" (39 الأعراف 137).

وورد الحث على الصبر خلال الظروف الصعبة التي أمر فيها المسلمون بالهجرة إلى المدينة ومطاردة قريش لهم: ففي هذا الإطار وردت الآيات التالية: "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (71 النحل 41-42) وفي ما يشبه أن يكون خطابا لوفد يثرب الذين عاهدوا الرسول في العقبة نقرأ: "وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل 95-96). وفي الموضوع نفسه: "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (71 النحل 110) وفي خطاب للمسلمين الذين كانوا يلحون على الثأر لمن قتلت منهم قريش إثر مطاردتها لهم لمنعهم من الهجرة إلى يثرب قال تعالى : "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" (71 النحل 126- 127) وفي جواب الرسل على أقوامهم الذين كذبوهم نقرأ قوله تعالى على لسانهم : "وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ" (72 إبراهيم 12). ويقول تعالى في المؤمنين عندما ينعمون بالجنة في الآخرة : "إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ" (74 المؤمنون 111)، ويقول في أهل يثرب الذين آمنوا ونصروا وآووا المهاجرين إليهم : "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ[22] (العقبى المحمودة في الدار الآخرة): جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ[23]، (يقولون لهم) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ"[24] (85 الرعد 22- 24). وفي المهاجرين إلى يثرب يقول تعالى عنهم "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (88 العنكبوت 58-59).

- دروس في الصبر في قصص الأنبياء

وفضلا عن الخطاب المباشر، الموجه إلى النبي وصحبه أو إلى الملأ من قريش، يوظف القرآن المكي في جداله مع المشركين قصص الأنبياء، فيؤكد أن ما يتعرض له النبي عليه السلام من التكذيب والعناد من طرف مشركي قريش قد تعرض له الأنبياء السابقون، فصبروا وواصلوا الدعوة حتى انتصروا. وهكذا فابتداء من سورة "ص" ينتقل الخطاب القرآني إلى نوع جديد من القصص. ذلك أن القصص قبل هذه السورة كان يدور حول محور واحد هو الهلاك والدمار الذين انتهى إليهما "أهل القرى" المكذبون لرسلهم. أما ابتداء من سورة "ص" وسورة الأعراف، اللتين تدشنان مرحلة جديدة في مسار التنزيل بمكة (شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام)، فالخطاب الأخلاقي في الذكر الحكيم سيتجه إلى دعوة الرسول وصحبه إلى استلهام تجارب الأنبياء السابقين، والمذكورين في التوراة تحديدا. وهكذا فالأمر بالصبر لم يعد أمرا مجردا مطلقا بل لقد صار يحمل معه إشارات إلى تجارب سابقة برهن الصبر فيها على أنه الوسيلة الفعالة في مواجهة أذى الخصوم والانتصار عليهم.

وهكذا تضع سورة "ص" تجربة النبي داوود أمام أنظار الرسول والمسلمين فتبين لهم كيف أن الله سخر له الجبال وأتاه ملكا وحكمة وفصل الخطاب، وإذن فما عليهم إلا أن يصبروا حتى تأتيهم القوة والنصر. يقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" الخ، (38 ص17-24). وتأتي سورة الأعراف بعدها مباشرة لتنقل إليه عليه السلام وصية موسى لأصحابه ووعده إياهم بالنصر : "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأرض لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (39 الأعراف 128)، وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" (39 الأعراف 137). ويقول عن المؤمنين من قوم موسى: "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" (75 السجدة 24)... وتواصل السور التالية التذكير من حين لآخر بدروس قصص الأنبياء مما لا ضرورة لإعادة القول المفصل فيها هنا.

ب- الحث على العناية باليتامى والفقراء والمساكين...

وأما القيمة الأخلاقية الثانية التي أكد عليها الذكر الحكيم منذ أوائل السور فهي العناية بالمستضعفين من يتامى وفقراء ومساكين الخ. وكانت

سورة الليل أولى السور التي طرحت قضية هؤلاء، وذلك بأن صنفت أعمال الإنسان على كثرتها وتنوعها واختلافها إلى صنفين. يقول تعالى: "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى "وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى" (6 الليل 1-11).

وفي الموضوع نفسه، موضوع الإحسان إلى الفقراء، تؤكد سورة "الفجر" ضرورة رعاية اليتامى والاهتمام بالفقراء وتجنب الجشع والجري وراء المال... وفي خلال ذلك تشير السورة إلى طبع قبيح في "الإنسان"، والمقصود أغنياء قريش، وهو افتخارهم في حال اليسر بأن الله قد أكرمهم، وشكواهم في حال العسر من أن الله قد أهانهم. وتوضح السورة أن الأمر ليس كذلك، وأن حقيقة الأمر هو أنهم يجازون على أعمالهم : ذلك أنهم لا يكرمون اليتامى ولا يطعمون المساكين، بل يأكلون حقهم وحق اليتامى في الإرث، ويحبون أن يكون المال لهم وحدهم. يقول تعالى: "فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ! كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (جامعا)، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (7 الفجر 15-20).

وردا على خصوم الدعوة المحمدية الذين شمتوا في النبي عندما غاب عنه الوحي مدة فقالوا له إن ربك قد قلاك وتخلى عنك، الشيء الذي أثر في نفسه عليه السلام، فنزلت سورة الضحى بما يسليه ويثبت فؤاده، فأكدت له أن الله ما ودعه وما قلاه، وذكرته بأن الله هو الذي آواه عند عمه أبي طالب، وهو صبي يتيم من جهة وأبيه وأمه، وهداه عندما ضل الطريق إلى جده عبد المطلب وهو طفل صغير، ثم لما كبر أغناه بمال خديجة التي عرضت نفسها عليه فتزوجها وصار ميسور الحال. وبما أن ما عاناه في طفولته لم يكن أحوالا مقصورة عليه وحده إذ هناك دائما يتامى وفقراء وميسوري الحال فإن عليه أن يستخلص العبرة : "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ (النبوة) فَحَدِّثْ" (8 الضحى 1-11). وتنزل سورة الشرح لتكمل سورة الضحى، فتذكره بأن الله قد أزال القلق الذي جثم على قلبه بسبب انقطاع الوحي عنه، ووضع عنه الهم الذي كان يثقل كاهله نتيجة شماتة قريش، وذلك بأن جعل الوحي يعود إليه ويستأنف الدعوة مرفوع الرأس أمام المستهزئين الشامتين.

قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ". ثم توجهه السورة إلى العبرة التي يجب استخلاصها من هذه التجربة وهي : "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" (9- الشرح 1-8)، الشيء الذي يستوجب التحلي بالصبر.

وتنزل سورة العصر لترتفع بخطاب "العسر واليسر" من مستوى "الخاص" إلى مستوى "العام". لقد كان خطاب الصبر من قبل خاصا بتجربة الوحي وما عاناه النبي خلالها من مشاق ومتاعب، أما الآن مع "سورة العصر" فالخطاب حول الصبر يطرح على مستوى "العام"، مستوى "الإنسان" بدون تعيين. يقول تعالى: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (10 العصر1-3). إن هذا يعني أن الصبر وحده لا يكفي، ذلك أن الاقتصار على الصبر وحده يجعل منه قيمة سلبية. إنه : استسلام للواقع. ومن أجل أن يتحول الصبر إلى قيمة إيجابية، يتم بها الانتصار على الواقع المفروض، وبالتالي الانتقال من "العسر إلى اليسر"، لابد من قيم أخرى حددتها الآية السابقة في أربعة: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق (الثبات على المبدأ)، والتواصي الصبر (تحمل تبعات الثبات على الحق). ومع أن الخطاب، هنا، عام في صيغته فهو – باعتبار المناسبة والسياق- خاص في مضمونه. إنه خطاب لصحابة النبي الأوائل، الذين آمنوا برسالته. لقد كانوا في جملتهم فقراء ومستضعفين، وكانوا يتعرضون لأذى قريش، يعيشون في عسر مادي ومعنوي. وهكذا فلكي يتغلبوا على حالة العسر: عليهم أن يعملوا "الصالحات"، والعمل الصالح يشمل التضامن والتكاتف الخ، وعليهم أن يتواصوا بالحق: يوصي بعضهم بعضا بالتمسك بالحق (وهو هنا العقيدة موضوع الدعوة) كما أن عليهم أن يتواصوا بالصبر على أذى قريش.

وكما ربطت سورة العصر بين الإيمان وبين العمل الصالح الذي يأتي في مقدمته إطعام المسكين وإكرام اليتيم، تربط سورة الماعون ربطا واضحا بين التكذيب بالدين وبين قهر اليتيم والبخل على المسكين. وأكثر من ذلك تتهدد السورة الذين لا يكذبون بالدين بلسانهم، ولكنهم لا يعتبرون مغزى الصلاة وجوهرها، فتراهم يظهرون إقامتها رياء، ويبخلون بالمال والماعون، فلا يكرمون اليتيم ولا يطعمون المسكين. يقول تعالى: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (عن معزاها): الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ" (كناية عن البخل بالطعام) (14 الماعون 1-7).

2- خطاب الأخلاق الموجه للمشركين...

أ- الحق مقابل الظن ...

تلك هي القيم المركزية التي سادت في الخطاب القرآني في المرحلة التي كان هذا الخطاب مقصورا، أو يكاد، على التوجه إلى النبي عليه السلام، يسليه ويؤكد له أنه فعلا رسول من الله وأن عليه أن يقوم بتبليغ رسالته إلى الناس، نذيرا وبشيرا، وأن يصبر على ما يتعرض له من أذى في سبيل ذلك. وفي هذه المرحلة كان قد آمنت به جماعة من الناس جلهم فقراء ويتامى، فكان لا بد أن يهتم الخطاب القرآني بهم ويحث على إطعام المسكين وإكرام اليتيم.

أما مشركو قريش فالقرآن يدعوهم إلى الإيمان وفي نفس الوقت يطالبهم بالتخلي عن أنواع السلوك غير الأخلاقي الذي اعتادوه. وأما ما يتصف به بعضهم من مكارم الأخلاق، فهو لا تستحق التنويه ما دام مقرونا بعبادة الأصنام وباعتقادات لا يؤسسها سوى "إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون". وهكذا نقرأ في سورة النجم، -وهي أول سورة قرأها النبي عليه السلام جهارا في الكعبة وكبار قريش يستمعون -خطابا مباشرا موجها إلى هؤلاء يؤكد على جملة من القيم، أبرزها قيمة "الحق" أو "الحقيقة" في مقابل "الظن". ذلك أن قريشا يعبدون أصناما (اللات والعزى ومناة...) يجعلونها شركاء لله يعتقدون أنها تقربهم إليه وتشفع لهم الخ، وهي في الحقيقة مجرد أسماء لا شيء يستند إليه اعتقادهم فيها غير الظن: "إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى"(22 النجم 23). وعلى الظن كذلك يستندون في اعتقادهم بأن الملائكة بنات الله، فيطلقون عليها أسماء الإناث : "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" (22 النجم 27-28).

ب- الجزاء والمسؤولية الفردية: لا تزر وازرة وزر أخرى.

ثم تطرح السورة مسألة الجزاء يوم القيامة حيث يُجزي الله "الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى"، ثم تشرح أخلاق الذين أحسنوا بكونهم "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ"، وأما الذين أساؤوا فقد مثلت لهم السورة بأحد أغنياء قريش الذي أبرم اتفاقا مع رجل على أن يتلقى عنه نصيبه من العذاب في الآخرة مقابل مبلغ من المال يدفعه له ما دام حيا، لكنه لبخله "أكدى" توقف عن الدفع. ففي إطار التمثيل بهذا الرجل

طرحت السورة مسألة المسؤولية الفردية وهي قيمة أخلاقية وقانونية ستتكرر في القرآن غير ما مرة. قال تعالى: "أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (أمسك)، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى" (22 النجم 34-41).

ج- *الخلاص: فك رقبة، إطعام مسكين، اكرام يتيم ...*

وتأتي سورة البلد لتؤكد أن اجتياز "العقبة" بنجاح، عقبة الحساب، وبالتالي النجاة من الوقوع في جهنم، يتطلب شروطا تأتي على رأسها قيمة أخلاقية وقانونية: هي قيمة أخلاقية لأنها قيمة إنسانية عامة، وهي قانونية لأنها في الإسلام "كفارة" تمحي ذنوبا معينة، وهي "فك رقبة" أي تحرير عبد أو أمة، الشيء الذي يؤكد حق الإنسان في امتلاك جسده خاصة، وما يحصل عليه بما يبذله هذا الجسد من جهد. ذلك هو الشرط الأول في اجتياز "العقبة"، ويقوم مقامه في حالة عدم وجود عبد لتحريره، إطعام اليتيم أو مسكين في زمن المجاعة. بعد ذلك يأتي الشرط الثاني، وقد سبق التأكيد عليه بوصفه الأساس الذي يحكم العلاقات الاجتماعية، وهو الإيمان بالرسالة المحمدية والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة: "فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوصَدَةٌ" /لا يغادرونها أبدا (35 البلد 11-20).

3- الأخلاق في الخطاب المكي الموجه إلى جماعة المسلمين.

والحق أنه إذا كان "الصبر" قيمة أخلاقية وفضيلة سلوكية، مطلوبة في كل وقت، فإنه يجب أن لا يعزب عن بالنا أن الدعوة إلى الصبر في القرآن المكي، لها بعد خاص، وهو مواجهة ضغوط مشركي مكة وعسفهم وأنواع أذيتهم التي بلغت القتل والتخطيط للتصفيات الجسدية، مواجهة ذلك كله بالتحلي بالصبر وعدم اللجوء إلى رد الفعل باستعمال العنف أيا كانت درجته أو نوعه. تذكر مصادرنا أن المسلمين كانوا يطلبون باستمرار من الرسول عليه السلام أن يسمح لهم بمواجهة عدوان قريش وأذياتهم بما يردعهم، فكان عليه السلام يمنعهم باستمرار ويوصيهم بالصبر. فالصبر في القرآن المكي ينصرف في

غالب الأحيان إلى تحمل أذى الملأ من قريش بثبات، وتجنب العنف، والتأكيد على النهج السلمي للدعوة. وذلك تنبيها إلى من كان من الصحابة المظلومين المضطهدين يفكر في اغتيال رجال من الملأ من قريش خصوصا منهم الذين قتلوا المسلمين الضعفاء ومثلوا بهم... وقد يبين القرآن أن ذلك ليس من خصال عباد الرحمان ولا من صفات المؤمنين!

- *خصال عباد الرحمان*

وهكذا فحينما كان الرسول عليه السلام يواجه ضغوطا قاسية من الملأ من قريش، وهو يخوض معهم معركة شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، نزلت سورة الفرقان لتبين للملأ من قريش أن الرحمان أحق أن يعبد، لا الأصنام التي لا ترى ولا تسمع، فكان ردهم أنهم لا يعرفون الرحمان. قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ وَزَادَهُمْ نُفُورًا"! وقد رد عليهم بأن الرحمان أكبر من أن يشككوا فيه بتساؤلاتهم ونفورهم، قال تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي (الرحمان) جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا" (42 الفرقان 60- 62). فإذا أرادوا معرفة الرحمان فيكفيهم أن ينظروا إلى نظام الكون وانتظام حركته، وعليهم أن ينظروا أيضا إلى الخصال الكريمة الفاضلة التي يأمر عباده بالتحلي بها، هل يمكن أن تصدر عن إله غيره! قال تعالى:

- "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا،

- وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا،

- وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا،

- وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا،

- وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا،

- وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا،

– وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا،

– قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (ادعاؤكم أن له شركاء) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ، فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا" (عقاب هذا الكذب)، (الفرقان 63-77)[5].

– *الطيبات من الرزق، والفواحش*

وعندما اتجه النبي بالدعوة إلى وفود القبائل العربية في مواسم مكة وأسواقها أخذ خطاب الأخلاق في القرآن المكي يتحدث إليهم، مستحضرا مقتضى أحوالهم وأسلوب معيشتهم، وبكيفية عامة معهودهم الحضاري العام، فأبرز فيهم صفات وعادات أبعد ما تكون عن خصال عباد الرحمان. وهكذا نقرأ في سورة "الأنعام" التي يشير اسمها إلى بيئة مخاطبيها: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ (محجورة) لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا (لا تركب)، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا (بل يذكرون أصنامهم) افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ (المحرمة أي ما ستلده) خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ (وأدوا بناتهم خوف الفقر أو العار) سَفَهًا (جهلا) بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ".

5- سبق أن بينا في التعليق على السورة أن مسليمة الحنفي من شرق الجزيرة كان قد تنبأ وسمى إلهه الرحمان، وأن رفض قريش لهذا الاسم قد يرجع إلى التنافس القبلي التاريخي بين "مُضَر" سكان غرب الجزية و"ربيعة" سكان شرقها، وإذن فقد جاء القرآن ليغير هذا التأثير القبلي على تصور قريش لـ"الرحمان"، فجعل الرحمان أحد أسماء الله الحسنى، فأوضح أن عباد الرحمان لا يتحددون بالجغرافيا أو بالتاريخ أو بالانتماء القبلي بل يتميزون بخصال عالية، فقدمت ما يشبه أن يكون دستورا في الأخلاق للمسلمين. قسم منه يخص علاقة الإنسان مع الله، وقسم يتناول علاقة الناس بعضهم ببعض.

وبعد أن عددت السورة أنماطا من عاداتهم في التحليل والتحريم وشجبتها، أمرت النبي عليه السلام أن يبين لهم ما حرم الله عليهم ليجتنبوه وبذلك يلتحقون بعباد الرحمن. قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ :

- أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،
- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا،
- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ،
- وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ،
- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ،

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ،
- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا،
- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى،
- وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا.

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ...

ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأنعام 136– 153).

واضح أن جل هذه الوصايا، إن لم يكن كلها، يترتب على من لا يعمل بها ويعمل عكس ما توصي به، عقاب في الدنيا قبل الآخرة، ولكن منهج قرآن الدعوة يقضي بالتعامل مع الناس من منظور يختلف عن منظور "الثأر" واستعمال العنف. إن مجتمع الدعوة تحكمه سلطة الأخلاق، سلطة الضمير لا سلطة "الجريمة والعقاب".

- منهاج الدعوة: التسامح ... الشورى، ادفع بالتي هي أحسن.

وتأتي مرحلة الحصار الذي فرضه عليه الملأ من قريش في شعب أبي طالب في الجبل المطل على مكة –وكأني به عليه السلام يتأمل من هناك في الوضعية التي فرضت عليه ظلما وعدوانا فينتابه ما ينتاب الكائن البشري في مثل هذه الأحوال من الشعور بالظلم، وبالتالي التفكير في رفعه بأية وسيلة، وأبسطها مغادرة المكان، وليكن ما يكون- وإذا بسورة فصلت تنزل لتسليه وتثبت فؤاده وتذكره بمصير المكذبين المعرضين، وبمآل المؤمنين وتدعوه إلى المقارنة بينهما ثم تضيف متسائلة متعجبة: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ[33]؟! ثم تعرض قاعدة أخلاقية من أسمى السلوك الأخلاقي: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[34]. وما يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"[35]. وتضيف: "وَإِمَّا (إنْ ما) يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إن يصرفك عن التي هي أحسن ويزين لك الانتقام مثلا)، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[36] (انظر سورة فصلت، رقم 60. التعليق).

وتأتي سورة الشورى مباشرة، لتؤكد مضمون نفس "الأمر الأخلاقي" في صيغة أوسع وأشمل: يقول تعالى مخاطبا نبه الكريم: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على الدعوة التي أقوم بها) أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ"[23]. فإن امتنعتم فاعلموا أنه : "فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى". وما عند الله هو "لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ".

وتواصل السورة (الشورى) تعداد صفات المؤمنين فتوصي بالتسامح، والنبي ما زال في الحصار". يقول تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (61 الشورى 36-43). المبدأ "القانوني" يقوم على "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" لكن المبدأ الأخلاقي يقوم على العفو والتسامح، على الصبر والمغفرة على: "فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ".

- الوفاء بالعهد... والدعوة بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن.

وينحل الحصار ويدخل الرسول عليه السلام "سنة الحزن" على وفاة زوجته خديجة وعمه أبي طالب، مع ما تلا ذلك من خيبة أمله في أهل الطائف الذين ذهب يطلب النصرة منهم، ومن استئساد الملأ من قريش عليه، نتيجة ذلك كله، حتى إذا تجاوز عليه السلام هذا الظرف الصعب تجند لاستئناف الدعوة في المواسم والأسواق بسلوك إستراتيجية جديدة تقوم على الاتصال، في هدوء، بأصحاب الحل والعقد في الوفود. وسرعان ما أثمرت هذه

الاستراتيجية: فقد حصل لقاء، بمناسبة الحج، مع وفد من الخزرج، قادما من يثرب يطلب حليفا، فعرض الرسول نفسه عليهم فاستجابوا وأسلموا ووعدوا بعرض المسألة على قومهم عند عودتهم، وهكذا فتحت الأبواب أمام الدعوة المحمدية إلى يثرب التي أسلم أهلها وهاجر إليها بعض المسلمين فتكونت الجماعة الإسلامية فيها على أساس عقد البيعة. وتنزل سورة النحل لتمد الرسول بالتوجيه الضروري في هذه المرحلة فتخاطب المتعاقدين، النبي وأهل يثرب، (والخطاب موجه أساسا إلى هؤلاء). يقول تعالى: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ (ما تعهدتم به) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (حيث حلفتم به)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا[6]، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (فسادا وخديعة) بَيْنَكُمْ (بسبب) أَن تَكُونَ أُمَّةٌ (قبيلة أو مجرد جماعة) هِيَ أَرْبَى (أقوى) مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [7]. وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ (بصدودكم) عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، إِنَّمَا (إن ما) عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ، وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ. وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (71 النحل 91-97).

وتختم السورة بالتوجه للرسول والمؤمنين بهذا الخطاب : "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم (أصحاب الأسواق والقبائل) بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

6- جمع نكث، من نكث العهد إذا لم يوف به. يقال: كانت بمكة امرأة تغزل في الصباح لزبون بسعر، فإذا جاءها بعده زبون بسعر أغلى نقضت عهدها ورمت بما غزلته وبدأت تغزل للزبون الجديد، وإذا جاء ثالث فعلت الشيء نفسه، وهكذا يكون عملها سلسلة من نكث العهد، بدون فائدة لها ولا لغيرها. وكانوا يفعلون مثل هذا يتحالفون مع جماعة فإذا جاءت أخرى أقوى نكثوا عهدهم مع الأولى وتحالفوا مع هذه. وهذا ينطبق أكثر على القبائل.
7 - قال بعضهم معنى : "يضل من يشاء" : يضل الله الشخص الذي شاء الضلال واختاره، مثل الذي اختار عبادة صنم معين.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[8]. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش لكونهم لا يؤمنون)، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" (71 النحل 125–128).

حكمة بالغة: أوامر ونواه

وباقتراب هجرة النبي إلى المدينة حيث يشكل اليهود قسما كبيرا من سكانها تنزل سور الإسراء التي تسمى أيضا بـ *"سورة بني إسرائيل"* لكونها تحدثت عنهم طويلا. لقد ذكرتهم بهجوم الأشوريين عليهم واستيلائهم على بيت المقدس، وسبيهم ونفيهم إلى أرض بابل بسبب تمردهم على أوامر الله، ثم تذكرهم بالوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى لتكون أساس شريعته. وتورد هذه السورة مضمون هذه الوصايا وكانت قد قررتها سور سابقة ضمن الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي. قال تعالى:

– "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،

– وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ: إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا.

– وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ (ذوي القربى الخ) ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.

– وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ...

– وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا.

8– فسر معظم المفسرين هذه الآية بأحداث وقعت بعد الهجرة. وفي رأينا أنه ليس هناك ما يبرر هذا النوع من التفسير فالسورة مكية وسياق الآية منسجم مع ما قبلها وما بعدها والخطاب واقع تحت قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"... ثم إن احتمال حدوث نزاع بين المسلمين ومشركي مكة أو مرتادي المواسم والأسواق احتمال قائم.

– وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا.

– وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.

– وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا.

– وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا.

– وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا" (86 الإسراء 23– 39)

وتستعيد سورة الروم حق ذي الْقُرْبَى وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ مؤكدة أن البخل به لا ينمّي المال، كما أن الربا لا يزكيه، وإنما الذي يزكي المال ويزكيه هو الإنفاق على الفقراء والمساكين الخ، يقول تعالى: "فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ "(87 سورة الروم 38– 39).

– التعامل مع أهل الكتاب

وفي سورة الحج التي هي آخر سورة نزلت بمكة –حسب ترتيبنا– والرسول يتهيأ للهجرة إلى المدينة، أو هو في طريقه إليها، نزل قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج 17)[9]. واضح أن هذه الآية تحصي الديانات التي كانت بجزيرة العرب زمن النبوة (وقبله وبعده) أي الديانات التي من المحتمل أن يحتك به المسلمون[10]. هي ديانات معترف بها، لأنها موجودة قائمة لا يمكن تجاهلها، وهي تتصل كلها من قريب أو بعيد بدين إبراهيم لأن أهلها يؤمنون بالله، لكن بعضهم يجعلون له

9– ستتكرر هذه الآية في القرآن المدني مرتين، مع بعض الاختلاف في الصيغة. وسنشير إلى ذلك في حينه.

10– أما غير هذه من الديانات البعيدة عن العرب فلم تكن تدخل في المفكر فيه لدى العرب يومئذ.

شركاء أو يؤمنون بإلهين اثنين أحدهما إله الخير والآخر إله الشر، هؤلاء جميعا سيفصل الله بينهم يوم القيامة، فيتبين من منهم على حق. أما في الدنيا فلها حق الوجود، ذلك لأنه "لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" (61 الشورى 8).

وهذا الاعتراف بالديانات الأخرى هو أهم ما يؤسس مفهوم التسامح في الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر، أما في القرآن المكي فهو مظهر واحد فقط من مبدأ الاعتراف بالاختلاف وبالتعدد. قال تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ" (51 هود 118)، وقال : "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (87 الروم 22).

رابعا- خاتمة: الآخرة من أجل الدنيا وليس العكس!

إذا كان لنا أن نستخلص من هذا العرض ما نختم به هذا القسم من الكتاب، فإننا لا نتردد في إعادة تأكيد من قررناه من قبل من أن العقيدة والأخلاق في القرآن كل واحد لا يتجزأ، بل إننا نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد ما صرحنا به من أن الأخلاق في القرآن المكي هي التي تؤسس العقيدة الإسلامية وهو ما يميزها عن غيرها من الديانات. لقد أبرزنا غير ما مرة أن المحاور التي يدور حولها خطاب العقيدة في القرآن ثلاثة: النبوة والتوحيد والمعاد، وأشرنا في تعاليقنا واستطراداتنا إلى أن ما يتميز به القرآن عن التوراة والإنجيل هو تركيزه على المحور الثالث: البعث والجزاء. أما إثبات النبوة والدفاع عنها وتأكيد "التوحيد" (إقرار وحدة الألوهية وشجب الشرك وعبادة الأصنام) فهما حاضران في التوراة والإنجيل حضورهما في القرآن، وقد أبرزنا ذلك بالنصوص[11]. لكن موقف كل من التوراة والإنجيل من المعاد (البعث والحساب والجزاء) أضعف كثيرا من موقف القرآن، بل هو غامض وضبابي.

ولا بد من التذكير هنا بما نبهنا إليه مرارا من أن خطاب الجنة والنار الذي تكرر كثيرا في القرآن المكي كان في آن واحد سلاحا وأخلاقا. أما كونه سلاحا فلتخويف المشركين من النار وحملهم على الطمع في الجنة، وأما كونه أخلاقا فلإشعار المؤمنين بأن الإيمان وحده لا يكفي بل لابد من خصال معينة

11- راجع الاستطرادين اللذين ختمنا بهما المرحلتين الثانية والثالثة، القسم الأول.

بينها القرآن وفي مقدمتها التقوى والعمل الصالح. أما التقوى فتعني تجنب الرذائل وأما العمل الصالح فيعني إتيان الفضائل.

ومن هنا يجب أن نتساءل: هل يصح القول باسم القرآن : "الدنيا من أجل الآخرة": من أجل الدخول إلى الجنة أو المصير إلى النار، كما درج على القول بذلك كثير الناس، "علماء وعامة"، في جميع العصور التي تلت عصر النبوة والخلفاء الراشدين، أم أن الأمر بالعكس من ذلك تماما، وهو أن الآخرة، أعني الجنة والنار، هما من أجل الدنيا، من أجل أن يسود فيها العدل، والتسامح، والسلام، والتواصي بالصبر والمرحمة، والدفع بالتي هي أحسن...

لقد جادل الملأ من قريش، كما رأينا، جدالا مريرا، حادا ومتواصلا، في موضوع إمكان البعث، لأن البعث يعني الجزاء، يعني المسؤولية. وإذن فالإيمان بالبعث والتسليم به، كان يعني تغيير سلوكهم بالتخلي عن كل ما هو غير مشروع في حياتهم، الاجتماعية والاقتصادية الخ. الجنة في القرآن ميدان للثواب على ترك الرذائل وإتيان الفضائل في الدنيا. أما النار فهي، بالعكس، ميدان للعقاب على إتيان الرذائل وترك الفضائل في الدنيا. فلولا عمل الإنسان في الدنيا لما كانت هناك جنة ولا نار، وعلى العموم: لولا الدنيا لما كانت هناك آخرة. وإذن فالآخرة من أجل الدنيا وليس العكس.

ذلك، فيما نعتقد، هو موقف القرآن المكي كما حاولنا فهْمَه وتفهُّمه وتفهيمه. ونحن نخص بالذكر، هنا، القرآن المكي وحده لسبب أساسي وهو أن الخطاب فيه موجه إلى جهتين فقط: الوعد للنبي وصحبه من جهة، والوعيد للمشركين من جهة أخرى، وليس فيه تنصيص على عقوبة في الدنيا يطبقها النبي أو غيره، لا على أصحابه المؤمنين بالدعوة، ولا على خصومه المحاربين لها. أما في المدينة فالأمر يختلف : هناك تعدد : مشركو مكة قبل فتحها، اليهود قبل جلائهم، المنافقون، القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، أصحاب الصفة وأصحاب المغانم، المستضعفون والمترفون... فهل ستختلف العلاقة بين الآخرة والدنيا بسبب هذا التعدد؟

سؤال لن يتأتى لنا الجواب عنه إلا بعد الفراغ من القسم الثالث من هذا الكتاب.



موضوعات في التعاليق والاستطرادات

نثبت فيما يلي لائحة بعناوين موضوعات التعليقات والاستطرادات التي ختمنا بها بعض السور في القسمين الأول والثاني من الكتاب

12- بعث الأرواح لا الأجساد وعذاب القبر(النازعات)،

13- إمكانية الحشر وعذاب القبر (الانفطار)..

14- أراء في الخلود وحشر الدواب والتناسخ (الانشقاق).

15- مسألة الروح (الإسراء).

16- مسألة الرؤية (المطففين).

17- الهجرة إلى المدينة (الحج).

فهرس القسم الثاني